رغم أنه كان في إمكانه أن يعيش في المدينة كأحسن ما يعيش الموسرون؛ إذ أن له أما كريمة تتفق عليه بغير حساب، مدفوعة بعاطفة الأمومة والتعويض، إلا أنه آثر أن يعيش في هذه القرية، في دار أمه القديمة، عيشة فيها شظف وعسر، وفيها مشقة من حين لآخر، لو لا أن يتداركه بعض الذين كان لأبيه عليهم فضل وإحسان. وكان في عيشته فوضى كذلك، تجعله كالمنفلت من أي ضبط أو إلزام أو التزام.

ليس عسيرا عليه أن يأخذ من مال أمه ما يشاء، وينفقه كيف يشاء، بلا حسيب أو رقيب، لكنه أثر أن يأكل من عرق الجبين وكد اليمين، حين يستعاض به عن أستاذة تفرغت للوضع، أو عن أستاذ ألزمه المرض الفراش شهرا أو شهرين، أو مما تعود به عليه يده حين تندس خفية في جيوب الآخرين الذين يحسنون الظنون به.. وأنى لهم أن يسيئوا به الظنون وهو الذي يحمل شهادة من أعرق جامعات "فرنسا". وهو مع هذا ليس لصا بل لاعب حظ، ومداعب للطيبين، الذي تخدعهم المظاهر.

وكم كان يفرح حين يستطيع أن يستل من جيوب المخدوعين –أو الطيبين كما تسميهم اللغة المخادعة– دنانير !..عندها يعد ذلك من بطولاته وانتصاراته، فيحكيه لخلصائه ومقربيه في اعتزاز. وقد ينتظر حتى يمر على فعلته الشهر أو الشهران، فيقصها على ضحاياه الطيبين، فيضحكون، ويطالبونه بالتعويضات مازحين.

ومهما يكن موقفك منه –إن كنت من الذين يتخذون موقفا من الناس من أول منكر يقترفونه، أو أول معروف يقعون فيه– فلا بد أن تعرف عنه حقيقة أخرى، انعدمت أو أوشكت أن تنعدم لدى كثير من خلق الله، وهي أنه ما يدخل المال إلا ليخرجه، وما يكسبه إلا لينفقه، وما يأخذه من جيوب سرا إلا ليدخله إلى جيوب جهرا مع بعض الفرح، وما يغتصبه إلا ليضعه في موضعه الحقيقي في أكف المعتوهين، وبين أصابع المعوزين، المتوزعين على الأرصفة والأزقة مثل أكوام القمامة، فيفرحون به، ويدعو له من مازال منهم على بقية من عقل تمكنهم من معرفة الخير، وتمييز المعروف والإحسان. أما بعضهم فيقبضون منه ما يعطيهم وهم يسبون ويلعنون الجميع. وقد يعدو خلفه بعضهم بعصا غليظة، أو يرميه آخرون بالحجارة والحصى، فيولي هاربا لا يلوي على شيء، وهو يغطي قفاه ببطن كفيه. وقد يراه بعض الناس على هذه الحال فيضحكون عليه، فلا يجد إلا الانضمام إليهم ضاحكا، وهو يقول:

–لهم الحق.. هم في حاجة إلى تنظيم ثوري للثورة على العقلاء، ولكنهم لن ينتظموا إلا عندما يتنازل كل واحد منهم عن نصيب معلوم من حريته، وحين يتنازلون عن الحرية يكونون قد تشوهوا وتواطأوا، وأية حرية هذه التي لا تنال إلى بالتنازل عن الحرية سلفا؟.. سيكون شأنهم حينها شأن من يطير الحمام ثم يجري وراءه. !!

ثم إنه ينصرف إلى حديث آخر دون أن يقدم له، أو يقبل على جماعة أخرى غير مسلم، كما انصرف عن أخرى غير مودع. وإنه ليعلم أنه من الدين واللباقة والأدب أن تودع من تترك مجلسهم، وأن تسلم مستأذنا على من تقبل على مجلسهم، لكنه لا يفعل شيئا من ذلك طوعا واختيارا، لا جهلا ونسيانا. حتى إذا لامه اللائمون وعنفوه، قال لهم وهو يحرك كتفيه تعبيرا عن عدم الاكتراث:

–إنها حريتي، تعبر عني وتتجلى في بكامل حريتها.

وفي كل الأحوال، فإنه يترك الجميع غارقين في الضحك والسخرية حينا، أو الحيرة، والإعجاب حينا آخر، وإنه ليس بالغاوي حتى يستفزه الضحك والسخرية، أو تستخفه الحيرة والإعجاب.

وإياك إياك أن تفرح به حين تراه وراء الإمام خاشعا أو متخشعا، وشفتاه ترتعشان بالذكر الصامت الندي، وعيناه ذابلتان خوفا وضراعة في حضرة الله. ثم إياك إياك أن تيأس منه حين تجده ذات ليلة ممطرة مبتلا كالكلب المنبوذ، تتقاذفه أرصفة الطرقات وهو لا يذكر حتى اسمه من أثر السكر، أو تسمعه يلعن بلسان فرنسي فصيح كل خلق الله.

إنه يهرع إلى الصلاة حين يكون راضيا مطمئنا، منسجما مع نفسه والحياة وأهل الحياة. ويلقي بنفسه في حضن أم الخبائث حين يكون قلقا مضطربا، متبرما بالحياة، ساخطا على أهل الحياة !. وقد أليف منه أهل قريته هذا التقلب، فصاروا يحبونه على أي وجه وجدوه أو رأوه، لأنه لا يفقد طيبته وصدقه وطفوليته.

ولو تدخل يوما ما غرفة نومه في دار أبيه القديمة، فإنك ترى ما يدهشك ويحير لبك، ويجعلك نهبا لمشاعر مضطربة، وأحاسيس مختلفة، وانفعالات متناقضة. وأول ما يشد نظرك هذه الرفوف المتراصة من الكتب السميكة والمجلدات الضخام، وما يليها من كتب ذات تغليف عادي، وما يلي هذه من كتب أصغر هي كتب جيب. وأغلبها روايات وقصص ودواوين شعرية –وهو له مساهمات في القصة والشعر على كل حال-. ويثير نظرك قصاصات الأوراق المتناثرة فوق طاولة النوم وتحتها.. وهذه الفوضى الشاملة التي توزعت على أرضية الغرفة؛ من علب مصبرات فارغة، إلى ألبسة قذرة، إلى جرائد كساها الغبار، إلى لعبة شطرنج تناثرت حولها البيادق والقلاع، إلى سجادة صلاة لم تنطبع عليها جبهته منذ أسابيع، إلى علب سجائر من مختلف الأنواع، إلى كرسي بثلاثة أرجل لا يمكن استعماله والاستفادة منه إلا إذا أسند إلى الجدار، إلى طاولة في الركن عليها دواوين شعر وروايات بالعربية والفرنسية، وعلى الجدار المقابل لمضجعه علقت صورة أبيه في إطار ذهبي باهت، بطريقة توحي بالإهمال وعدم الاهتمام، عليها غلالة رفيعة من الغبار، أعطتها عمقا وظلالا موحية لم تكن فيها بالأصل، زادت سنوات أخرى إلى العمر الذي كان قد عاشه أبوه. أما السرير فخشبي قديم، تحدث مفاصله صريرا حين يضطجع عليه، وحين يقوم، وحين يتقلب عليه أثناء النوم، ذات اليمين وذات الشمال، ويا لكثرة ما كان يتقلب هروبا من الكوابيس ووجوه الأشباح المخيفة !. تكدس عليه غطاء وفراش لم يرتبا منذ عهد بعيد، حتى صار لا يعرف فراشا من غطاء.!!

وسط هذه الفوضى يعيش، ينام ويستيقظ، يقرأ ويكتب ويمزق ما كتب، ويصلي ويشرب ويتقيأ ما شرب، ويفعل أمورا أخرى لا يحب أن يطلع عليها أحد غير الله، ويستقبل أصدقاءه غير معتذر لهم، ويودعهم غير آسف وغير شاعر بالحرج.. باختصار، وسط هذه الفوضى وهذا العبث يمارس حياته. ولا يذكر مطلقا أن نفسه قد حدثته بتنظيف هذه الغرفة، أو إعادة ترتيبها على الأقل. ربما لأنه يجد الانسجام مع ذلك كله، أو لأنه بذلك يريد أن يعكس حقيقة طالما اجتهد أهل القرية في إخفائها خلف المظاهر الخادعة وكلمات المجاملة التي تغطي بواطن الأدغال.

تعجبك فيه صراحته الجارحة، وتلقائيته المندفعة، وبساطته الطفلية، وحركاته البهلوانية التي لا يخجل أن يقوم بها حتى في ساعات الجد، ومقامات الانضباط أو التظاهر بالانضباط والوقار.

فلا تظن مطلقا أنه يعجز أن يرقص في جنازة، أو يغني في مأتم، أو يندب ويبكي في عرس !.. إنه يستطيع كل ذلك.. بل يستطيع أكثر من ذلك، حين يوحي إليه شيطانه بما هو أكثر من ذلك !. يفعله بتلقائية مدهشة عجيبة، دون أن يحمر له خد أو يندى له جبين.

ولهذا، فإنه لما اختفى عن أنظار الناس – وربما إلى الأبد- أحس الناس أن القرية قد أصابها الشلل، وهجرها الفرح، وأنها بفقده فقدت كثيرا من السعادة والبساطة، وصوحت فيها مواسم البراءة، وعادت إلى حياتها الميكانيكية المتكلفة، أو قل اكتشفت حياتها المكيانيكية المتكلفة.. وكم تصير الحياة سجنا رهيبا حين تجد نفسك مضطرا في كل لحظة أن تمشي وفق ما يريد الآخرون، وأن تقول ما يرضيهم

ولا يسخطهم، وأن تظهر بالمظهر الذي يعجبهم ولا يؤذيهم.. حينها تكون عيون الآخرين زنازن باردة، ويكون رضاهم قيودا من حديد، حتى ولو كان ذلك بالتراضي.

وكانت نقطة التحول في حياته حين اعتزل الناس، واختفى عن العيون ما يقارب الشهر أو يزيد عليه قليلا، لا يبرح غرفته مطلقا، فلا يجيب مناديا، ولا يرد على طارق، ولا يزور ولا يزار. وإنما انصرف إلى كتب يقرأها بنهم، وإلى سجائر يدخنها بشراهة، وإلى أوراق يسودها من أعلاها إلى أسفلها، بالعربية حينا، وبالفرنسية حينا، ثم يضعها على السرير، أو يلقيها مع أخريات على أرضية الغرفة، فتضيف إلى وجه الفوضى ظلالا شفيفة وإيحاءات تكاد أن تجعل لها عمقا ومعنى.

ما كان يعرف ليلا من نهار، ولا صبحا من مساء، فالنافذة مغلقة بإحكام، والأضواء مشتعلة على الدوام، والساعة الإلكترونية قدامه على الطاولة تعطلت على أربعة أصفار.

وذات ليلة ممطرة شديدة الظلام، عميقة الصمت، خرج في منتصف الليل، أو هكذا ظن، وراح يعدو تحت المطر في الأزقة والحارات، وهو يصيح مبتهجا كمن جاء يبلغ بشارة عن نبي يهز بها أسماع النائمين:

-يوريكا.. يوريكا.. يوريكا. !

فعرف جميع من سمع أنه هو، قد عاد إلى ضلاله القديم، فشعر بعضهم بالرضا، لأن صوته البسيط العميق ما زال يتردد في سماء القرية، ولأن ظله الخفيف سيبقى يؤنس الأزقة والحارات، ولأن حركاته ستبقى تدغدغ العابسين اليائسين فيضحكون قليلا.

بعد ساعة من الضياع عاد إلى غرفته مبتلا كالكلب المنبوذ، وغير ملابسه بأخرى كان بعضها على مسند الكرسي، وبعضها الآخر تحت الوسادة، لأنها كانت جزءا من الوسادة !.. ثم توضأ وصلى خمسه، وآوى إلى فراشه بعد أن قرأ صفحات من كتاب بالفرنسية، قد يكون عنوانه "الجنون" أو " فلسفة الجنون".

في صباح ذلك اليوم المنعش الموحل، وعندما كان "عمي صالح" القهواجي يهم بفتح باب مقهاه بعد صلاة الصبح مباشرة، فاجأه صوت من ركن معتم، اعتاد أن يضع فيه الصناديق الفارغة والمكنسة والكراسي المكسورة وأشياء أخرى غير ذات قيمة:

-السلام عليكم "عمي صالح".

اضطرب "عمي صالح" كالمفجوع، والتفت إلى الركن المعتم، وحدق قليلا قبل أن يقول:

-هذا أنت !.. ماذا تفعل بين الصناديق الفارغة يا ولدي؟.. سيقتلك البرد، واحذر من دفء الخمر إنه خداع.

وهنا عاجله "منصور" بسؤال، وهو يقترب منه مكهكها في يديه.

-هل صحيح أنك عندما كنت في "فرنسا" كنت تشرب الخمر من صنبور البرميل مباشرة، ولهذا انتفخت بطنك؟ ويبدو أن "البيرة" هي التي أكسبتك هذه الحمرة والنضارة، وليس الإيمان والحج المبرور كما تزعم؟

-أسكت يا ولدي قبحك الله !.. فما زلنا بعد في صباح الله، يا فتاح يا رزاق !.. يا له من فأل. !

ربت على كتفه، ثم ساعده على رفع باب المقهى المعدني، وهو يقول له:

-عندما نكون صادقين، فكل الأوقات صالحة لقول الحقيقة، والذي يتطير بالحق، سوف لن يسعده أي شيء بعده.. وإذا ضاق عليك الحق يا "عمي صالح"، فلا تبحث عن اتساع الحل في الباطل.

وبعد أن أخذ مكانه خلف طاولة خلف المحسب، وراح يلتهم قطعة خبز صغيرة وجدها في جيب معطفه، أكمل كلامه قائلا، وليس يعنيه مطلقا أن يسمعه "عمي صالح" أو يعرض عنه:

-هناك بعض الحقيقة ليس من الأدب أن نقوله عند الصباح، وبعضها ليس من الأدب أن نقوله عند المساء، وبعضها ما ينبغي أن نذكره في حضرة الوالدين، وآخر لا يجوز الجهر به في وجه الإمام، وآخر نؤجل البوح به حتى يمر موكب الرئيس، وآخر ما ينبغي أن نكشف عنه في حضرة الشيوخ والعجائز، وآخر.. وآخر.. وآخر !، فقل لي بالله عليك يا "عمي صالح" أين الحقيقة التي نعيش عليها بعد هذا الهراء؟.. إننا نعيش الزيف بأقنعة شمعية، ويا ويحنا لو تسطع الشمس فجأة. !

أجابه "عمي صالح" دون أن يلتفت إليه، بل ظل منصرفا إلى الملاعق والفناجين يغسلها من قهوة البارحة، وكان صوت احتكاكها واصطدامها يضفي على جو المقهى شيئا من الدفء والعافية:

-لعلك شربتها هذه المرة من النوع الرديء فأطلقت لسانك بهذا الهذيان.. لقد كان صوتك في الليل كعواء الذئب الجائع في القفر الموحش.

-صحيح أني جائع، ولن يشبعني إلا معرفة الحقيقة التي تواطأنا جميعا على تزييفها وإخفائها، ليسهل علينا بعد ذلك الكذب والنفاق والسرقة، وأكل أموال اليتامى والضعفاء، بلا توبيخ من شرف، أو تأنيب من ضمير، أو تقريع من نخوة.

سكت "عمي صالح" ولم يرد عليه، ربما لظنه أنه من السفاهة مجاراة السفهاء، وانتظر حتى صار الحليب طازجا، فناوله كأسا وقطعتي حلوى، وهو يقول في نبرة موبخة في إشفاق.

-خذ أفطر حتى يزول عنك أثر الخمر الرديئة التي كلفت بها، وأظنها ستتلف أمعاءك وتفتت كبدك.

تناول الكأس والقطعتين بفرح طفلي، وارتشف رشفة بعد أن قضم قضمتين. وفي هذه اللحظة دخل إمام المسجد في وقته المألوف؛ إذ أن له بعد صلاة الصبح أذكارا وأورادا، لا يأتي عليها جميعا إلا بعد ساعة من الوقت. أخذ مكانه المعتاد خلف المحسب، لأنه لا يحب أن يختلط بالغوغاء والدهماء وسط القاعة، ناوله "عمي صالح" كأس حليبه وفنجان قهوته، وراح كل واحد يلتهم فطوره في صمت، لا يقطعه إلا مرور السيارات، أو أصوات الأطفال الذين خرجوا لشراء خبز الفطور.

وما أجل "عمي صالح" لو أنه يظل طيبا ووقورا مع كل الناس، كما هو مع "الشيخ:! فكأنه ليس هو الذي كان منذ برهة من الزمان يحاول استدراج "منصور" إلى الحديث عن الخمر إكراما لما بينها وبينه من ذكريات ! ولما في تلك الذكريات من ذكريات صغيرة وجميلة كعيون الأطفال.

ولقد أقلقه هذا الصمت الذي لا ضرورة له، اللهم إلا أن شخصا دخل، ما ينبغي أن نقول في حضرته شيئا من الحقيقة. فتملكته رغبة عنيدة في أن يسأل " الشيخ" فرفع يده ملوحا له كي ينتبه إليه ويراه، وحين التفت إليه وأقبل عليه بوجهه الذي يوشك أن يصير لحية كله، سأله:

-يا شيخ.. هل يجوز في ديننا أن نخدع الناس؟.

تحرك "الشيخ" في جلسته، وأكرم لحيته بمداعبة خفيفة، وقال بلغة باردة وقور، رغم ما يسري فيها من حرارة الصدق، ولست أدري لماذا تصير جمرات الدين قطعا من جليد بين شفاه المتدينين؟ !:

-لا يجوز في ديننا أن نخدع أحدا مهما كان دينه أو لونه أو وطنه. وسكت كأنه قد انتهى من قراءة نص مقدس، لا تجوز فيه زيادة ولا يجوز فيه نقصان، أو هكذا أراد أن يوحي لمن يسمعه.

-إذن – قال "منصور" وقد استوى في جلسته هو أيضا، كأنه يستعد لبراز – ما تقول يا "شيخ" في "عمي صالح"، هذا الذي أثرى على حساب فرنسية طيبة، خدعها بأنبل عاطفة إنسانية، حيث ادعى لها أنه يحبها، وأنه يتزوجها، حتى ملك قلبها وكسب ثقتها، ثم سرق أموالها، وعاد إلى "الجزائر"، وتركها هناك تسب العرب ودين العرب، وتلعن الجزائريين اللصوص على الخصوص، لتموت بعد هذا كله بالصدمة القاسية، أما هو فقد أثرى بمال الخديعة، فبنى هذه المقهى، وفوقها هذه الدار المزخرفة، وقد نهى الله عن الزخرف، وبمال الخديعة استطاع إلى الحج سبيلا فحج، وتخفف من بعض أوزاره، ولولا مال الخديعة ما طاف بالكعبة، ولا قبل الحجر الأسود !.. أتظن يا "شيخ" أن شخصا كهذا جدير بمغفرة الله ورحمته وجنته؟.

أحس "الشيخ" بحرج كبير، ووجد "عمي صالح" أضعاف أضعاف ذلك الحرج، عقد لسانه، وأربك خطواته، وجعله لا يدري كيف يتحرك، ولا يدري ما يأخذ أو يدع. ولكن " الشيخ" أدرك ما يملأ النفوس والصدور، فتدارك الموقف قائلا في نبرة من يحاول الحفاظ على هدوئه واتزانه، بعد أن هزه الحرج وخضه:

-يا ولدي لكل مقام مقال. ولكل مقال مقام، وليس كل ما يعرف يقال، زد فوق هذا: " إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء".

ثم قام وسوى برنوسه على كتفيه، ومسح فمه بمنديل أبيض، واكرم لحيته بمداعبة خفيفة، وألقى نظرة متلصصة على وجهه في المرآة الحائطية، فرأى لحية قد غطت كل وجهه تقريبا، وجل الجزء الأعلى من صدره، ورأى عمامة قد زادته طولا شيئا قليلا، ورأى في وجهه هيبة أرضته، ووقار تقر العين به وله، فخرج راضيا، لو لا إحراج هذا الشاب الطائش الذي يظن – مخطئا- أن " الشيخ" يجب عليه أن يجيب عن كل ما يسأل عنه.

وما إن رآه " عمي صالح" قد صار في عرض الطريق، حتى أقبل على "منصور" مرغيا مزبدا:

-لعنة الله على شياطينك أيها التعيس الشقي !.. ما هذه الأسئلة الوقحة التي تطرحها على "الشيخ" ولم تفتح السماء عينها بعد؟ !.. ألم تصح بعد؟.. سوف يدعو عليك في صلاته يا كلب وتموت أحقر من جيفة، ولن تجد من يصلي عليك أو يهيل التراب على جثتك المتفسخة.

ابتسم "منصور"، وقد أدرك طبيعة الوساوس والهواجس التي تكتظ بها نفس "عمي صالح" وأدرك كذلك مدى هيبة شخص عادي في قلبه، فقال له كالساخر المتحدي:

-أنا مطمئن كل الاطمئنان أن الله لن يجيب دعاءه ولا دعاءك انت كذلك، واعلم أن فما تفوح منه رائحة الخمر أطهر عند الله من فم تفوح منه رائحة الكذب والخديعة والنفاق.

-يبدو أنك قد صرت وقحا بشكل لا يطاق يا "منصور". هكذا قال "عمي صالح" وهو يحدجه بنظرة متأسفة حزينة، فقد صبر على أذاه طويلا، وما كان "منصور" بالغبي حتى لا يفهم ما تقوله النظرة المتأسفة الحزينة، ترسلها العاطفة المطعونة في كبريائها. فتنهد قائلا:

-"منصور" الذي تعرفه مات الليلة الماضية.. غسلته عني الأمطار والريح جرفته السيول مع العفونة والأوحال لتقذف به في ملح البحر، حيث يصير كل شيء طاهرا في ظلمات الأعماق، كما كنا جميعا طاهرين في ظلمات الأرحام.. أنا صرت خلقا آخر ما خرج من رحم ولا تنزل من صلب، ولا التقم ثدي امرأة.. بالأمس أحدثت ثغرة في جدار هذا القفص الطيني – مشيرا إلى جسده- وطرت خارجه حرا طليقا كالنسيم، وسأورد كل آفاق الحقيقة التي يكفنها ضباب التواطؤ والتواصي به. التفت "عمي صالح" إلى أحد الزبائن الذي دخل لتوه، وقال له وهو يناوله فنجان قهوة:

-لقد أحرقت الخمر قلبه، وما أظنه إلا سيجن طال الزمن أم قصر.

ابتسم الرجل ابتسامة سخرية، وسكت قليلا عن رد الجواب منشغلا بتحريك السكر في الفنجان، ثم قال بعد أن ارتشف رشفة واحدة:

-ومتى كان عاقلا حتى يجن؟ !. هل من علامة صحة العقل أن يغلق على نفسه باب داره ما يزيد عن الشهر؟ ماذا كان يفعل؟.. ماذا كان يأكل؟.. كيف استطاع ذلك؟.. بل كيف استطاع الصبر على الكلام؟.. واكمل بعد لعق الملعقة التي حرك بها الفنجان:

-مهما يكن فهو مجنون من طراز خاص !.. أنظر إليه إنه واقف يحدق في المرآة، كأنه لا يعرف وجهه. !

ثم إنهما تغافلا عنه بأحاديث أخرى، وما انتبها إلا على صوت شظايا المرآة تتناثر على الأرض !.. لقد كسر المرأة بكرسي. شعر "عمي صالح" بالأسى، وسأله بصوت حزين، وقد حبسته الدهشة خلف محبسه:

-لماذا كسرت المرآة يا "منصور"؟ .. أين يرى الزبائن وجوههم بعد اليوم؟.. آه منك. !

رد عليه بنبرة هادئة، لا أسى فيها ولا أسف ولا ندم، بل فيها شيء يشبه التحدي:

-زورتني !. فلم تعكس صورتي كما هي، ولم تعكس وجهي كما أراه من داخله.. أين الدمامل والغصات والقروح؟.. أين بصمات القهر؟.. أين عيون الآخرين تتدلى كالثآليل القبيحة؟.. أين الخوف الذي اختزنه؟.. للآخرين أن يروا وجوههم في وجوه بعضهم بعضا.. ثم لماذا يرى الآخرون وجوههم،؟.. عن أي شيء في وجوههم يبحثون؟.. سأجعلكم تعترفون وتعتقدون أنني مجنون..

وخرج دون أن يدفع ثمن ما أكل وما شرب، كعادته في أغلب الأحيان. فالتفت "عمي صالح" إلى الزبون الواقف إلى المحسب، وقال له، وهو يمرر قطعة إسفنج على سطح المحسب الأزرق:

-كنت أعرف من قبل أنه سيجن.. إنه يقرأ كثيرا، ويريد أن يعرف كل شيء، ويقلقه جدا أن المور لا تمضي كما يجد مسطورا في الكتب، ويريد من الناس أن يفعلوا ما يقولون، وأن يقولوا ما يفعلون، وأن يرحموا المعتوهين.. إلى آخر هذه الأكاذيب التي يحشو بها دماغه صباح مساء.

-مسكين – قالها الزبون بعدم اكتراث- أنا لم أعتبره ذكيا في يوم ما، رغم أنه ذكي جدا.

-من كسر المرآة؟.. من فعل هذا بمرآتنا؟. هكذا سأل أحد الزبائن بمجرد ما دخل. " منصور".. ومن غيره؟.. !

-منصور.. سمعته في الليل يعوي كالذئب الجائع تحت الأمطار. ثم انحنى والتقط شظية من شظايا المرآة، وراح يمرر على صفحتها وجهه جزءا، وقال وأصابعه تداعب شعره الأكرث:

-كنت أعرف من قبل أنه سوف يصير إلى جنون، أو ما يشبه الجنون .. مشكلته أنه يريد أن يعرف كل شيء، ونسي أنه من رحمة الله بنا ومن نعمه علينا الجهل. ثم أخذ يوقع بأطراف أصابعه على المحسب وهو يقول:

-أسعار المواشي غالية هذه المرة، كالنار تحرق كل من يمسها.. حتى الحمير صارت غالية هذه الثمن وذات شأن.

ناوله "عمي صالح" فنجان قهوته دون أن يعلق على كلامه بشيء، خاصة وأن المقهى قد غصت الآن بالزبائن الذين كثرت طلباتهم، وعلا ضجيج المتحلقين حول طاولاتهم، الخائضين في أحاديث بلا معنى، يطيرون القهقهات التافهة في فضاء من عبث وفوضى.. نعم، إنهم يضحكون !.. عندما تنزوي أنت – مثلا- في ركن معزول، أو تقف وراء المحسب، وتراقب القاعة بشيء من التأمل، فإنه سرعان ما تأخذ هذه الأجساد في التلاشي والانمحاء، لتصير باهتة الصورة، كأن شيئا من ضباب يلفها، لتأخذ في الأخير صورتها الحقيقية، فإذا هي أكياس طنين، وبراميل ضجيج وصناديق عجائن.. يصدر عن حناجرهم صدى مقرف !.. إنهم يتكلمون ويستفهمون، ومن حين لآخر يقعون في التناقض الطريف فيضحكون.. !

إنهم يثرثرون، ويكذبون ويقسمون أنهم لصادقون.. إن القاعة تشبه خشبة مسرح بلا جدران، والممثلون هم المتفرجون، والمتفرجون هم الممثلون.. وكل واحد يساوي كل شيء ويساوي لا شيء في نفس الوقت.. !

وطوال الوقت تدور مسرحية عبثية، يدخلون ويخرجون، ويشربون ويدخنون، دون أن يذكروا ما قالوا وما قيل لهم، حسبهم أنهم قالوا وقيل لهم، وأسمعوا وسمعوا..

وفي ساعة من ليل، يجد "عمي صالح" نفسه وحيدا، تطوف برأسه سحابة من دخان السجائر، كتلك الهالة النورانية التي تطوف برؤوس الصالحين والقديسيين على جدران الكنائس، حينها يطفئ الأضواء، ويغلق الباب خلفه، وغدا فصل جديد، بأبطال قدامى مهترئين الأحذية القديمة، ممزقين كأطمار اليتامى الفقراء، كأن الله قد خلقهم ليكونوا مروحة في يد حاكم طاغ، أو لقمة سائغة بين أضراس جشع طماع، أو جلدا منفوخ تحت عصا مسرف جبار !

أما هو فقد كان ذا شأن آخر عجيب، كان يطوف بأزقة القرية وشوارعها، ويجمع الجرائد المرمية وقصاصات الأوراق والكتب المدرسية، ويجعلها أكداسا أكداسا، ثم يضرم النار فيها، ويمد نحو لهيبها أطراف أصابعه مستدفئا، وذات مرة سأله بعضهم عن شأنه، فأجابهم:

-لتقولوا عني مجنون.. لا بد أن أسترجع حريتي التي اغتصبتموها باللغة المنافقة والكلام الخلب.. تعالوا ومدوا أطراف أصابعكم مثلي.. هذه النار وقودها لغة الزيف.. مدوا نحوها أطراف أصابعكم، إنها لا تحرق، فهي كهشيمها.. كمفرداتها.. كمعانيها.. كأفكارها !. ألا تشمون مثلي هذه الرائحة الكريهة التي استمعتم إليها بآذانكم، ونظرتم إليها بعيونكم، فلكم الآن أن تشموها بأنوفكم، ليتعرفوا على أية قذارة قد انغلقت أرواحكم وأفكاركم وضمائركم !.. أنا لست أدري لماذا ينقض الريح الوضوء، ولا ينقضه الكذب والنفاق والنميمة، والحقد والكراهية؟..

اللغة زيفتنا لأننا زيفناها، وخدعتنا لأننا خدعناها، وألبستنا الأقنعة الفاضحة، لأننا ألبسناها أقنعة الفصول الأربعة.. ما اللغة إلا كم يا أصدقائي فلم تكذبون.. ما اللغة إلا حقيقتكم، فتعالوا لنقيم عرسا لإحراق الأقنعة لتنبعث من رمادها اللغة الغضة العذراء كما تنبعث من رمادها العنقاء.

وكانت شلة الأصدقاء التي تجمعت حوله غارقة في الضحك الفوضوي.. لقد كانت تبحث عن أي موقف يجعلها تضحك بلا ضوابط.. فهي تكاد أن تفيض بالعذابات والأحزان.. قال أحدهم:

-إني أشهد يا "منصور" أنك مجنون بامتياز !.. وإلا أنى لك كل هذا الهذيان؟.. !

فأجابه "منصور" وهو يحرك الرماد كي تضطرم طبقات الأوراق التي تحته:

-وقد تكون أنت المجنون لأنك لم تفهم كلامي.. أنا لم أقل إلا ما قرأته في وجهك.

-كم كتابا قرأت هذه المرة؟

سأله أحدهم ساخرا، فلم يجبه بشيء، وإنما مد يده إلى فتحة سرواله يهم بفتحها، وهو يقول، وعلى شفتيه يرفرف خيال ابتسامة خجلى:

-أبعدوا عني. أغمضوا عيونكم، أريد أن أبول على رماد اللغة فيهمد كي لا تحمله الريح، فيستنشقه الأطفال الصغار.. أغمضوا عيونكم كي لا تروا العيب يا من جعلتم وجودنا عورة يجب أن تستر..

يا من تريدون منا أن نمارس الحياة من خلال ثقب إبرة.. أغمضوا عيونكم عليكم لعنة الله !.

فأخذت شلة الأصدقاء تضحك وتصيح، وكان هو قد ولاهم ظهره.. وكان يضحك .. ثم ساروا جميعا صوب المقهى، وتحلقوا حول طاولة مشروبات، وخاضوا في أحاديث شتى لا رابط بينها إلا مضغ أعراض الناس.

2

في كل مساء يأوي فيه إلى غرفته التي عرفت من قبل، فإنما ليعكف على كتب يقرأها، وعلى أوراق يسودها ويرميها، وإن الفرح ليهزه من كل أقطاره، على الشعور بالفوز ليكاد يخرجه من مألوف أطواره، ويغمره بالغرور والابتهاج الفاضح المفضوح. !

فلقد سره أن كثيرا من أهل قريته تغيرت نظرتهم إليه، وارتابوا في أمره، وصاروا يعدونه مجنونا، أو هو ماض يقتفي أثر المجانين.. !

يكفي أن تفكر خلاف ما يفكر القطيع، وأن تنطلق عكس وجهته، وأن تشير إلى فضاءات لا يراها العور، وأن يكون صوتك صريحا فصيحا، لا أثر فيه لرطانة القطيع، يكفي هذا أو بعض هذا ليحسبوك مجنونا، وذلك ما أريده بالضبط.. فلئن أصير مجنونا تحت شمس الحقيقة خير من أن يظل عاقلا بين أظلاف القطيع و حوافره. !

رأيتهم.. صاروا لا يحترمونني، ولا يتحرجون أن يقولوا في وجهي كلاما يزعجني ويؤذيني.. لقد نجحت في الاستدراج !.. لقد تحررت.. لا بد أن اجعلهم أحرارا اتجاهي، يتحدثون بعفوية، ويتصرفون بتلقائية.. لا بد أن أكشف لكل واحد منهم من أي فصيلة حيوانية هو ! حين أكسر قضبان العقل ليتحرر الوحش أو الكائن البدائي المأسور، الذي لم تدجنه اللغة، ولم ترضه الحاجة، ولم تزيفه الأقنعة، حينها سأكون مرآة سحرية، تنعكس عليها كل صورهم المخفية خلف الجلود الشاحبة والأبشار الباهتة..

ودون أفكارا غير هذه، ثم رمى الورقة بين أوراق أخرى على أرضية الغرفة، ثم حدثت منه التفاتة إلى صورة أبيه، فرآه ينظر إليه في صمت من يتوسل ويترجى، وكأن خيال ابتسامة خجول يداعب شفتيه الناشفتين من ماء الحياة، وكأن سحابات حزن عميق تغشي نظرته العميقة الآسرة، وتلقي بظلالها الرمادية على كل ملامح وجهه.

حمل الكرسي، وغير مكانه أكثر من مرة تفاديا لنظرة أبيه، لكن في كل مرة كان يرى عيني أبيه تلاحقانه في شيء من الترجي، يشبه التوسل الذليل.. كانتا مصوبتين إليه في صمت مستعطف عميق، قال كلاما كثيرا دون أن يطلق بأي حرف.. وما أفصح صمت الموتى. !

نزع قميصه وكوره بين يديه، ثم أسند الكرسي إلى الجدار، واستوى فوقه واقفا، وراح يمسح بقميصه زجاج الصورة والإطار الذهبي، بعدها استلقى على السرير، فأحدث ما يجب أن يحدثه من صرير، ثم أشعل سيجارة، وأخذ منها أنفاسها البكر !، ثم قال يخاطب أباه، أو صورة أبيه:

–أدري أنه من الوقاحة أن أدخن في حضرتك، ومن سوء الأدب أن أدفع قدمي في وجهك، ولكني دخنت في حضرة من هو أدقس منك فهنت أنت. ولقد رأيتني من قبل أقترف الكثير من الموبقات في هذه الغرفة. فلا تأسف ولا تحزن، إنها بذور الشر التي تحدرت من صلبك. ولقد رأيتني من قبل أصلي في هذه الغرفة.. في نفس المكان الذي لملمت فيه أشلاء الخطايا والدنايا. فلا تفرح كثيرا، إنها نوبات إيمانية تغتالني وتخطفني مني، فأكون خلقا آخر، مأخوذا بالجذب والوجد، مسربلا بقشعريرة الإيمان.. لكن هذه النوبات سرعان ما تنقشع كما ينقشع وخم الصباح، وتحط بي في عشي القديم، وتعيدني إلى قفص هو جسدي، تعيدني ظمآنا إلى الملح، فألتقط مضطرا حب الكذب والخديعة لكني أعيش، وألتقط حب النفاق لكي لا أموت.

لو عشت أطول لشقيت بي يا أبي أيما شقاء، ولنغصت عليك حياتك، ولفقأت عيون الطمأنينة فلا تهتدي إلى قلبك أو ضميرك أبدا.. لقد كنت رائعا ومصيبا حين قررت أن تؤلم جسدك لديدان المقابر وثعابينها، وأن تجعل من رفاتك الباقي سمادا لنوار وورود وأشواك ستخرج شطاها غضا طريا !

وقد كنت مزعجا جدا كذلك، حين تركت أمي نهبا لوسوسات الشباب.. تركتها بين مطرقة الرغبة وسندان الفضيلة.. تركتها تمشي على عيون الناس المغروسة فيها كالأشواك، وحيدة تمضي.. ظمأى إلى عرق يديك بين أصابعها.. لهفى إلى صدرك الذي تجدد شبابها به، حين تلقي رأسها عليه، تماما كما يفعل الطفل المشاغب قبل أن يسلم جفونه للنوم..

كان شيئا متعبا لها أن تصون ذكراك، وأن تبقى على حرارة ما قد صار كأصابع الجليد.. وما أقسى الذكريات حين تتقطر في القلب والروح كدموع الجليد..

لما كبرت وقرأت كتبا كثيرة، وتنصصت على الحياة لأراها كما هي.. كان ذلك مني في أحايين كثيرة.. لما كبرت وقرأت الكتب وهيجت بعض صفحات الحياة، عرفت كم أتعبت أمي وأشقيتها بموتك المفاجئ ورحيلك الذي كان بغير استئذان.

أدري أنك تركت لها أموالا وأطفالا وعقارات، ولكن أكياس المال لا تستطيع أن تجعل أضلاعها تنطبق كما تفعل ذلك الضمة الحانية.. ومرأى أكياس المال لا يثير في شفتيها رعشة الشوق إلى القبلة الدافئة..

لما كبرت وقرأت الكتب وهيجت أحرفا من سفر الحياة، فهمت كم تعبت أمي كي تقمع رغباتها قبل أن تستلقي متعبة مكدودة على عتبة سن اليأس.. حين تصبح الذكريات مرة لا تشعرها إلا بالغثيان.. ويصير وجهك على جدار القلب مبهما وغامضا أو باردا كقطعة من رخام..

فهمت لماذا كان يحوم حول بيتنا ذباب كثير، رغم أنه لا يوجد حول الدار إلا حديقة الورد، أمي لم تكن جيفة.. تلك أمنية الغربان.. كانوا ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذي تصير فيه كذلك.. بل إنهم – ربما– لأجل ذلك كانوا يصلون ويسألون الله في إلحاح !.. لا تتعجب يا أبي.. إنهم وقحون بشكل لا يوصف !.. إنهم يسألونه الستر حين يزنون، ويتوكلون عليه حين يسرقون، ويذكرون اسمه حين يبدأون في أكل أموال اليتامى والمستضعفين.. فما ظنهم بالله رب العالمين؟.. !

اغفر لي وقاحتي يا أبي.. إنها شيء من لباقتهم وأدبهم، قد لا تصدقني لأن ملامحك تقول إنك كنت طيبا ولطيفا وخدوما.. لكن طيبتك لا تجعل من خبثهم لطفا، تماما كالواحد منا لما يداعب ظهر الأفعى بمنتهى الحنان، فتلك المداعبة لا تجعل من الأفعى عصفورا أو قطة مدللة. إن اعتقاد الصدق والطيبة في هؤلاء، لا يجعلهم بالضرورة طيبين وصادقين..

أدركت كم مرة حاولوا أن ينقعوا أصابعهم في جرة عسلك.. إنما لا تهتم يا أبي ولا تغتم، فإذا ملكت الشجاعة كي أنفذ ما أخطط، فحتما سوف أكسر كل جرار عسلهم، وسأجعل زوجاتهم يتعبن كما تعبت أمي وكما شقيت.. أنا لست لئيما يا أبي، إنما لا بد من بعض اللؤم لردع اللؤماء.

تنهد وأشعل سيجارة أخرى، وأعرض شيئا قليلا عن أبيه، قبل أن يلتفت إليه قائلا وهو ينفث سحابة من دخان:

-اعذرني أبي لم احاورك من سنين، لم أكن أعرف أنك حي..

لم اكن أعرف أنك طير حر حطم قضبان قفصه، وحلق صوب وطنه الأول،.. كلنا نحب ذلك الوطن، وحتما سوف نعود إليه مجبرين مكرهين، وأنا شخصيا ما أحسبني سوف أتأخر عنك طويلا، لأني لم أعد أستطيع استساغة الحياة، لقد اهترأت على وجهي عشرات الأقنعة دون أن اجد مكانا لي بين الناس تحت الشمس.

أعذرني يا أبي، فقد كنت وقحا فوق اللزوم وقليل الأدب.. وقد كان في إمكاني أن أستعمل لغة لطيفة ملساء، توحي ولا تكشف، تومئ ولا تحدد، تقول ولا تبوح، ولكني آثرت اللغة التي توجع وتكشف، وتجرح وتحدد، وتفضح وتبوح.

أعذرني يا أبي، وإني أعدك أني سأحدثك من حين لحين، فقد جمد ملامحك برد الصمت داخل هذا الإطار الذهبي الذي صار يشبه معابد البوديين المنزوية في وحشة الغابات العذراء.. هذا الإطار الذي اختارته أمي ذات مرة ليكون معبرا عن قيمة الحب والوفاء..

مسكينة هي !.. إنها الآن في وحشة المدينة تنتظر الموت في غير رهبة أو قلق، قانعة بنصيبها من الدنيا الذي لم يكن كما تمنته على كل حال، وشعارها في ذلك "لا أحد أكلها كما اشتهاها".. أنا اكره حكمة الاستسلام والانهزام..

ثم إنه لم يجد صعوبة تذكر في أن ينام، رغم أن الباب يطرق، وأحد الأصوات يناديه ويلحف في النداء، فما أجابه إلا بشخير مصطنع.

* * *

وظل مدة ليست بالقصيرة يتسكع في دروب القرية وأزقتها، يجمع أوراق الجرائد والكتب المدرسية والكراريس، ويجعلها أكداسا، ويشعل فيها النار، ويمد نحوها أطراف أصابعه مستدفئا، يلقه الدخان فيجعله شبحا أو كالشبح.

وكان قول الناس فيه، يختصره قولهم: مسكين !.. لقد تدحرجت حالته نحو مهاوي الجنون." !

ورغم ذلك ظلوا يحبونه ويستمعون إليه حين يحدثهم جادا، لأنه لا يعدم حين يريد منطقا قويا، وحجة بالغة ولسانا فصيحا، وشجاعة أدبية قل مثيلها بينهم.

قال له أحد القرويين حين مر به، وهو يمد أطراف أصابعه إلى ألسنة اللهب ذات الرائحة الكريهة:

-لقد أعماك الدخان يا "منصور".. إبحث عن عمل، ودع عنك هذه السخافات الحقيرة، فأنت أكبر منها.

-صحيح يا جاري العزيز – أجابه "منصور"، ولئن يعمي بصري دخان اللغة المحترقة، خير لي من أن يعمي بصيرتي دخان الحسد والحقد المضطرم في أعماق النفس والضمير كالسعير، هذا الذي أكاد أبصره يتلوى في عينيك الصغيرتين كعيون الحرادين، واكاد أراه من منخريك الضيقتين، بل واكاد أحسه يفسد عليك حياتك، ويسد في وجهك كل سبل الخير..

لقد علمت كل ما في وسعك ألا يغتني وقد اغتنى، وسعيت جهدك ألا تظهر عليه آثار النعمة والغنى، وها قد ظهرت في أحلى زينة وأبهج صورة، فما جنيت من الدسائس والخداع إلا نارا أكولا تضطرم في قلبك وأعماق روحك !!

-والله ما أخطأ الناس حين صاروا يظنون بك الظنون السيئة.

-ذاك الذي أطمح إليه وأصبو يا جاري العزيز، واعلم أنه من البلاهة أن أرجو أن تكون صورتي جميلة في عيون العور، وأن يكون صوتي شجيا ساحرا في أسماع الصم.

-خلط أيها المهبول !. هكذا قال له جاره العزيز –كما سماه–، منصرفا وهو يشعر ببعض الحرج من الكلام الذي أسمعه "منصور"، فلقد أسمعه صوتا طالما قمعه، وعرى له حقيقة كان يحبذ ألا يراها ما عاش، وأضاء له فضاء في روحه ونفسه، كان يؤثر أن يظل ليله سرمديا لا ينقشع ظلامه، وعكس له صورة ظلت خفية خلف قناع من طين.

حقا.. إنه يحسد ويحقد، ويتمنى لو أن الأيام تحوج إليه جاره. فيسأله فيمنعه. آه !.. يا لها من لذة عظيمة لما تملك وتستطيع أن تنفع فتمنع.. يا لها من لذة أعظم حين تلهث خلفك العيون حتى يصيبها الإعياء واليأس، وتمتد إليك الأيدي الجائعة على أمل فتنقلب خاسئة أجوع، ما بلها معروف ولا رواها ندى !

أما هو، فليس في قلبه شيء من هذه الوساوس المسمومة، تمتد به الدروب وتستطيل، تلف وتدور.. تصعد وتهبط.. تتسع حينا وتضيق أحيانا.. رغم هذا كله فهو لم يشعر مطلقا بالفرق في حالات الطريق.. وحتى ولو شعر، فإن حالات الطريق لا تهمه.. حسبه أن يمشي.. أن يتحرك.. أن يسبق الأشجار الأرصفة وكل الجدران التي تريد أن تنقض.. وكل ممشى هو وجهة الحيران.. وكل نهاية هي بداية الضال.

قدمان تتحركان فوق دروب موحلة.. شفتان تدندنان وتصفران بأنغام لا تحدث في النفس أي أثر طيب مريح.. رأس خاو من كل شيء.. لأنه مثقل بكل شيء.. بكل المتناقضات والأضداد.. الأفكار فيه كالفيروسات المسعورة تلتهم بعضها بعضا.. والناس يمرون عن الشمال ويمرون عن اليمين كالأشباح الخائفة المخيفة.. تخاف أن تفتح عين، أو أن تضغط على زر النور فتتدفق شلالات الضياء..

من حين لآخر يتملكه غرور ساحق، يحس معه أنه يستطيع أن ينسف القرية، ثم يعيد بناءها حجرا حجرا، وعرفا عرفا، وينسج شبكة علاقاتها كما تنسج الماهرات شالات الحرير ! لتطلع من بين الأنقاض النباتات الغضة، والفكر المستنير، والدين الحر.. كل الأفكار تتلوث وتتسخ لما يعتنقها الناس ويعتقدونها..

حين انتبه إلى نفسه، وجد يده ممسكة بيد طفل صغير.. خداه متوردان.. عيناه واسعتان كزهرتين بريتين.. اكتنز صحة وعافية، وعلى شفتيه بسمة هي إشراقة الأمل في نفوس اليائسين، فقال له:

-آه.. جمال.. أنت؟

-أنا.. أين كنت سارحا؟. فرد عليه "منصور" ضاحكا:

-كنت ممسكا بيدك ونتجول كأحسن ما يكون الصديقان..

ورغبة منه في تغيير مجرى الحديث، فقد سأل الطفل بنبرة حانية:

-كم كان ترتيبك في الامتحان الأخير؟

أحس كأن برودة قد سرت في أصابع الطفل الرقيقة، ورأى شفتيه ترتعشان قبل أن يجيب:

-الواحد والأربعون من اثنين وأربعين تلميذا.. أنا لست غبيا إنما لا أتناول فطور الصباح.

-أنا لست غبيا إنما لا أتناول فطور الصباح.. راح "منصور" يرددها ويكررها هامسا، كأنه يريد أن يفهم فيها معنى آخر غير الذي تعنيه بكل بساطة.. ثم التفت إليه ليسأله:

-ألا تصلح هذه المقولة لتكون حكمة تعلق في مدخل كل مدرسة؟.. وفي مدخل كل جامعة أو ثانوية؟..

أنا لست غبيا.. إنما لا أتناول فطور الصباح.. لماذا لا تكذب علي وتقول لي. إن ترتيبي كان الأول أو الثاني مثلا؟.

-لأن الكذب حرام، وربي لا يحب الكذابين، ثم إنه لا يغير شيئا في قائمة الترتيب..

نزع "منصور" يده من يد الطفل، ومد خطى خفيفة سريعة نحو دكان على الرصيف، وعاد منه بعد برهة ليقدم للطفل قطعتين من الحلوى، قائلا بكلام دافئ حنون فيه نبرة التشجيع:

-خذ جائزة.. لقد نلت المرتبة الأولى في الصدق الذي لا ترصد له الجوائز والرتب، وعندما أقلب الأوضاع، سينقلب ترتيبك.. إنها امتحانات مزورة يا "جمال".. وسيعيد ربنا تصحيح كل الوراق ووضع النقاط الخالدة، وسترى كثيرا من الفاشلين وقد فازوا، وترى كثيرا من الناجحين قد خابوا وخسروا.. تراهم يبكون كما تراهم اليوم يضحكون..

-ربنا يحبنا يا "منصور"؟. سأل الطفل وقد تألقت عيناه الواسعتان.

-نعم يحبنا يا "جمال".. – أجابه منصور وهو يمسح على رأسه – يحبنا لما لا نكذب ولا نسرق ولا نخدع.

في هذه اللحظة بالضبط مر والد الطفل، ورآه مع "منصور"، فجذبه من يده في غير رفق، وقال له وهو يمضي به في الطريق:

-لا تؤاخذه.. لا تصدقه يا بني إنه مجنون.. إنه يكذب.

-لكنه أعطاني حلوتين لأنني لم أكذب عليه عندما سألني عن ترتيبي في الامتحان. !

-إيه – قالها الأب وهو يضرب جبهته بباطن كفه كالذي تذكر ما كان ناسيا- نسيت.. كم كان ترتيبك في الامتحان؟.

-الواحد والأربعون من اثنين وأربعين تلميذا. قالها الطفل بكل صراحة وهدوء ووضوح، وكأنه كان ينتظر جائزة ثانية عن الصدق، التي لم تكن هذه المرة سوى صفعة قوية من كف أبيه، أطارت مخاطه ودعاء غير جميل وتهديد:

-قبحك الله من ولد أحمق !.. فضحتني.. أما كنت تستطيع أن تقول له. كان ترتيبي الأول؟.

ثم جذبه في غير رفق وراح يدفعه إلى السرعة أكثر.

-لما نصل إلى البيت سترى.. والله لأعلقنك من جفونك !.. لتتعلم كيف تكون ولدا مؤدبا وذكيا في المرة القادمة. !

ظل في مكانه أسفا حزينا، يراقب الوالد المعنف، وهما يتضاءلان ويصغران في الطريق الذي كان يضيق كلما يطول، شأن كل الطرق التي يبدو الناس في بداياتها ونهاياتها صغارا..

كانت عيون الناس تلعقه.. وتكاد تزلقه.. تود لو تعرف لماذا بدأ يتغير.. كيف حصل لديه هذا الانقلاب المفاجئ. وصوت المؤذن العجوز يقرع الآذان الصم ويهزهز أقفال الأرواح الخرساء. "حي على الصلاة.. حي على الفلاح".. إنه يقرع كمن يريد أن يدمي بجناح فراشة رخامة باردة.. إنه يدق ويدق كمن يطرق أبواب القبور، ويستنطق خشب التواتيب.. تذكر الوالد والولد والصفعة والتعنيف والدع، ثم احتار لأمر الناس، كيف ينتظرون أن ينتخبوا رئيسا كفؤا نزيها وملتزما؟ !

عبثا تحاول أيها الشيخ العجوز..

الناس غرقى في الوعود.. فما الوعيد وما "يجوز ولا يجوز" ؟.. !

والناس يا هذا الملح يهزهم شدو الرنين، ولم يعد يعنيهم ظن أثيم أو يقين أو وعود قد تكون ولا تكون !

يا شيخ من تدعوهم تاهت بهم سبل وتقاسمتهم الاتجاهات، واستجابوا إلى مؤذنين آخرين، لكل واحد قبلة وصومعة.

ولقد سر الطيبون – أو المغفلون – من الناس لما رأوه يتوضأ، واطمأنوا على سرورهم لما رأوه في الصف الأول كما كان في سابق نوباته. لكنهم ما إن ألقوا السلام وشرعوا في الاستغفار والدعاء وباقي الأذكار، حتى فضح سرورهم وبكت طمأنينتهم وعكر سكينة الموقف حين قام فيهم خطيبا دون استئذان:

-أرجعوا فصلوا، فإنكم ما صليتم.. وتوجهوا إلى القبلة بوجوه قلوبكم لا بوجوه أجسادكم، وعظم الله أجركم، وكل عام وأنتم بخير، وإنا لله وإنا إليه راجعون.. والسلام عليكم، وقوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله. !

وراح يتخطى الأعناق المندهشة والصفوف الوجلة المضطربة، وعندها يئس من أمل فيه شيئا من هدى أو صلاح، وخاب من أحسن الظن به أو ترجى منه خيرا، وحزن من أفرحه مرآه بالمائضة، وأشفق من كان أعجبه وهو يرص الصف بالمناكب والأقدام، ويشير للناس أن استووا واستقيموا يرحمكم الله.

حوالي الساعة العاشرة ليلا دخل غرفته، في جيبه علبة سردين، وتحت إبطه خبزة دافئة، وبين أضلاعه قلب يضج بالفرح، ونفس تكتظ بما يشبه الغرور، رمى عشاءه على سريره، ثم نزع معطفه ورماه، دون أين يحسب له أن يتعلق أو أين يقع، فحيثما تعلق فثم يجب أن يكون، وحيثما وقع فذاك له المكان الأفضل..

قفز.. فرك أصابعه كمن ظفر بشيء ما، او حقق أمنية عزيزة.. لمعت عيناه.. ضحك بفرح غامر، قال وهو يضغط على مقاطع الكلام وحروفه:

-يوريكا.. يوريكا.. مساكين يظنون أنه من السهولة بمكان أن يكونوا مجانين.. يحسبون ذلك انتكاسة وهبوطا لما يرون من ظاهر المجانين المزري وحالتهم البائسة.. لكن أين القوقعة من اللؤلؤة؟. !

ثم أحضر صحنا نظفه بكم قميصه مما علق بجوانبه من طعام قديم، وأفرغ فيه علبة السردين، ثم صب كأس مشروبات وجده على طاولة النوم، وخلط ذلك كله بحفنة زيتون مملح، ثم أخذ يغمس اللقمة تلو الأخرى، ويأكل بكل اشتهاء، ثم رفع رأسه نحو صورة أبيه، وقال يخاطبها، واللقيمات تجعل صوته غير واضح، بل تجعله مضحكا حين يغص ببعضها:

-كم هو لذيذ يا أبي !.. والله ما ذاقه الملوك !.. آه لو كان في إمكانك أن تذوق، فتضيف إلى الطبق نكهة أصابعك، لكنك عفيف شريف لا تأكل الحرام، وهذا الطعام اشتريته حين استطعت أن أخدع "عبد الله الجزار" وأخطف من فوق وضمه منه دينار بكاملها.. أما هو فقد خطف من عباد الله آلاف الدنانير بالشحم والجلد والعظم الذي كان يستوفي به الميزان.. لك الحق أن تتقي الشبهات، أما أنا فلي الحق أن أتقحمها، لأن الحمقى جعلوا حياتنا بدعة تجتنب، ووجودنا شبهة تتقى، ووجوهنا عورة ينبغي أن تستر خلف الأقنعة.

لما انتهى من تناول طعامه، حمد الله بصوت مسموع، ثم دفع الصحن بحافره إلى تحت السرير، بعد أن وضع فيه علبة السردين الفارغة وورقة الجريدة التي لف فيها الزيتون المملح، وقال وهو يهب واقفا:

-والله لن يأكله حتى الكلاب !. أي خليط من القاذورات هذا !؟.

وشرع في إيتاء بعض الحركات الرياضية، التي تكشف أنه رياضي من الطراز الأول، بعدها جلس إلى طاولته، واستل ورقة بيضاء من رزمة كانت أمامه، وراح يسودها كسابقاتها بأفكار وخواطر لا يكشف عنها لأي أحد، ومذياعه الهرم يغني بصوت شجي ساحر عميق:

فكم تولى الليل بعد النهـــــار	وطال بالأنجم هذا المدار
فامش الهويني.. إن هذا الثرى	من أعين ساحرة الإحورار

وكانت الأغنية كأنها موسيقى تصويرية لصورة هذه الغرفة، التي لا أظن أن لها شبيها في هذه القرية؛ فوضى ذات معنى.. عبث ذو قصد.. ضياع ذو هدف.. قلق يقتفي أثر اليقين. ولو عكست هذا لكنت مصيبا كذلك: معنى ذات فوضى.. قصد ذو عبث.. هدف ذو ضياع.. يقين يقتفي أثر القلق. ولو أنك تخلط هذا كله، فلن تعدو الحقيقة والصواب: فوضى ذات قصد.. عبث ذو معنى.. قلق ذو هدف.. وضياع يقتفي أثر اليقين !.. أرأيت؟.. حتى اللغة تصير لينة مطواعة في التعبير عن الفوضى.. إن الإبداع والتفكير ملك الذي يتقن باقتدار كيمياء اللغة والكلمات.. وهو يكتب ويكتب.. تارة من اليمين إلى الشمال، وتارة أخرى من الشمال إلى اليمين.. إنه يكتب بجدية ورغبة كبيرة، ولا يقطع استرساله في الكتابة إلا حين يقوم ليأخذ كتابا من بين الرفوف، أو ليعيد كتابا آخر إلى تلك الرفوف.. وهو يدندن مصاحبا صوت المغنية الخاشع المتضرع المتألم، الذي امتزجت فيه أنفاس الصلوات بآهات الآلام الروحية العميقة، عليها شوب من أوجاع الطين وهي تنز شهوات.. وكل ذلك يدعو الروح إلى التحليق في فضاءات الرجاء، قبل أن يدغدغ الجسد فتهتز مفاصله وتتجاوب أعضاؤه مع انسيابية الإيقاع وتموجات الصوت الذي كأنه يصعد من حنجرة راهب متبتل.

وما هي إلا دقائق حتى كانت الورقة الأولى تطير في فضاء الغرفة، لتحط بين أخواتها كما شاءت لها الصدف أو ألطاف المقادير، ليتبعا بأخرى بعد حوالي ساعة تقريبا.

وكعادته استلقى على فراشه دون أن ينزع حذاءه، وأشعل سيجاره من جمرة أخرى صارت دخانا ورمادا، وراح يدخنها وعيناه معلقتان في شرود بالسقف المقشر المغبر، وربما كانتا تتابعان حركة فراشتين ليليتين ترفرفان حول مصباح مبرقش بونيم الذباب.. كل شيء يبحث عن نار ليطفئ فيها ضرام الشهوات والرغبات الغريبة.. كل شيء يريد أن ينقع جناحه في عسل اللهب.. !

وحين وقعت عيناه على صورة أبيه المحاصرة بإطارها الذهبي ذي الزخارف الباروكية.. إنما القيد يبقى قيدا حتى ول كان من ذهب في نعومة الحرير.. والسجن يبقى مزعجا للأحرار حتى ولو كان في سعة الأرض والسماء !.. ورغبة منه في التخفيف عن أبيه ومسامرته، قال يخاطبه ممهدا لذلك بابتسامة ماكرة.

– لم أحدثك من أيام يا أبي.. وأراك قد صرت تأنس إلى كلامي وتوده وتهفو إليه.. معك الحق، من الصعب على الواحد أن يصمت سنينا أو قرونا.. الثرثرة أجدى.. والفوضى أرحم.. شيء مقزز يا أبي !.. ويبدو أن حديثي الأول كان ممتعا ومفيدا، فها هي أساريرك تنبسط، وتكاد تتفتح عن بهجة ورضا.. لكنها كأنها تخجل من شيء ما.. وها هما عيناك أراهما تتألقان قليلا قليلا ببريق خجول.. وها هو جنين ابتسامة على شفتيك أراه يتشكل شيئا فشيئا.. رجاء لا تجهضه يا أبي.. دعه يشرق على ديجور روحي.. إنه من جليد !!.. سوف نتحدث طويلا.. ونتحدث في كل شيء، شريطة أن نعتبر أنفسنا أصدقاء ليس إلا، فعندما تراني أدخن – مثلا – لا تنزعج، وعندما تراني أحمل بين أصابعي كأس خمر لا تتضجر ولا تكفهر، ولا تصعر خدك في ازورار..

لك أن تكون تقيأ عفيفا.. وذلك أفضل للإنسان الذي ينشد الكمال، أما أنا فدعني أسلك سبلا أخرى، وأطرق أبوابا أخرى، وأسأل حتى الشياطين عن سبيلي.. ولكن كن مطمئنا أننا نلتقي في النقطة الخالدة، وهي أننا جميعا نحب الله.. كل الدروب – وإن اعوجت – تؤدي إلى الله، وكل السبل – وإن طالت – تقود إليه.. كل شيء منه ابتدأ وإليه ينتهي...

تتفرج شفتاه عن ابتسامة وضيئة عريضة، وبعد فترة من الصمت يشعل خلالها سيجارة أخرى، يكمل كلامه مع أبيه – ويبدو أنه هو كذلك ما عدا يطيق الوحدة والصمت:

–آه لو رأيتني اليوم يا أبي !.. فقد كنت رائعا.. لقد أديت دوري باقتدار.. بدأ بعض الأصدقاء يتحاشونني.. وبعض الأحباب آذنوني بالكراهية.. وفي عيون قلة قليلة أرى الرحمة بي والإشفاق علي. وما علموا أنهم مخدوعون في المقت والكراهية، ومخدوعون في الرحمة والإشفاق.. فلست شيطانا مريدا حتى أكون جديرا بهذا، ولست عاجزا أو ضعيفا حتى أكون في حاجة إلى ذاك..

لقد صليت في المسجد، ولست غبيا حتى لا أعرف أن البعض قد سرهم ذلك، وأن البعض الاخر قد ساءهم كل ذلك وأدهشهم.. وفي نهاية الصلاة أخرجت لهم مرآة من صقيل الكلام، رأوا فيها وجوههم الحقيقية ففزعوا وخافوا، وأخذوا يحوقلون ويستغفرون مستنكرين، وليس خافيا على ربهم لم يحولقون ويستغفرون.. ثم خرجت أتخطاهم كما يقفز الواحد فوق أكداس الحجر أو اكياس الطحين.. لو كانوا صادقين لخجلوا من أن يقلبوا أكفهم في وجه السماء، لقد كان أولى بهم أن يدلوا بها نحو الأوثان النجسة التي تخور في دمائهم وتلهث في قلوبهم..

قد لا تراني مواضبا على الصلاة.. وذلك لأنني أخجل أن أقف أما ربي، وروحي تكتظ بآلاف الأوثان، وتحف بي عشرات الآلهة كالمواكب الإبليسية.. لن أكذب على الله ولن أخدع نفسي.

أخجل أن أقف بين يديه، ورجائي يتمسح بحافر شخص ما.. وأخجل أن أولي وجهي شطر المسجد الحرام، بينما روحي تائهة الخطى، زائغة البصر، تتشاكس فيها السبل والجهات..

ولكن عندما تراني واقفا في الصلاة، فإنني واقف أما الله بحق.. فقد أهرج مع كل الناس إلا مع الله، وقد أمثل أمام الخلق إلا في حضرة الخالق..

لا أريد أن اعتقد إلا ما يكون دفقة من دمي.. وقبسا من روحي، وارتعاشة من روحي، واختلاجة من ضميري..

ثم قام إلى صفيحة بلاستيكية صفراء، موضوعة في ركن من أركان الغرفة، وعب منها مقدار كأس من الماء، وأشعل سيجارة أخرى، وعاد إلى مكانه من السرير، ونظر إلى صورة أبيه، وابتسم لها من جديد:

–أرى في وجهك ضجرا يا أبي.. أعذرني فقد كان حديثي باعثا على السأم والضجر.. لكأنك في برد الموت وصمته تريدني أن أحدثك عم حميميات الحياة ودفئها.. عن العرق.. عن اللذائذ والشهوات.. عن الذين يتزوجون، ويحبون ويكرهون.. وينجبون أطفالا ملاحا..

كأنك في قبرك الخاوي المرعب تريدني أن أحدثك عمن شادوا وبنوا، وأتتوا واغتنوا واقتنوا.. ولربما تريدني أن أحدثك عن النساء.. عن عيونهن.. عن دفء حديثهن.. عن لغوهن وعن طيبتهن وخبثهن.. يا لك من شقي طيب !.. ها هي أساريرك يضيئها الرضى، وها هي عيونك توقظها الرغبة في الاستزادة من هذا الكلام.. وها أنت تكاد تخلع العذار، وتكسر أخشاب الإطار، وتنطلق في ربوع الحياة كالفراشة حين تتحرر من الشرنقة أول مرة.. ها أنت تكاد تنزع غشاء الوقار، لتخرج من ذلك كله بسيطا وطيبا، وبريئا كالصوص الذهبي لحظة ينقف قشرة البيضة ويخرج، ليلفح أجفانه وهج الحياة، ليبدأ زغبه الناعم يجف تحت دفء الشمس..

أدري أنها أحاديث رائعة، لكن سيجعل لها وقتا آخر إن شاء الله. اما اليوم فأحيطك علما أن الشيخ "عليوة" الخضار، قد غادر هذه الدنيا مضطرا كارها.. وحل بينكم راهبا غير راغب.. فاحذروا أن يخدعكم هناك، ويقول لكم: إني جئت راضيا مرضيا.. فلو استطاع المسكين لقفز من النعش.. من فوق أعناقنا، ولراح يعدو وهو يتعثر في كفنه الأبيض الرخيص، وهو يصيح: "ارجعوني لعلي أعمل صالحا فيما تركت".. ما أظن أن أحدا تأسف صادقا على فراقه، إلا الخضر المتفسخة والفواكه الحامضة، والدلاع البيض القلب.. فلن تجد بعده من يجعل لها قيمة، ويبيعها ملفوفة في أغلظ الأيمان وألمع الخداع..

لم يكن حمل نعسه متعبا لنا، بل لقد كان خفيفا، باستطاعتي أنا وحدي أن أتأبطه، وأهرول به حتى أطمره في حفرته.. أما لو كلفنا الله حمل عشر أوزاره لما استطعنا فعلا..

لقد كان آلة عجيبة لإنتاج الذنوب الحقيرة، غفر الله له.. !

كان منظر الجنازة مضحكا بالنسبة لي.. كل الذين يكرهونه.. كل ضحاياه — وما أكثر ضحاياه — كانوا حاضرين، يمشون خلفه بعيون ذابلة متخاشعة.. ولقد هزني مشهد الموت بكل جلاله أول مرة، لكن بعد مرور لحظات، صار في إمكاني أن أسير في جنازة أمة بكاملها، وأنا أمضغ العلك وأنقي أنفي من النغف..

وكما تعلم يا أبي فإن أهل قريتنا يجدون لذة عظيمة في حفر الحفر والقبور.. فقد تعاونوا بإخلاص وحفرنا له مثواه الأخير.. عمقناه وأنزلناه فيه، وأهلنا عليه التراب، وثقلناه بالحجارة وأشواك القندول..

وقبل أن نتركه زجها لوجه مع عمله، أخرج "الشيخ" — على غير عادته — ورقة وراح يقرأ فيها كلاما مسجوعا، يعدد مناقب الفقيد ويثني على شمائله.. حتى أبي التفت عن يميني وشمالي لأطمئن إلى زمني وناسي.. كان كلاما ما ينبغي أن يقال إلا في حق " السيد علي.." ثم إنه شهد باسمنا جميعا أمام الله أن الفقيد كان طيبا سمحا، خدوما متسامحا.. تقيا نقيا.. محبا للفقراء والمساكين.. وأنت تشهد يا أبي أنه حتى في شبيبته لم يكن كذلك، حينها تملكتني قشعريرة غريبة، لأنني تصورت نفسي أشهد الزور في حضرة الله، فصرخت في وجوههم بأعلى صوتي: – أنا أخاف الله.. أنا لا أشهد.. بل أشهد أنه كان.. ولم يتركني أحد الشيوخ أدلي بشهادتي، بل رماني بذراع الفأس التي انكسرت أثناء الحفر، فاتقيتها بأن خنست لها، لترتطم برأس "سي العربي" وهو من هو سلطة وجاها، فتناول الشيخ مسحاة تحت إلحاح الغضب، وراح يعدو بها خلفي، وأنا أقفز فوق ظهوركم وشواهدكم، وأدوس على وجوهكم المتفسخة، وقفزت فوق قبرك أنت.. حينها تضاءلت.. صرت صغيرا، وكم وددت لو أحتمي بك.. لم تمتد يدك لتضمني ولتدفع عني.. كم وددت لو تخرج عينيك في وجه الشيخ غضبا وحمية.. لكنك لم تفعل شيئا من ذلك، وأنت معذور.. إنما لله ألطاف خفية وأقدار تمضي لتكون عبرة وموعظة للناس.. فبمجرد ما حاول الشيخ مهرول خلفي اجتياز قبرك، حتى علقت زوائد سرواله العثماني بالشاهدة، فسقط وهو يصيح من الألم.. فشكرا جزيلا يا أبي.. فقد دافعت عني حتى من قبرك، وأبيت إلا أن تكون أبا حتى وأنت رميم.. وهذا فضل لا أنساه لك.. وربما غدا سأزورك لأزين قبرك بباقة ورد.

بعدها تسللت عبر سياج المقبرة، أما الشيخ فقد تداركه الناس، وراحوا يهدئون من روعه، فراح يسوي سرواله وعمامته ويكبت ألمه وهو يقول لاهثا:

-هذا الشاب يريد أن يفضحنا فاحذروه.. يريد أن يجعلكم أضحوكة للآخرين.. احذروه.

أحسست بقشعريرة تستفز كل مساماتي.. من أنبأه أن ذلك ما أريد؟. هل اطلع الغيب؟. هل حكمة الشيوخ التي تخترق حجب المظاهر لترى ما خلف الظلال والأشكال؟.. ربما شيء من ذلك.. صحيح إن المرء يصير حكيما لما تنطفئ في أعماقه فقاعات الرغبة والاشتهاء.. وربما يصير حكيما بعد أن يصير بضعفه بعد فقد القدرة على أن يعيش بالقوة.. لأيهم..

ولما وقفوا بباب المسجد وجدوني بها أناولهم المساحي والفؤوس، وأعوانهم في إنزال النعش.. يا لها من شقاوة متطفلة !.. ضحك مني سائق السيارة، ولو كنت أنت مكانه لضحكت كما ضحك.

وها أنذا أمامك بكل وقاحتي المكتسبة، وبكل طيبتي التي لم تجد من ينميها ويزكيها.. ولو أن الشارع زكاها ونماها لكنت شاعرا لامعا أو مفكرا كبيرا أو مؤمنا عظيما..

لا.. لا، الإيمان ليس تخصصا علميا يبرع فيه قوم دون قوم، أو وظيفة اجتماعية يقوم بها ناس ليوضع عن آخرين.. الإيمان شرط وجودي أساس.. وعلى قدر عمق الإيمان وأصالته يتحقق عمق الوجود الإنساني وأصالته كذلك..

أرى عينيك قد ذبلتا.. كأنك تريد أن تتثاءب.. بل ها أنت تفعل ذلك.. كأنك تريد أن تنام، بل إني أرى عينيك تتغلقان، سيكون ذلك ممكنا وسهلا، بل إني سأطفئ الضوء ليكون الحلم لذيذا، وتمرح أطيافه على هواها.

عاد المشيعون جميعا سيرا على الأقدام، ربما رغبة منهم في تحصيل الأجر المجاني.. الأجر الذي لا يسفح في سبيله عرق، ولا تكبح من أجله شهوة.. أما أنا فقد عدوت خلف السيارة التي حملت النعش والمساحي والفؤوس، وتعلقت خلفها..

3

كانت الساعة منتصف النهار حين نزل من سيارة أجرة قادمة من المدينة المجاورة.. كان يحمل بين يديه باقة ورد نضدت بذوق رفيع وإحساس راق.. وبعد أن دفع أجرة السائق، مضى في طريقه ضاما الباقة الأثيرة إلى صدره، يحيي من يحييه بإيماءة من رأسه، أو ابتسامة مضمومة مزمومة من شفتيه ينورها الصدق والتلطف.. إذا أنه ليس صعبا على الإنسان أن يكون جميلا إذا ما ملأ قناديل قلبه وروحه بالحب والصدق. وقبل أن يسلك السبيل المؤدية إلى المقبرة، أحس ببعض التعب، ووجد في جبينه بعض العرق، وبدا له أن الجو حار، وفكر أن العرق قذر.. ورائحته عفنة، خاصة إذا علقت بجسم ممتلئ كجسمه، فنظر يمنة وشأمة هل يرى من وسيلة تبلغه مقصده، فلم ير إلا دراجة نارية مسندة إلى الرصيف، ما زال محركها مشتعلا، فما كان منه إلا أن اقترب منها كالمتلصص، ووضع باقة الورد في صندوقها الخلفي الصغير، ثم امتطاها ومضى مسرعا، لا يسمع إلا صياح صاحبها الغاضب وصفيره الملح، بينما كان هو يضحك بنشوة غامرة، ويكاد شعوره بالظفر والفوز أن يجعل للدراجة أجنحة، فتطير به في السماء.

مطلقا.. لا يوجد شبه بين دخوله المقبرة اليوم وبين دخوله المس !.. اليوم يتملكه شعور من يدخل دير راهب عميق الصمت، بعيد النظرات.. ترفرف في سمائه صلوات وأذكار راهبة راغبة.. يتملكه شعور من ليس يدري من أين تتخطفه الشياطين الشقية الماكرة، ومن أين تمسك بتلابيبه الأصابع الخفية الصفراء.

يجتاحه شعور المقبل على إدارة المفتاح في قفل قصر مهجور، يكتظ بالأشباح والأسرار.. تملكه إحساس أنه لن يخرج من المقبرة أبدا، فمن المحتمل جدا أن ينتقض الأموات برفاتهم العفن وهياكلهم النخرة، ويتحلقون حوله ويغنون ويصفقون، وهو يرقص كارها وهم يضحكون بلا عيون أو شفاه أو خدود، ويطلقون النكات.. وما شكل ضحكة من لا شفة له أو عين أو خد؟.. !

مرعبة بالفعل !.. وصارت كل عشبة تتحرك تثير فيه الخوف والفرق، فليس يدري ما يخرج منها أو أي شكل تأخذه؟ !.. وكل ورقة تسقط تجعله يتراجع إلى الخلف خطوتين.. فمن أدراك قد تنتفخ لتصير مخلوقا مقززا كريها؟ !.. صار يشك في أشجار الصنوبر الواقفة في صفين، يقسمان المقبرة نصفين.. فقد تكون هذه الأشجار هياكل موتى شرسين، تنتظر أن ترى منه غفلة لترتمي عليه وتحضنه إلى الأبد !.. أوه !.. ما أبشع أن يحتضنك الموتى !.. حتى العصافير وهي تغني على أغصان الصنوبر، ظنها أرواح الرضع والصبايا الجميلات، ضاقت بضيق القبور، فصارت عصافير وطيورا تؤنس وحشة الموتى، وتربطهم بعالم الحياة الدنيا..

كان يود لو يستطيع أن يلتفت إلى الخلف.. وإنه ليخشى أن يلتفت.. وإنه ليخشى أن يفكر أنه التفت.. فمن أدراك.، ربما في هذه اللحظة بالضبط يمشي وراءه موكب جليل من آلاف الهياكل من مختلف الأعمار.. يحملون في أيديهم رايات مهترئة وطبولا ممزقة الجلد كاتمة الصوت، وثقوب مناخيرهم ومحاجر عيونهم تصدر صوتا كالصفير الهامس.. يا ترى لو ينشدون نشيدا ما كيف يكون وهم بلا شفاه ولا ألسنة ولا لهوات ولا مناخير تحدث الغنن؟.. نعم.. في اللحظة العصيبة لم يدر بالضبط كيف فكر في هذا الأمر البسيط !.. غريب الإنسان.. !!

ما أبعد قبر أبيه !.. في أي كوكب يقع؟.. كأنه مشى نحوه منذ عشرات السنين وما وصل بعد..

اقترب يا قبر أبي.. تعال إلي فإني لست شيئا سوى تعبي.. اقترب يا قبر أبي..

يشهد الله أنه لم يستطع قراءة اسم أبيه وتاريخ ازدياده ووفاته على الشاهدة الرخامية !.. ولما استطاع ذلك بعد حين لم يستطع أن يربط العلاقة بينه وبين هذا القبر !.. هل هو جبان إلى هذا الحد؟.. بل ربما أكثر !!.. ليس سهلا أن يدق قلبك مئات المرات في الدقيقة الواحدة، وأن تصطك ركبتاك دون انقطاع، وأن ترتعش شفتاك دون مبرر مقبول.. وأن ترتعش في برودة متوهجة عضلات الخد.. إنه موقف يجعل كل عضو في الجسد كيانا مستقلا، له الحق أن يخاف أن يرتعش. !

وضع الباقة على القبر، ومن المحتمل جدا أن يكون قد أسندها في خشوع إلى الشاهدة، ثم بسط كفيه في وجه السماء ليقرأ الفاتحة.. أحس كأن لسانه يزن الأطنان، أو أنه مشدود من كل الجهات بحبال من حديد، أو أنه مخلوق آخر لا يتحرك إلا بمشقة وعسر، ليشكل مقاطع صوتية كأنها لا يقصد بها إلا الإثارة والإضحاك.

لم يدر كم ظل باسطا كفيه في وجه السماء.. حسبه أنه يعرف أن الضغط المسلط على أعصابه لن يخرج إلا من رحم قرون من الضغط النفسي المركز والقلق الأرعن، لم يذكر بالضبط أنه قرأ سورة الفاتحة أو شيئا آخر من القرآن الكريم، لأنه حين هب عليه نسيم منعش من جهة البحر، ونبهه إلى نفسه، وجد لسانه يردد في طلاقة محفوظة مدرسية، حفظها في السنة الثالثة من التعليم الابتدائي:

صباح الخير مدرســـتي صباح الخير والنور

إليك اشتقت في أمسي فزاد اليوم تبكـيري

وبخ نفسه بقوة وقسوة، واستغفر ربه بصدق وعمق، وقرأ الفاتحة بخشوع، وشرع في قراءة "يس" بطلاقة ملفتة وفصاحة عجيبة، أو هكذا ظن الأمر، ويشهد الله أنه ما قرأ سورة "يس" إلا مرات وليس بنية الحفظ، أما الآن فها هو يقرأها كأن المصحف منشور بين

يديه جليا واضحا.. في هذه اللحظة يبدو أن لسانه لا يتلقى الأمر من عقله، ولو كانت الحالة كذلك لما عاد عليه عقله بشيء ذي أهمية، إنه يتلقاه من روحه.. من أعماق نفسه وضميره، حيث ينطبع المصحف كله في حجم رأس شعرة.

كان في وده قبل أن يدخل المقبرة أن يدردش قليلا مع نزلائها، ويسألهم عن شعورهم وقد صاروا رميما ومغنى للأفاعي السود والديدان، وحتى لو رآه بعض الناس يحدث أهل القبور، فإنه سرعان ما يطمئنون على ظنهم السيء، وينقلون الخبر إلى باقي الناس ليتأكدوا أنه مجنون بالفعل، فلا يؤاخذونه بعدها على ما يأتي أو يدع من الأمور.

كان في وده قبل أن يدخل المقبرة أن يضرب عصفورين بحجر واحد، أما الآن، فإنه لا يود أن يخرج سالما فقط.. أي نعم، تكفيه السلامة غنيمة !.. ما شأنه والجنون؟.. ما دخله في الناس إن صدفوا عن الجادة أو استقاموا على الطريقة المثلى؟.. أكيد أنه لن ينجح حيث فشل المعلمون الأوائل وقد تحركوا بطاقات روحية لا توصف.. زد فوق هذا، لماذا هو فقط في الناس يريد أن يعري زيف الناس؟ ويكشف لهم عن الحقيقة المستورة؟. وهبه استطاع ذلك، فما عساه أن يربح أو يجني؟.. حقد.. كراهية.. تربص.. محاولة اغتيال، وهل في كل هذا متعة ترغب أو لذة تدعو؟.. وهب الناس قد استقاموا على الطريقة المثلى، فمن يضمن أنهم لن ينقلبون ولن ينحرفوا؟.. وإذا كان "آدم" قد عصى ربه في الجنة، فكيف لا يعصي أبناؤه وهم يرتعون في حضن الأباليس.. يلثغون بأبجدية الخطيئة؟ !..

لئن خرج من هذه المقبرة سالما، ليضعن حدا لهذه اللعبة التافهة الخطيرة، وسيغتسل ويحلق لحيته ويقص شعره، ويغسل أثوابه، وينظم غرفته ويرتبها، وينطلق في الحياة كأحسن ما يكون المواطن الصالح في عين الدولة وعين المجتمع.. وليس صعبا عليه أن يكسب رضا الناس، وأن يحوز رضا الدولة، وما أسهل ما ترضى الدولة وما أسهل ما يرضى الناس !

ومن الميسور عليه أن يجمع مالا وفيرا يجعله محل احترام الجميع وتبجيلهم.

في كل خطوة يخطوها اتجاه خارج المقبرة، كان ينتظر متى تمسك به سلاميات باردة من قفاه مقهقهة، أو متى يبرز عظم ساق من الأرض، ويندس بين ساقيه ويوقعه أرضا، أو كفن مهترئ يسقط من بين أغصان شجرة، ويربك حركته وانفاسه كنسيج العنكبوت، ويخشى أن تمتد نحوه يد عظيمة، فتخاصره وتدفعه مرغما إلى الرقص على إيقاع اصطكاك أسنان الصمت الرهيب..

كان ينتظر أن تثور الصفائح والشواهد والحجارة والتراب، لتبرز منها الوجوه المفقوءة العينين، تسقط من بين شفاهها ومناخيرها الديدان الصفراء.

ولما صار خارج المقبرة أخذ يعدو بسرعة لا توصف.. وما توقف إلا لما لاحت له القرية، وبدأ يسمع حركة الحياة وضوضائها.. ورغم أنه صار يرى الأحياء يمرون به ساخرين ومشفقين، إلا أنه لم يصدق بعد أنه قد نجا..

لما هدأت أنفاسه أحس بدغدغة ألم دافئ في ركبتيه، فانحنى عليهما فرأى غبارا لزجا ودما وجرحا كالوردة القانية الاحمرار، ومثل ذلك رآه في حوافي كفيه، ووجد أن إحدى قدميه حافية،.. شيء مفزع ومضحك في نفس الوقت أن يكون قد حدث له كل هذا دون أن يشعر؟.. أي رعب خرافي يكون قد تملكه.. !

إنما "رب ضارة نافعة".. فحالته هذه مناسبة تماما لمخادعة أهل القرية وتضليلهم. فقام متحاملا على نفسه وراح يسعى نحو مركز القرية سعيا وئيدا متعبا، ولما ألقى بجسده المكدود المنهك على كرسي أول مقهى، تحلق حوله مجموعة من الأصدقاء القدامى وهم يقهقهون ويضحكون ساخرين، كأنهم يريدون أن يلفتوا أنظار الناس إليه:

–كل فلسفتك وهرطقاتك عجزت أن تصمد أمام أشلاء مهترئة.. أرأيت؟.. إن الحقيقة المؤثرة ليست هي كل ما يمكن الاستدلال عليه..

-لقد كنت تبكي وتستغيث بأمك كالصبيان.. أو ما فكرت يوما لماذا يجعلنا الخوف صغارا؟.. أو لماذا ننتكس إلى الطفولة للدفاع عن أنفسنا، ولا نستغيث إلا بالأم رغم أنها ضعيفة..

-أو ما فكرت يوما في هذا؟. هكذا قال له الثاني، وهو يحرك له فنجان قهوة دافئة.

-ماذا؟ !. يسأله "منصور" متعجبا. فيرد عليه هذا الصديق، مقربا فمه من أذنه رافعا صوته:

-سمعناك تبكي وتستغيث بأمك كالصبيان.. لماذا؟

-أنا !؟.

-نعم أنت.

-لكني لم أسمع صوتي، ولا أذكر شيئا من هذا، ولم أجد ضرورة لذلك.

-طبعا – رد عليه ثالث – لقد شغلك خوف الظهيرة حتى عن نفسك.

حرك "منصور" رأسه، وأجاب كالمتأسف:

-صحيح.. هذا ما أشعر به يا "عزيز"

وما إن بدأ المساء ينسج على وجه القرية غلالة دافئة فاترة في لون الرماد، حتى كان "منصور" حديث المقاهي والبيوت والدكاكين، كيف أنه زار المقبرة للترحم على روح أبيه.. ثم تملكه الخوف فأخذ يبكي كالأطفال ويستغيث بأمه، ويعدو بين القبور.. ولم يستطع أن يهتدي إلى باب المقبرة إلا بجهد جهيد..

وقال آخرون: إن "الشيخ" قد دعا عليه، أما فريق آخر فقد أكدوا أن روح "عليوة" الخضار هي التي أرعبته وأفزعته.

وما أطوع الأحداث وأمطها حين تصير بين ألسنة الذين لا عمل لهم، إلا إحداث الضجيج كضفادع المستنقعات أو صراصير الليل !

وقد تحاشى الناس ما استطاع هذا المساء؛ إذ أنه لم يشعر قط بالحرج من مهازله كما شعر هذه المرة.. إنها تجربة فضحته وعرته في عينيه قبل أن تفضحه وتعريه في عيون الاخرين.. ولهذا آثر أن يظل متسكعا على أطراف القرية حتى أرخى الليل سدواه، وأسرجت السماء ما فيها من مصابيح، وصليت العشاء، وانصرف المصلون، وبدأت الحركة تميل إلى الهدوء.. حينها أقبل يسعى مكدودا متلفتا، وهو يتمنى ألا يلقاه أحد من الناس، ثم إنه عرج على مقهى فوجد رواده مستغرقين تماما في مشاهدة فيلم هندي، فاشترى زجاجة مشروبات. وقد حاول بعض الذين يتفرجون من خلال الباب أن يقصروا معه، مستفتحين باستفساره عما حدث له، فأجاب:

-كما سمعتم. وتحركت به قدماه صوب المخبزة التي تدل عليها رائحة الخبز الشهية، وكان احتكاك السروال بركبتيه يوجعه في الجرح ويؤذيه، فاشترى خبزة دافئة، وقد حاول صاحب المخبزة وبعض عمالها أن يقصروا معه قليلا مستفتحين باستفساره عما حدث له، فأجاب:

-كم سمعتم.

وتحركت به قدماه صوب منزله، لكنه ما كاد يبتعد بضع خطوات حتى انقلب على عقبيه، وعاد ليذكر "عمي محمد" الخباز في نبرة اعتذار متعبة:

-سأدفع لك ثمن الخبزة غدا. وانصرف. فقال "عمي محمد" كأنه يكمل كلام "منصور" ساخرا:

-يوم القيامة إن شاء الله.

ولقد أعجبه جدا هذا التعليق من "عمي محمد"..، لأن يوم القيامة يكون الحكم هو الله.. ولا يظلم ربك أحدا.. فالله يعلم لماذا سرق من سرق، ولماذا سرق من سرق.

لما دخل غرفته لم يمد يده ليضغط على الزر ليتدفق الضياء. إنما راح يتلمس ويتحسس الطريق بعيون قلبه وبنانه، التي تحفظ أدق التفاصيل في هذه الفوضى، وضع على الطاولة الخبزة التي بدأت تفقد دفئها، والزجاجة التي بدأت تفقد برودتها، ثم نزع سرواله ورماه على السرير، ربما ليعلي به الوسادة، أو ليجعله وسادة حين ينام، ثم أقبل على عشائه واقفا، ولا فرق لديه أن يأكل واقفا أو قاعدا أو متكئا، وربما وجد الظلمة أكثر مما يطاق، فاقترب من النافذة، وأزاح ستائرها، مستعينا بعض الشيء بمصباح الشارع الوحيد، الذي ما زال يضيء غير بعيد عن البيت.. فتحددت بعض الملامح الداخلية للغرفة باهتة، وتميز شبحه من الظلام، وهو يحمل الخبزة بيمناه والزجاجة بيسراه، ولا شيء يزعج الصمت المظلم إلا صوت المضغ، أو صوت الشفاه وهي ترتشف المشروب من فم الزجاجة، فتحدث صوتا أجوف كشخير النائم المزكوم..

بعدها دحرج الزجاجة الفارغة على أرضية الغرفة، فأحدثت خشخشة الاحتكاك بالأوراق، ثم جاء صوت ارتطامها بالجدار تحت السرير.. وكم توجد تحت هذا السرير من عجائب وغرائب لو يزحزحه. !!

ثم فتح النافذة، فانساب باهت كعين الأرمد، وراح ينادي على كلب بلا أهل، يعيش على القمامة وبقايا المسلخ البلدي، والعظام التي يرميها الجزارون.. وما أقل بقايا المسلخ البلدي، وما أنزر العظام التي يرميها الجزارون. !!

وقد لصقت بأذن هذا الكلب عشرات القرادات، فصار أهل للإشفاق والرحمة لمن أراد، ومحل استهجان وازدراء لمن كان قاسي القلب لا يعرف أن في كل ذي كبد رطبة خيرا وأجرا.. لا علينا، لك أنت أن تعلق بما شئت، وأن تستنبط ما شئت.. ولا عليك إن كنت من هذا الطرف أو ذاك، أما "منصور" فقد رمى له بقطعة الخبز الباقية، وأغلق النافذة، واستلقى على السرير، ماسحا يديه وفمه بأطراف الغطاء.

ومن جوف الظلام الذي لطف جدته ضوء مصباح الشارع، انساب صوته مخاطبا أباه:

-أعلم أنك تنتظر بفارغ الصبر متى أضغط على زر الكهرباء، ليتدفق النور فيمسح عن وجهك رماد الوحشة أو غبار الكآبة، وتبوح ببعض أسرارها الفاتنة مواسم عينيك. لكنني لن أفعل.. ستبقى هذه الأمنية سرابا قاتلا يرقص جنبيك. قد تقول لي بنبرة المهدد المتوعد:

-"أتعصيني يا بني؟ !.. سترى !"... فأجيبك وأنا أنقي أسناني بلساني من بقايا الطعام:

-نعم أعصيك.. وما عساك تفعل؟ !.. سترى.. أعصيك، لأن الطاعة العمياء هي التي قتلت فينا أو كبحت فينا الكثير من الكمالات الإنسانية. والطاعة الذليلة هي التي فوتت علينا فرصا ثمينة، كانت مواتية لتغيير مجرى التاريخ..

والطاعة الذليلة هي المحضن الطبيعي للأرباب الصغار، الذين يتدلون من وجه حياتنا كالثآليل المتقيحة من وجه الغادة الحسناء.. وهي المحضن الطبيعي الأول لتوالد القطيع بكل أوبئته وبلاياه..

لا بد أن أعصيك لتذوق شيئا من الأسف الذي تحدثونه لله بمعاصيكم..

إذن، فلن أضغط على الزر.. ولن يتدفق الضوء.. ولن ينفض عن وجهك رماد الوحشة أو غبار الكآبة.

لن أضغط على الزر ولن يتدفق الضوء ولن ترى وجهي هذه الليلة.. !

أتريد أن تسخر مني كما سخروا، وتضحك علي كما ضحكوا؟..

اليوم يا أبي حاول أن تتبين ملاحي بأذنيك فقط..

كانت تجربة مرة أن يقبل المرء على عالم الصمت والوحشة والديدان ورائحة تفسخ اللحم والأحقاد، وأجنة الأحلام، والأماني التي اكتظت بها الصدور والشهوات الحرام.. تجربة مرة أن يقبل المرء على هذا العالم بباقة ورد، متوهجة اللون، فواحة الأريج، غضة الملمس، تستثير الأنف والنظر والروح جميعا..

إنه لجزاء وفاق أن يكون الموت بكل عدميته خاتمة لكل حماقات الحياة وتفاهاتها، التي نعكف عليها طول العمر. وإنه لجزاء وفاق كذلك أن تكون المقابر نهاية الصخب والضجيج والفوضى..

عالمكم يا أبي بلا ملامح.. بلا زمن.. بلا رغبة جامحة أو رهبة كابحة.. عالم رتيب.. رتيب.. رتيب.. عالم بلا إنسان !.. شيء مفزع حقا أن يظل المرء يعيش قلق الانتظار وفاجعة التوقع أنه بين اللحظة والخرى قد ينفخ في الصور، فيجمع المرء أوزراه ويقبل على أعدل الحاكمين..

إن أحداث قرن هنا ليست كافية لملء فراغ ثانية هناك.. وأين الثانية هناك !؟.. فبأي أحداث وأحاديث تملأون فراغ وجودكم هناك..؟.. بالتأمل في اللاشيء؟.. بذكريات الدنيا؟.. بانتظار نعيم الجنة؟.. لا أظن أن شيئا من هذا يحدث لكم.. أما زلتم حتى هناك تحقدون وتكذبون؟.. ولماذا يحقد أو يكذب من لا يطمع أو يطمح أو يشتهي؟..

لما صرت بين قبوركم يا أبي، عرفت أنه لا فرق بين الشجاع والجبان، سوى في طريقة مواجهة الموت. فكلاهما يخاف الموت، لكن الشجاع يدفعه خوفه إلى المقاومة، والجبان يدفعه خوفه إلى الانسحاب، وكل واحد يحب أن يزيل الموت من سبيله.

لا أخفي عنك يا أبي أني قد تمنيت الموت من قبل أكثر من مرة، لأكثر من سبب، بدت الآن كلها حقيرة وتافهة، بعدما عشت لحظات في رهبة الموت وجلاله.. وسوف لن يبقى بعد اليوم على أي أثر لتلك الأماني الحمقاء.. بل ربما سوف أتوقف عن إتمام المهزلة التي شرعت فيها، فهي مكلفة وبائسة.

ولكني لا أستطيع أن أتوقف الآن، فكل الناس صاروا يعتقدون أنني مجنون.. صحيح، ما زال بعضهم ممن يفهمون لغة الفوضى والنقيض، يحترمونني ويحبونني ويقدرون ما أفعل، وإنما سوف أصدمهم بقوة لأجعلهم يدخلون وسط القطيع، وينظرون إلي بنظرة القطيع، حيث الأمعاء هي العقل، وفتحة الشرج فم للتعبير !!

أشعل سيجارة، واقترب من صورة أبيه، مستعينا بالكرسي الذي ما زال تحتها مسندا إلى الجدار، وأخذ من السيجارة نفسا عميقا، فتأججت جمرتها أكثر، فتحددت على ضوء هذا التأجج ملامح أبيه الحزينة العميقة، فرأى عليها شوقا إلى النور، وما ينثره النور في هذا الفضاء من دفء وحميميات وأشياء أخرى توحي بأشياء أخرى..

رق قلبه، وأحس أنه قاسيا مع أبيه، فمد يده إلى زر النور، فتدفق الضياء، وتحرك الذباب، وبدأت فراشات ليلية رقصة الموت حول المصباح، وبدا وجه أبيه كوجه الأطفال حين يفاجأون بالحلوى والدمى الجميلة،.. لقد بدا بريئا جدا.. كأنه اغتسل لتوه وتنشف..

عاد إلى سريره وستر فخذيه بما وجد، وقال مخاطبا أباه:

-ها أنذا أضغط على الزر إشفاقا عليك لا خوفا منك.. أدري أن الكبار يكرهون أن يشفق عليهم أحد، خاصة إن كان من الصغار، ولكن هذا واقع لا مفر منه، فألق برأسك على صدري، وابك كالأطفال، ودع الآلام تخرج ذائبة في حبات الدمع – (قالها ضاحكا، ثم واصل كلامه بنبرة من يستعد للجد بعد الهزل) – لقد صرنا أنيسين يا أبي.. فمنذ أن انتبهت إلى سحر صورتك المعلقة، ونفضت عنها الغبار، صرت أشعر بالدفء والحميمية والحنان في هذه الغرفة، التي كانت من قبل خاوية كالصحراء.. مخيفة كالدغل الموحش.. باردة كليالي القطب الشمالي.. نعم، صرت أستلطفها وأستلطف البقاء فيها، وربما لاحظت أنت أبي منذ أن استلطفت هذه اللعبة معك صرت لا أخرج للسهرة والتسكع الليلي.. ولكني اليوم سوف أخرج يا أبي، وسأتركك تكمل السهرة وحدك..

فلك أن تنتظر ما لا ينتظر..

ولك أن تفكر في اللاشيء، وأن تحدق في غير هدف.. وأن تتجسس بأذنيك فقد تسمع أنفاس الصمت. ولك أن تغفو إن أردت قليلا.

وقام إلى كومة من الألبسة مكدسة عند موضع قدميه من السرير، واستخرج منها تبانا رياضيا ارتداه، وانتعل خفا نسويا أحمر، وخرج دون أن يطفئ النور.. ربما رحمة بأبيه، فقد يؤنسه الذباب والفراشات الليلية...

في الشارع المظلم الموحش لا شيء يتحرك إلا الكلاب تتهارش أيها يكون نصيبها أوفر من القمامة والفضلات.. إنها لا تختلف عن الكلاب الآدمية، وهي تتهارش من أجل نصيب أوفر من قمامة من طراز آخر ونوع أرقى..

في الشارع المظلم الموحش لا شيء غير القطط تلمع عيونها في المنعطفات والزوايا، كأنها في لحظة تربص للغدر، تنتظر متى تنفض الكلاب، فقد تترك الكلاب، فقد تترك الكلاب شيئا من فتات؟.. وهل تبقي الكلاب على قيمة في البقايا؟..

في الشارع المظلم الموحش لا شيء غير صراصير الليل بهفيف أجنحتها السوداء، تزيد ظلمة الليل وحشة وانقباضا.. إنها تمرح بحرية ونزق بعدما خلا لها الجو من صراصير النهار.. !

وكان اصطدام الخف النسوي ببطن حافريه كأنه إيقاع مرافق لسمفونية الظلام.. طق.. طق.. طق.. طق.. وقد أعجبه ذلك، فصار يخطف قدمه بخفة ليصير الإيقاع أقوى وأوضح وأكثر اتزانا.

لعلمك فإنه لم يبق في القرية كلها إلا أربعة أعمدة للإنارة العمومية، بعدما أصاب غيرها التلف والإهمال والتحطيم العمدي.

لم تبق إلا اربعة مصابيح تدغدغ الليل الثقيل، وتكون في جنبه كالجرح الدامي أو كطعنة غدر.

فالمصباح الأول يتدلى من عمود ليس بعيدا عن بيته، وقد كان محجوزا كل ليلة ما بعد العاشرة، لشاب ظريف لطيف من شباب هذا الحي، بحيث كان يسند إليه ظهره، ويظل يوقع على اوتار قيتارته ألحانا شعبية قديمة، وكان يتحلق حوله مجموعة من الشاب، قد يستفزهم اللحن ويستخفهم الطرب، فيأخذون في الغناء والتصفيق.. كان ذلك خاصة في ليالي الصيف..

أما الآن، فإن ذلك العمود قد هجره رواده الذين كانوا يؤنسونه ويستأنسون بنور مصباحه، منذ أن قتل ذلك الشاب الظريف في مناورة عسكرية في الصحراء.. لم تكن ذات أهمية مطلقا.. هكذا قالوا.

أما العامود الثاني، فهو الذي ينتصب قرب دار البريد، وهو محجوز كل ليلة ما بعد منتصف الليل لمجموعة من السكارى.. وهو كذلك طيبون وظرفاء.. ويشهد الله أنه ما خالطهم ولا نادمهم، لأن الخمرة لديه فلسفة، ولديهم عبث وفوضى، وهي عنده شهود وحضور، وعندهم تلاش وغياب. وهي عنده انفتاح على العمق بكل ما في العمق من أسرار، بينما هي عندهم سفاهة ومجون وشهوة عابرة.

وكالليالي السابقة التي يجدون فيها ما يشترون به زجاجات من الخمر، ها هم الآن متحلقون في صكت الأتباع حول القطب.. ولئن صبرت عليهم حتى يسري مفعول الخمرة فيهم، لتسمعنهم في حالة الحضرة لما يتجلى لهم ما يتجلى. !

أما المصباح الثالث، فيتدلى من عمود يقع قرب الحي القصديري المظلم.. من سنين كان لا يرى تحت ضوئه إلا طالب نجيب يراجع دروسه، وقد نجح في امتحان شهادة البكالوريا، والتحق بمعهد الأدب العربي بالجامعة.. ومن غريب ما حدث أنه لم يخلفه في مكانه سوى حمار بلا أهل، يخاف أن يقضي الليل في ظلام المروج المجاورة، فيأوي إلى بقعة الضوء.. ومن حين لآخر يحك ظهره وجنبيه بالعمود.

وقد تبدو لك هذه الصورة من نسج خيال متشائم عابث.. لكنها الواقع الحقيقي والحقيقة الواقعية المشهودة، فاطرد الظنون عن فكرك وروحك، وخذ العبرة إن كنت من الذين تنفعهم عبر الأيام وعظات الليالي.

أما المصباح الرابع الذي يتدلى من العمود الرابع، وقد تجد بعض الحرج وأنت تستمع إلى حديثي بشأنه، خاصة إن كنت متحرجا متزمتا.. أما أنا فلا أجد أي حرج في أن أحدثك عن المصباح الرابع الذي يتدلى من العمود الرابع، خاصة وأن كل الناس يعرفون..

إنه يقع مقابل كوخ امرأة سيئة السمعة !.. نعم هذا كل ما في الأمر.. امرأة سيئة السمعة.. كان يتحلق تحته بعض الزناة وطلاب الشهوة في ساعات النصف الثاني من الليل.، حين ينزل الله سبحانه وتعالى إلى سماء الدنيا، فلعل داعيا أدعوه فيستجيب له، ولعل سائلا يسأله فيعطيه، ولعل مستغفرا يستغفره فيغفر له.. في هذه الساعات القدسية لا يحلو لهؤلاء الأشقياء إلا المعاصي والزنا !.. "قتل الإنسان ما أكفره" !

وكانت تعطيهم الإشارة بشمعة تشتعل وتنطفئ في كوة في جدا الكوخ.. ولا بد أن تعرف مصير زوجها، لقد قتل في مظاهرة كانت تطالب بالكرامة والخبز والحرية.. كان ذلك في عهد الحزب الواحد.، أما الآن فقد تعددت الأحزاب، ولا كرامة، ولا خبز ولا حرية !.. فلماذا انشطر الحزب الواحد كالبراميسيوم؟..

هذا كله كان من زمان.. أما الآن، فقد تفرق طلاب الشهوة والزناة..، فقد قرر "سلفية القرية" ذات صيف أن ينهوا عن المنكر، فحاصروا كوخ العاهرة وإني أسميها هكذا ببالغ الألم مخافة أن أظلم – ورشوه بالبنزين وأشعلوا فيه النار تحت هتاف "الله أكبر":.. وما أسهل ما التقمته النار، لأنه كان من خشب وطين وصفيح.. ومن حسن حظها أنها أفلتت بأعجوبة هي وابنتها الوحيدة.. التي تصلح لتكون بذرة للخطيئة.. وضاعت في بلاد الناس..

وهذا مجرد استنتاج، لأنه لم يعثر في الغد على جثتها ولا جثة ابنتها متفحمة بين المتاع القليل المحترق.

أي نعم.. كانوا يكبرون عبيد الوهم !.. وقد حبلت بعد اختفاء العاهرة بعض فتيات القرية.

عند هذا الحد قطع صمت تفكيره مدندنا برباعية "الخيام".. بترجمة غير مشهورة، وقد اختار لها لحن نشيد "جزائرنا يا بلاد الجدود."

وقال لمومسة ذو غضون بعينيك وعد.. ألا تستحين؟

فقالت: صدقت.. كذلك نحن.. فهل أنتم مثلما تظهرون؟.

وأعجبه ‘ن الخف النسوي في اصطدامه بحافريه، قد ساعده في إحداث الإيقاع اللازم.. وكان الطريق مستقيما أمامه، فود لو يرددها ويمشي مشية الاستعراض العسكري، وما زهده في ذلك سوى أنه لا أحد يراه.

هذه هي بقع الضوء الباقية في القرية بكل صراحة ووضوح.. وهؤلاء هم روادها الذين لا يخجلون أن يظهروا على حقيقتهم ول ليلا على الأقل.. أما هذه المساحة الشاسعة العميقة من الظلام فالله أدرى بروادها والنفاس التي تلهث في خفاياها.. إنها مساحة للمزيفين من كل الاتجاهات.. للذين يتقنون اللعبة.

منذ أن قتل عازف القيتار في مناورة الصحراء تبلدت الأحاسيس.. تسطحت العواطف.. تكلست المشاعر، أخرجت البداوة شطأها والصحراء..

والحقيقة أنه لو لم يقتل في مناورة الصحراء، لأسكته "سلفية القرية" بدعوى أنه يحسن تلاوة قرآن إبليس أو النفخ في مزماره.. فخير له أن يقال عنه "شهيد الواجب الوطني" – ولو إلى حين – من أن يقال له:" فاسق القرية" أو فاجرها، أو كافرها حتى. !!

ومنذ أن أحرقوا كوخ تلك المرأة، التي قد تكون تابت في بلاد الناس، منذ ذلك الحين بدأت تظهر أوساخ العهر في أزقة القرية.. ومنذ أن انسحب الزناة المعروفون من بقعة الضوء، كثر الزناة السريون الشرفاء.. الذين قد يصفق لهم الناس بحرارة، وقد يستمعون إلى مواعظهم في خشوع وروحانية بالغة..

ليس له هدف فيقصده، أو منتهى يسعى إليه، حسبه أن يمشي مسربلا بالظلام الندي البليل.. حسبه أن يمضي مملوءا بالهواجس والوساوس والفوضى.. مطعونا في العمق بما يدمي الروح والقلب معا.. مفكرا في ما يخفيه الظلام الصموت.. متمنيا لو أن الله يرفع الظلام فجأة !.. هكذا فجأة.. ويسكب ضوء الشمس فجأة.. حينها، فإن كثير من الناس يضبطون في غير مواقعهم !.. آه لو أن الله سبحانه يفعل ذلك. !

انيسه صوت الخف النسوي وهو يصطك بباطن حافريه كلما وضع خطوة أو رفع أخرى.. من شارع إلى شارع، من زقاق إلى زقاق.. الكلاب تتهارش حول أكياس القمامة.. القطط تموء مهاجمة أو مدافعة.. وهذه نقالة "عمي سعيد" الزبال، فيها مسحاته التي تآكلت فصارت كالهلال، وفيها مكنسته التي تقوست فصارت تشبه المشعل الذي يرمز به للأمجاد.. أي أمجاد..

لقد رضي المسكين باسمه الوظيفي كاملا "عمي سعيد الزبال"، ليظل الآخرون أنقياء أطهارا، رغم أنه لا يجمع سوى أوساخهم، لا يحررهم إلا من قذارتهم..

هذا الاسم أزعج كثير أبناءه الصغار، كما أن مرآه – دون آباء الأطفال الآخرين – يدفع نقالة مملوءة بالأوساخ، يطوف بها الذباب الشره، مرآه هذا جعلهم لا يكبرون بالسرعة اللازمة.. وإنهم لينتظرون بفارغ الصبر متى يعثر أبوهم على عمل شريف نظيف، فيضرمون النار في النقالة والمسحاة والمكنسة..

وهذه عربة "عز الدين الحوات".. وكم يضفي على القرية مسحة جمالية ساحرة، وهو يطوف بين البيوت دافعا عربته أمامه، مناديا بصوته الجبلي الجميل: "إقل الحوت قبل أن تموت".. بينما قطط صغيرة تحف به عن يمين وعن شمال ، مسحورة برائحة السردين، وقد انتصبت أذنابها، وكان من حين لآخر يرمي لها ببعض السمك الذي احمرت عيونه، وعندما يقترب منتصف النهار، يتمنى لو أن الله خلق السمك بلا عيون.. !

أما يوم الخميس وهو يوم السوق الأسبوعي للقرية، فإن نصف ضجيج السوق وفوضاه، يصدر عن حنجرته، وحين ينفض السوق ظهرا أو بعده بقليل، ترى "عز الدين الحوات" جالسا إلى طاولة مقهى، وأمامه كأس شاي، وهو يعصر فيها ليمونة أو ليمونتين مع ملعقة

من عسل، ليعالج به كحة وبحة وأمراضا أخرى، استعدادا للمقابلة الرياضية غدا، إذ أنه مشجع ممتاز لفريق القرية الرياضي، ونصف الهتافات في الملعب، إنما تنطلق من حنجرته أيضا..

وإذا كان هناك شغب ما، فإنه هو المسؤول عنه !.. باختصار إنه كيس كبير من الضجيج !.. لكنه طيب ولطيف والله..

وخلف هذا الجدار المهترئ المتداعي، ينام في هذه اللحظة أحد أبطال حرب التحرير.. اسمه الثوري "العفريت" لكثرة حركته وبراعته واستهتاره بالموت.. حتى أن أصحابه القدامى احتاروا كيف سوف يستدرجه الموت يوما ما ؟ !.. هل سمعت الآن سعالا حادا؟ !.. إنه هو.. إنه صادر عن صدره، وكثيرا ما يعقب على هذا السعال والبصاق المهترئ بقوله: "أعلتنا طريق تونس.."

وكم يحلو معه السمر والسهر، خاصة عندما يذكر من ماتوا ويقارنهم بمن عاشوا.. ويستفيض في شرح لماذا يموت الرجال ويبقى الجبناء.. عندها يصير كالوحش المسعور، لا ينطق إلا بالبذاءة والسفاهة والكلام الذي لا تطيق سماعه في حضرة من تحترم..

فهو يلعن الحزب الواحد – وهو منخرط فيه !– ويتهمه بالتواطؤ.. مع من؟.. ضد من؟.. إنه لا يريد أن يبوح بالإجابة.. ويلعن الأحزاب ويتهمها بالطمع وقلة –بل انعدام– الروح النضالية لديها.. ويسب الشيوعيين ويصفهم بـ" الكلاب الضالة".. ويشتم الإسلاميين، ويرميهم بالبدعة في الدين والمتاجرة به.. ويحقد على الوطنيين ويتهمهم بالنفعية والعمالة والارتزاق.. بل إنه يسميهم "البطنيون" – من البطن –.. ويصف الليبيراليين بأنهم أبناء "قياد" و"بقايا كولون"... ولا تحسبن أنك قد نجوت إن لم تكن من هؤلاء جميعا، فهو يرمي من تخلف عن هؤلاء جميعا بالنفاق. !فأين تذهبون.. !!

وكثيرا ما كان يختم حديثه مع الشاب الذين يسهرون معه، يختمه متنهدا ويقول: "كانت المبادئ فخا خطيرا وقع فيه الرجال.. فاحذروا، كل ثورة تنطلق بالمبادئ وتنتهي بالمصالح.."

ورغم أنه صادق في بغضه للجميع، فإن الجميع يحبونه لوجه هذا الصدق في البغض.. ويحبونه كذلك تملقا وتزلفا.. لئلا يكشف علاقة الأجداد أو الآباء بالثورة أو بالاستعمار..

وقف "منصور" ببابه.. ود أن يطرق عليه الباب، ليكمل معه ما تبقى من ساعات الليل، لكنه خاف أن يسبه ويشتمه، فواصل طريقه نحو داره بعد هذا الضلال الليلي، الذي استلطف فيه وجه القرية نائمة، قبل أن يعكره الناس ويزيفونه حين يستيقظون.. !

دخل الغرفة.. جلس إلى الطاولة.. أدار مفتاح المذياع على إذاعة "مونتي كارلو"، وراح يكتب بعض انطباعاته وخواطره.. وبعد أن سود ورقتين، هب واقفا، ونظر نحو صورة أبيه، وحياه تحية عسكرية، وقال مبتسما بصوت متعب، بعد أن رأى أن أباه قد رضي عن هذه التحية:

–هكذا تحبون جميعا أن نحييكم.. حتى "الشيخ" يود لو نحييه هكذا عندما يعتلي المنبر.. كل واحد فيكم يستبطن جنرالا أو عقيدا ما واتته الظروف.. !

ثم أطفأ المصباح ونام.

رغم أن السيارة كانت تقطع الطريق بين المدينة وبين القرية بسرعة تفوق صلاحية الطريق لتلك السعة، لما فيه من حفر ومطبات، إلا أنها – من شوقها وقلقها – كانت تبدو لها أن تمشي كالسلحفاة العجوز.. إنها تود لو أنها طارت، أو أن المسافة تطوى طيا، والأرض تختزل اختزالا.. فمنذ أن وصلها خبره البارحة وهي باكية حزينة.. مهمومة كاسفة البال.. وللحق فإنها لم تفاجأ أن يلقى هذا المصير؛ فشقاوته تجاوزت الحدود، وطفليته تأبى أن تتركه ينخرط في حياة الرجال أو الذين في مثل سنه..

ويا طالما نصحته وأشفقت عليه.. وأسرت له وأعلنت.. ويا طالما زجرت ونهرت، ونهت وأمرت؛ ويشهد الله أنها لا تنساه بالدعاء في كل صلاتها؛ ويشهد الله كذلك أنه الوحيد من بين أبنائها الذي تخصه بالدعاء، لكنه لم ينتفع بنصيحة أو إشفاق، ولم يفعل فيه شيئا إسرار أو إعلان.. ولم يحوله عن سبيله زجر أو نهر، ولا نهي أو أمر، ولا دعاء صلاة.. بل ظل هو هو.. يسخر من الناس جميعا، ويسخر منه الناس جميعا.. ويحبهم بلا استثناء خاصة الفقراء والمجانين.. لقد جرب الحب مرارا، فوجد نفسه لا يخسر شيئا، فداوم عليه، وإنه لفي حيرة من أمر الناس، لماذا يكرهون ويحقدون؟.. وفي ذلك إنهاك قلب واهتلاك أعصاب على الأقل.. !

أما هو فيحبه أكثر الفقراء والمعتوهين والمجانين..

في كل لحظة تنظر في ساعتها.. ثم تنظر خفية إلى ساعة في معصم شيخ يجلس جنبها.. إن ساعتها مضبوطة كما ينبغي !.. تود لو تبحث عن زمن آخر في ساعة ثالثة !.. تود لو أنها تستحث السائق كي يزيد في سرعة السيارة.. لكن الحياء كان يقبض على لسانها، رغم أنه في عمر ابنها أو أقل قليلا.. لكنها ما تعلمت كيف تخاطب الغرباء.

لما دخلت السيارة القرية، انتابها قشعريرة غريبة.. هي مزيج من رعشة الحنين وتثاؤب الذكريات.. وفيها ألم ورهبة ورغبة.. كأنها تدخل حرما !.. يعني أنها مزيج من الأحاسيس والمشاعر المتناقضة؛ فهنا عاشت بعض سنواتها كأحسن ما تكون الزوجة الصالحة السعيدة، للزوج الكريم المحب العطوف..

وهنا تجرعت أمر كاسات الألم، لما خطف منها الموت هذا الزوج الكريم المحب العطوف..

وهنا عاشرت الوحدة الباردة، واحتضنت الذكريات، ورأتها وهي تذوي وتذبل ذكرى فذكرى..

وهنا استأنست بالصمت القديم، وهو يقطر في القلب فيؤلم ويوجع..

وهنا ردت عن شرفها عشرات المخالب.. عشرات الأنياب.. عشرات العيون النهمة.. بل هنا قاومت وحاربت، وأبدت في المقاومة شجاعة واستبسالا.

وهنا مالت شمس شبابها نحو الغروب، وهبت على ربيع جمالها رياح الذبول.. وصمتت زقزقة الابتسامة بين الشفاه.. باختصار، هنا كانت بداية الموت، كما كانت بداية الحياة، فعلى الله العوض.. !

دفعت للسائق أجرته شاكرة، ومضت في سبيلها مديدة القامة، يميل جسدها نحو الامتلاء.. ذات محيا جميل، رغم أن الخمسين عاما بفجائعها وآلامها قد أتلفت الكثير من الحسن والجمال، ومحت الكثير من الأنوثة، كانت ترتدي جلبابا رماديا، وخمارا يشاكله في اللون، وكانت في ما مضى تنتقب، اما الآن، وقد ظنت أنه لم يبق في وجهها ما يثير رغبة الناس، فقد تخففت من النقاب، كاشفة عن وجه أبيض مدور، بأنف مستقيم، عوضه الحياء خيرا مما فقد.. ولها شفتان ما زال يطوف بهما شيء من حمرة واكتناز.. ورغم هذا كله، سقى الله أيام زمان.. !

ولم تكد تقطع من سبيلها صوب دارها إلا عشرات الأمتار، حتى حدثت منها التفاتة إلى الطريق الصاعد عن يمينها، فرأت دخانا يتصاعد، وألسنة لهب صغيرة تمزق حجب الدخان من بين كدسة أوراق.. حدقت أكثر، فاستيقنت أن الذي أخبرها كان صادقا، فسقطت مغشيا عليها.. ويعلم الله وحده كم سوف تدمر هذه الصدمة من روحها ونفسها.. لقد كان واقفا جنب "عمي سعيد" الزبال الذي كان يبدو محتجا، أما هو فقد كان يحاول استرضاءه بصوت واهن ضعيف.. كأنه لا يريد للآخرين أن يسمعوا ما يحدث بينهما..

ولما رأى الناس يسرعون صوب نقطة واحدة، راح يسرع هو كذلك، ولما وصل رأى أمه ملقاة على الرصيف لا تبدي حراكا.. شيء مفزع !.. تملكته رغبة في الصراخ والعويل، ولكنه تمالك نفسه.. وفي أقل من رمشة عين قذف إبليس في رأسه فكرة مجنونة، وهي أن يستغل الموقف لخداع الناس أكثر وتضليلهم، فراح ينادي بأعلى صوته:

-هات النقالة يا "عمي سعيد". هات المكنسة، فهنا كومة من طين.. هنا جيفة !!.. أس.

وما قطع صوته إلا أحد أصدقاء أبيه الأوفياء، وهو يصفعه بقوة، فسكت وهو يتحسس موقع الصفعة من خده بأطراف أصابعه، أما أمه فقد حملوها في سيارة إلى بيتها القديم.. ولما صارت بباب بيتها استرجعت وعيها، وتحاملت على نفسها، ودخلت يسندها صديق زوجها الشهم عن اليمين، وابنها عن الشمال.. وأجلساها في الغرفة التي كانت تستقبل فيها الضيوف وذوي الحاجات أيام زمان!.. أجلساها على أريكة قديمة متداعية، كساها الإهمال غبارا غطى كل زخارف قطيفتها.. وكانت المسكينة تقلب عينيها كالمصدومة المفجوعة المتعبة. قال صديق زوجها مخاطبا ابنها وهو يهم بالخروج:

-سأذهب، وسأعود مساء إن شاء الله.. فأحسن إلى أمك يا شقي..

-سيكون ذلك يا "عمي خليفة" إن شاء الله.. سأحسن إليها، إني لا املك أما سواها. قال هذه الجملة الخيرة، وهو ينظر إليها مبتسما كالمواسي..

نظرت إليه مندهشة متعجبة، لما سمعته يرد كأحسن ما يرد العقلاء المتأدبون.. في رقة الطيبين، وأدب الأبناء الذين يحفظون للوالدين قدرهم، ويرعون لكبار السن وقارهم وهيبتهم..

-منصور. نادت عليه بصوت واه حرزين، وقد مدت إليه يدها وراحت تمسح وجهه وجبينه وعينيه في رقة ملائكية، فأجابها وهو مستسلم لأناملها الناعمة الدافئة كالحمل الوديع:

-نعم يا أمي.. إني هنا. كيف حالك؟.

ثم ضم كفها إلى صدره، وراح يمسح عليها كأنه يمسح على ظهر عصفور أنهكته العاصفة.

-أتعبتني يا ولدي.. أتعبتني في طفولتك وفي شبابك. أجابته ودمعتان ترتعشان في عينيها كاللؤلؤتين، ثم فاضتا على خديها، فمد يده في رقة وأدب، وتتبع أثر الدمع على وجهها ومسحه، ثم طبع على كل عين قبلة عميقة هامسة، ثم أسند رأسه إلى صدرها، فسمع نشيجا مكتوما، فأمسك برأسها بين كفيه وسألها بحزن:

-أتبكين يا أمي؟.. ما الذي يبكيك؟

لم تجبه إلا بعد أن مدت يدها إلى حقيبتها، وأخذت منها منديلا ورديا.. قد تكون لها معه ذكرى عزيزة، لأنه دائما يراها تستعمله هو فقط على كثرة المناديل.. مسحت به دمعها، ومررته على أنفها كأنها تستنشق فيه رائحة شيء ما، ثم قالت:

-أبكي حظي المنكود يا ولدي، لقد أتعبتني هذه الحياة، لم آخذ منها حتى عشر ما أعطيت.. أعطيت صبرا مرا، وآلاما كبارا.. أعطيت احتراقا.. وكنت أنتظر أن تفيض على شمس السعادة، لكن ليل الأحزان يأبى أن ينقشع.. ليلي في قلبي يا ولدي. ثم مسحت على رأسه بحنان وواصلت:

-هل جننت حقا يا ولدي؟..

ابتسم لها، ومد يده إلى يدها التي صارت تداعبه الآن خلف أذنه، وأجاب:

-وما الداعي إلى ذلك يا أمي؟.. ليس في مقدور أي كان، أن يصير مجنونا لأنه يريد ذلك، كما أنه ليس في مقدور المجنون أن يكون عاقلا متى شاء.. وكما ترين، فقد كتب الله علي أن أكون عاقلا، وأن أشقى بعقلي وأشقيك معي.. فصبر جميل.

-ولماذا كنت واقفا مع "سعيد الزبال" لو لم تكن مجنونا؟. قالت وقد خلعت خمارها وراحت تخلل شعرها الكستنائي بأصابعها فبدت أجمل وأبهى.

-اطمئني يا أمي.. والله لم أكن واقفا، بل هو الذي كان واقفا معي، وأنا أحرق كومة من الأوراق.

انقبضت أساريرها بعد ابتهاج، وسألته وفي صوتها حدة غضب خفيف:

-هذا دليل على أن عقلك قد اختبل.. لماذا تحرق كومة الأوراق إن كنت عاقلا؟ !

-إنهم كلهم يحرقون الأوراق.. ابتداء من الرئيس وانتهاء بعمي "سعيد الزبال".. فلماذا أنا فقط أنهم بالجنون لما أريد أن أنظف واقعهم؟

ثم واصل بعد صمت قصير، لما لم يسمع من أمه أي رد أو جواب:

-أنا لست مجنونا يا أمي.. والله لست مجنونا.. إنما يقولون عني ذلك، لكي يفقد قولي فيهم وحكمي عليهم بمصداقيته.. أنا أريد أن أضحك على الناس، وأكشف لهم ضحالة فكرهم وخواء روحهم.. لكنني لا أنكر يا أمي أني شقي من الطراز الأول وقلق بامتياز.

في هذه اللحظة سمع كأن الباب يطرق، وكأن مناديا ينادي: يا "منصور"، فهرع إلى الباب وفتحه، فألقى لديه "عمي خليفة" يحمل بين ذراعيه أكياسا بلاستيكية، فيها خبز ولحم وفواكه مختلفة وزجاجة مشروبات، فناوله كل هذا وهو يوصيه:

-أكرم أمك يا "منصور"، ولا تكثر عليها بالسفسطة والكلام الرخيص.

ولما عاد إليها بالغرفة يحمل كل هذا الرزق، سألته أمه متعجبة؟.

-أنى لك كل هذا الرزق؟ !.. من أحضر لنا كل هذا الرزق؟.

-إنه "عمي خليفة" يا أمي..

-يأبى هذا الرجل إلا أن يبقى وفيا لأيام لم يبق منها غير صدى الذكريات.. جزاه الله خيرا، وبارك له في أهله وماله.. ما أقل هذا الطراز من الرجال. !

ثم راحت تفتح أزرار الجلباب، وخلعته ووضعته جانبا.. وكأنها شعرت ببعض الاختناق في الغرفة، فقامت إلى النافذة تريد فتحها، فما كان منه إلا أن قفز أمامها، وجثا على ركبتيه كما يفعل الممثل البارع، وقال وهو يمسك بأطرافها فستانها الجميل:

-أرجوك !.. أستحلفك بحق السماء.. أتوسل إليك ألا تفتحي النافذة، إني أخاف أن تطير مجموعة من الشياطين هي هنا في فترة تكوينية !!

لكن أمه أنكرت عليه منطقه هذا بنظرة غاضبة من عينيها، ولم تأبه لمزاحه الثقيل، بل فتحت النافذة وهي تقول:

-لتذهب شياطينك إلى الجحيم، ولتدخل ملائكة الله.

وكأن الملائكة قد دخلت، فحركت بهفيف أجنحتها خصلات شعرها، وأنعشت روحها وقلبها، فراحت تستغفر وتحمد الله على ما خفي من نعمه وما ظهر، وتدعوه بكلام غير مسموع.. ربما تدعو له وتخاف أن يسمعها فيتكل على دعائها. ثم التفتت إلى الوراء، وحملت كل ذلك الرزق إلى المطبخ، وابنها يتبعها كالهر المدلل، أو كالطفل الصغير المشاغب، وظل معها يمازحها ويلاعبها ويلاطفها، تماما كما عرفته من قبل، لا يتحرج حينا، ولا يخجل، وكم تحب فيه شقاوته الطفلية التي أبت أن تفارقه أو أبى أن يفارقها، وإن كانت تظهر له عكس هذا تماما..

منذ أن كان صغيرا يعجبها كثيرا أن يسألها عن أبيه.. فمن حين لآخر يطرح عليها أسئلة تود لو تقضي العمر كله في الإجابة عنها.. أسئلة تثير ماضيا كان جميلا.. ربما لأنه كان قصيرا.. لكنه منعش للروح والقلب والفكر.. لا شيء ألذ من مرارة الذكريات !!

مر الفضوليون بالبيت، وهم لا يشكون أنهم سوف يسمعونها تبكي وتنوح.. بل إنهم مروا ليسمعوها كيف تبكي وتنوح.. لكنهم تفاجأوا لما سمعوها تضحك.. بل تقهقه من حين لآخر كأسعد ما تكون السيدة الكريمة، حين تلم بمغنى شبابها ومهوى ذكرياتها الأولى.. وكانت رائحة اللحم المقلي تتسرب عبر النوافذ والأبواب، فتثير شهية بعض الفضوليين.. بل إنها تثير شهيتهم جميعا، فتنحرف بتفكيرهم واهتمامهم إلى بطونهم..

وفي وقت الغداء ألح على أمه أن يتغذيا في غرفة نومه، لتحل في بركتها وما أعظم بركة الوالدين.. فلم تمانع، بل حملت المائدة الصغيرة، وسارت خلفه، ولما فتح الباب ورأت غرفته دهشت وصاحت:

-هذه مزبلة !.. هذه مزبلة يا مجنون !!.

فقاطعها وهو يتناول عنها المائدة لما رآها ترتعش بين يديها:

-أقسم عليك بالله إلا دخلت، وأقسم عليك بالله ثلاثا ألا ترتبي فيها شيء.. دعيها كما هي أحسن، فإني تاركها هكذا لحكمة بالغة وهدف نظيف.

ضغطت الأم بسبابتها وإبهامها على منخريها كي لا تشم هذه العفونة، ودخلت – أو اقتحمت أحسن – هذه الفوضى العبقة برائحة السجائر وعفونة الجوارب والأحذية وظلت واقفة تقلب نظرها المشدوه في كل اتجاه، مأخوذة بكل ما تشم وبكل ما ترى.. بينما كان هو هادئا يتنفس بملء رئتيه، وينظر باتساع عينيه، كأنه في خميلة ندية.. يسعى بين هذه الغرفة وغرفة الاستقبال، وأحضر ثلاثة كراسي، ووضعها حول المائدة، ولما رأت أمه هذا، سألته غاضبة، وكأن صوتها مضحكا، كأنها تخنخن، لأنها مازالت ضاغطة على منخريها:

-لمن الكرسي الثالث؟ !.. لشيطانك؟ !

فأجابها وهو يضغط على منخريه بسبابته وإبهامه، ويشير إلى صورة أبيه، الذي كان ينظر بشوق خجول.. وإن كان يتظاهر بالرزانة والوقار:

-لهذا.. أنسيته؟ !.. الله ما أسرع ما تنسى النساء. !

نظرت في غير قصد منها ولا شعور، حيث أشار ابنها.. التقت عيناها بعينيه.. أوشك أن يبتسم لها.. أحبت لو يستطيع أن يفعل ذلك.. يا ليته فعل، بل إنه يفعل خفية عن ابنه.. شعرت ببعض الخجل.. كست وجهها مسحة حزن وحنين وشوق.. انشغلت عنه لحظات بترتيب المائدة التي كانت مرتبة تماما، ثم رفعت نحوه رأسها مرة أخرى.. ما زال يحدق بها بشغف وشوق صموت.. كأنه في لحظة صلاة.. كأنه يريد أن يقول لها: أنظري أكثر وأكثر وأكثر.. إنني مشتاق إليك.. أما زلت تذكرين أيامنا الماضية؟.. لقد أحسنت إليك ما استطعت، وأحببتك قدر ما استطعت.. لقد أعطيتك في سنوات حب قرون.. كأنني كنت أعلم أنني سوف أتركك وحدك تقاسين الوحدة والصمت.. آه لو تعود إلي روحي يا حبيبتي. !

راحت ترنو إليه بتلهف وحنان كالغزالة الفزعة.. ولم تدر كيف أفلتت منها تنهيدة حارة عميقة، فيها ما فيها من الشوق والحسرة والحب، وحالات أخرى لا اسم لها.. وأبى ابنها أن يترك التنهيدة تمر وتتلاشى على وجه من أرسلت إليه، دون أن يعلق عليها، وكأنه أراد أن يترجم تلك التنهيدة إلى كلمات:

-هكذا الأيام.. يا حسرة القلب !. فانتبهت إليه ونهرته وهي تكاد تبتسم:

-اخجل يا ولد !.. أنا ما كنت إليه.. إنما كنت أنظر إلى الحائط الذي تقشر طلاؤه واغبر.

-صدقتك يا أمي.. صدقتك – قال مداعبا – فكم من طلاء تقشر واغبر، وتفتت وصار غبارا، لتبقى الحقيقة كما هي، لا تحول ولا تزول.. وما أقدس الحقيقة التي تنطبق عليها أجنحة القلب.. إيه.. كم ضحكت بعده وبكيت، وتذكرت ونسيت.. كم رضيت وكم شقيت.. وكم لبست وكم أبليت.. وكم وكم وكم.. لكن عيون هذا الرجل ستظلان شوكتين تنكآن الجرح كما اندمل.. وتنفخان في رماد الذكريات كلما هدأ واستقر.. وتفتحان عيون الأيام الماضيات كلما غفت..

عيونه يا هذي المرأة.. صمته.. سمته.. طيبته، اتساع جبينه.. شفتاه، كل هذا جزء من روحنا.. من دمنا.. من هويتنا، فلماذا ننكر ذلك؟.. لماذا نتحايل حين نظهر، ونتحايل حين نخفي؟.. ونتحايل حين نريد أن نسلك بين ذلك سبيلا؟.

سدت فمه بشريحة لحم دافئة يقطر زيتها وشحمها المذاب.. وهي تقول ضاحكة كما كانت تضحك حين تدغدغها السنوات العشرون من عمرها.. مسكينة.. كانت تظن أن لن تهب على سعادتها ريح الخريف ولا أعاصير الشتاء:!

-الله !.. كم أنت شقي يا ولد !.. لقد صرت كبيرا يا "منصور"، ولا بد أن تتعلم كيف تستحي من أمك.. خاصة، وأني قد صرت عجوزا أنتظر الموت على شرفة الأيام الباقية.

-مثلك لن تصير عجوزا يا أمي – أجابها وهو يزدرد شريحة اللحم – إنك مؤمنة بالله، وقلبك خال من الحقد والحسد والأنانية، ولا شيء أنفع لمحو تجاعيد الوجه كالصدق والطيبة والقناعة.

-أنت تكذب يا "منصور" لا شيء يمحو التجاعيد يا ولدي.. لا شيء يمحو ما يكتب الزمن.

-أنا لست الذي قال هذا.. إنما قاله الشيخ "أبو علي بن الحسين صادق السرسوبي..."

لما سمعت أمه هذا الاسم الفخم الضخم، والذي لا وجود له في قائمة الأعلام، لو كانت تعلم، لما سمعته أطرقت برأسها قليلا، وقالت:

-إنه صادق يا ولدي.. القدامى لا يقولون إلا الحكمة ولا يتكلمون إلا الصدق.

لم يشأ أن يعلق على كلام أمه وموقفها بشيء.. فأمه ليست إلا فردا من الناس.. الذين يظنون أن القدامى تنزلوا من أصلاب الملائكة !.. إنما قام إلى صورة أبيه وانتزعها من مكانها، وأسندها إلى مسند الكرسي الثالث، وخاطب أمه:

–هيا بسم الله.. الآن يلذ الأكل وتحلو الحياة، وتتنزل القناعة والبركة..

قالت أمه في لهجة دافئة، فيها قساوة ظاهرية مصطنعة:

–والله إنك لمجنون.. كيف تريدني أن أصدق أنك ما زلت على شيء من العقل، وأنت لا تخجل من أمك ولا أبيك.. آه لو ما زال حيا لرأيت. !

أجابها وهو يلقمها شريحة لحم، بينما هي منهمكة في مضغ أخرى:

–بالفعل لا ينقصني سوى قسوته وقوته.. منذ أن ولدت وأنا أتوكأ على عطفك وحنانك فقط، ولهذا أبدو لك أعرج.

تنهدت امه تنهد من يشعر بالراحة، بعدما أزاح عن كتفيه حملا ثقيلا، وقالت وهي تدفع إلى جهته من الصحن شريحة لحم أخيرة، فيعيدها إلى جهتها حبا وإيثارا:

–غفر الله لنا.. والله لقد ضحكت كما كنت أضحك في سالف الأيام.

فقال لها وهو يمد يده مداعبا إلى كم فستانها الجميل، متظاهرا بأنه يريد أن يمسح فمه، فتنهره هي مداعبة كذلك بأن تضربه على ظهر كفه:

–ليس ذنبا أن نضحك يا أمي.. إنما الذنب أن نحزن ونكفهر.. أن ننقبض.. أن نمسح من وجوهنا البشر.. أن نكبت المشاعر الإنسانية النبيلة التي ترفرف في غرور فراشات الربيع، تريد أن يكون لها نصيب تحت شمس الحياة، نصيب لا يقل عن نصيب النميمة والحسد والهمز واللمز..

–الحمد لله يا ولدي، فقد وقاني الله هذه الأمراض كلها.

–إذن فابشري يا أماه – قالها بصوت مرتفع قليلا كأنه يمثل – لك الجنة إن شاء الله.

تنهدت وأجابت:

–يا ليت ذاك يكون يا ولدي.. وما تأكل جهنم إن نجونا منها نحن المذنبين؟.

–تأكل الاخرين يا أمي – قالها وقد اكتأم أمامها ممسكا بطرفي كتفيها – تأكل الشيخ "عزوز".. تأكل "عمي مبار".

–أسكت ! –قاطعته في حدة وشدة غضب – دعك من الناس.. هل صرت رقيبا عليهم؟..

إن بقيت هكذا سوف تأكلك حتى أنت. !

صدقت أمه.. ماله وللناس؟، ماذا سيجني لو يدخل إلى النار "زيد" أو "عمرو"؟.. وماذا سيخسر لو يدخل الجنة؟.. وأين ذنوب "الشيخ عزوز" من رحمة الله وواسع مغفرته؟ !.. وهل ضاقت الجنة عن أمثال هذا الرجل المسكين، الذي كلما سمع أن امرأة فقيرة قد وضعت يرسل إليها بكبد الذبيحة والطحال.. هذا يكفيه ليدخل الجنة.

شعر بالحرج الكبير، لأنه أحس بعدم الانسجام بين فكره وشعوره ولسانه وفوضاه.. إذن هناك خلل ما يجب أن يصلح.

وحين انتبه إلى نفسه من شروده القصير، رأى أمه تسترق النظر إلى أبيه على مسند الأريكة، فقال لها وهو يهب واقفا، متظاهرا أنه ما لاحظ شيئا:

-سأعود إليك بعد خمس دقائق.. لا بد أن تشربي عصير التفاح، فزجاجة المشروبات هذه من النوع الرديء.

-رديء فمك يا ناكر المعروف !.. -ردت عليه أمه تنهره- ألا يكفي كرمه ووفاؤه لتكون لذيذة مريئة؟. !

لكنه كان قد خرج، وحين سمعت هي صرير باب الحديقة المعدني الصدئ، اطمأنت إلى أنه قد خرج فعلا، فتناولت صورة المرحوم، ووضعتها على ركبتيها، وراحت تنظر إليها من خلال الدموع المتساقطة في صمت.. وكانت تقاسيم الصورة -من خلال الدموع- ترتعش كأنها تحاول أن تنتفض.. أن تحيا.. مدت أناملها المرتعشة لتتلمس جبينه الواسع وعينيه العميقتين، والشفاه المطبقة كهديل الحمام !.. كأنه يحدثها من قبره، أخذت منديلها المبتل بالدمع ومسحت به زجاج الإطار، خيل إليها أن صورته قد تغيرت نحو الأحسن. قربت وجهه من فمها. بل قربت فمه من فمها.. زفرت فيه زفرة هادئة دافئة، فصار وجهه لا يظهر إلا قليلا.. كأنه طالع من غمام الصباح، مسحت بالمنديل، خيل إليها أن صورته تغيرت أكثر.. ودت لو نفخت فيه من روحها لتنبسط الأسارير، وتتحرك الرموش، ويتورد الخدان، وتتفرج الشفتان عن بسمته الرائعة.. لله بسمته الرائعة !.. ما أوجع بسمته الصافية الوديعة !!.. ماذا لو أنها تومض شيئا قليلا.. كالبرق الخلب في عمق الصحراء.. كالسراب يلوح في نهاية المدى..

ماذا لو أن شعره يتحرك أمام أنفاسها الحرى كما تتحرك الأعشاب البرية أمام نسيم الآصال البحرية؟.. ماذا لو أن شفتيه تتفرجان شيئا قليلا.. قليلا فقط، لتقولا لها كلمة أثيرة لم تسمعها منذ حوالي ثلاثين سنة؟.. كلمة واحدة فقط تمسح بها عن قلبها صديد الأيام.. آه لو يقولها، ثو يعود بعدها إلى صمته الأبدي.. يا رب !

إيه يا هذا الجبين.. وآه يا هذي العيون.. وألف واه يا هذي الشفاه.. !

يبدو لها من حين لآخر أن صورته ترتعش.. تنتفض.. تتراقص كالعصفور المبتل كأن قشعريرة الحياة قد سرت فيها.. تمسح عينيها لتتأكد.. تعود الصورة إلى صمتها المحزن الحزين.

ولم تدر أية عاطفة لا تقهر جذبت الصورة إلى صدرها.. ولم تدر بأية قوة ضغطت فكاد زجاج الإطار ينكسر.. وكادت قشعريرة غريبة أن تلحق بها في أقطار السماوات، لو لا شعورها بارتخاء حنون، وتعب فاتر شهي، ما أروعه لو يدوم. !

ولما رفعت الصورة قدام عينيها، وهوت عليها بكل شغف لتطبع بشفتين قبلة حارة على شفتين باردتين.. شفتين من زجاج !.. عندها صاح "منصور" من خلف زجاج النافذة مبتسما:

-كان في عائلتنا مجنون واحد.. والآن صرنا اثنين !.. شيء رائع، لا بد من رفيق أستعين به على مشاق الطريق.

فانخطفت نحوه بعدما أعادت الصورة إلى مكانها من الكرسي، وعلى غير شعور منها رمته بالمنديل الذي أثقلته الدموع، وقامت إليه وهي تقول:

-يا لك من ولد شقي !.. أين عصير التفاح، أم كنت تتجسس علي؟.. سترى. !

وخرجت من البيت، وراحت تعدو خلفه بقضيب كالبرعم، وكان هو يفر منها ويتقيها بشجيرات الفواكه الهرمة ومشاتل الورد المتروكة، وكانت هي ترميه بكل ما تجد من طوب صغير وأغصان مهترئة وبراعم، وهي تقول له مبتسمة:

-سأريك أيها الشقي.. سأعلمك كيف لا تتجسس على أمك مرة أخرى.

ويبدو أنها شعرت بالتعب اللطيف.. أو ربما خافت من عيون الناس وألسنتهم، فأسندت ظهرها إلى دالية، زرعاها معا في اليوم الثالث من زواجهما، صارت الآن عريشة ذات ثمر وظل لو لا الإهمال. أما هو فكان يطل عليها من زاوية البيت كالطفل الصغير الذي أعجبته اللعبة..

فعلا إنه يأبى أن يكبر.. يأبى أن يتخلى عن شقاوة الطفولة وشيطنتها..

ولماذا يصير كبيرا يا أمه؟.. أليست الطفولة أحسن؟..

فيها كل ما نطمح إليه؛ فيها البراءة، القناعة، السعادة، الحقيقة، الجمال، وفيها الوضوح والفرح.. لو لم يكن طفلا لما أدخل على قلبك كل هذا السرور والفرح..

لو لم يكن طفلا لبكيت بكاء طويلا، ولأصابك غم كبير..

لماذا يصير كبيرا.. وما جنيت من الذين صاروا كبارا، إلا الرسائل الباردة من حين لحين.. فيها عواطف كالدمى الباردة، أو أحاديث تلفون محسوبة بالدقيقة لا تدغدغ حنينا، ولا تستشير قلبا، ولا تنفخ دفئا في ذكريات.

لماذا يصير كبيرا يا أمه؟.. وماذا جنيت من الذين صاروا كبارا؟.. لا شيء !..كوني صادقة صريحة.. لا شيء.

أما هو، فيكفيه أنه دغدغ حنينك بشقاوته، وفك عواطفك من قيود العرف، فانطلقت تمرح وتفرح..

هي دقائق من السعادة لا يوقرها إلا هو.. أما الآخرون المتضغطون كالسردين في علب "عيب !" و"يجوز، ولا يجوز"، هؤلاء سينكرون عليك كل هذا، بل يظنون بك الظنون.. بل ربما سيطلقون فيك ألسنتهم ترتع في عرضك على هواها؛ فما ينبغي – في نظرهم المشوه – لأرملة في الخمسين من عمرها أن تفرح.. أن تضحك.. أن تقهقه.. أن تعدو في حديقة بيتها حاسرة الرأس مفكوكة الضفائر. !

إلا هو فقط يغريك بحماقات ربيع العمر في خريفه..

إلا هو فقط يجعلك تناغين صورة خلف الزجاج البارد.

حينها يرتعش قلبك.. تهتز عواطفك.. يجيش خاطرك، فتجدين في حلقك ريقا كان يسمى الرضاب في الزمان الأول. !!

انتبهت إلى نفسها فوجدتها سابحة في خواطر شتى، كلها تدعو إلى الاسترخاء، وترغب في إغماض العينين من أجل رؤية أكثر وضوحا، وتبعث كلها في الجسد القشعريرة الباردة الدافئة.. !

رفعت عينيها إلى السماء، وتنهدت بين يدي الله سبحانه، وراحت تسأله في ضراعة وخشوع:

-يا رب !.. يا ربي استره ووفقه إلى كل خير، فإنه أجمل هدية منك، وأغلى ذكرى من المرحوم

* * *

ومكثت معه ثلاثة أيام، رتبت خلالها البيت كله إلا غرفته، ونفضت الستائر إلا ستائر نافذته، بعد أن توسل إليها ألا تمس غرفته بأي تغيير، فقبلت منه ذلك كارهة بعد أن وعدها أنه سوف يرتبها وينفض ستائرها لما يكون الوقت مناسبا.

وزارت بعض الجيران وذوي القرب، وأحسنت إلى فقراء ومساكين، كانت تحسن إليهم كلما ألمت بالقرية أو حلت بها زائرة، فصاروا ينتظرون إحسانها كحق لهم معلوم، وكواجب عليها؟ !

وزرات قبر زوجها، وقرأت على روحه "الفاتحة" ونورت شاهدتيه بشمعتين، وسكبت على ثراه قارورة عطر.

وصلت الجمعة بالمسجد، وتبرعت بعقد ذهبي لصالح مشروع إعلان المئذنة، التي ستكون بعد عام أو أقل، أجمل وأكثر امتدادا في الفضاء، كما سمعت "الشيخ" يقول بحماس فياض.

أما هو فلم يكن معها حين زارت من زارت، وأحسنت إلى من أحسنت.. ولم يرافقها إلى المقبرة لزيارة قبر أبيه، وكان أولى به أن يفعل ذلك، فلم ترغمه، خاصة لما قص عليها خبره مع المقبرة، فضحكت عليه كثيرا !، ولم يكن معها حين ذهبت إلى المسجد لصلاة الجمعة، ولو أنها استشارته قبل أن تتبرع بالعقد الذهبي، لأشار عليها بألا تفعل، لأن "سلفية القرية" يعميهم بريق الذهب هم كذلك.. كالآخرين تماما.. ! وما يدهشه فيهم هو قدرتهم أن يكونوا دائما على حق، وقدرتهم أن يجعلوا خصومهم دائما على باطل !.. شيء مدهش بالفعل. !!

ولما رأوه صباح السبت يركب سيارة أجرة رفقة أمه، قاصدا المدينة، أشاعوا من بعده في الناس، أن أمه أخذته لتعالجه مما ألم به. وأشاعوا بعد أيام من هذه الإشاعة أنهم رأوها تسعى به لدى الأطباء كاسفة البال حزينة القلب، وهو يتبعها زائغ البصر، شتيت الهوى.. وما كفوا عن الإرجاف حتى تحدثوا يوما أن أمه أدخلته إلى مستشفى "العثمانية"، ليس أملا في شفائه، وإنما رغبة في التخلص منه ومن شره !.. وعادت وخيدة حزينة، تثير الشفقة.

أما الطيبون –على قلتهم– فقد تأسفوا لذلك أشد الأسف، والمهم أن يكون عاقبة أمره. سرير في مستشفى المجانين، واعتبروا أن قريتهم قد فقدت فيه وجها متميزا وظلا خاصا، وروحا متفردة.

وأما غير الطيبين –وما أكثر لفيفهم– !، فربما أرضاهم ذلك من حيث يشعرون ولا يشعرون.. إذ أنهم لم يحسوا بألم لعاقبة أمره، ولا أسف على فقده، ولم يعتبروا أن قريتهم فقدت فيه شيئا ذا قيمة، اللهم إلا شابا فوضويا دائما، وقحا من حين لآخر، لكنهم لم ينكروا، – ولن يجدوا من يصدق إنكارهم إذا هم أنكروا – أنه كان طيب النفس، نقي السريرة، لطيفا كريما ما وجد، ولصا ظريفا ما احتاج وافتقد.

وأما المتسولون والمجانين، فربما أحسوا أنهم فقدوا أبا كريما رحيما، حين تبخل الأيام وتقسو، وما أمثر عليهم الأيام وتقسو !.. وفقدوا فيه وجها بشوشا، وما أكثر ما تعبس الوجوه في وجوههم. ولعلهم قد أحسوا بفقده صدرا حنونا، وهم الذين لم يذوقوا الحنان الصادق إلا على يديه، قليلون جدا أولئك المجانين والمتسولون الذين فهموا ما يتحدث به الناس في المقاهي والدكاكين والبيوت. ولو كان الجنون قد ترك لهم عقلا ليفرحوا لفرحوا لأنه صار منهم، ولو كان الجنون قد ترك لهم إحساسا بالحزن لأصابهم حزن عميق، لأن اليد التي طالما مدت إليهم بالعطاء قد قطعت، ولأن الصدر الذي طالما انفتح لهم بالحب الصادق قد انغلق، ولأن الوجه الذي طالما هش في وجوههم وبش، قد صار كوجوههم، بلا معنى.. بلا إيحاء.. بلا ظلال.

-احذر أن تكون كاذبا يا "ابن الهجالة" !.. والله ليعلقنك الله من أشفارك في جهنم. ! هكذا هدده "عمي صالح" القهواجي، وهو يفرك أذنه في غير رفق أو حنان.

فأجابه "ابن الهجالة" —كما سماه — وهو يحاول أن يخلص أذنه من بين أصابعه فقد أوجعته:

-والله إني لصادق يا "عمي صالح".. لقد رأيته يدخل الدار وخلفه امرأة منذ حوالي ساعتين تقريبا.

نظر "عمي صالح" في ساعته، وسأل الفتى وقد اتسعت عيناه أكثر:

-هل رأيت تلك المرأة بعينيك؟.. صفها لي يا "ابن الـــ"..

احمر وجه الفتى خجلا، وأطرق برأسه نحو الأرض حياء، فانحنى عليه قليلا، ورفع وجه الفتى من ذقنه بسبابته المسودة من مسحوق القهوة، وقال مشجعا:

-صفها لي ولا تستحي، فالشيخ قال: لا حياء في الدين.. صفها لي وسأعطيك قازوزة.

راحت انامل "ابن الهجالة" تعبث في علب السجائر والشمة الموضوعة في هذا الصندوق الصغير، المشدود إلى عنقه، الذي يصير طاولة صغيرة تنصب في مدخل الثانوية والمتوسطة وبعض المصالح العمومية الأخرى، وينتقل به في الأزقة والدروب، ثم قال بعد حين دون أن يرفع رأسه:

-كانت ترتدي فستانا يميل إلى الصفرة، وحذاء بكعب عال، وتتأبط حقيبة جلدية صغيرة، وعلى عينيها نظارة ذات زجاج أبيض.

فعاد "عمي صالح" يسأله متأففا:

-أوه !.. ما هذا قصدت !.. ما لونها؟.. هل هي ممتلئة الجسم؟

تناول "ابن الهجالة" القازوزة، ومسح فمها، وشرب منها جرعتين، ثم مسح فمه بكمه الممزق الملوث، قبل أن يقول بصوت يرعشه الحياء، فما كان يظن أن الكبار وقحون إلى هذا الحد:

-بيضاء ممتلئة.

-صحيح يا ولد؟ !. سأله "عمي صالح" وريقه يصطك في حلقه، وعيناه تتسعان أكثر.

-نعم والله لا أكذب، إني أخاف من الله أن يعلقني من أشفاري في جهنم.

وما أريد أن أواصل السر دون أن أعرفك بـ ."ابن الهجالة"، فهو فتى كما عرفت، قتل أبوه في ما يسمى بـ "أحداث أكتوبر 1988" بالعاصمة، حيث كان يشتغل خبازا، أما أمه، فهي أول فتاة تخرج على الناس في الحجاب الشرعي بهذه القرية، كان ذلك في أواسط السبعينات، وعندما تزوجت صارت لا تخرج إلا منقبة، أما الآن فهي تشتغل منظفة في مركب شركة "بويغ" الواقع على شاطئ البحر، أما هو فقد فقد لفظته المدرسة، فاتجه إلى الحياة العملية مفتتحا ببيع الشمة والسجائر، وحتما سوف يمد يده في المستقبل إلى أشياء قابلة للبيع غير الشمة والسجائر.. هذا فقط ما أردت لك أن تعرف عن هذا الفتى.

*　　　　　　*　　　　　　*

وما إن قضيت الصلاة وتفرق المصلون، حتى شاع خبر غريب في القرية.. وكل الأراجيف في هذه القرية تشاع عقب التفرق من الصلاة !.. لست أدري لماذا ! المهم، شاع الخبر الغريب الذي مفاده أن "منصورا" قد جاء إلى داره، ومعه فتاة شقراء، وهي الآن معه في الداخل !!

فأخذ بعض الفضوليين يمرون قدام داره، كي يطمئنوا إلى صحة الإشاعة، فإذا بهم يجدونها حقيقة لا ريب فيها !.. فالنافذة مفتوحة، ورائحة القهوة تنبعث مصحوبة بصوت المذياع، وصوت آخر كصوت الأنثى أو ضحكتها حين تريدها أن تكون مكتومة !!

واجتاز بعضهم باب الحديقة، ليطرقوا باب الدار منادين عليه، فلم يأذن لأي واحد منهم، وإنما كان يردهم قائلا وهو مستلق على الأريكة القديمة:

-لا وقت لي.. إني أستحم.

والله وحده يعلم كم هزتهم عبارة "إني أستحم" !.. كم استفزتهم واستثارتهم !.. وكم أنعشت خيالهم المجدب، فأعشب وأمرع بتصورات وأوهام متموجة رجراجة.. ولقد اختلفوا في تفسير حالة "إني أستحم".. "لا وقت لي.. إني أستحم".. لكنهم أجمعوا على أن "منصورا" في حالة عارمة من المتعة والنشوة.

وقد لمح بعضهم خيال امرأة خاف زجاج النافذة، الذي انعكست عليه أوراق الأشجار، وبعض سحب السماء، فجعلت الرؤية غير واضحة، ولكن مهما يكن من أمر، فإنه خيال امرأة مسدولة الشعر ممتلئة الجسم، تسعى في غير تحرج ولا تكلف.

ولقد ضحك "منصور" من كل قلبه، لما رأى "عمي السعيد" الزبال، يوقف نقالة الزبالة قبالة النافذة، ويتظاهر بأنه يجمع القمامة ويكنس الطريق، ومن حين لآخر يسترق النظر إلى النافذة.. فقد يكون هو محظوظا هذه المرة، فيرى ما لم يستطع الفضوليون أن يروه.. يرى الفتاة الجميلة الشقراء التي جاءت مع "منصور" من المدينة، حيث النساء جميلات ومتحررات.

وقد حالفه الحظ –على غير قصد من الحظ طبعا !- فرآها خلف كتفي "منصور" لما فتح القسم الزجاجي من النافذة، ليغلق المصراعين الخشبيين.. وقد كانت فعلا كما وصفها "ابن الهجالة".. شقراء وممتلئة !. ومضى يدفع نقالته كالمغموم المحموم، وحتما أنه سيقول لأول واحد يصادفه من الفضوليين: " إن ابن الهجالة كان من الصادقين".

ومما أسال لعاب الذين يمرون اللحظة قدام بينه، هو إغلاقه النوافذ جميعها، وإغلاقه الباب من الخارج، وتأكده من أنه مغلق مرة ومرتين، قبل أن يخرج إلى شوارع القرية للتسكع أو لشراء بعض لوازمه، ولوازم هذه المرأة الشقراء التي يتحدث عنها الناس.

وما كاد يحادي مقهى "عمي صالح" حتى ناداه هذا الأخير:

-منصور.. منصور.. على السلامة، أقبل يا مهبول.

-السلام عليكم "عمي صالح.."

-وعليكم السلام أيها المجنون.. أين كنت؟.. ظننا أن الموت قد فعل معروفا وأراحنا منك.

أجابه "منصور" وهو يزيل دون استئذان سدادة زجاجة مشروبات:

-البذرة الخبيثة لا تموت أبدا.. (هذه العبارة قالها بالفرنسية، ولعلها مثل فرنسي).. كنت في "العثمانية" وفررت من مستشفاها، لما وجدت أن كل المجانين أميون، ولم يفقدوا عقولهم كما ينبغي.. إنهم يشبهونكم إلى حد كبير، وتشبهونهم إلى حد التطابق..

-وكيف وصلت إلى هنا؟.. سيرا على الأقدام؟. عاد "عمي صالح" يسأله، وهو يقدم له قطعتي "قلب اللوز" في صحن صغير.

-لا.. لا –أجابه وهو يبصق جرعة من المشروب، لأن فيها ذبابة وجدها بين أضراسه – إنما دخنت عليه سجائر مرة واحدة، وركبت دخانها، ورحت أحدو الغمامة بأغنية ": بساط الريح"، فطارت بي حتى حطت بي فوق بيت أمي في المدينة.

لم يشأ "عمي صالح" أن يناقشه في هذا الهراء، الذي قذف به عن غير وعي منه، وإنما سأله عن المهم المفيد:

-ومن هذه المرأة التي جاءت معك؟.

-إنها امرأة فاجرة –أجابه في غير اكتراث – عرفتها منذ عامين على شاطئ البحر.. ولست أدري الآن ماذا أفعل بها أو أفعل لها.. إنني محتار يا "عمي صالح" محتار. !

اتسعت عينا "عمي صالح" أكثر، واحمر وجهه من احتقان ما في مشاعره وأحاسيسه، وقال في دهشة وهو يسحبه من معطفه إلى وراء المحسب:

-فاجرة سمينة !!.. يا لك من مجنون محظوظ شقي !.. تعال.. تعال هنا لعنة الله عليك. !

ولم يعد أحد يسمع ما يدور بينهما إلا الهمس وحركة الأيدي، وانقباض الوجهين حينا وانبساطهما حينا آخر، وبعد حوالي خمس دقائق من هذا الحديث الهامس، سحب "عمي صالح" درج المحسب، ودفع لمنصور أوراقا نقدية، قد تكون خمسة من غير تأكيد، دسها هذا الأخير في الجيب الخلفي لسرواله دون أن يعدها، ومضى، ولما صار بالباب، التفت إليه، وقال بهمس، جعله الحزم مسموعا:

-كما اتفقنا.. الساعة العاشرة بالضبط.. في ذلك الركن بالضبط.

فنهره "عمي صالح" بإشارة من يده، وهو يقول في تضجر حريص:

-انصرف أيها المجنون !.. انصرف لعنة الله عليك.. تريد أن تفضحني؟. !

ولم يقطع من الطريق إلا خطوات معدودات، حتى ناداه "الساسي" من الجهة المقابلة للرصيف، من دكانه الذي يبيع فيه الألبسة المختلفة، و"قلب اللوز" و"الزلابية" في رمضان، ولما أدخله وراء المحسب سأله:

-أين كنت؟.. هل كنت حقا في مستشفى المجانين؟

-لا.. أبدا – رد عليه ويداه تعبثان برزم القماش الرخيص الموضوع على المحسب – كنت في الجنة، وقد ضاقت نفسي هناك، لأني أردت أن أتسلى بالحمقى فلم أجدهم هناك.

انحنى "الساسي" على أذن "منصور"، وسأله هامسا، قبل أن يستوي قائما من جديد:

-من تلك المرأة التي جاءت معك؟.

أشار إليه "منصور" أن أقترب، فاقترب، فقال له هامسا في أذنه:

-فتاة ساقطة.. طردت من بيت أهلها لمجاهرتها بالفاحشة، فاستجارت بي والتجأت إلي، وأنا لا أدري ما عساني أن أفعل لها أو أفعل بها. !

-هل تريد أن أعلمك ما تفعل لها وبها؟. هكذا ال له، وقد تملكه طفلي !، فما كان من "منصور" إلا أن أمسك رأس "الساسي" بكفيه وأدناه منه، وطبع على أنفه الأخنف قبلة صائتة ليقول بعدها:

-فضل لا أنساه لك أبدا.

أمسكه من كتفه، وأدخله بين قطع قماش تتدلى من السقف والرفوف، وبعد حديث لم يطل، سحب "الساسي" درج محسبه، ودفع له ورقات نقدية، قد تكون أربع ورقات، وعندما كان "منصور" خارجا بالباب، التفت إلى "الساسي" قائلا:

-لا تنس الموعد.. خلف تلك الشجيرة، فهي كافية للاختفاء. ثم خرج وهو يرفع عقيرته بالغناء: " يا أبي طعم السمك ليس لذيذا"، وما يعرف أحد من الناس أغنية. بهذا المطلع أو نشيدا بهذا الاستهلال.

ناداه آخرون كثير، وسألوه نفس السؤال، واختلق لكل واحد منهم جوابا مدرا للعاب، وأخذ منهم جميعا مالا، كل حسب ما جادت به غرائزه الثائرة الفائرة، حتى انتفخ جيب سرواله الخلفي، وصار لا يشعر بالراحة الكافية إن هو جلس.

وخلال سعيه بين هؤلاء جميعا، ما انفك يردد بصوت منغم — أو هكذا ظنه وأراده -:

"يا أبي.. طعم السمك ليس لذيذا". وكان الناس عليه يضحكون، وكان هو يضحك عليهم، لأن صورهم ضاحكين ذكرته بالحمار لما يمط جحفلته ويرفعها قليلا.

ومما هيج ضحكهم هو ما شاع بينهم، من أنه فر من مستشفى المجانين، بعدما وضعه الطبيب في غرفة خاصة، ومنع عليه الاختلاط بالآخرين أو الحديث إليهم، لأن جنونه من نوع خاص، ومن درجة مركزة ومعقدة.. هل حقا وقع له كل هذا؟.. هل فعلا قال له الطبيب كل هذا الكلام أو بعضا من هذا الكلام؟.. لست أدري، إنما، هكذا تقول الشائعات.

لما ضربه "ابن الهجالة" برفق بين كتفيه لينبهه، كان منحنيا على امرأة متسولة يسترجيها أن تقبض منه بعض النقود، التي رفضتها منه لما راتها كثيرة.. شكت وظنت، وقالت وقد زوت رأسها عنه:

-أنا شريفة.. ولا أبيع شرفي بكل مال الدنيا.

بينما كان هو يداريها ويلح عليها أن تفهم.. ثم التفت خلفه وقال مبتسما:

-هذا أنت يا "بلال"؟ !.. كيف حالك؟.

التفت "ابن الهجالة" خلفه هل يرى من أحد بهذا الاسم، ثم تذكر أنه هو المقصود، وإنما غطت على اسمه هذا الجميل، هذه الكنية الغليظة النابية، أشار إليه أن يقترب برأسه، فاقترب منحنيا عليه، فسمع منه كلاما، جعله يستوي في وقفته، ويسأله كالمندهش:

-من الشيخ؟. !

-الشيخ !.. ألا تعرفه؟ !

-ومن الشيخ....؟ ! أنا لا أعرفه

استنار وجه "بلال" بابتسامة صغيرة، وهو يقول:

-يا لك من مجنون !.. إما المسجد.

دس له "منصور" في يده بضعة دنانير، أخذها بعد ممانعة خجول، وانصرف ينادي على سلعته، وفي صوته نبرة من بدأ يتقن المهنة. أما هو فقد سار نحو المسجد بخطى ثقيلة غير راغبة، بل إنه لفي ريبة من المر، وفي رأسه أفكار شتى وخواطر متضاربة.

ولو لا أنه مطمئن كل الاطمئنان أن الشيخ طيب بعض الشيء، لظن أنه تفطن إلى ما يريده بهذه القرية، فاستدعاه ليعظه وليقول له في نفسه قولا بليغا، ولينكر عليه ما هو عليه عاكف سحابة نهاره وشطرا من ليله، من هذا العبث والفوضى والاستهتار بالعرف، وليرده إلى الجادة ردا رفيقا ويهديه صراطا مستقيما.

ولما هم باجتياز باب المسجد أحس أنه أعرج، فانتبه إلى قدميه، فرأى لأنه لم يخلع فردة حذائه، فتراجع إلى الوراء مستغفرا ونزعها، ولما شم من جوربيه رائحة كريهة لا تطاق، نزع الجوربين ورماهما إلى عرض الشارع، ولما صار يطرق باب المقصورة كان قد أعد لكل سؤال جوابا مقنعا، ولكل استفسار ردا مدحضا، ولكل موقف موقفا يدمغه.

وما كاد باب المقصورة يفتح حتى تغشته سحابة عطرية من هذه العطور التي صارت يكلف بها المتدينون الشباب أشد الكلف. ولم يدر بالضبط لماذا تداعت إلى ذهنه اللحظة صورة مخدع العروس ليلة الزفاف، لتتلوها صورة الخيمة التي ضربها "مسيلمة الكذاب" لسجاح، ورشها بالعطور، وأحرق كل ألوان البخور..

أخذه العطاس لأنه مصاب بداء الحساسية شيئا قليلا، ثم ألقى السلام وعيناه تدمعان:

-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

-وعليكم السلام.. ما شاء الله.. ما شاء الله. رد عليه "الشيخ" وأصابع يمناه تخلل شعر لحيته في غير شعور منه، لأن الأمر صار لديه عادة منذ أن أرسل لحيته.

وقبل أن يؤذن له، استلقى على أريكة عنابية اللون، وكان الشيخ جالسا على واحدة أخرى مثلها خلف مكتبه، ثم أنهما انخرطا في دردشة ومجاملات، يريد لها "منصور" أن تدور حول الدين ومتعلقات الدين، ويريد لها "الشيخ" أن تدور حول الدنيا ومتعلقاتها، وهي كلها –وإن اختلفت– تهدف إلى رفع الكلفة ودفع الحرج، تمهيدا للحديث الجاد.

ولما رفع "منصور" عينيه نحو "الشيخ" أشار إليه كالمتلصص أن اقترب، فاقترب، فهمس في أذنه كلاما، فأجابه "منصور" وقد اكتسى وجهه بحمرة خجل:

-هذا أحسن وصف.. كاللواتي نشاهد في التلفزيون.

-ما شاء الله.. ما شاء الله. ثم أشار إليه أن اقترب، فاقترب، فهمس في أذنه كلاما واستوى في مكانه مرة أخرى، لكنّ "منصور" هذه المرة شعر بالخوف من هذا المجهول الذي يخاف منه "الشيخ" فيود ألا يسمعه، فقرر أن يجيب همسا، فأشار إلى "الشيخ" أن اقترب، فاقترب، فهمس في أذنه الجواب، وعاد إلى مكانه، فنظر إليه "الشيخ" وهو يقول، وقد ارتفع حاجباه إما تعجبا وإما استحسانا:

-ما شاء الله.. ما شاء الله !. ثم أشار إليه أن اقترب، فاقترب، فهمس في أذنه كلاما وهو يقطب حاجبيه كمن يريد الدقة، ثم استوى في مكانه من جديد. وما كاد "منصور" يشير إليه أن اقترب بعدما أعجبته اللعبة، حتى سمعا طرقا خفيفا على الباب، فقام "الشيخ"

وفتحه، فدخل عليهما غلام وسيم، لا تتجاوز العباءة الحجازية نصف ساقيه، ومما زاد في وسامته كحل في عينيه تسننا. وبعد أن ألقى السلام، انحنى عليه "الشيخ" ليسأله، وما كان له ليفعل ذلك لو أراد، لأن الغلام لا يقل في الطول عنه إلا قليلا، وإنما قد يكون مصدر تلك الانحناءة الشعور المرضي المبكر بالأبوة والمشيخة.

-ماذا تريد؟.

-الخوة يسألونك عن جنس النملة التي كلمت "سيدنا سليمان"، ويسألونك عن عمر "مريم" عندما أنجبت المسيح عليه السلام.

هكذا أجابه الطفل الصغير، وعيناه معلقتان بـ"منصور المهبول" الذي وده أن يعطيه الحلوى. فأجابه وهو يدفعه بين كتفيه ليخرجه:

-غدا.. غدا إن شاء الله، سأجيبكم في الحلقة. ولما أغلق الباب التفت إلى "منصور" وواصل حديثه وهو يأخذ مكانه على أريكة الوتيرة:

-أرأيت؟.. إنه ولد نجيب.. إنه من أتباعي، طلق الدنيا وزخرفها حتى أنه صار لا يذهب إلى المدرسة يوم الخميس إيثارا لعلم الشارع على علم الشارع.. إنني كلما رأيته تذكرت الجنة وغلمان الجنة.. ما شاء الله.. ما شاء الله.

لم يرد عليه "منصور" بشيء، إنما ظل يفكر أنى لغلام لم يهتد بعد إلى وظائف بعض أعضائه، أنى له أن يطلق الدنيا ويعرض عن زخرفها !.. شيء غريب ومفزع حقا.. !

وما كاد "الشيخ" يشير لصاحبه: أن اقترب حتى سمع طرقا قويا على الباب، فهب مسرعا ليفتحه، وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، والتفت هو صوب الباب ليرى من الطارق المستعجل، فإذا به يراه هو !.. شاب نقص عرضه فوق اللزوم، وزاد طوله فوق اللزوم، ذو بشرة تميل إلى السواد من شدة السمرة.. عيناه مطليتان بالكحل، كأنه كحلهما بإبهامه، يرتدي عباءة حجازية كشفت عن ساقين أحمشين، نظرته تشي أنه إن لم يكن نصف مجنون فهو نصف عاقل، وسأل دون أن يلقي السلام

-يا "الشيخ" هل المخاط في..

-انصرف يا ولد –قاطعه "الشيخ" – غدا في الحلقة سنجيب عن كل الأسئلة، ما شاء الله.. ما شاء الله !. ودفعه من ظهره وأغلق الباب، ثم التفت إلي جليسه قائلا:

-هذا كذلك من أتباعي.. انا أكثر "الشيوخ" أتباعا في هذه القرية.. لقد كان يجمع من وقوفه بالأبواب رزقا حسنا، لكنه هو كذلك طلق الدنيا وآثر ما عند الله.. إني أعلمهم أن محبة الدنيا رأس كل خطيئة.

حرك "منصور" رأسه مؤيدا وموافقا.. أو ربما حركه مجاملا، وقد يكون حركه تعجبا كيف صار "باباي" سلفيا !.

واستمر الحديث بينهما بالهمس وتحريك الأيدي والرؤوس، وانقباض الأسارير أحيانا، وانبساطها أحيانا أخرى، حتى قام "الشيخ" إلى صندوق صغير مثبت في جدار المقصورة، مكتوب عليه "في سبيل الله"، وفتحه وأخرج منه عقدا ذهبيا، قدمه إليه قائلا:

-هذا، وحسب السلعة لدي المزيد. قالها وهو يربت على الصندوق مبتسما.

-وأنا سأنتظرك في الوقت المحدد. قالها "منصور" وهو يهم بالانصراف، وقد تذكر اللحظة أمه الطيبة، وتمنى لو كانت حاضرة لتعرف أين يذهب ذهب المشاريع الخيرية عندما يقع بين أيدي المرد أو بين أيدي الملتحين !.

ولو كان أحد غير "منصور" سمع همس "الشيخ" لخرج من المقصورة مجنونا، ولا عذر له إن لم يجن، ولكنه كان هو، ولهذا فإنه بمجرد ما صار في عرض الشارع حتى راح يدندن بلحن كلماته: "يا أبي طعم السمك ليس لذيذا".. ويا له من لحن، ويا هلا من كلمات. !

وراح يطوف على الدكاكين يشتري ما لذ وطاب، من طعام وفاكهة ومشروبات ولحم، وأقبل بكل هذا على بيت أبيه يحمله، ولما صار بالباب أخذ يطرقه بقدمه، وبمجرد ما فتحت له الباب، ورأته محملا بكل هذا الخير الوفير، صاحت به مندهشة:

-أنى لك هذا كله أيها المجنون؟ !.. لقد قالوا لي: ستكونين محظوظة جدا إن هو قم لك نصف علبة سردين ونصف خبزة يابسة. !

فأجابها وهو يفع الباب بعقبه لينغلق:

-من حكمة الله أن جعل الحمقى كثرا ليعيش النابهون بغير عرق !

-أوه !- قالت متضجرة – ما زلت أنت أنت.. تأبى أن تتخلى عن ألغازك وأحاجيك !.

وراحت ترتب هذه المشتريات فوق رف المطبخ، أما هو فلم يشأ أن يجاريها في حديثها، لعلمه المسبق أن حديث النساء بقدر ما هو لذيذ، فهو فارغ وغير ذي معنى، وثم مكمن لذته، فاتجه إلى غرفته، وتركها تدندن بأغنية قديمة، وهي تعد طعام العشاء.

تناول من بين رفوف المكتبة كتاب "طوق الحمامة"، وراح يتصفحه على مهل كمن يبحث عن فكرة لا يعرف رقم صفحتها بالضبط، ثم شعت أساريره، وقرأ بصوت ساحر مسموع.

-"أكثر ما يستعمل المحبون في إرسالهم إلى من يحبونه، إما خاملا لا يؤبه له، ولا يهتدى للتحفظ منه لصباه، أو لهيئة رثة أو بذاذة في طلعته، وإما جليلا لا تلحقه الظنون لنسك يظهره، أو لسن عالية قد بلغها".

عند هذا الحد توقف عن القراءة، ورمى الكتاب على الطاولة، واستلقى على السرير، وقال ضاحكا:

-سأكون أنا الخامل، وأنا الصبي، وأنا الصعلوك الفقير، وأكون الناسك الجليل.. ! وسأوقعهم في الفخ.. لقد نجحت خطتي !.. سأمزق عنهم كل الأقنعة ليعرفوا أنهم ليسوا جديرين بالحياة، وأنهم لا يساوون قلامة ظفر لو لم تخرب المعايير.

ثم أخذ يفحص السرير بقدميه، بعدما انتابته هستيريا من الضحك، ولما سمعت منه هذا الضحك المجنون، أقبلت عليه، ووقفت بالباب وسألته:

-ما الذي حدث؟.. ما الذي تذكرت؟

رفع رأسه نحوها قليلا، بعدما أسنده بتشبيك أصابعه خلف قفاه وقال:

-هل تعرفين "باباي"؟.. أم زلت تذكرينه؟.

-نعم.. اعرفه وأذكره.. هل ما زال كما كان؟

-لا –رد عليها متهكما ساخرا- لقد رأيته كحيل الطرف، كميش الأزرار.. لقد صار سلفيا، وقد يصير هو كذلك "شيخنا" حين يجد له أتباعا.

وبعد صمت قصير جدا، واصل متنهدا حزينا:

-سقى الله زمانا كانت كلمة "الشيخ" فيه تعني ما تعني من العلم والوقار والأدب الرفيع.

نظرت إليه ومطت شفتيها ساخرة، ثم انصرفت عنه قائلة:

-كل كلامك عبث وافتراء.. والله إنك لمجنون حقا.

أما هو، فما لطفت من شدة ضحكه إلا التفاتة عارضة، حدثت منه اتجاه أبيه، فمسح عينيه، ثم أسند رأسه إلى الجدار، وقال يخاطب صورة أبيه كعادته:

-أبي.. أنت مدعو هذا المساء، لمشاهدة عرض مسرحي هزلي من فصل واحد، أنا الذي كتبت نصه ووزعت أدواره وقمت بإخراجه، سيرفع الستار على بعض وجوه القرية ووجهائها..

ستراهم يفرون من الضوء كالخفافيش، ويختفون في ظلام الزوايا وخلف الشجيرات.. وستراهم يبحثون عن الظلام الظلم، حتى لا تكشف وجوه الآخرين، ولا تنعكس إلا عليهم، ولا تعكسهم إلا هم وحدهم.. فلا تكترث يا أبي ودع المهزلة تستمر..

وبعدما صلت "خديجة" العشاء -هكذا سمعته ينادي عليها منذ قليل- وعنفته أنه لا يواظب على صلاته، أقبلت على العشاء تأكله في اشتهاء وفرح، وكانت من حين لآخر يتناهى إلى سمعها كأن باب الحديقة يفتح، أو أن حركة في الحديقة تحدث، فكانت تطلب منه السكوت والصمت لتتأكد، لكنه كان لا يمكنها من ذلك، بل يواصل الحديث قائلا وهو يتعمد رفع الصوت وإحداث الضوضاء:

-لا شيء.. إنها الكلاب الضالة شمت رائحة اللحم هذه الليلة.

ورغم أنه كان يطمئنها، ويذهب عنها خوفها بعبثه وفضاه، إلا أنها شعرت بما يجب أن تشعر به من الخوف والقلق، لكنها أبت أن تبوح، وتسرب إلى قلبها بعض الحرج، أبت أن تكشف عنه لئلا يسخر منها، وقد تجلى ذلك كله في ركونها إلى الصمت أو الحديث المتقطع، رغم أنه كان يستثيرها، وينتقل بها من حديث سخيف إلى آخر أسخف، ومن نكتة لا تضحك إلى أخرى تشعر سماعها بالضجر والسأم، ومن أخبار تافهة إلى أخرى لا يحفل بها أطفال البوادي، وكان يسألها ولا ينتظر منها جوابا، ويجيبها عن أسئلة لم تطرحها، وظل كذلك، حتى كان له منها ما أراد، لما قالت له:

-لقد تعبت وأريد أن أنام. حينها قال لها موافقا:

-أجل لقد تعبت ولك أن تنامي، وإن سمعت ضجيجا فلا تنزعجي ولا تستيقظي، فقد يزورني بعض الحمقى الثقلاء، وفيهم مشاغبون، وقد يسهرون حتى الصباح، وخلال السهرة قد يهرجون ويصيحون فلا تنزعجي.

ولما صار وحده في الغرفة أغرق في ضحك مكتوم، لأنه سمع أصواتا في الحديقة، ومعنى هذا أن السقاط الطماعين يتحاشون أنيروا بعضهم بعضا، وهم يأخذون مواقعهم استعدادا للانقضاض على الفريسة السمينة الطرية. !

ولقد نسي كيف حدد الإشارة بينهم وبينه.. هل بإشعال المصباح الخارجي، أم بتشغيل المذياع في النافذة، أم بإلقاء شيء ما في حديقة البيت.. ما عدا يذكر بالضبط، لكنه سيتصرف.

في هذه اللحظة سمع قرعا خفيفا بأطراف الأنامل على زجاج الباب، فسار نحوه على رؤوس بنانه كي لا يوقظها.. لقد تأكد من وجود أحدهم يقرع زجاج الباب في ما يشبه المداعبة الخشنة.. وسمع طرقا آخر على نافذة المطبخ.. كان طرقا ملحاحا !.. وسمع خشخشة خائفة حذرة في الشرفة البحرية.. وصار يسمع كأن الأشباح تتحرك في حديقة البيت، في كل أنحاء حديقة البيت ! ليس من المستبعد

أن تكون قد تفطنت إلى بعضها بعضا، فهي تتحاشى عيون بعضها بعضا !.. وليس من المستبعد أن تكون قد شكت وارتابت وخافت، وحق لها ذلك على كل حال.. !

وما كاد المصباح الخارجي ينسفح بنوره في الظلمة الرطبة، حتى ظن كل واحد منهم أنه هو المقصود بالإشارة، لأنه اتفق معه هكذا !، فأسرع نحو الباب، ليجد نفسه يبحلق في وجوه آخرين، كانوا يبحلقون في وجوه بعضهم بعضا، وهم لا يدرون ما يقولون أو يفعلون. لقد كان الموقف فوق ما تقدر اللغة على وصفه.. كيف لا، والشيخ بينهم !

ربما كل واحد منهم الآن يطرح على نفسه هذا السؤال الصامت الحائر: " هل صحيح أن هؤلاء السادة المحترمين قد جاءوا جميعا للذي جئت له أنا"؟.. !

أيجوز أن يكون هؤلاء جميعا زناة سريين، يخدعون الناس بأقنعة براقة للشرف.. أيجوز أن يكونوا ملوثين؟..

وكل واحد يعلل نفسه قائلا في قرارة نفسه: " أرجو أن أكون أنا فقط ذا النية السيئة، يهون الأمر إن كنت أنا وحدي الملوث !.. ما أسهل الترقيع، سأقول لهم: لقد جئت للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وأقول لهم: والله إني ما استطعت النوم ولا لذ لي هجوع وامرأة فاجرة في قريتنا.. لقد خفت أن تعم الفاحشة، فيعمنا الله بعذاب بئس.. وأقول لهم كلاما آخر غير هذا، كله جميل.. كله براق.. كله خداع ومقنع، المهم أن اكون أنا فقط الذي وقعت في فخ "منصور" المجنون.

ولو تحركت ألسنتهم في هذه اللحظة لأفصحت عن خواطر واحدة !

ولقد تعجب "الشيخ" لما رأى كل هؤلاء الرجال هنا.. وتعجب أكثر كيف استطاع "منصور" أن يغرر بهم جميعا.. وجوههم تبدو صفراء شاحبة تحت الضوء، وكانوا صامتين، لم يجرؤ أي واحد منهم أن يفتح فمه بأي كلمة، فاستجمع هو كل شجاعته الأدبية التي طارت بددا، وقال وكأنه فوق منبر الجمعة، ومن غريب الموافقات أنه كان أعلى منهم بدرجتين:

-السلام عليكم. فردوا عليه التحية بصوت واحد بارد مرتعش كتلاميذ بلهاء يستظهرون نشيدا مدرسيا أعياهم حفظا واستظهارا.

وإنقاذا للموقف قرر "الشيخ" أن يعظهم ويذكرهم، وما كاد يستهل هذه الموعظة حتى انطلق صوت المذياع/ المسجلة من خلف المصراع الخشبي للنافذة، مرددا أغنية لفنان فرنسي اسمه "ميشال بول ناريف" ، عنوانها On ira tous au paradis، فكانت كلها وضعت خصيصا لمصاحبة الموعظة الليلية، التي استهلها بالبسملة والحمد والاستغفار وطلب الهدى من الله، وقال أدعية أخرى ألف الناس سماعها منذ أول عهدهم بصلاة الجمعة والأعياد، ثم دخل عن المنكر والفحشاء، والأغنية متواصلة في إيقاع يشبه الكورال الكنسي الخاشع، وفي الخير طلب منهم –أو قل أمرهم- أن ينصرفوا إلى مضاجعهم راشدين، أما هو فسوف يبقى حتى يستخرج هذا الفاسق الفاجر من جحره، ويطبق عليه وعلى الفاجرة التي معه شرع الله.

لكن، لا أحد منهم انصرف إلى مضجعه راشدا أو غير راشد !.. بل إن كل واحد منهم يود أن يبقى هنا ليطبق شرع الله في حق هذين الفاسقين الفاجرين، حتى ظهر التنازع بينهم والاختلاف، لكن صاحبهم نبههم إلى أن التنازع والاختلاف رسول الفشل وذهاب الريح، وأحاطهم علما أنه يعرفهم جيدا، ولهذا يقدر رغبتهم الكبيرة في المشاركة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكأنه اهتدى إلى حيلة فقال:

-أعرفكم جيدا.. وما أظن أن فيكم من يتنازل عن حظه ونصيبه في الأجر، ولهذا قررت أن أؤجل النهي عن المنكر إلى غد.

ومشى أربع خطوات ليعبر باب الحديقة، وزاد أخرى في عرض الرصيف، ليجد نفسه في الشارع، وهم يتبعونه واجمين صامتين، وكل واحد منهم يحمد الله لأنه ستره ولم يفضحه، ولأن "الشيخ" كان ذكيا وأنقذ الموقف. أما هو فقد كان يراقب الوضع من خلال خشيبات المصراع الخشبي لا للنافذة، وإن أضلاعه لتوجعه من شدة الضحك المكتوم. !

ذهبوا وفي أعماق كل واحد منهم إحساس كبير بالخزي والفضيحة، وكل واحد منهم يشك أن الاخرين جاءوا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إنه ليقسم بالأيمان المغلظة أنهم جاءوا لما جاء له هو من طلب الشهوة وابتغاء المتعة الحرام..

ذهبوا وكل واحد منهم يقر لـ "الشيخ" بالمهارة والبراعة في إنقاذ الموقف، بل تحويله إلى موقف بطولة وفضيلة ونبل، بعد ان كان موقف نذالة وخزي وقلة مروءة.

وخلاصة القول الذي لا يشك كل واحد منهم فيه، هو أن "منصورا".. قد ضحك على ذقونهم جميعا.. يا له من مجنون شقي../

ولما ظنهم "الشيخ" قد انصرفوا، عاد عبر طريق آخر، بعج ان كان قد قبع في زاوية مظلمة، وراح يراقبهم من حيث لا يرونه.. عاد وفي صدره رغبة جامحة أن يأخذ نصيبه من الدنيا هذه المرة.. فالمرأة ساقطة غريبة، والشاهد الوحيد مجنون لا يصدقه أحد من الناس.. وكم يود لو تطير به رجفته المحمومة، فالمرأة –حسبما وصف "منصور" – جديرة بسهرة كاملة في صقيع ليلة من ليالي رأس السنة.. !

ولما وقف عند باب الحديقة، رأى أشباحا سوداء، تتحرك منحنية بغرض الاستخفاء، بعضها يطرق بابا، وبعضها يهمس عبر مصراعي النافذة، وبعضها يعالج قفل الباب.. !

ولما أدرك أية شهوة قذرة تحركهم ، شعر بخجل مقرور، وعرف أن أصحابه مثله تماما، وقد فكروا كما فكر، وكما قدر كما قدروا، ثم انتبه إلى هيئته تحت عمامته، فوق خفه الحجازي، بين برنوسه الوبري، فاستخزى وانقلب دون أن يحدث صوتا، ليجد نفسه في الشارع وحده، يسرع الخطو صوب بيته وزوجته، التي تظن –إن استيقظت ولم تجده – أن إعداد خطب الجمعة ودروس الوعظ، قد شغله عن حقه في أهله واذهله عن حق أهله فيه، فتدعو له وتتوسد كفها وتنام.

راح يعدو صوب داره، وإن حمى غريبة لتأخذه من كل أقطاره، وتمزقه تمزيقا.. لعلها نوبة من النوبات التي يصحو فيها الضمير، ويعنف صاحبه، ويقسو على روح صاحبه.

ولقد رآه أصحابه وأتباعه –إن كان فيهم أتباع له– رأوه يعدو، ففهموا ما يجب أن يفهم، وأدرك كل واحد منهم أنه ليس الوحيد الذي فكر في ذلك التفكير وقدر ذلك التقدير، فأخذ كل واحد منهم يبحث عن محيص، وعن مسرب في الظلام أحلك، يستره عن عيون الآخرين..

* * *

بعدما تناولت "خديجة" فطور الصباح، قامت ولفت شعر رأسها في منديل ذي زرقة سماوية منقطة بما يشبه النجوم الصغيرة البيضاء، وخرجت إلى الحديقة وفي قلبها حنين وذكريات باقيات من عهد الصبا.. أيام لا تفر من قسوة الأم الحانية إلا إلى حضن والدها الدافئ الآمن.. لقد كانت ذات شقاوة طفلية ملفتة.. !

ولما رأت الحديقة، صاحت متعجبة:

–يا إلاهي !.. ما هذا يا "منصور"؟ !.. كأن كلابا وحميرا قضت ليلتها هنا. !

-إيه !.. وأي حمير وأي كلاب !.. أما أحسست بأدنى شيء أثناء النوم.. أما رأيت ما حدث في الحلم؟.. هكذا رد عليها، وهو يطل من نافذة الشرفة.

-لا.. ما أحسست بشيء، فقد كنت متعبة جدا ومنهكة.

فرد عليها وهو ينقي أنفه من النغف بالطرف السفلي لستائر النافذة:

-لقد تسلل إلى حديقة بيتنا الليلة حمير وكلاب، وقد قضوا شطرا من الليل يطوفون بالدار، وليس من عادتها أن تفعل ذلك، إنما ثمة رائحة اللحم..

لقد كان شيئا مضحكا، يصلح لكي يكون مشهدا من مسرحية أو فصلا من رواية، أو لقطة من فيلم.. قد ساقتهم غرائزهم سوقا عنيفا، ووزعتهم خلف الأشجار والزوايا توزيعا مثيرا، وفي ساعة الحقيقة جمعتهم يد القدر، وضغطت أصبعي على الزر، فتدفق النور لمن شاء أن يتطهر، وبمخالبي مزقت الأقنعة، فإذا بالحمير والكلاب وجها لوجه، لكنهم اجتمعوا ووعظ بعضهم بعضا، وأثنى بعضهم على بعض، لقد زوروا الموقف برمته، وانصرفوا كالأرانب المذعورة، كل واحد يحمل عيون صاحبه في نيته الآثمة.

-إني لأجد يا "منصور" غائطا أكرمك الله، وأعقاب سجائر.

هكذا قالت له، وهي تغير وجهتها وتسد منخريها بالسبابة والإبهام، فأجابها ضاحكا وهو يشعل سيجارة ثانية:

-آه منك !.. عهدي بك ذكية، إنها حمير وكلاب تأكل مما تأكلين منه وتشرب مما تشربين.

لم تعر كلامه أدنى اهتمام، فقد عودها أن يكون مازحا حتى في مواقف الجد، وفوضويا حتى في ساعة الانضباط، وعودها ألا يقول الكلام الذي تهتم به الأذن، أو يهتم له القلب، ولهذا، فهي -على حبها له - قلما يغريها جده، ونادرا ما يصدها هزله، فهي تعرف محاسنه وتعرف كيف تأتيها وتحركها، وتعرف مساوئه، وتدري كيف تتقيها وتتركها خامدة، وما أخلاقه الذميمة إلا هذه الفوضى التي ألزم نفسه بها، أو هذه الشقاوة الطفلية التي غلبت على روحه وعقله، فهي إن نفعته أحيانا فيما طالما أضرت به.

نظرت "خديجة" في ساعتها وقالت:

-لا بد أن اذهب الآن.

-لا.. حتى نتناول الغذاء معا، وبعد ذلك قد أرافقك، هكذا أجابها وهو جالس إلى طاولته يقرأ كتابا.

-لا.. لا داعي لذلك، إنما دعك من الناس، فهم ليسوا جديرين بكل هذا الاهتمام منك.. زد فوق هذا، دع الناس لرب الناس.. إنهم جميعا يعرفون الجنة ولمن أزلفت، ويعرفون الجحيم ولمن سعرت.

وتأبطت حقيبتها الجلدية الصغيرة، بعدما عقدت خمارها الأزرق المنقط، وخرجت لعلمها أنها إن لم تفعل هذا، فلن يتوقف عن القراءة، ولن يخرج معها.

وخرج معها يجرجر خفه النسوي، وكان خلال طريقه إلى موقف سيارات الأجرة يحدثها بصوت مرتفع، وبإشارات من يديه وكتفيه في مواضيع تافهة بحق، أما هي فما كانت تسمح لنفسها إلا بالرد الهامس، والنظرة المتلصصة الخاطفة ترسلها في هذا الاتجاه أو ذاك، رغبة منها في تجديد عهدها بالمكان وما كان فيه من ذكريات لأنها منذ أن تزوجت صارت لا تزور هذه القرية إلا لماما.

ولما ركبت "الطاكسي"، التي ستنطلق اللحظة صوب المدينة، فتحت زجاج الباب الخلفي، وقالت له مبتسمة:

-والله لأقولن لأمي أنك لم تنظف الغرفة ولم ترتبها كما وعدتها.

-لا.. لا تقولي أرجوك.. سأ.

لكن سيارة الأجرة انطلقت، وأصابع أخته تتراقص بين عينيه أن إلى اللقاء، ولم يعد لأي وعد فائدة.

وعاد إلى الدار مطأطأ الرأس، حزينا شيئا قليلا.. كان يفكر كيف أنه أحدث لهم مشاكل كثيرة، لأمه وأخته هذه التي تسكن "قسنطينة" ومن يدريه، فقد تسمع الأخرى وتأتي هي كذلك لتطمئن عليه، وقد يسمع أخوه الذي يدرس بجامعة العاصمة، فيصدق ويأتي هو كذلك.. إنه يتمنى بكل صدق ألا يسمعوا، وإذا سمعوا ألا يصدقوا، وإذا صدقوا ألا يأتوا، فقد أحدثوا له إزعاجا وإحراجا بهذه الزيارات التي لا لزوم لها، وصرفوه عن أمور، ما يحب أن ينصرف عنها إلى غيرها. أنه –وهو يمضي في طريقه- لم ير ولو فاجرا واحدا من فجار الليلة الماضية.. إنهم عاكفون على جمع المال واللهاث خلفه. يظنون أنهم بالمال يستطيعون شراء كل شيء.. وصاحبهم يظن أنه بالدين يستطيع خداع الجميع.. فهو دائما يتنطع به ويتشدق لتنطلي الخدعة على البسطاء الطيبين.. إن دين الله أكرم من أن يتكلم به الصبيان، وأجل من أن يدعو إليه الجهلة والمعقدون، وأصحاب الطمع العرج والطموح الكسيح.

ولما دخل غرفته تملكه إحساس مفاجئ، وكاد أن يدفعه إلى تنظيف غرفته وتنظيمها، ولكنه قبل أن يفعل ذلك أو شيئا من ذلك ، تصورها وهي مرتبة نظيفة، كل شيء في مكانه، وتخيل نفسه يتحرك في هذا الفضاء المنظم "المنضبط" في صمت وسمت، فأحس انه يشعر بالاختناق، وأن الموت قد اقترب منه أكثر وسط هذه النظافة الرتيبة القاتلة.. عندها قرر أن يترك الغرفة كما هي، ريثما ينظف نفسه وينظمها.. فالغرفة –بصورتها الحالية- منسجمة كل الانسجام مع نفسه، وما هذه الفوضى في واقعه إلا شيء قليل قد فاض وانسفح من نفسه.

عندما دخل المطبخ وجد أن "خديجة" قد أعدت له طعاما يكفيه يومين أو ثلاثة أيام، ففرح بذلك أيما فرح، ودعا لها الله أن يرزقها مولودا ذكرا؛ إذ أن لها ثلاث بنات جميلات، وهي الآن ترغب أن يكون لها ولد، يكون لأخواته حاميا حين يكبرون جميعا..

وبينما هو يلتقم بعض البطاطا المقلية، تناهى إلى سمعه طرق خفيف على الباب، فأسرع وأطل من نافذة الغرفة، فرأى "بلالا" واقفا لدى الباب، يعني بن الهجالة إن كنت لا تعرفه باسمه الحقيقي..

-ماذا تريد يا "بلال"؟. سأله "منصور" وأقبل على الباب ليفتحه.

-"عمي صالح" و "الشيخ" يريدانك حالا، وهما ينتظرانك في المقهى.

-وإن لم أذهب إليهما حالا، ما الذي سوف يحدث. قال له "منصور" ممازح. فقال "بلال"، وقد انقبض وخاف:

-لابد أن تذهب، وإن لم تفعل، سوف يعلقني الله من أشفاري حين أموت. هكذا قال لي "الشيخ" وهو لا يكذب، لأنه يعرف الله جيدا..

أحس ببعض الحزن والرثاء، ثم اقتسم معه قطعة خبز محشوة بالبطاطا المقلية، وقال له يهدئ من روعه:

-لا تخف يا "بلال".. إن الله –سبحانه- ليس سيافا، وهو أكبر من عاهات هؤلاء.. لا تصدقهم يا "بلال"، إنهم يكذبون علينا عند الله، ويكذبون على الله عندنا، والله ليس في حاجة إلى هذه السمسرة الوقحة.. هل فهمت يا "ابن الهـ..

-يا "ابن الهجالة". أكمل بلال وهو يحرك رأسه يمنة وشأمة نافيا أن يكون قد فهم ما قاله "منصور"، بل ظل ينظر في "منصور" وأصابعه الرقيقة تعبث في علب السجائر و"الشمة". فاشترى "منصور" علبتي سجائر، ثم صرفه في رفق، بعدما أكد له في جد وصدق أنه لن يلبي دعوة "عمي صالح" و"الشيخ" ليرى ، معصية هؤلاء ممكنة وسهلة، ولا تغضب الله مطلقا، وأنه سبحانه لا ينتقم لمثل هؤلاء، لأنهم يكذبون عليه.

وانخرط "بلال" في حركة الشارع، وهو يتمنى أن يكون الله سبحانه، كما يتحدث عنه "منصور" وليس كما يتحدث عنه "الشيخ" وخلصاء "الشيخ". وراح ينادي على بضاعته بصوت رقيق ندي يوشك أن يفسده قهر الأيام

-"قهوة وسيجارة خير من سلطان في داره.."

وكان "منصور" يتتبع صوت "بلال" في ضوضاء الشارع، وهو يدعو الناس إلى قهوة وسيجارة ليصيروا خيرا من السلطان في داره.. إنه منطق صوفي متسام.. بل هو منطق المحرومين المستعلي المغرور.. بل هو منطق الذين لن تكون لهم دولة وسلطان أبدا.. وإلا متى كانت شارات الكسل والخمول خيرا من شارات الملك والسلطان؟ !

6

ودائما يكون من حيث لا يشعر ولا يريد، داخل بقعة الضوء، ومثار جدل الناس وحديثهم في المقاهي والدكاكين وأرصفة الطرقات، وحتى في البيوت.

فهم يتحدثون أن رئيس البلدية قد استدعاه وعنفه، ونهاه عن مخالطة الفاجرات أو الإتيان بهن إلى هذه القرية، التي يريد لها أن تبقى آمنة مطمئنة، نموذجا في الفضيلة والطهر.

وتحدثوا أن "منصورا" رد عليه وذكره بتردده رفقة بعض السلطات على فندق المدينة السيء السمعة، ثم خرج من عنده مهددا متوعدا أن ينشر ذلك كله في الجرائد !.

وهم يتحدثون أن "الشيخ" استدعاه ووعظه، وقال له في نفسه قولا بليغا، ونهاه عن معاشرة الرذيلة واقتراف الفاحشة واجتراح السيئات. وساق له بين يدي موعظته آيات بينات، لكن منصورا – حسبما يتحدث الناس- أسكته لما قال له: "إنها أختي، ومن حقها أن تزور بيت والدها". فسكت "الشيخ" ولم يجد جوابا، وخرج هو من مقصورته راضيا منتصرا.

واستدعاه أحد أمراء "الشلل الدينية"، فعنفه هو كذلك، وأغلظ له القول، واستنطقه بطرقة تشي أنه يحب التلذذ بمضغ أعراض الناس، وفضح ما أمر الله به أن يستر. وما خرج من عنده إلا وهو يشعر أنه ليس على ملة الإسلام !.. رغم أنه يحب نوبات إيمانية فيقبل على صلاته كأحسن ما يقبل عليها الأتقياء الأنقياء.

عندها أحس أن معظم ما بهؤلاء ليس التزاما دينيا، ولا صحوة أخلاقية مبنية على وعي إيماني مستنير، إنما هو هوس متجلبب، وعقد مستترة، وحقد ملتح قد ينطفئ يوما ما تحت ضغط الظروف وإلحاح الأوضاع القاهرة والرياح المتعاكسة الهبوب.

ورغم أنه لا يحب هذا "الشيخ" الصغير وأتباعه، فإنه صار يخافهم ويخشى على نفسه منهم، . إنهم –كما يشعر، وقد يكون خاطئا- قد يقتلونه كما ينشون ذبابة عرجاء، ولا يكتفون بهذا، بل يحددون للناس عنوان إقامته في الدرك الأسفل من النار، بين المنافقين والكفار !!

وتحدث للناس أنه قال لهذا "الشيخ الصغير": "إنها أختي، وهي سيدة كريمة، تصوم شهرها وتصلي خمسها وتطيع زوجها، ولا تؤذي جيرانها".

فلم يعتذر "الشيخ الصغير" إنما سمع منه كلاما، ما فهمه، هل هو جواب أم إدانة !

"وما الذي منعك أن تخرج وتنادي في الذين رأوك: على رسلكما.. إنها صفية؟"

إنه الجنون !.. خطاب زئبقي لا يمكن تمييزه وتحديده والقبض عليه.. صمغي موحل..

لا تستطيع أن تقيم على أصحابه حجة، ولا أن تلزمهم بدليل، بعد أن صار الدين فقها، والفه دينا.. !

مثل كل الغرباء واللامنتمين، كان يمشي وحده حافي القدمين، متأبط خفه النسوي.. لماذا؟.. هكذا، ألديك اعتراض أنت كذلك؟ !.. شعره منفوش، شعر ذقنه الأشقر صار يبدو وكأنه لحية، أما فحصته فقد مال شعرها إلى السواد.. فبدت كأنها خال كبير، عشرات العيون تكاد تزلقه، وعشرات الألسنة تسلقه كالمبارد النهمة.. فكر أكثر من مرة أن يعود إلى سابق عهده وعقله، فمن الصعب أن يسبح الأعزل عكس التيار، ومن الصعب كذلك أن تعيش متأبطا الحرية بين قطعان العبيد، ومن العسير أن تنظر بعيون القلب، وأن تضع عمرك تحت تصرف الضمير.. عندها سوف تمضي على حوافي الجمر، في ظل المشانق، بين سعار الخناجر الصدئة.. أن تكون حرا معناه أن تكون قريبا من التهمة.. قريبا من الإدانة.. قريبا من الموت بمنظور العبيد..

ورغم هذا، فقد حقق مكسبا عظيما، إذ صار الجميع يكرهونه، أو قل: لا يحترمونه، إلا قلة قليلة لا يهمها من راح وجاء !.. والأهم من هذا، أنهم صاروا لا يلجأون في حضرته إلى السر والكتمان.. ولماذا يسرون ويكتمون في حضرته، وقد صار عقله لا يمسك ما تسمعه أذنه وتراه عينه ويعيه فؤاده "إلا كما تمسك الماء الغرابيل !".

لقد نسوا أن أباه كان في هذه القرية ذا أمانة ومعقد رجاء، يأوي إليه الفقير، ويأكل من جيبه الجائع والمحتاج. ونسوا أن امه سيدة كريمة، ردت على الإساءة بالإحسان، وصبرت وغفرت وأقالت عثرات قوم كرام ولئام على السواء.

كل هذا نسوه، فصاروا يؤذونه في أبيه بالذكر السيء، ويؤذونه في أمه بالقذف والافتراء.. وهذا الذي ما كان يظن أن سوف يسمعه منهم سواء ظل عاقلا أو صار مجنونا.

حتى الذين طالما احتسوا القهوة من جيبه، وسكروا من فضلة أقداحه، حتى هؤلاء تبرأوا منه وصاروا ينهرونه ويشتمونه.. ولكن، لا بأس، سيعرفون في النهاية من الغبي المجنون..

الشارع يمتد موحشا قفرا.. صحيح، فيه أشباح من مختلف الأشكال والحجام تتحرك لكنها جلدية باهتة مما اعتراها من بخار الصقيع الأشهب.. الأشباح تدفع نحو الأمام كأنها مضطرة مكرهة، أو كأنها تتحرك بالإيعاز.. أحس بالتعب.. بل أحس بالقرف.. لا، بل أحس بالخوف وسط هذه الأشباح، بعدما أضفى عليها خياله الكثير من مظاهر الغرابة والخوف..، فاندس بين أشباح أخرى أكثر لطفا في مقهى "عمي صالح" المكتظة طول النهار لقربها من محطة المسافرين، ودار البريد ومصالح حكومية أخرى.

في سابق عهده، كان يحتار مع من يجلس لكثرة المنادين عليه، أما اليوم فهو محتار مع من يجلس، لأنه لم يناد عليه أي واحد !، رغم كثرة الوجوه التي كانت من شلة الأنس قديما.. وقف إلى كل طاولات الورق والنرد والضامة، سمع مواضيع أحاديثهم، سمع تعابيرهم وهم يوزعون الأوراق وقطع النرد ويحركون بيادق الضامة..

ارتشف رشفات من بعض الفناجين دون إذن من أهلها.. ولما دخل رجل يبدو عليه أنه من أهل المداشر، استل من قفته خبزة على حين غفلة منه، ثم طلب من "عمي صالح" زجاجة مشروبات، وراح يأكل واقفا إلى المحسب.. ومما زاد شهيته أن الخبزة كانت دافئة.

وكانت عيناه تنتقل بين الوجوه المنتفخة، والوجوه الشاحبة الصفراء، والوجوه التي ما عادت تعكس شيئا ذا معنى بعد أن قرر الرئيس اعتمادا التعددية الحزبية..

وفجأة.. سمعوا أحدا يتقيأ، فالتفتوا، فرأوه هو على كرسي منحنيا إلى الأمام شيئا قليلا.. كان يتقيأ بملء فمه مجهدا، والعرق يتصبب من شدة ما يجد.. كان يسد أنفه بسبابته وإبهامه..

ولقد رق لحاله بعض الناس، فأسرعوا إليه ينضحونه بالماء البارد، ويشدون رأسه شدا، ويسألونه عن سبب هذا كله، فأجابهم وقد استوى واقفا، يمسح عينيه وفمه وأنفه ووجهه جميعا:

–منذ دقائق دخل المقهى رجل من أهل المداشر، فسرقت منه خبزه، وطلبت من "عمي صالح" زجاجة مشروبات، وما كان في نيتي مطلقا أن ادفع له ثمنها، فلم يرد الله للحرام أن يخالط دمي ولحمي وعظمي، فتقيأت.

فضحك عليه جميع الحاضرين، ورفع أحدهم صوته قائلا في تهكم:

–لو أن كل واحد منا أكل حراما تقيأه، لصرنا نتغوط من أفواهنا. !

فضجت القاعة بالضحك الأرعن والنكت اللاذعة، والتعاليق الفاجرة الساخرة.. أما هو فراح يمسح وجهه بكم معطفه وهو يقول:

–ليس هذا وحده الذي جعلني أتقيأ، إنما مررت بطاولتكم، وأنتم تلغطون كالذباب، فوجدت أعراضكم قد تعفن لحمها بين الأسنان الصدئة الصفراء.

وواصل حديثه، وهو يشير إلى بعض الحاضرين واحدا واحدا:

–أنت وجدتهم يتحدثون عن زوجتك في تلك الطاولة –وأشار نحوها– وأنت سمعتهم يتحدثون عن ابنتك الجامعية، هناك في الركن، وأنت سمعتهم يتحدثون عن أختك في الطاولة تلك التي قرب صناديق المشروبات؛ حتى أنت –مشيرا إلى طفل صغير مندس وسط الناس لا يتجاوز العاشرة– وجدتهم يتحدثون عن جدتك، وكيف أنها ما زالت محافظة على جمالها رغم السنين.

وواصل بعد صمت قصير، هدأت فيه القاعة، واسترد هو فيه بعض أنفاسه:

–اطمئني أيتها الصناديق الفارغة.. أيتها الأكفان المزركشة.. لستم وحدكم هنا، هنا أمهاتكم وزوجاتكم وبناتكم.. هنا أعراضكم تستباح.. هنا تجمعكم البطالة كما يجتمع الذباب على الخراء.. في كل شرايينكم.. في كل خلاياكم تلهث "سدوم."

ولما سكت كان العرق يتصبب من جبينه، ونشوة غامضة تنفخه.. ليس من المستبعد أن يكون قد أحس أنه يصلح ليكون زعيما سياسيا لطائفة من المغفلين.. لقد أعجبته طريقته في الخطابة، والدليل على ذلك هؤلاء الساكتون كأن على رؤوسهم الطير، أو أنهم واقفون في حضرة عسكري.. لقد أثر فيهم وأثر عليهم بكلامه، لو لا أن شابا من "سلفية القرية" دخل منذ مدة قصيرة، وقال مخاطبا الناس:

–لا تسمعوا لحديثه أيها الناس.. إنه غير مبايع.. ومن لا شيخ له فالشيطان شيخه.

فرد عليه أحد الشباب من وسط الحاضرين:

-لكنه لا يقول إلا الحق، ولا يدعو إلا إليه، فكيف لا نسمع إليه؟ !

فالتفت هذا "السلفي" إليه وصاح ثانية في الناس:

-لا تسمعوا لهذا كذلك.. إنه معتزلي ضال مضل.. مستهزئ بالسنة.

فتدخل شاب آخر، كأنه يدافع عن الثاني:

-ليس كل من خالف فهمك للسنة فقد خالفها. فقاطعه "السلفي" وقد عرفه:

-هذا أنت؟ !.. مرحبا من موسكو –ثم قال للناس- لا تسمعوا لهذا، إنه فاسق فاجر !.. ويكفيه فسوقا وفجورا أنه يدرس الإخراج السينمائي.. لقد أبلغنا "الشيخ" عنك، ووعدنا أن ينظر في أمرك.

أما أنت، فقد يدفعك الفضول إلى أن تعرف شيئا من أمر "شيخهم" هذا.. وها أنا أقص عليك من أمره طرفا يسيرا، إنه شاب فشل في امتحان الباكالوريا، وفي نوبة من نوبات رد الفعل التي تنتاب الفاشلين المحبطين عادة، أقبل على الصلاة، وأكب على كتاب "الإحياء" يقرأه، بل يحفظه حفظا، فهو ذو ذاكرة قوية، وما حال عليه الحول أو كاد، حتى نصب رجليه لتدريس أبناء حارته بعض شؤون دينهم –على قلة معرفته بدروس اللغة العربية – وصاروا بعد حلقتين أو ثلاث يلقبونه "الشيخ" !.. لماذا بكل هذه السرعة؟.. والله لست أدري !.. ثم بايعته طائفة منه على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وصاروا يرغبون الشباب في مبايعته واتخاذه قدوة وأسوة.

أما الآن، وقد علمت من أمر هذا "الشيخ" الصغير شيئا قليلا، فأقبل على الناس في المقهى، وقد علت بينهم ضجة الحديث، وحمي وطيسه، وها هو "باباي" حاضر، ممسك برانفة أذنه، لأنه ثقيل السمع شيئا ما، ها هو يلتقط كل شاردة وواردة ليبلغها "الشيخ"، وإن كان الشاعر يعنيه حين قال:

"أقول اه: زيدا، فيسمع خالدا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وينطقها عمرا، ويكتبها بكرا"

رغم هذا فقد كلفه "الشيخ" بمسؤولية التحسس والتجسس، ولهذا بدل الناس كنيته، أو زادوا فيها ما يدل عليه كاملا ويناسب هذه الحرفة الجديدة، فصارت "باباي كا جي بي" !

وعندما تفقدوا منصورا، وهم يأخذون أماكنهم من الطاولات، لم يجدوه بينهم فقد تسلل إلى عرض الشوارع يجوبها جيئة وذهابا، يقلب عينيه في وجوه الآخرين، يقرأ فيها كثيرا مما تخفيه السرائر ونكبة الصدور، كانت الوجوه متشابهة بصفرتها الشاحبة.. متشابهة بسطحيتها القاتلة.. بخلوها من الأمل العميق.. ببلاهتها الخرساء.. إنه لا يدري لماذا يتنازل الناس عن تميزهم وتفردهم، ويصيرون سطحيين وتافهون وبلهاء؟ !

ما أصعب الحياة، حين يكون مفروضا عليك أن تجتاز عقلك إلى ما بعده.. وما أصعبها لما تريد أن تتناولها من حيث انتهى الآخرون.. لا شيء في ذلك غير لذة الدهشة ودهشة اللذة.

وهو ما زال يبحث عن أي شيء يحرق فيه ما تبقى من سويعات النهار..، في هذه القرية التي تضيق حينا فتصير في حجم بيضة دجاجة، وتتسع حينا آخر فتكون في اتساع حلقة حبل الشنق !

وقد تأتي ساعات كالومضة تأخذ فيها حجمها الحقيقي، لكنها سرعان ما تتقلص لتأخذ شكل عين الأعور.. !

إنه يبحث عن أي شيء ينسيه ثقل الساعات الباقيات من هذا النهار الأعمش.. كأنها تتحرك فوق أرض من صمغ !.. كأن عقربيها شيخان كسيحان يمضيان خلف جنازة..

ساعد "عمي السعيد الزبال" في تنظيف شارع وزقاق.. وغسل فناجين مقهى "عمي صالح".. وتابع مسلسلات الصور المتحركة باهتمام، بحثا عما يهز الأطفال فيها ولما كان في شرفة المقهى تابع سير سحابات في السماء، وهي تسعى صوب الشرق في حركة مهيبة جليلة..

الوقت يقتل كل شيء، ولا شيء يقتل الوقت.. إنه يقتلنا بأحب السكاكين إلينا وأعزها علينا، وأمضاها فينا.. بالشهوة المبتغاة.. بالأماني اللطاف.. بخطى ترمينا على غير هدى في كل اتجاه كما ترتمي مهج الأطفال في قطيفة قوس قزح، حيث لا شيء يقبض باليد سوى البخار وانكسار الضوء على رذاذ الماء..

الشمس جعلت من السحابات المتناثرة على اديم السماء أرخبيلا مذهب الحواشي.. أشعتها تنصب على الرؤوس والوجوه دافئة لزجة.. ولما ينظر في ساعة ويجد أن الوقت لم يمر إلا بدقيقتين يشعر بالرغبة في الصراخ.. في إثارة الفوضى.. في الجنون.. فقد ينتبه الوقت !.. ثم يشك في ساعته، فيسأل العابرين عن الوقت فيجدها مضبوطة بدقة.. كساعات الآخرين تماما.. فيود لو أنه يستطيع مخاتلة الزمن ومراوغته، والعودة إلى الصباح الأعذر، أو الارتماء في أحضان منتصف الليل..

كم يكون رائعا، لو أن لكل واحد من الناس نصيبا معلوما من مساحة الليل، وعددا معلوما من نجومه.. يتصرف فيه كيف شاء ومتى يشاء.. يسحبه على نصيبه من النهار، ويعلق في سمائه حصته من النجوم كيف يشاء.. يحسبه على نصيبه من النهار، ويعلق في سمائه حصته من النجوم كيف يشاء ومتى يشاء، وينام في زمنه، وإذا ضاق منه طواه، كما يطوي الأعراب خيامهم، وأعاده إلى مكانه، وارتمى في مدارات النور وأقاليم النهار..

أما أن تكون ملزما بدقات ونبضات، تجعل كل الناس يلهثون في زمن واحد، ويأكلون في زمن واحد، ويمارسون وظائف حيوية أخرى في زمن واحد، فهذا هو الموت الحي !.. الموت المقنع ببسمة بلاستيكية.

من منا يستطيع أن ينقف الشرنقة ليتدفق زمن غير هذا الزمن، وتنسفح أسرار غير هذه الأسرار، فتنقشع عن الوجوه غيمات الرتابة والكآبة واللهاث الأبدي وراء حبة الجزر؟ !

الوقت ما زال كسيحا كليلا.. وهو يفكر في كل شيء حتى اللاشيء !.. يفكر في أمور لا تصلح للتفكير أساسا.. يبتسم في وجه أناس لا يعرفهم، ولما يردون عليه بابتسامات ألطف وأجمل يعبس في وجوههم ويكفهر..

إنه لا يكرههم ولا يحقد عليهم.. بل إنه يحبهم، لكنه يبحث عن الجديد.. عن المثير.. عن أي شيء مدهش يسد ثقوب الوقت وشقوقه.. ويقطع به صحراء العمر التي نرقص فيها الأماني كالسراب.

نظر في ساعته، فرأى أنه لم يقطع من الوقت إلا عشرين دقيقة، خلال قرن من السآمة والضجر.. شيء مقرف ومزعج بالفعل !.. نزع الساعة ورماها تحت قدميه، وراح يرفسها حتى شعر بالألم.. انتبه إليه، فإذا هو دم أحمر !.. أه يأبى الزمن إلا أن يكون جارحا.. حتى شظاياه الزجاجية جارحة !.. لكنه يأسو ويداوي.. وينسي الجرح بجروح، والغصة بغصات..

ورغم أنه رفس زمنه وكسره، إلا أنه ظل يجد في نفسه الحاجة الملحة لسؤال الناس عن توقيت معاصمهم.. فكان بعضهم يجيب، وبعضهم يمر كأن لم يسمعه.. وكم كان يعجبه ألا يجيبوه، لأن ذلك يترك في قلبه رغبة ورعشة وشعورا بالخيبة، ويعطي للوقت قيمة وللحياة معنى.. المهم أي شيء يكسر الرتابة ويقطع التفاهة !!

لهذا كان يكثر من السؤال عن أمور مختلفة، وإنه ليتمنى في قرارة نفسه ألا يجيبوه حتى تعظم تلك الأمور، وتحاط بهالة من الغيب والمجهول.. لقد صار يشعر أنه يعرف كل شيء، لأن كل شيء قد قيمته لديه، وبعدها صار لا يعرف أي شيء، لأنه لا يعرف قيمة الأشياء.. وبين هذا وذاك أحس أنه لا يحسن طرح الأسئلة، لأن الإجابات العظيمة، كان سببها بدءا سؤال في غير محله، وبغير اللغة المعهودة في طرح الأسئلة.

فجأة انفتحت أمامه خمسة طرق، أولها يقود إلى المستوصف، وهو يود الذهاب هناك لمعالجة الجرح الذي بين بنانه، وثانيها يقود إلى موقف السيارات، وله رغبة في أن يذهب إلى المدينة المجاورة، لشأن لا يريد أن يبوح به لأحد. وثالثها يقود إلى المسجد، وهو قد نوى أن يغتسل ويشرع في الصلاة، لأن الصلاة تذهب القلق، والصلة بالله تجعله مهما وموجودا. ورابعها يقود غلى وسط القرية حيث الحركة وبعض الضوضاء. وهو يود أن يشهد حركة الناس وفوضاهم، ليروح عن نفسه مما بها من قلق لا يعرفونه، ومن ضجر لم يذوقوه.

أما الطريق الخامس، فيقود إلى ظاهر القرية حيث المروج الخضراء، وتلك الربوة الشامخة في الوسط، المشرفة على كل ما حولها، وكم أمضى هناك من أمسيات عذاب لطاف متأملا متفكرا. خمسة طرق، وخمس رغبات متساوية الجذب، وأنى تفلح عربة تقودها خمسة أحصنة تمضي في اتجاهات مختلفة؟.. هنا تذكر وطنه، وساكنيه من الناس الطيبين.. ولهذا ظل واقفا في مفترق الطرق كالأبله لا يقوى على الانطلاق أي اتجاه.. والناس من حوله يمضون في كل اتجاه.. وربما إلى أهداف متشابهة.. فتذكر وطنه الواقف مثله في مفترق الطرق..

*　　　　　　*　　　　　　*

ما يقرب الساعة قضاها في مفترق الطرق، ولما أفاق من شروده وانتبه، أدرك أن المستوصف يكون قد أغلق بابه في هذا الوقت، وكذلك حمام المسجد، أما التوجه ظاهر القرية، فلم يعد هناك متسع من الوقت يكفي لإثارة المتعة اللازمة، أما العودة غد، إلى سنة كاملة، فما أيام القرية إلا يوم واحد سحبت منه ثلاثمئة وخمس وستون مستلة..

إذن لم يبق مشدودا إلا على طريق المدينة المجاورة، التي لا تبعد عن هذه القرية إلا ببضع كيلومترات، ولا بد أن يذهب لقضاء الشأن الذي لا يبوح به لأحد، فأسرع نحو "طاكسي" لا ينقصها إلا راكب واحد، لينطلق بها صاحبها، واندس بين ركابها الذين كانوا يدخنون بشراهة، فما كان منه إلا طلب من السائق سيجارة، فأعطاه ما تبقى من واحدة كانت تتدلى بين شفتيه كالدودة الناشفة، وبدل أن يدخنها كالآخرين أطفأها ودسها في جيبه، وراح يتأمل مناخير الجالسين جنبه، وهي تنفث الدخان كالمداخن الكسلى في فصل الشتاء.

وقتلا للوقت عرض عليهم نصف سيجارته، لمن يستطيع منهم أن يخرج الدخان من منخر واحد. وقد أعجبت اللعبة السائق، فأشعل سيجارة أخرى، وراح ينافس، أما هو فقد كان –باعتباره الحكم– منشغلا بمراقبة المناخير المتنافسة باهتمام لئلا يظلم أي واحد منهم.

وقد كانت لعبة مسلية بحق، تبارى فيها الركاب، وضحكوا بصدق، ولما كانت سيارة الجرة تتوقف بمحطة المدينة، كان "منصور" يعلن فشل الجميع، ونزل ليمضي لحال سبيله، وهو يضحك عليهم، ونزلوا هم كذلك، ومضوا لحال سبيلهم وهم يضحكون عليه، أما سائق

"الطاكسي"، فكان يتابع "منصور"، وهو يتضاءل في طريقه صوب الحي الجديد، ثم إنه ضرب مقود السيارة وقال وهو يحرك رأسه تعجبا:

-يا له من مجنون.. سيجعلنا كلنا مجانين، وربما قد يضحك علينا جميعا.

وفجأة تذكر أنه لم يقبض منه اجرة الركوب، فراح يطلق وراءه صفارة "الطاكسي" بإلحاح، لكن منصورا تظاهر أنه لم يسمعه، أو ربما لم يسمعه بالفعل، ودار في المنعطف.

في الحي الجديد، كانت الطرق والممرات مشغولة بالحفر الصغيرة والكبيرة، وكانت هذه الحفر مملوءة بمياه القاذورات والصرف الصحي، التي تخرج من تحت بخيوط "البارابول"، وهي تتدلى واصلة بين كل العمارات تقريبا !، مشكلة لوحة سريالية.. لم يشأ أن يرفع نظره لئلا يتساءل، فيفكر فيشقى ويتألم، إنما اقترب من نافذة شقة أرضية، ورماها بحصاة صغيرة وهو ينادي:

-الحاجة.. الحاجة..

بعد برهة من الوقت، فتحت النافذة، وأطلت امرأة في العقد الرابع من عمرها، كانت تتثاءب، كأنها قامت من نوم أو هي راغبة فيه ومقبلة عليه، كانت ذات قصة غلامية، وجبة طويلة عريضة بنصف كم، كاشفة عن ذراعين يميلان إلى السمرة والامتلاء؛ وسألته في غير اهتمام أو اضطراب، وكأنها ألفت أن يأتيها الناس عبر النافذة:

-من؟.. ماذا تريد؟. ولما عرفته انفرجت شفتاها عن ابتسامة فاترة، وهي تقول:

-أنت؟ !.. آه كيف حالك؟، لم تزرنا منذ مدة.

-السلام عليكم يا "الحاجة".. والله يا "الحاجة"كنت مشغولا ببعض الأمور وتابع حديثه مستفسرا

-كيف حال "الحاجة"؟. فردت عليه بصوت خافت، وعيناها تجوسان خلال ما ترى:

- لم يبق إلا أربع.. ومن حسن حظك أنك وصلت قبل الاخرين.. كم تريد؟

نظر إليها كأنه يتملاها قبل أن يجيبها كالمتسول المتسول:

-ليس لي إلا ثمن واحد يا "الحجة".. الله غالب..

انسدل ستار النافذة برهة من الوقت.. هزته خلالها رعشة شوق وحنين، جعلته يفرقع أصابع يديه، ويداعب شعر ذقنه، مركزا على فحصة الذقن أكثر. ومن وراء الستار ظهرت الحاجة من جديد، بقامتها التي لا تصلح إلا لجذب الزبائن، وسلمته شيئا أسطوانيا ملفوفا، لتقبض منه نقودا، راحت تعدها، أما هو فقد سألها:

-كيف حال الحاجة؟.

أجابته وهي تعد النقود بطريقة الذين يتعاملون كثيرا في عد المال والدراهم:

-ذهبت مع "الحاج" إلى "بجاية" قبل أمس، ولم تعد.

-والحاجة؟.

قهقهت بصوت مكتوم قبل أن تجيبه:

-سلط الله عليها وحشا ليلة البارحة، رفسها رفسا، فهي الآن ملقاة على السرير كالجثة المحطمة.

-والحاجة؟.

-هي الآن في ما يشبه الراحة الإجبارية منذ شهر —وأكملت متنهدة- الذباب لا يقع إلا على العفن، والنحل لا يقع إلا حيث الشهد والرحيق.

أخرج من الجيب الخلفي لسرواله كيسا بلاستيكيا أسود، ودس فيه ذلك الشيء الأسطواني الملفوف، ورفع رأسه نحو الحاجة مودعا:

-السلام عليكم.. ليلتك سعيدة.. الليل داهمني.

-وليلتك أسعد.. اله يحفظك.

دعت له وأغلقت النافذة. وعاد هو على نفس الطريق، وقد أشعلت بعض المحلات مصابيح واجهاتها، أما الإنارة العمومية، فكلها معطلة ومكسورة في هذا الحي !.. لماذا؟.. ومن يدري لماذا؟ !. وكان يسرع الخطى نحو موقف السيارات قبل أن يرخي الليل سدوله، وإلا فسوف يتحتم عليه، أن يقطع المسافة سيرا على الأقدام، وليست هذه المرة الأولى التي كان ذلك منه.. لكن الله كريم، وهو دائما يسوق إليه من يحمله بدون أجر.. وغالبا ما يكون جاره الطيب.

لكن اليوم، وجد في نفسه إحساس من تخلى الله عنه.. فها هو الليل قد أحكم قبضته على كل شيء، وها هم الناس قد لزموا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، وها هو وحده واقف في مخرج المدينة الشرقي.. ولا لوم على الله إن هو سبحانه تخلى عنه وقلاه؛ فذلك هو العدل والجزاء والوفاق.. إنه يريد أن يعصيه، ويريد أن يعطيه !.. منطق أخرق !! أية وقاحة هذه؟ !.. أحس بقشعريرة تهز كيانه هزا.. أراد أن يدعو الله أن يسوق نحوه سيارة كما عوده.. لكنه لم يقدر أن يرفع عينيه نحو السماء خجلا، ولم يقدر أن يحرك لسانه استخزاء.. ليس من المنطقي أن يجيب الله دعوته، وهذا الكيس الخبيث يتدلى من يده كوجه إبليس.. لكن الله عظيم كريم، قادر أن يحسن إلى المسيء ويتكرم على العاصي، ويتودد إلى الذي يجافيه،.. إذن فليرفع عينيه إلى السماء، ويفعل الله بعدها ما يريد. ورفع نحو الله عينين مثقلتين بالخجل والذل والشعور بالذنب، وما إن ردهما حتى بهرته أضواء سيارة قادمة من المنعطف، وكأن الله سبحانه قال له: "لبيك عبدي.. لك ما طلبت".. تملكته قشعريرة غريبة، هي مزيج من الفرح والنشوة والرضا.. هل معنى هذا أن الله سبحانه قد أجاب دعاءه.. نعم .. لا معنى لذاك إلا هذا..

إن السيارة تتوقف، والباب يفتح، وعلى ضوء المصباح الداخلي للسيارة عرف أنه جاره الطيب..

-السلام عليكم. قالها وهو يغلق الباب، ويحاول جهده أن يخفي الكيس البلاستيكي جنبه.

-وعليكم السلام —رد عليه جاره، وأكمل كأنه يداعبه- ما الذي دسست في جنبك كي لا أراه؟.

ورغم أنه شعر بحرج وارتباك، إلا أنه أجاب بسرعة، وكل الكلام يكون في محله، حين يخرج من فم مجنون:

-كفن لفكري وضميري.

-أتظن أنك بهذا الهذيان والفوضى تجعلني أصدق أنك مجنون؟.. دع عنك هذه اللعبة الخطيرة، إني أخاف عليك أن تحاول يوما العودة إلى رشدك وعقلك فلا تستطيع، وإن استطعت فلن يصدقك الناس.. وما جدوى العبقرية إذا أجمع الناس على أنها ضرب من الجنون؟.

سكت "منصور" وأحس بحرارة في خديه، إذ أن بينه وبين جاره احتراما متبادلا لم يقطع، وكلفة موصولة بين الوجهين والقلبين لم ترفع، ولهذا ظل ينظر في الطريق صامتا، وأشجار "الدردار" التي تحف الطريق، تسرع إلى الخلف، محدثة صوتا حادا ناشفا. وكان يجهد نفسه في ضبط ذلك الكيس جنبه، كي لا يحتك بمعدن السيارة، فيبوح بمعدنه ويفضحه. وليس من المستبعد أن يكون جاره قد تفطن إلى ما في ذلك الكيس الأسود، لكنه لم يشأ أن يهتك سترا أرخاه الله، أو يفضح ما يريد الله أن يظل مكتوما.. وماذا عساه يجني من وراء ذلك إن هو فعل؟.. يكسر قلبا ويجرح كرامة، ويخدش كبرياء.. ويصبغ وجها بحمرة الخجل أو صفرة الفضيحة؟.

وما قطع عليه استرسال خواطره إلا جاره الطيب يسأله، بعدما ظن أنه قد أحدث له إزعاجا بسؤاله الأول:

-ماذا تقرأ هذه المرة؟.

مسح "منصور" أنفه بسبابته وإبهامه.. ويبدو أن هذه عادة فيه وقال:

لا شيء.. حينا أقرأ صفحات من "الحكومة الإسلامية"، وأحيانا أقرأ من صفحات من "أولاد حارتنا" أرسلها إلي أحد الأصدقاء من "باريس".. وما دفعني إلى قراءتها سوى اللغط الذي دار حولها.

ثم استدار إلى جاره، وواصل يسأله:

-ألديك كتب للإعارة؟. أجابه وهو يوقف السيارة أمام منزل "منصور":

-لا كل الكتب التي عندي متخصصة.

-أعرني واحدا منها.. فأنت تعرف أني أحب أن أعرف كل شيء.

نظر إليه مبتسما، وقال وهو يمد يده ليغلق باب السيارة بعدما نزل "منصور":

-بع نفسك للشيطان.. —وواصل كلامه بعد صمت قصير- وهذا الذي يوشك أن يجعلك لا تعرف أي شيء. ومضى بسيارته رويدا رويدا.. فمسكنه ليس بعيدا.

في كل مرة يدخل فيها مثل ما في هذا الكيس الأسود، إلى هذه الدار، إلا ويشعر بحرج كبير.. يشعر أن عشرات الأعين التي عاشت هنا على الحلال والعفاف، تنظر إليه معاتبة كمن خدعت فيه.. يشعر أن الذكريات التي كانت هنا مرفرفة كفراشات الربيع، تحشر الآن نفسها في الزوايا، وتختفي خلف الأبواب خجلا.

الظلال التي طالما تحركت هنا، وزادها الأمل والحب، تقفز الآن من النوافذ والأبواب.. تتسرب من تحت الأبواب لتذوب في ظلام الليل.

الملائكة الذين طالما احترمت أمه وجودهم.. وطالما طيبت البيت وعطرته لأجلهم، ولم تسمح أن يحدث فيه ما يؤذيهم.. إنهم الآن يجأرون، ويكادون يخفون وجوههم النورانية، لتحل الظلمة السرمدية.. وإنه ليكاد يبصر إبليس في دمه واقفا أما أتباعه كالمايسترو والعجوز، يستعد لعزف سمفونية البطولة والفرح.

لكنه —وبكل صراحة — ما عاد يهمه أن تحزن الملائكة أو تفرح الأباليس. حسبه أن شهوة عارمة تجتاح دمه كالحريق الخرافي.. يحس أن في كل مسامة من مسامات جسده أصبعا ناعمة تدغدغها، فتدفعه إلى الفرح.. إلى الرقص.. إلى الهروب حيث يتوقف الزمن على لحظة من فرح وانتشاء.

غشاوة ناعمة تغشى عينيه.. كأنها أنفاس إبليس، بل هي أنفاسه، تجعله يرى كل ما حوله ربيعا نديا وقوس قزح.. يا لها من همسة فاترة هذه التي يسمع خريرها في دمه !.. فيتردد صداها في شغاف القلب كأنات وآهات الحور العين.. !

-أستغفر الله !.. أستغفر الله —قالها وهو يفرك عينيه بقبضتيه — إنه الشيطان يجتاحني، يسري في دمي كدمي.. يشل إرادتي.. يغريني.

قهقهة شقية خبيثة حادة، تهز الغرفة.. "ما ذنب الشيطان يا غبي؟.. او ليس في مقدور الله أن يدلك على الشهوة والفرح؟.. ليس بالضرورة أن يكون الله دليلا إلى وجه منقبض عبوس، وجبين مقطب يؤوس، قد انطفأت كل مباهجه، وصوحت فيه كل مواسم الفرح.. في هذه اللحظة يا غبي هناك الملايين من الناس عاكفون على معصية الله بطريقة منهجية مدروسة.. لكن ملكه أثبت وأرسى لماذا يسكنك الخوف من النار؟.. أين الأمل في الجنة؟.. ولن تكون مؤمنا حقا حتى يتساوى لديك الخوف والرجاء والرهبة والرغبة.. فاجعل في نفسك المكدودة شبرا للأمل والفرح، وسترى كيف تنقلب حياتك.."

ملك الله اعظم من أن تهزه ساعة فرح، يحياها شاب منسي في قرية في ولاية منسية، في وطن يوشك أن يصير منسيا !..

صحيح.. يراك ربك في اللحظة التي تنساه فيها.. يأسف.. وفي اللحظة الحاسمة تسبق الرحمة الغضب.. آه، وعندها تكون قد فزت بفرحتين، ونشوتين وضحكتين.

يده تمتد مرتعشة نحو الكيس الأسود، يخرج منه الزجاجة الصفراء ذات الروح الحمراء الملفوفة في الورق الأبيض.. الله !.. مهرجان من الألوان.. أسود، أبيض، أصفر، احمر، وكم يتولد من تمازجها بأقدار من ألوان !.. ألوان.. ألوان.. منها منبع الربيع !.

يجلو عنها الورق الأبيض، كما يجلو العريس عن وجه عروسه الوردي ستار الحرير الأبيض الموشى بالذهب.. ينعكس عليها ضوء الغرفة.. ينقدح شرر من نور.. كأنها بذرة شروق أخرجت شطآها النوراني، الذي أضاء أغوارا عميقة في النفس الكئيبة.. يظهر في الإيماض الخاطف غبار أحزان وسحابات كآبة.. ونسيج بؤس.. وذكريات متكومات كالعجائز المتسولات.. لا بد لغبار الحزن أن ينفض بمنفضة الفرح..

ولا بد لسحابات الكآبة أن تنقشع لما يسري دفء الحياة في الشرايين والخلايا. ولا بد لأنامل الأمل النورانية أن تمزق نسيج البؤس وتجعله هباء منثورا..

ولا بد للذكريات أن تنفخ فيها روح الحياة، فتنتفض كأحسن ما تكون عذارى الجزر المنسية، وهن يقفزن على زبد الموج، ويرفلن في وشي الخطيئة الأولى.

يضع الزجاجة على الأرض.. بين رجليه.. ويمسك رأسه بقبضتيه، ويحركه وهو يضغط على أسنانه كمن يريد أن يسكت فوضى في داخله:

-أستغفر الله.. أستغفر الله !.. إنه هو.. والله هو !.. بمنطقه الناعم كجلد الأفعى، بصوته الهامس كصوت المرابي اليهودي.. هو.. بوعوده.. بأمانيه الرجراجة.. بأحلامه الوردية.. هو .. هو !!

قهقهة اخرى، تردد صداها اغوار النفس السحيقة، كما ترد المغاور والشعاب عواء الذئاب: لماذا أنا؟.. ألا يمكنك أنت أن تفكر هكذا؟.. اتحداك أن تجد خطأ واحدا أو خللا منطقيا واحدا في كل ما سمعته مني !.. أنا لم أقل غير ما قال فقهاء الشريعة وأحبارها.. إنك أنت تسمع صوتك المقموع في زحمة الأصوات. إنك أنت تطل على الحقيقة المكبوتة في أعماق روحك الظمآى إلى لحظة الولادة الأولى.. حيث البراءة والدهشة، والطفلية الأبدية..

هذا أنت يا عزيزي توشك أن تقفز إلى فضاء هلامي لا حلال فيه ولا حرام.. فضاء لا يمكنك أن تعبر عنه بلغة البشر إلا تشبيها وتمثيلا.. هناك.. أو إن شئت هنالك تستطيع أن تبكي من الفرح، وأن تضحك من الحزن.. تستطيع أن تتلذذ بالألم، وأن تتألم من اللذة.

هناك يا عزيزي، تستطيع أن تحب لأنك تكره، وأن تكره لأنك تحب.. وإياك أن تظن أن هذا تلاعب بالألفاظ كما يفعل العاجزون من بني البشر.

يدفع زجاجة الخمر الحائرة برفق، كأنه يدفعها عنه، ثم يغمغم بصوت واهن متألم:

-هو.. والله هو !، لا بد أن ينتصر. قالها وهو يضرب السرير بقبضته.

قهقهة مكتومة ساخرة، تأتيه من أعماقه، وترتعش كل كيانه، وتدق سمعه في مكر وخبث: -لا تقسم يا عزيزي.. لا داعي لذلك، فالحقيقة ليست في حاجة إلى يمين لتصير حقيقة، إنما يكفيها انسجامها مع منطق الأشياء. ولو كانت الأمور بالأيمان المغلظة لتشوه وجه الحق لكثرة من يقسم أنه الباطل، وتزين وجه الباطل لكثرة من يقسم أنه الحق.. ولذا فأرباب الحجى ليسوا في حاجة إلى القسم ليقتنعوا، إنما يحتاج إليه القلقون المهتزون الناقصون.. إنهم في حاجة دائمة إلى المعجز الخارق ليطمئنوا إلى صحة المنطقي الموضوعي البسيط..

ولا وقت للصمت.. فبمجرد ما توقف الكلام، مرقت قهقهة مبحوحة مرت بسمعه مثل كاشط من نحاس:

-"سمعتك تتحدث عن النصر.. شيء غريب !.. من تحارب يا "منصور"؟..

إنك لا تطعن إلا صدرك، ولا تبارز إلا ظلك.. نعم، قد تنتصر على أناك الوهمي، الذي يمنعك أن تأخذ نصيبك من رحمة الله وعفوه وجميل صفحه.. ويحك يا "منصور" ! أتتألى على الله؟ !.. إن الله يحب أن يغفر، فلماذا لا تذنب.. والله يحب أن يعفو ويرحم، فلماذا لا تعصي؟.. إياك أن تظن أن الله سبحانه قد أبقى عنده تسعة وتسعين جزءا من الرحمة، ليبخل بها على المذنبين، ويضن بها على العصاة..

حذار.. انتبه، لقد كدت أن تكسر الزجاجة التي أهنتها ووضعتها بين قدميك !.. إنك الوحيد الذي يهينها لقلة ذوقك وسوء أدبك... لو رايتها أيها الأحمق كم تدللت فوق تيجان الملوك !.. احذر أن تحرك قدميك فتنفسح، وحينها قد تضطر إلى استعمال الإسفنج متحسرا، وقد تتمنى كما تمنى "أبو نواس" من قبل:

كسروا الجرة عمدا وسقوا الأرض الشرابا..

قلت —والإسلام ديني ليتني كنت ترابا

طافت بشفتيه ظلال ابتسامة شفافة، فامتدت يده إلى زجاجة الخمر المزدانة بانعكاس الضوء عليها، ورفعها ووضعها على يمينه على السرير.. ونظر إليها نظرة فيها رقة وحنان، وفيها ذوق ولباقة وحسن أدب.. شعر نحوها بانجذاب قلبي، لا يختلف كثيرا عن الرعشة الصوفية لما يبتاغها الكشف، أو عن لحظة لقاء عاشقين، بعد فراق قاس طويل..

لم يجد صعوبة في افتضاض الختم البلاستيكي الفضي، الذي يستر سدادتها الفلينية،.. ويا كم افتض قلبها من أختام وأزاح.. !

ولما نزع السدادة أحدثت صوتا أثيرا رائعا.. يشهد الله أنه لا يختلف في السحر والتأثير عن صوت أمه بعد طول غياب.. هذه هي الحقيقة، فلماذا يخفيها؟.. صوتها الأثير أنعش الكثير من المواجد.. أيقظ الكثير من المواجد.. أيقظ الكثير من المواجع، وداعب اجفان الكثير من الذكريات الغافيات.. آه لو يعلم الناس لماذا يبكي صرعي القداح.. !

رائحتها !.. لله رائحتها، جعلت لكل خلية فيه خيشوما ورئتين، فهي تعبها بكل ما تملك من قوة، دون أن تجد الوقت للزفير.

أطبق على فمها الأملس المعطر شفتين مرتعشتين.. جرعة.. جرعتان.. ثلاث.. ثم لا ترى إلا تفاحة آدم في عنقه، وهي تصعد وتهبط، وشعر ذقنه يلمع تحت الضوء. زفر بقوة، وهو يرد الزجاجة إلى مكانها من سريره، ثم مسح فمه بطرف الغطاء، أو هكذا رأى نفسه يفعل، ثم قال، أو هكذا ظن نفسه أنه قال:

-الحمد لله.. الحمد لله.

فسمع قهقهة مبحوحة، تسري في دمه كصهيل الخيل المكدودة:

-نعم يا لبيب.. حسب المرء أن يكون صادقا لما يحمد الله؛ وما يهم أبعد سجدة عميقة محلقة، أو بعد جرعة خمر لذيذة.. لا يهم.. المهم: "الحمد لله".. تصعد نحو الله محلقة بأجنحة من صدق.. لكل واحد الحق أن يحمد الله على ما يجب من عطاياه..

التفت إلى مسجلته، وأدار فيها شريط "رباعيات الخيام" بصوت "أم كلثوم"، ولما كانت الحنجرة المتأوهة تنفخ الروح في أوجاع "الخيام" وعذاباته الأبدية، كان هو يمتص فم الزجاجة بشفاه ظامئة عطشانة، وعيناه مغمضتان حالمتان.

أبعد الزجاجة عن شفتيه، نظر فيها، ما زال فيها شيء قليل، وذلك أشهى ما فيها وألذ.. وضعها على الفراش واستلقى بجانبها مغمض العينين في نشوة حالمة.. ولما فتحهكا وقعتا على وجه أبيه الذي ظهر عليه شيء من ونيم الذباب.. يبدو أنه غاضب؛ فوجهه قد اسود، وجبينه تقطب وتغضن، وعيناه صارتا شقين عرضيين دقيقين، أدق من عيون الكهنة البوذيين.. ويبدو أن ارنبة أنفه قد برزت أكثر، فيهب واقفا، ويصرخ مهتاجا، بصوت متموج من أثر السكر:

-اغضب أو لا تغضب !.. وماذا يهمني فيك؟.. لك أن تقطب جبينك ما استطعت، فلست أبالي.. واغمض عينيك إن استطعت فإنك لا تملك إلا أن تراني وتسمعني.. فأنت تراني وتسمعني بدمك.. !

هذا أنا.. هكذا أنا بدون زيف أو مساحيق، أكون أحيانا –وما أقل تلك الأحايين- حسنة من حسناتك، وأحيانا أخرى –وما أكثرها- أكون سيئة من سيئاتك، بل أكبر لأصير خطيئة، انت الذي حملت نطفتها في صلبك.

لقد رأيتني من قبل أصلي كما صليت، فلماذا لا تراني عاكفا على "أم الخبائث" كما عكف عليها أجدادنا الأولون، بعدما احتالوا بالفقه على شريعة الله؟ !

لا بد أن ترى بذرتك وقد صارت شجرة ذات رطب وحنظل.. !

لا تغمض عينيك أكثر، لأن ملامحك تصير أشبه بملامح المهرجين والممثلين الهزليين –ثم ينفجر ضاحكا- أنا من حملت في صلبك، وبذرت في قرار مكين.. فانظر إلي ولا تشيح بوجهك عني.. كان حتما علي أن أنهزم أمام الشيطان.. إنه أثبت مني حجة وأقوى منطقا وأجلى بيانا.. ليس لي من سلاح سوى استغفار فقد حرارته وماءه، وسدت أمامه عيون الروح وأعصاب الضمير.. تتحرك به شفتاي دون أن يتحرك له قلبي أو يختلج منه شعوري وضميري.. هكذا علمتنا المدارس والشوارع والجامعات والحانات الخلفية..

علمتنا منطق الشيطان، وسلحتنا بسلاحه، فلما أردت أن أرفضه وجدتني من مريديه، وحين نويت أن أكفر به، وجدته قد تشرش في دمي، وعندما قررت الفرار منه، وجدتني ألقي برأسي في حضنه كالابن الضال يرجو صفح أبيه وعفوه.. وفي فورة من حماس قررت أن أحاربه.. أن أطلق عليه رصاصة، فإذا بها تستقر في قلب قلبي، وإذا بخنجري يطعن في صدري، وسكيني يبعج بطني.. أي وجدتني من جنوده، أقتفي أثر بقايا الإنسان في لأمحوها. ! فأين المفر؟ !

اغضب أن الشيطان نجس، قبيح المنظر، أسود، كريه الرائحة، لا يحبه الله. ولم تعلمني أنه ماكر متمرس، ذو منطق قوي مخادع، عنيد، متعصب لمبدئه، لا ينافق في عقيدته، يتقن كل فنون الكلام والبلاغ، فقيه بكل الشرائع، لا يعطيك قلامة ظفره إلا ليأخذ ذراعك..

أدري يا أبي أن قدرتي على الكلام قد اعجبتك.. لكنه مجرد مخض ماء، لأني لا أحسن التفكير، وأحسن الوصف، ولا أحسن التفكيك والتحليل.

ربما لو حاولت يوما أن أخطب في تجمع شعبي، لوجدتني أحسن التهييج والإثارة.. ولكني أجهل تماما كيف أضع خطوة واحدة على صراط الله المستقيم –ثم يضحك بقوة كالمجنون – يا صراط الله المستقيم.. أين أنت يا صراط الله المستقيم؟ !.

اغضب أو لا تغضب..

لو اضطرتك ظروف الحياة إلى منازلة الشيطان لصرعتك في الدقيقة الأولى،..

قد عشت يا أبي متحصنا خلف ميراث أبيك.. فلم ترغمك الأيام على أن تدفع غرفة عرق من أجل لقمة خبز ناشفة، ولم ترغمك الأيام أن تقطع ألف ليل وليل، لتقود شمعة رمداء كعين الحباحب في ليل صغارك..

لماذا ينتصر الصادقون ونحن نكذب، وينتصر الطيبون ونحن خبثاء ومخادعون وثعلبيون، وينتصر الموصولون بالله، ونحن صرنا موصولين بـ"شيوخ" العشرين عاما !!.. المحشوين بلاهة وغرورا، ضحايا السؤدد الوهمي.. وينتصر المؤمنين الأحرار، ونحن أسرى "الزعيم"، نتنفس بمنخره ونسمع بأذنه، ونرى بعينه ونتذوق بلسانه !.

يصمت قليلا، وينخرط فجأة في بكاء حار، هو يضرب الجدار بقبضتيه فتسقط قشور الطلاء القديم، ثم يقبل على كتبها يرميها في كل اتجاه وهو يقول:

–ماذا جنيت من قلق السؤال؟

ماذا جنيت من القلق؟

القيد أدمى معصمي، والغل أعرق في العنق..

والنار تكوي أضلعي، وتريدني –أبتاه– ألا أحترق.

والليل عسعس في عيوني.. في دمي، وأصابعي العمياء تبحث في دباجير المسافة عن فلق.

والجوع يلهث في دمي، ودمي على شبق الرصاصة والهراوة والكرابيج المتينة يندفق. وأنا كباقي الشعب أدفع جزية من رمقتي عما تبقى في عروقي من رمق.

والقيمون على وصايا الله في هذي المدائن والقرى يسترزقون بلا عرق

وينادمون السارقون، ويقطعون بلا دليل كف شعب قد سرق !

ماذا جنيت من القلق.. من النبش في تلافيف الغيب وفوضى الأشياء ورائحة الورق، وعصارة أفكار الموتى؟

يهدأ قليلا قليلا.. يبرد الإيقاع قليلا قليلا.. وتنقشع الرعشة لما تقع عينه على الزجاجة مرمية فوق السرير، مد نحوها يد متلهفة مشتاقة، ليعب ثمالتها عبا، رفعها في مستوى جبينه، لتتقطر على ظهر لسانه الممدود أحمر كنصلة الرمح !.. قطرة قطرة.. وكل قطرة يحسها كوكبا ناريا منفلتا يضرب أعماقه..

قطرة قطرة.. وكل قطرة يحسها نغما وإيقاعا في نشيد الوداع.. بل أحس أن لسانه مداسا "بيانو"، توقع عليها أنامل الخمرة ترنيمة الشوق الأخيرة؛ التي بها سوف ينسدل الستار، وتنطفئ الأنوار المتوهجة قنديلا فقنديلا.

ولما مرت مدة من الوقت، ولم تنزل خلالها ولو قطرة واحدة على لسانه، أدرك أن الزجاجة قد أسلمت الروح إلى بارئها.. ولم تبق إلا زجاجا باردا تتعلق به بقايا رائحة..

أدخل لسانه في فم الزجاجة ما استطاع، وراح يديره متتبعا نشوة الرائحة،.. لله تلك الرائحة !.. ولما أخرج لسانه جدبا من الزجاجة، أرعشه شبيه الصوت الأول الأثير الحبيب إلى قلبه، الصوت الذي أنعش وأيقظ، وأضحك وأبكى، وحرك واستثار.. وكأن حرف النهاية كحرف البداية، بل هو حرف واحد مشدود.. فإذا النهاية والبداية شيء واحد.. التقت النهاية على البداية.

في هذه اللحظة بالضبط، تمنى لو أنه شاعر عظيم، فيستطيع تخليد هذه الأحاسيس وتجسيدها في كلمات.. قرب فم الزجاجة من أنفه، وراح يستنشق بكل ما لقوته من رغبة، وبكل ما لرغبته من قوة، فتلتهب أعصابه بنار النشوة والفرح.

رفع نحو وجه أبيه عينين مجهدتين ذابلتين كورديتين في آخر عهدهما بماء الحياة، وأول عهدهما بلفح الموت والذبول.. نظر إليه طويلا كأنه يبحث فيه عن شيء عزيز دقيق أضاعه، أو كأنه أراد أن يتأكد من أمر هو منه في شك؛ ثم خاطبه بعد أن استلقى على السرير متوسدا ذراعيه:

-هذا أنا.. عار كالحقيقة.. كالشمس في وضح النهار، أحس أن الله يكرهني في هذه اللحظة ويمقتني.. وهذا عدل منه، وذلك يؤلمني، لكنه ربي.. لا يحقد علي أبدا. إنه في قلبي أمل كبير ورحمة واسعة، وصفح جميل.. وبعد لحظات لما تنقشع عني غشاوة الحرام، وتتبخر النشوة الاثمة، ويرعش قلبي ومفاصلي برد الندم، حينها سيحبني الله ويعطف علي، ويضمني إلى حضن لطفه كالابن الضال الذي أعياه عقوقه، فعاد إلى بيت والديه ممزق الثياب، حافي القدمين، قد لفحت بياض جبينه شمس المغامرة الحارة الحارقة.

هذا عار كالحقيقة، لا مجد لي غير ذنوب وأخطاء لم أكن أملك الشجاعة الكافية لأرتكبها في حق الناس، فارتكبتها في حق الله.. ما أعظمه من رب رحيم وما أحقرني من عبد آبق يا آبتي !!

لا مجد لي غير أحلام وردية سرابية، استقت قدماي وراءها كل أشواك الدروب، وتفتت إثرها كل أظافر البنان..

لا مجد لي غير وقاحة، لا يطيقها كثير من الناس، اجعل بها الكثير من الحزانى المهمومين يضحكون، وما يهمني مطلقا إن يضحكوا لي أو ضحكوا علي..

لا مجد لي يا أبتاه.. بل مجدي أن لا مجد لي !.. يكفيني أني لم أجعل امرأة تبيع عفتها لأني سرقت لقمتها، ولم أدفع بأبناء الناس إلى أشداق المدافع لأعلق نجمة زائدة؛ صفراء كبسمة المومس العمياء.. ولم أسرق دنانير اليتامى والبطالين، ليربو رصيدي خلف أقفال الحديد.. وما خرجت أختال أمام الناس في العمامة والعباءة، وأتماوت كالثعلب الطاوي ليخدع لي الناس لما أريد أن أخدعهم..

لا مجد لي إلا الصراحة الجارحة.. لا مجد لي !. قالها صارخا مهتاجا وقد وقف، وراح يلوح بقبضتيه في وجه أبيه كالمهدد المتوعد:

-ما دخلكم بيني وبين الله؟ !.. فالله غني عن الطلبات والرسوم والطوابع والدمغة، وطوابير الانتظار.

ما أتفه المجد الذي تبنونه بدم الضحايا وعرق الكادحين، وتشدون أركانه بأعصابهم المكدودة التعبى..

ما دخلكم بيني وبين الله.. إنما أنا أظلم ليعفو، وأسيء ليغفر، وأعصي ليصفح، وأندم ليتوب، وأبكي ليطهرني بدموعي، وأعود إليه ليفرح بي، وأسأله ليعطيني، وأصلي له ليباهي بي ملائكته.

ما دخلكم بيني وبين الله؟.. (صمت قصير، كأنه ينتظر خلاله جوابا).. الصفح يا أبتاه.. الصفح ولا تحزن.. أنت بريء، وأنا لا أقصدك أنت؛ إنما أريد أن يسمع الآخرون.. أريدك أن تبقى وضاح الجبين كسماء ربيعية، عميق النظرة كوجه البراءة، يكفيك هما أنك في مكان سرمدي الظلام ثقيل الزمن..

أريدك أن تفتح للنور صدرك، وقلبك للحياة الحبلى بالحبور.. ولكن أنى لك ذلك؟... !

وأتبع كلامه هذا بضحك خفيف خجول، كأنه يمهد به لكلام مضحك أو موقف طريف:

-كما تراني.. معفر في نقع الهزيمة.. لقد مسح بي إبليس الأرض القذرة.. وإني أعترف لك سلفا، انها ليست هزيمتي الأخيرة، فما زالت هناك هزائم أخرى على جبهات أخرى ولا فخر !.. وإنما أملي كبير أن أنتصر عليه لحظة الموت، لما لا يستطيع أن ينكس سبابتي المنتصبة في شموخ، تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.. لماذا لا ننتصر إلا حين نموت؟.

أبتاه.. أنت طيب وجميل وشريف، وهذه صورتك قد احتفظت بشيء كثير من ذلك، وأنا لا أختلف عنك في ذلك، إنما لم أستطع أن أمضي مستقيما على خط منكسر، ولم أستطع أن أكون نظيفا، وأنا أحيا في وحل المستنقع العطن الآسن..

ورغم هذا، فأنا أضمن لك أن قلبي سيبقى نقيا طاهرا، وأن روحي ستظل عذراء، تهفو إلى ظلال الطهر كما يهفو إلى ظلال الأيك من اشتد عليه لفح الهجير.

سكت.. تثاءب، نظر إلى معصمه يريد أن يعرف أية ساعة من الليل هذه، نسي أنه كسر ساعته حين كان الوقت ثقيلا لا يطاق، رفع وجهه إلى صورة أبيه وقال:

-أدري أنك تريد أن تسمع أكثر، وربما أعجبتك قدرتي على الكلام، أنا كذلك أعجبتني قدرتي على الكلام، ولهذا أفكر في تأسيس حزب سياسي، أجمع فيه كل عشاق البلاغة والفصاحة والبيان، من التروتسكيين حتى القطبيين، مرورا بالهجرة والتكفير. وكأنه قد رأى تعجبا فقال مواصلا كلامه:

-نعم بكل هذه السهولة يا أبي، وسأجعلهم يناضلون جنبا إلى جنب، وبحماس فياض !.. وسأجعل منهم فرسانا لكل الهزائم والنكسات..

وواصل حديثه بعد أن تثاءب، أما وجه أبيه، فقد بدا متعبا:

-أقسم لك يا زوج أمي أني قد تعبت، وأشعر بالبرد وبالرغبة في النوم.. آه ما ألذ النوم !.. ما زلنا مع بعض وسوف نواصل هذه اللعبة في قابل الأيام.. سوف نتحدث كثيرا يا أبي..

معذرة، فقد أكون أزعجتك بكلامي الذي ما عدت أذكر إلا قليلا منه، ولنجعلها يا أبي لا أنا كنت وقحا وسكرت، ولا أنت رأيت فغضبت، ولا أنا قلت ولا أنت سمعت.. عليك أن تنسى كما أنسى أنا.

ومد خطوة أولى نحو سريره، لتقع قدمه في الخطوة الثانية على كتاب مرمي، فانحنى إليه ورفعه، ومسح موقع القدم منه وقبله، ثم فتحه، ليستدير بعد هنيهة قصيرة من القراءة نحو صورة أبيه، وقال مبتسما:

-سبحان الله !.. اسمع أقرأ عليك ما وقعت عليه أول ما فتحته:

من اليوم تعارفنا ونطوي ما جرى منا

فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا

وإن كان ولا بد من العتب فالبحسنى

ثم استلقى على سريره، ونام دون أن يطفئ المصباح.

7

منذ يومين فقط، وصله من أمه صندوق صغير، ملفوف في ورق صقيل لماع، ظن أول ما رآه أن فيه حلوى، كما عودته أمه أن تفعل كلما تأخر في الذهاب إليها في المدينة، وما ذاك منها إلا لأنها تعرف شغفه بالحلويات منذ أن كان صغيرا.

لكنه لما فتحه ابتسم، فقد كان ظنه في غير محله، وتذكر ما طلب من أمه لما زارته آخر مرة، فشعر نحوها بحب غامر وشوق فياض.. لقد نسي هو ولم تنس هي، وإنما أبطأت عليه حتى تعثر له على "العلامة" الممتازة التي تريدها له، رغم علمها أن طلباته طفلية، سرعان ما يملها ويعزف عنها لما يراها بين يديه، هذا إن لم يكسرها. !

وقد فتح الصندوق، وقلب الهدية، وفرح بها كما يفرح الطفال ليلة العيد، أما اليوم، فها هو جالس قرب النافذة، يجربها بعناية.. إنها مسجلة مهنية، علامة "سوني"، صغيرة، سوداء.

وضع فيها شريطا، وراح يجربها، وأخذ ينهق كالحمار الذي أبطرته الراحة، وبعد مدة صاح كالديك حين يفاجئه الشروق، ثم صاح كالدجاجة حين تدعو صغارها إلى الحب، أو توشك أن تضع بيضتها، فكان صوته شبيها بصوتها وهي تقرق، ثم نقنق كالضفدع المطمور في عفونة المستنقع، المأخوذ بنجوم القبة الزرقاء المملوءة بالأسرار.

توقف بعض المارة يتفرجون ويضحكون، وسمعه بعض المتسكعين، فأقبلوا نحوه خفافا مسرعين، أما هو فلم يصرفه عما هو فيه توقف المارة ضاحكين، ولا إقبال المتسكعين نحوه خفافا مسرعين، بعد أن وجدوا فرجة ينسون بها طرقا من نهارهم الممل الثقيل..

ولما انتهى من التسجيل أعاد الشريط إلى بدايته، ووضع المسجلة على حافة شرفة النافذة وضغط الزر، وانصرف إلى بعض المجلات في الداخل يتصفحها، وإلى كتب على طاولة النوم وعلى السرير يعيدها إلى أماكنها في الرفوف؛ أما المتجمهرون في الطريق، وكانوا لا يقلون عن العشرة، فكانوا جميعا يضحكون بطريقة من به مس من جنون، خاصة عندما ينتقل التسجيل من صوت إلى صوت.

وقد شغله تصفيف الكتب عن مسجلته وما سجل فيها، والحقيقة إن تصفيف الكتب والتقريب بينها وتصنيفها متعة لا يجدها إلا من محص الله قلوبهم للثقافة والفكر، وإنهم بين الناس لقليلون. لكن صياحا مزعجا يأتيه من الشارع قبالة النافذة، فيسرع ليجد أن المسجلة قد قرأت كل ما سجل فيها، وكان بعض الواقفين بالشارع يمسكون ببطونهم من شدة الضحك، ويطالبون بإعادة الشريط من أوله.

نظر إليهم بعيون لا تحمل أي معنى، خالية من كل تعبير، لم يدر هل يتعجب منهم أم يتعجب لهم، أو يقدرهم أم يزدريهم ويرثي لهم، ورغم ذلك، فقد قال لهم:

-أنا لم أكن أقصد شيئا.. أنتم مخطئون إن كنتم قد فهمتم شيئا ما.. أو وجدتم فيه صدى لهذه الحيوانات التي تحكمكم، وتبتز جيوبكم وأرواحكم وأفكاركم ومواقفكم، و..

-دعنا من هذه الهرطقة أيها المجنون، وأعد الشريط من أوله، وإلا قفزت هذا السياج إليك وفصلت رأسك عن جسدك. هكذا قاطعه أحد الواقفين في الشارع، وقد كان لا يختلف في شكله وحجمه عن الفيل، لو كان الفيل يمشي على اثنين، وصاح يه آخرون:

-أعد الشريط من أوله، وإلا دققنا عنقك. !

كان يود أن يتحدث معهم أكثر، تقصيرا للوقت وإزجاء للفراغ، لكنه وجد شبه خوف يسري بين ضلوعه كالرائحة الكريهة، خاصة عندما رأى "رينقو" بينهم، ذلك الشاب الشرير، الذي عاش في السجن أكثر مما عاش بين والديه، وما يذكر شر إلا وقد عاشره، ولا ذنب إلا وقد اقترفه، ولا خطيئة إلا وقد أهانها وأذلها –مهما عزت- مرات ومرات..

أعاد الشريط من أوله، وضغط على زر التشغيل، ولما هم بالدخول لمحت عيناه "باباي كا جي بي" غير بعيد من هؤلاء ينظر يمنة وشأمة، وكان يضحك هو كذلك ، كهؤلاء البلهاء..

ولما صار داخل الغرفة، انطلق صوت المسجلة الشقي، وأخذوا يضحكون برعونة، انخرط هو كذلك في ضحك من صنف ما هم فيه، حتى أخذه سعال حاد كاد أن يدفعه إلى القيء..

لم لا يضحك، وقد قرروا جميعا أن يضحكوا بدل أن يبكوا، وأن يهربوا من وجه الحقيقة بدل أن يواجهوها، وأن يدسوا عيونهم عيونهم في الرمال كالنعام، بدل أن يفتحوها، بل يشرعوها، ليروا صورتهم الحالكة منعكسة في أي وجه نظيف، وفي أي موقف سوي.

جذب ستار النافذة، بالقدر الذي يسمح له أن يرسل نحوهم نظرة عميقة، فرآهم يضحكون ويضحكون، وصت الدجاجة، وهي تدعو صغارها يفتر ويشتد، وهم يضحكون ويضحكون، وكلما طغى صوت على آخر يرسلون أصواتا تعبر على أن أحشاءهم تكاد تتمزق من شدة الضحك !.. أية مصيبة رائعة هذه !!

أسدل الستار، وعاد إلى غرفته وارتمى على السرير، ليضحك بكل ما يملك من رغبة وإحساس، خاصة عندما يستحضر صورة "رينقو" وصورة ذلك الذي يشبه الفيل على قائمتين، وقد وضع كل واحد منهما يدا على كتف الآخر، وبالخرى أمسك ببطنه، وقربا وجهيهما إلى بعضيهما، وراح كل واحد يحملق في عيون الآخر، ويضحكان في بلاهة صارخة..

ولما سكتت المسجلة قام واقفا، وعيناه مبلولتان بالدمع من أثر الضحك الشديد، وهو يضرب كفا بكف ويقول:

-لعنة الله على الشيطان الرجيم !.. يا له من صباح، لكنها لعبة مسلية بحق، وقد تكشف عن حقائق لا يتوصل إليها بالجد والكد والسهر الطويل..

ولما رفع ستار النافذة للمرة الثانية، وجدهم قد انصرفوا، ولم يبق إلا "رينقو"، الذي يطلب منه أن يعطيه الشريط، ليسجل عنه؛ لكن "منصورا" ترجاه أن يمهله أياما أخرى ليسجل الشريط بطريقة دقيقة رائعة. فرضي "رينقو" بذلك شريطة أن يتسلم الشريط الخاص به جاهزا.

ورغبة في التخلص منه وإبعاده، أشار "منصور" إلى "باباي كا جي بي"، وهو يقول لـ"رينقو":

-أنظر.. إنه يضحك عليك، لو كنت مكانك لأدبته.

التفت "رينقو" نحو جهة الإشارة، فرآه، ورآه بالفعل يضحك عليه، فاهتاج وأخذ يرميه بالحصى من كل الحجام، وهو يسب ويلعن:

-القواد !.. أوهموه أنه يدخل الجنة بالقوادة !.. انصرف يا كلب، فالله لا يحب القوادين. !

وراح يجري خلفه، وهو يعدو أمامه هاربا، ويكاد يتعثر في عباءته الحجازية التي يسميها "الشيخ" "اللباس الإسلامي.."

وما حل وقت صلاة الظهر، حتى كانت الألسنة تلوكه وتسلقه، وتعلك خبره وتجتر أمره، وتزيد فيه —ويا لكثرة ما زادت- ولم تنقص إلا شيئا مما زادت —وكانت الأسماع تتلقى ما تقذفه الأفواه، وإن الأفئدة من ذلك كله لفي فرح وسرور.

لقد شاع عنه أنه صار يذبح كالكلب، ويخور كالبقرة، وقرق كالدجاجة، ثم يضحك حتى يخنقه السعال. وقد تعجبوا من أمه، كيف فرطت في فلذة كبدها، وعابوا عليها أنها لم تسع به لدى "الدراويش" تلتمس له الشفاء، فلا شك أن مرضه بفعل السحر، أو من كيد الجن، وكم تكيد الجن للمسلمين!..

أما فريق آخر، فقد رأى أنه يستحيل أن تطوف الجن بعقل كعقله، ويستحيل أن يؤثر فيه السحر، لأنه يشرب الخمر من حين لآخر، ولن يكون مرضه إلا نفسانيا، فلا بد أن يعرض على محلل نفساني في مدينة "قسنطينة"، فيحرره من كبته، ويفتكه من عقده، وكم يختزن الذين نشأوا يتامى من كبت، وكم يعاني أبناء الأرامل من عقد.. !

أما فريق من "سلفية القرية"، فيرى أن السعي به لدى "الدراويش" كفر بواح، أو شيء كالكفر البواح، ومن اعتقد أن الساحر يشفي من مرض، فقد أشرك. كما أن الالتجاء إلى المحلل النفساني ضرب من "الشعوذة العصرية" !، وبدعة لم يكن عليها سلفنا الصالح، ولا علاج له ولا دواء إلا "الرقية الشرعية"، فبها استطاع "الشيخ" أن يحرق عشرات الآلاف من مرده الجن القادمة من "إسرائيل"، واستطاع أن يدخل في الإسلام آلافا آخرين. ويكفي مثلا على ذلك ابنة "عمي عمر" يرحمه الله، فقد اكتشف فيها "شيخ" الاخرين جنيا خطيرا من عهد سيدنا "نوح" فطرده منها وشفيت الفتاة وتزوجت.. وكم يكرهون من يقلبون لهم المعادلة، ويجعلونها كالتالي: تزوجت فشفيت !

وما حل وقت صلاة العصر، حتى كان حديث النسوة في البيوت، وقد اتهمن أمه أنها لا تهتم به، وأنها قاسية وأنانية إلى حد لا يطاق، وإلا كيف يطاوعها قلبها فتترك ابنها فريسة سهلة للجن والشياطين ووساوس الليل؟ !. فقد كان أولى بها أن تضمه إلى أبنائها —طائعا أو كارها- وأن تحرص عليه، كما تحرص عليهم جميعا.

وقد اكتشف "منصور" كل هذا بنفسه؛ فما مر بحي أو شارع، إلا أحس أن نوافذ تفتح، وستائر تزاح قليلا قليلا، وعيونا متلصصة تراقبه في وجل وإشفاق، وقلوبا تمنته من قبل تخفق في أقفاصها كالفرخ في قبضة طفل صغير.

وكم يعجبه أن يظهر للناس ما يظنون فيه، خاصة لما يحس أن عيونا تراقبه، وتتبع خطاه في أسف وفي غير أسف، وأن قلوبا تنسج حوله نسيجا شفافا من الوجيب والخفقان الرتيب.

ورغم ما قالوه، ورغم ما سوف يقولونه، فإن كثيرا منهم، لم ينكروا عنصر الطرافة أو اللطافة في الذي قام به، حسبما قص عليهم من حضروا التجربة. ولهذا، فهم من حين لآخر يتوجهون نحو بيته الذي لازمه متفرغا للقراءة والكتابة. وإن منهم لمن يطرق الباب، ومنهم من يرمي نافذة الشرفة بحصاة أو حصاتين أو أكثر، فيخرج إلى هؤلاء من الباب، ويطلع على أولئك من النافذة، ويسمع منهم جميعا،

ويعدهم بتسجيل أدق وأحسن، ويمنيهم بشريط كامل فيه الأصوات الحقيقية لكل حيوانات القرية وبهائمها، ويختم وعوده مع هؤلاء وأمنيه مع أولئك بقوله:

-إنها مجرد تجربة أولى، وقد أتلفت الشريط.

وحسبه أنه قد ردهم جميعا ردا جميلا.. وقد كانوا معه –على غير عادتهم- في غاية اللباقة والأدب، فلم يعنفه أي واحد منهم، كما عنفه "رينقو" ومن معه ضحى.

أما الآن، فها هو واقف في شرفة النافذة، ينظر إلى طرفي الشارع، هل يرى من أحد، ومن حسن حظه –إن كان لا يبحث عن شخص بعينه- ها هي الجدة "نعناعة" تقترب من بيته في خطى كخطى السلحفاة، مثقلة بثمانين سنة من الحياة، صارعت في جلها الرصاص والخناجر والجوع والأوبئة واستبداد الرجال. والذي جعلها تمر هذا الوقت، هو أنها من عادتها أن تزور ابنتها الوحيدة التي تسكن في آخر هذا الشارع يمينا، فتمكث عندها اليوم واليومين والثلاثة أيام، لتعود إلى كوخها في الحي القديم – الذي كان محتشدا استعماريا- وقد حملت ما قسم الله لها من رزق وزاد، وقد تمكث في كوخها ما يقرب الأسبوع، لتجد نفسها مضطرة- تحت إلحاح أحفادها – إلى زيارة ابنتها الوحيدة من جديد.

-السلام عليكم جدتي "نعناعة".. كيف حالك؟

-مساك الله بالخير والعافية يا ولدي.. من أنت؟.. إنني صرت لا أبصر بشكل جيد.

هكذا ردت عليه، وهي تحاول أن تراه.

-أنا :منصور" يا جدتي "نعناعة.."

-خير وعافية.. ماذا تريد مني؟.. لقد كنت عند ابنتي المسكينة، إنها متعبة جدا يا وليدي.. فقد أرهقها ثمانية أبناء، كل واحد يبكي في وجهها.. وأنا لا أكذب على الله، فسوف أموت، ويكون نصيبي شبرا واحدا، فكلما أزورهم يفرحون بي كبيرا وصغيرا، أما أبوهم فقد اشترى لي حذاء.. أنا قلت له لا تكلف نفسك.. كثر الله خيره، إنه بالكاد يحصل على اللقمة الحلال.. أبناؤه الكبار بطالون متسكعون، حتى الذي تخرج من الجامعة. يدخنون، يشمون، يسهرون؛ ولا أحد يساعده حتى في جلب الحشيش للبقرة.. نحن ما كان جيلنا هكذا، أنا عندما كنت صغيرة –ولا صغير إلا إبليس- إذا أمرني والدي الله يرحمه، فقد قتله العسكر..

-أي يوم من أيام الأسبوع هذا الذي نحن فيه؟.

هكذا قاطعها "منصور" بعدما أدرك أنها سوف لن تسكت، بل سوف تسترسل في الحديث لتسرد عليه تجربة ثمانين سنة.

وقبل أن تجيبه أرسلت ضحكة جوفاء، جعلته يضحك هو كذلك، وقد عرف أنها درداء: –ما زلت صغيرا وتنسى؟ !.. يا حسرة على جيلكم –ثم أكملت تجيبه- في اليوم الذي قبل أمس الأول، قالوا لي: إن اليوم الذي يكون بعد غد هو الثلاثاء، بمعنى أن بعد غد هو الخميس.

-كيف؟.. كيف؟. سألها وهو ينحني قليلا، لا ليسمع، وإنما ليفهم، وقد عقد حاجبيه.

-قلت لك يا مجنون: إن اليوم الذي سيكون بعد بعد غد هو الثلاثاء كما قاولا لي في اليوم الذي قبل أمس الأول.

يقسم بالله أنه لم يحدد لحد الآن في أي يوم من أيام الأسبوع هو، فأعاد طرح السؤال بطريقة مغايرة: -أي بمعنى أن اليوم الذي نحن فيه هو...

تضجرت منه الجدة "نعناعة"، وتأففت وقالت، وهي تتحرك متأبطة صرة فيها رزق وحذاء:

-أوه منك !.. دعني منك، فإني على عجل، ولا وقت لي لأضيعه مع المجانين أمثالك، ولقد أوجعني رأسي من الحديث معك، ولا شك أني لا أستطيع النوم هذه الليلة، وإني لأستاهل كل هذا لأني....... . ومضت في طريقها تهمهم وتغمغم، وهو يراقب سيرها الوئيد وخطوها البطيء متعجبا..

عجبا !.. ما تفعل جدتي "نعناعة" بالوقت؟.. لماذا تبخل به إن كان في صرتها؟.. وإلى أين تسابقه؟.. وماذا جنت من ثمانين سنة وهي تجري وراءه، أو تجري هاربة أمامه؟ إن الزمن ليسخر منها سخرية لاذعة لما يقرب خطوة من خطاها.. كما يقرب الوالد الحنون خطاها من خطو ابنه ليعلمه الوقوف والمشي.. كم يضحك الزمن لما يرى جدتي "نعناعة".. تسابقه، وتود أن تسبقه.. إنها لا تدري إلى أي مطب يستدرجها ! كم نحن مخدوعون حين نوهم أنفسنا أنه لا وقت لنا..

بعدها دخل غرفته وجلس إلى طاولته، وكتب ما سمع من "الجدة نعناعة"، ورسم جدولا صغيرا، وراح يكتب في بعض مربعاته ابتداء من أسفل إلى أعلى: اليوم – أمس –أمس الأول – قبل أمس الأول.

وكتب من أعلى إلى أسفل: اليوم –غدا – بعد غد – بعد بعد غد..

وبعد مدة قصيرة، قال بصوت مسموع:

-الحمد لله،.. إذن اليوم يوم الثلاثاء، وليس بيني وبين الخميس إلا يوم واحد، وهو كاف لتكون عدتي جاهزة.

والحقيقة إنه لا يدري كيف عرف أن اليوم هو الثلاثاء، هل عن طريق الحساب أم عن كريق التذكر؟ لأنه لم يكن واثقا كل الثقة في طريقة حسابه.. لا بد له أن يخرج ليتأكد..

8

سوق الخميس بالنسبة له مناسبة مبهجة للفرجة والفرح، والمعرفة بأحوال الناس وطبائعهم، وكيف يحتالون للحصول على لقمة الخبز، وكيف يقيمون الأشياء، وكيف تصير اللغة بين أيديهم عجينا يتشكل في ما لا حد له من الصور والأشكال، فيرى الكلمات وهي تنسلخ من معانيها معنى إثر معنى، كما تنسلخ الحيات من جلودها القديمة.

والذي يعجبه أكثر في سوق البلدة الأسبوعي، هو بائع العقاقير الأعرج الضرير، الذي يساعده ابنه الصغير. يعجبه وهو ينادي داعيا الناس إلى الصحة والعافية، مرغبا إياهم بنبرة قوية ساحرة، وإيقاع لا يذكرك إلا بالمقام العراقي الحزين. !

وكان كثير ممن يسمعونه لا يملكون، إلا أن يتوجهوا نحوه، فإن لم يشتروا تفرجوا، وكثروا سواد المتحلقين حوله، هؤلاء الذين جعلتهم الآمال والآلام والدهشة والإعجاب كالدمى البلهاء.. لكنه الألم والأمل في الشفاء منه، أسهل منفذ للخرافة والوهم إلى روح الإنسان وفكره.

ويعجبه كذلك بائعوا السمك، رغم الرائحة الكريهة التي تنبعث من صناديقهم ابتداء من الساعة العاشرة، عندما يكون الجو مشمسا حارا، يعجبونه وهم يمدحون بضاعتهم، ويرغبون فيها بلكنة جيجلية، فيها من الفرنسية أكثر مما فيها من العربية.

ولن يخرج من هرج السوق وفوضاه إلا بعد أن يلم ببائع "الشيفون" الذي اعتلى سطح سيارته، وهو ينادي مادحا عروضه بلكنة "شاوية"، ويجعلها فرصة الفقراء الخيرة، بل حتى فرصة الأغنياء ففي كثير من المرات يشطط ويبالغ في مدح هذه الألبسة القديمة، حتى يظن السامع أنه اشتراها من أرقى دور الأزياء.. وما هو بملوم إن صدقه السامعون، حسبه أن يبيع.

هو لا يدري أن صوته بلكنة "الشاوية" هذه، يثير في قلوب الشيوخ شجنا وحزنا، ويستثير ذكريات مرة.. فهو يذكرهم بسنوات ما قبل الثورة وما بعد الاستقلال، أيام كان يقصدون سهول الهضاب العليا، ليحصدوا القمح والشعير كخماسين. ذكريات مرة.. لكنها تذكر كذلك بالقناعة والعافية، والنوايا الطيبة.

ويعجبه كذلك الطفال الصغار مقرفصين على الرصيف، وبين أيديهم ديكة ودجاجات أخرجت ألسنتها، وقرع وربطات فجل ونعناع ومعدنوس، وحينا بعض شتلات الطماطم والفلفل والبصل. ولو سألتهم مستفسرا لوجدت أن أكثرهم قد تغيب عن الدرس هذا الصباح، بعدما لم تر أمه في ذلك حرجا ولم ير أبوه.. وما عساهم فعلوا الذين كدوا في الدرس واجتهدوا؟.

وبم امتازوا عن الذين لم يكدوا في الدرس ولم يجتهدوا؟ !.. إنهم جميعا مرميون كتلة واحدة في ضجيج المقاهي، قد اصفرت وجوههم من دخان السجائر، واسودت ألسنتهم من نقد السلطات واحتساء القهوة والوقوع في أعراض الناس.

أما اليوم، فقد سلك سبيلا أخرى، لم تنته به عند بائع العقاقير العرج الضرير، ولا عند باعة السمك، ولا عند صاحب "الشيفون"، ولا عند باعة آخرين تشاكست أصواتهم في فضاء السوق المضبب بالأدخنة والأيمان الكاذبة والغبار..

اليوم قادته سبيله إلى مربط الحمير !.. نعم إلى مربط الحمير، وباقي ما يشتريه أو يبيعه تجار الماشية من أنعام.

وليس مربط الحمير هذا غير مساحة من الأرض تظللها أشجار الزيتون، غير بعيد عن السوق، من عادة أصحاب المداشر والمشاتي أن يربطوا فيها حميرهم قبل أن يدخلوا السوق، وإذا اشترى أحدهم بقرة أو ثورا أو غير ذلك، فإنه يأتي به إلى هنا ويربطه، ريثما يطوف بالسوق ويشتري باقي لوازمه، ويصلي الظهر جماعة، وينقلب إلى أهله راضيا موفورا.

لما اقترب من السياج العتيق المفتوق من عدة أماكن، شم رائحة الروث والبول، فاحتار أي إحساس يتملك الحمار، فيرفع جحلفته إذا شم شيئا من هذا؟ !.. ولما صار وسط الحمير أزعجه طنين الذباب السمين العنيد، وهو يمتص دماء الحمير في استغلال لا يصبر عليه حتى الموتى !!.. أما الحمير، فما كانت تفعل شيئا سوى أن تضرب بحوافرها، أو تنش بأذيالها، أو تصفق بآذانها، وليس لها بعد هذا إلا الاستسلام للامتصاص الشره..

فجأة ينهق قربه حمار، فأسرع إلى المسجلة يخرجها من الكيس، وما كاد يفك عقدة الكيس حتى كان الحمار قد قضى من النهيق وطره، ولم يبق إلا الصوت الذي يحدثه بجحفلته ومشفره الأسفل، وهما يهتزان بفعل الزفير القوي، فلم يجد إلا الضحك وهو يحك لهذا الحمار ما بين أذنيه قائلا، وما يهمه أن يسمعه الناس:

لست أدري هل رحبت بي بينكم، أم أنكرت وجودي هنا.. أما إن كانت الأولى فهذا خلق جميل تمليه على صاحبه ثقافة المجتمع المدني التي تأمر من يؤمنون بها أن يحترموا الآخر الذي يختلف عنهم. وأما إن كانت الثانية فإنك لن تستطيع أن تضربني، فلي من حقوق المواطنة مثل ما لك، وعلي واجباتها مثل الذي عليك، بل أكثر، ولا تحسبن المربط ينتهي عند حدود السياج، إن الذي خلف السياج أو سع وأنتن وأعطن وأكثر كثافة !.. ألا ترى هذه الثغرات التي في السياج؟.. إنها تعبر عن رغبة إخوانكم الذين خلف السياج في إزالة الحدود المصطنعة واختراقها من أجل الوحدة الشاملة. ..

وقطع عليه استرساله في الحديث مع الحمار، أنه رأى حمارا آخر يستعد للنهيق، فأسرع نحوه وقد ضغط على زر التسجيل، ولما انطلق النهيق كان الشريط يدور..

كان النهيق حادا قويا، صريحا فصيحا، ينطلق من حنجرة كأنها ما اعتلفت تبنا وشوكا. وما كاد يتوقف حتى تجاوب معه ثالث، فأسرع إليه وقرب المسجلة من فمه، وكان الشريط يدور، وإذا برابع ينهق كذلك، فاجتاز إليه جحشين صغيرين، وقرب المسجلة من فمه، وكان هذا يمط النهيق مطا ويمده مدا كأنه يتفنن !

أما هو فقد كان في قمة السعادة والانتشاء، فما كان يظن أن التسجيل سيكون سهلا، وما كان يظن أن الحمير سوف تتفهم مهمته وتسهلها إلى هذا الحد. !

وفجأة.. تعالى نهيق الحمير في لحظة واحدة، كأنهم المجموعة الصوتية لسمفونية بلغت ذروتها وأوج توترها، وكانت أبصار الحمير جميعها معلقة بمدخل المربط، فأرسل هو كذلك ببصره إلى هناك، بينما كان الشريط يدور، فرأى "عمي سعيد الزبال" يدخل المربط يجر أتانه العاشر، فشرع في الضحك مكتوم مخافة أن يسجل في الشريط، ولما هدأ النهيق، أقفل المسجلة، بعدما رأى أنه كان محظوظا، وسجل ما فيه الكفاية بالطريقة التي كان يتمناها قصد "عمي سعيد" الذي كان منشغلا بنزع البرذعة من على ظهر الأتان، وحياه:

-السلام عليكم "عمي سعيد".. كيف أصبحت؟..

أجابه "عمي سعيد" وهو يبحث عن صاحب الصوت بين الحمير:

-هذا أنت أيها المجنون.. الخير إلى الرقبة، والهم إلى "الكبوس".. هل حتم عليك قرينك أن تكون اليوم حمارا بين الحمير؟. مد إليه يده مصافحا، وهو يسأله:

-هل استوقدت أتانك، فجئت بها هنا لتنتقي لها حمارا أصيلا؟.

نظر إليه "عمي سعيد" شزرا، كمن وجد في هذا السؤال قلة حياء وسوء أدب، لكنه أجابه على مضض متطيرا به:

-لا.. إنما جرت علي خصومات لا طاقة لي بها، كما أن المرعى قد عز والعلف قد غلا، فاتفقت مع أخي أن يأخذها إلى المشتى. ثم دفعه فضوله ليسأل ويغير مجرى الحديث:

-ماذا بداخل ذلك الكيس؟

-لا شيء.. بعض الأمور التافهة فقط.

-تافهة مثلك؟. !

-نعم يا "عمي سعيد".. . أجابه وهو يضع برذعة الأتان فوق ظهره كما يلبس المعطف.

-أوه !- قال "عمي سعيد" مستحسنا- لقد صرت بها جميلا، وصارت بك رائعة !

فرد عليه "منصور"، وهو ينزع البرذعة، ويضعها جانبا:

-أدري ذلك يا "عمي سعيد"، ولو كانت السلطة بيدي، لألزمتكم بها.. فهي أليق بكم وأكثر اتساقا على قوامكم وأكمل تشاكلا مع لون بشرتكم ووميض الطمع في عيونكم. وقد قال "الشيخ أبو حيان التوحيدي": "أفضل اللباس ما تشاكل واتفق، وتطابق واتسق."

كان في نية "عمي سعيد" أن يسبه سبا لاذعا، وأن يشتمه شتما واضحا، لكنه لما سمع هذا الاسم الفخم الضخم، المسبوق بكلمة "الشيخ" خاف وأمسك عن الرد، مخافة أن يقترف الذنب أو يرتكب المعصية. فـ "الشيخ" صادق وإن كذب، وعلى صواب وإن أخطأ، ومأجور على ما يزور عليه غيره، لأنه أعرف الناس بالحق والحقيقة والمعصية !.. هذا ما استقر في ذهنه من سنين فاكتفى برد مقتضب:

-صدقت يا ولدي، فـ "الشيخ" صادق. وأقبل على الرسن يحكم وضعه في كراع الأتان، ويربطه بالحبل المتين إلى جذع الزيتونة التي اتفق عليها مع أخيه. لكن منصورا أكمل يستدرجه:

-لكنهم قالوا عنه: إنه زنديق.

ورغم أنه لم يفهم كلمة "زنديق" كما يفهمها غيره، لكنه رد عليه كالعارف الفاهم، بعدما ظن أن الكلمة مدح وثناء، لأنها من متعلقات "الشيخ":

-أي نعم يا مجنون.. وشيخنا كذلك زنديق كبير، أنت لا تعرفه جيدا أيها الغبي.. أنت مجنون ولذلك لا تحسن تقدير الرجال.. اسألني أنا المواظب على حضور حلقاته ودروسه من سنين. — ثم أكمل مختتما كلامه في شيء من الفخر والزهو كالعجب- إنني من أتباعه.

وأغرق "منصور" في ضحك حاد، جعله يتمرغ ويفحص الأرض بقدميه، عندها عرف "عمي سعيد" أنه وقع في مطب من مطبات "منصور"، فقال كلاما فاحشا، وارتمى عليه وأمسك بعنقه بقبضتيه الخشنتين، وهو يقول ضاغطا على أسنانه، وعلى رقبة "منصور":

-سأخنقك بقبضتي، ولن أدعك تفلت مني حتى تفسر لي معنى "زنديق".

وراح يضغط برفق على رقبة "منصور"، وواصل قائلا:

-اليوم أزهق روحك وأخلص الناس من شرك وشر جنونك.

لكن قبضتيه ضعفتا لما انتابته هو كذلك نوبة من ضحك، استغلها "منصور" للإفلات منه والقفز خارج السياج، وراح يعدو باسما، وهو ينفض ما علق بأثوابه من غبار.

لما راودته الرغبة في أن يلم بالسوق، التفت إلى أحد المارة، وسأله ما الساعة، فأجابه أنها الحادية عشرة وعشرون دقيقة، فتراجع عن رغبته لما علم أن بائع العقاقير الأعرج الضرير يكون قد جمع عقاقيره وقنانيه. وأن بائع "الشيفون" يكون في هذا الوقت قد بح من الصياح والصراخ، فهو الآن يبيع آخر ما يبيع بصمت أو صوت هادئ لا يوحي بأي متعة.

أما باعة السمك، فإن حرارة هذا النهار لا تسمح لهم أن يستمروا في البيع بعد الساعة العاشرة، لأن زهومة السمك تشتد وعيونه تحمر، فيزهد الناس فيه، ويعرضون عنه، ويقبلون عل بائع الدجاج. لهذا كله آثر أن يعود إلى بيته، بعد أن عرج على دكان فاشترى علبة سردين، وعلى مقهى فأخذ زجاجة مشروبات، وانحرف شمالا لينزل دركتين إلى مخبزة "عمي محمد" ليطلب منه خبزة صغيرة، فأعطاه إياها بعد زجر ونهر، وبعد أن نصحه أن يترك هذا التحامق ويعود إلى عقله، ويبحث له عن عمل شريف يضمن به لقمة الخبز النظيفة الشريفة.

لم يشأ أن يناقشه، يكفيه أنه أخذ منه ما أراد، فلماذا الغط إذن والكلام الزائد؟. !

وضع مشترياته على الطاولة، وجلس على السرير ليدير الشريط من أوله !.. فانطلق الحمار الأشهب مفتتحا سمفونية النهيق بعزف منفرد، ليليه الحمار الثاني ذو الأذنين الطويلتين، ثم الثالث فالرابع فبقية الحمير !.. كأن السمفونية قد بلغت قمتها وذروة توترها.. !

تسجيل مهني رائع لا خلل فيه، وهو مضحك حقا، وإن عبر عن شيء، فإنما يعبر عن عبث وبلاهة وتبرم بمألوف الحياة، هذا المألوف الممل الذي جعل الناس سطحيين ونمطيين إلى حد الغثيان. فلماذا لا يكون الإنسان كل يوم ذا شأن؟.. !

ولقد أدار الشريط مرة ثانية ليسمعه مرة ثانية، فقد يفهم ما لم يفهم في المرة الأولى، لكن زقزقة العصافير التي ألفت الاجتماع على أغصان الليمونة التي في حديقة البيت، هذه العصافير بزقزقتها البريئة شوهت الاستماع إلى نهيق الحمير، وجعلته بلا معنى وغير مستساغ !، ولهذا خرج من الغرفة، ورفع رأسه نحو أغصان الليمونة، وراح يلوح بيديه لتطير العصافير قائلا:

-أش.. أش. لكن العصافير –وكأنها تعرفه- ظلت تزقزق مستروحة ظل الليمونة وعبيرها، فما كان منه إلا أن نزع فردة حذائه ورماها بها، فطارت هي وحطت فردة الحذاء بين غصنين !

وعاد ليستمع إلى نهيق الحمير بلا تشويش أو منغصات.. !

إنه تسجيل مهني ممتاز.. وإنه لا يخلو من معنى وعمق، فلا بد له من فهم وتأويل..

انتابه شعور أن الله قد وضع بين يديه شيئا جميلا، وأحس أنه وضع الخطوة الأولى على درب يفضي إلى كهف مغبر من الأسرار.. هذا الإحساس أشاع في نفسه طمأنينة ورضا، ورغبة في الإقبال على الله. فقام واغتسل، وصلى الصبح والظهر، ورفع يديه نحو الله في خشوع، ثم قام وعلق السجادة على مسمار في الحائط، دقته أمه لأجلها، وكلها أمل من أنه سيصلي العصر والمغرب والعشاء، فأولى بالإنسان الإنسان أن يذوب في حضرة الله، وأن يتلاشى تلاشيا.

وبعد أن تناول غداءه، شرع في قراءة كتاب أرسله إليه أخوه، يتحدث عن الديموقراطية والليبيرالية وحقوق الإنسان، وأبعادها السياسية والإيديولوجية للنظام الدولي الجديد.

وما أيقظه من نومه إلا المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة والفلاح، وكان يلح في الدعاء، ولكن "وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين".. أما هو فقد أقبل على المسجد كأحسن ما يقبل عليه الأتقياء الطيبون، ودخله متيمنا داعيا الله أن يفتح له أبواب رحمته، وصلى تحية المسجد ركعتين خفيفتين، وزاد ركعتين تنفلا، اتخذتا سبيلا وسطا بين صلاة المستعجلين وبين صلاة المتخاشعين الذين يعلمون أن الناس يرونهم.

وظل بين الناس جالسا في الصف الثاني، لا ترى إلا شفتيه تتحركان وتتمتمان بذكر الله في حركة موزونة. ولما خرج "الشيخ" من مقصورته متلفعا بغيمة مسك، وبين شفتيه سواك مربوط في عروة العباءة بخيط أبيض دقيق.. هذا السواك جعله يتذكر "كاسترو" بسيجاره الشهير.. فلعن الشيطان واستغفر. ولما كان "الشيخ" يتفقد الصفوف، ويصدر تلك الأوامر التي يكلف بها "السلفية" أيما كلف، من شاكلة: "رصوا صفوفكم.. حاذوا بين المناكب والأقدام.. سدوا الفرج".. وهي كثيرة على كل حال.. تستغرق أكثر من مدة الصلاة ذاتها.

لما كان "الشيخ" يتفقد الصفوف، رآه بينهم، فأشار بسبابته قائلا:

-"جنبوا مساجدكم الصبية والمجانين.."

فاستدار إليه أصحاب الصف الأول، وغالبا ما يكونون من أتباع "الشيخ" المتحمسين، وبعض الشيوخ الذين ينافسون في أجر الصف الأول، فقال لهم وقد رأى ما في عيونهم:

-أنا لست مجنونا.

فأعادها "الشيخ" صريحة فصيحة، كأنه يصدر أمرا عسكريا.. ومن أدراك، فقد يكون "الشيخ" يحلم أن يصير جنرالا، فهو منصب يذر على صاحبه أموالا طائلة وخيرات حسانا:

-قال رسول الله (ص): " جنبوا مساجدكم الصبية والمجانين."

فأخذ بعض الناس يهمهمون، وبعضهم يحولقون ويستعيذون بالله من الشيطان الرجيم.. فانبرى له من الصف الأول شابان، أحدهما "باباي كا جي بي"، والثاني يعرفه ولا يذكر اسمه، فقد كان من ندماه أيام الدراسة الثانوية، لكنه تاب حديثا، انبريا له، وأدخلا ساعديهما تحت إبطيه، وراحا يجرانه حتى أخرجاه من المسجد.

تملكه أسف شديد.. لكنه عاد واستدرك، فهذا قليل مما كسبت يداه، وغيض من فيض يبتغي إليه الوسية والأسباب،.. صلى وحده ودعا وحده، وقال وحده: "آمين" بلا تنغيم أو مد ومط.. وانصرف وقد انتابه قلق، وطاف به شعور فحواه أن الطمأنينة بدأت تضطرب، والرضا يغالبه السخط والتبرم، وبعض الجنوح إلى الصدود.

وما أدري بعدها في ما قضى وقته، فقد دخل وسط الزحام واختفى عن الأنظار.. أما الآن والشمس تخفض جناحها للغروب، فها هو يخرج من مقهى "عمي صالح"، والكيس البلاستيكي يتدلى من يده بما فيه، لم يختلف مظهرا في مسائه عن صباحه، سوى أنه احتذى جزمة مطاطية تكاد تبلغ الركبتين، وهذا الذي جعل بعض زبائن المساء يديرون رؤوسهم يمنة وشأمة، مستنكرين عليه احتذاء هذه الجزمة، وقد مر فصلها أيام كان يتخفف خفا نسويا.

وكعادته دائما، فقد مضى في طريقه إلى ما يريد غير عابئ بزبائن المساء، وهم يضحكون مستنكرين، أو غيرهم من المارة الذين –ربما– يكتمون ما يشعرون.. لو لا أن عيونهم وأسارير وجوههم تبوح به ولا تخفيه، لمن يحسن قراءة العيون وأسارير الوجوه.

مضى في طريقه يحيي من يحييه، يبتسم في وجه من يبتسم في وجهه، ولا يهتم بمن لا يهتم به.

وليس بالغبي حتى لا يتفطن إلى نوافذ تفتح، وستائر تزاح، وعيون فضولية تسقط على حركاته وخطاه ما تختزن نفس أصحابها من رغبة جامحة في الحرية والانطلاق.

وقد أعجبه مخرج القرية، –الذي هو مدخل بالطبع لمن يأتي مشرقا– هذا المدخل المحفوف بأشجار "الكاليتوس" ذات الخضرة الدائمة، وأعجبه أكثر مرأى الغروب خلال أوراقها المتراقصة أمام أنفاس النسيم. وآلمه جدا أن رئيس البلدية قد طرح اقتراحا يقضي بقطع هذه الأشجار جميعها، وتجريد القرية من كل هذا الجمال.. بحجة القضاء على بقايا الاستعمار.. ولو أنه كان صادقا في مذهبه هذا، لكان هو في قبره الآن !.. . وعلى كل حال فهي حجة سلفه عندما قطع كل أشجار "البلاتان"، التي كانت تجعل من القرية خميلة ظليلة، وتعطي لتعاقب الفصول فيها مظهرا ومعنى وعمقا.

ولما هم بالانحراف شأمة عن الطريق المعبد، حدثت منه التفاتة إلى دار رئيس البلدية، فرأى كأن شخصا –قد تكون امرأة– يلاحقه بعيونه من وراء الستار، وعلى سطح الدار رأى "بارابول"، يلتقط به رئيس البلدية القنوات الفرنسية، ويتكرم على مواطنيه، فيبث سهرات السبت والحد لمن يشاء أن يلتقطها..

أعجبته الحشائش الندية التي لا يعرف أسماء أكثرها، وهي توشي حافتي هذا الممر الضيق. وقبل أن ينحدر إلى حيث يريد جلس فوق ربوة صغيرة موشاة بأزهار ونوار كأنها سجادة فارسية.. وراح يقلب نظره في حمرة الأفق، وقد تأججت أكثر؛ ثم أخذت تخف قليلا قليلا لتستحيل إلى زرقة داكنة، فسواد رمادي، فليل أسود قد انبجست من قلب ظلمته آلاف المصابيح المتراقصة في البعيد كوجوه الأميرات الجميلات أسفرن من خلال براقع سوداء..

كان المستنقع راكدا تماما، كأنه قطعة مغبرة من زجاج، أو سطح إسمنتي ممسوح بدقة بالغة، درى عليه المساء شيئا من غبار الظلام، يحيط به نبات البوص الذي يحصده الفقراء خريفا، ليتخذوا منه حصيرا أو فرشا على شيء من الوثارة واللين.

زهومة كريهة تنبعث منه، زادتها نداوة المساء عفونة، جعلت التنفس أمرا يكاد أن يكون عسيرا على النفس الكريمة المتعففة.. ورغم ذلك، ها هو يوغل في وحل المستنقع، بحثا عن موقع يصلح للعمل، وقد تسرب إلى قلبه ما يشبه الخوف والرهبة، ذكرته بحديث أمه ذات مرة، من أن الجنة والشياطين تسكن الظلام والأماكن القذرة.. لم يصدقها حينها، لأن مصلحته كانت تمضي عكس هذه الحقيقة، أما الآن، فهو يحس أن أمه صادقة، وأن قصص الجن والعفاريت والأغوال صادقة كذلك، وأن الجن والشياطين لن تجد أليق بها من المستنقعات، حيث الصمت الرهيب الرتيب، والوسخ والقذارة والركود.. ولو لم تكن هذه المستنقعات موجودة بفعل حركة الطبيعة، لابتكرتها الشياطين.

في الجهة الأخرى ضفدع ينق.. شيء رائع !.. لن يكون إلا كبيرهم وقد أعطى إشارة الانطلاق،.. جاوبه ضفدع آخر من الجهة الأخرى.. قد يكون وزيره للاتصال والثقافة (يضحك بصوت مسموع).. شيء رائع، ربما أصابه الظن وصدق التخمين.

تجاوب معهما ضفدع ثالث.. قد يكون وزير (يقطع إسقاطاته يضحك مسموع، ويكف عن الاسترسال في هذه التفاهة).. نقيق جدي.. حاد.. عميق.. كمن يستحث الهمم، ويحفز العزائم.. رائع. وشيئا فشيئا تحركت الضفادع، وتجاوب المستنقع بنقيق موزون، فضغط "منصور" على زر التسجيل، فنق الضفدع بين رجليه أدخل إلى قلبه هلع المفاجأة.. ربما أراد أن يلفته إلى وجوده في الوحل بين رجليه !.. ربما. أدلى نحوه المسجلة، وكان الضفدع ينق، والشريط يدور.. وتصاعد النقيق أكثر من كل الجهات.. يا للبهجة، إنه عرس، بل موسم من نقيق !.. كل إناء بما فيه ينضح، وليس في المستنقع إلا النقيق.. لم يعرف بالضبط، لماذا قفز إلى ذهنه اسم "مسيلمة الكذاب؟.. والضفادع تتجاوب وفق إيقاع موزون. النقيق يشتد وينضبط تجاوبه، والشريط يدور ويدور، والليل يزداد سوادا، والنقيق يتوهج أكثر، ويتصاعد متناغما متناسقا، كأنها جوقة محترفة.

هذه الضفادع شربت ما مستنقعها، وبالت فيه وعادت لتشربه آلاف المرات.. وستبقى في هذه الدورة القذرة.. ربما هي الآن في مأتم، أو ربما هي الآن في حالة بين الحالتين، ولكن من طبع المستنقعات أن تجعل لغتها كبقعة نفط على وجه البحر، يشكلها المد والجزر واتجاه الريح.. إنها تعبر بكلمة واحدة عن كل الحالات والتناقضات.. هي هذا النقيق الرتيب.. بلا معالم، بلا حدود، لغة زئبقية، تعني كل شيء ولا تعني أي شيء، تصلح للخديعة والنفاق.. والشريط يدور، والنقيق يتصاعد تماما كما اشتهى "منصور" وأراد.

رجلاه غائصتان في الوحل.. أطراف أصابعه باردة، والناموس يوشوش حول أذنيه وعينيه ويزعجه منخريه، فيكاد أن يعطس، لو لا التسجيل.

رفع عينيه إلى السماء ليشكر الله على هذا التوفيق، فرأى قبة ذات لون أزرق ليلي، أو أسود مزرق، مذهب المسامات بطريقة لطيفة.. إلا أنه لون آخر، ما هو بالأزرق الليلي، ولا بالأسود المزرق، ولا هو لون بينهما.. لون اختاره الله ليحدث به الرهبة والرغبة في العيون والقلوب التي تنظر نحو الأعلى.. قبة عميقة، مضمخة بما لا يحصى من النجوم الندية، التي يكاد نورها يقطر كما يقطر العسل من شهده.. بل إنه يقطر، لكن النسيم يتشربه.

أحس بقشعريرة تهز كيانه، وتغمر قلبه وروحه وضميره بفيض من الحب والرضا.. عندها أدرك أن الصلاة والأذكار كانت في الأصل، من أجل إحداث هذه القشعريرة، وما تثمره من لذة في الروح ونشوة في القلب، وصفاء في الضمير، وطمانينة في النفس.

ومن فضل الله عليه أن من عليه بهذه الرعشة/ الهدية/ الذكرى، وهو غائص في وحل المستنقع حتى الركبتين، ليحرم منها ركعا في المساجد، وخشعا في المحاريب، وقائمتين في الخلوات..

إنه يحب أن يشغل فكره بهذه الخواطر.. لأنه في اللحظة التي يصير خلوا منها، يمتلئ بالخوف والأوهام فتتجسد الشياطين، وتخشخش الجن.

لما زالت عنه الرعشة والقشعريرة، وتلاشت لذتها ذائبة في أعماق روحه وضميره، تذكر حكايات الجن وقصص العفاريت، فتلبسته قشعريرة الخوف.. كانت كرؤوس الأشواك الباردة.. راح يدير عينيه في كل اتجاه، كالذي لا يدري من أين يؤخذ أو يختطف.

تذكر أن أمه نصحته لما كان صغيرا.. وكان يخاف الذهاب من غرفة مضاءة إلى أخرى مظلمة، قالت له: "لا تلتفت كي لا تخاف.. إنما انظر إلى الأمام وامض حتى تضع يدك على ما تريد".. وكانت في كل مرة تعيد هذه النصيحة، توقع تحتها بصفعة أو صفعتين رقيقتين، أو بتهديد، كان محتواه دائما أنها ستنزع عنه السروال لتلبسه جبة أخته.. الله !.. كم كانت تريده قاسيا وعنيفا !.

حصل لديه اقتناع أنه سجل ما فيه الكفاية، وبالطريقة التي تمناها بالضبط، فأسكت المسجلة، وأخذ يتراجع نحو الخلف، والضفادع تنق، ونبات البوص المتمايل كالأشباح يزيد في وحشة المكان، خاصة عندما تتحرك بين سوقه الضفادع الخائفة.. ابتسم.. هي خائفة وأنا خائف، أخفتها بخوفي، وأخافتني بخوفها.. شيء مضحك بحق، كل واحد يصير مخيفا لما يخاف، وخائفا لما يخيف..

ما أجمل التسلي باللغة !..

الضفادع تنق في رتابة قاتلة، وهكذا تظل حتى تفجأها أنفاس الصبح وتسابيح الشروق، حينها تنطمر بين الوحل وأوراق البوص المهترئة الأطراف، وتتلفع بالصمت الموشى بالزهومة، وتغط في الأوهام كالناسك الوثني، وإنها لفي شوق إلى ليل جديد، وظلام جديد.. حيث يسود سطح المستنقع، ويعبق فضاؤه الوطيء برائحة العفونة والوحل وتفسخ القاذورات.. حينها يتوهج موسم الفرح، فنقي يا ضفادع ما تنقين !..

آه.. الآن عرف لماذا قفز إلى ذهنه من قبل اسم "مسيلمة الكذاب..."

ابتعد قليلا عن المستنقع، والتفت إليه، فرآه راكدا صامتا، قد زاده الليل والنقيق وحشو وسكونا، لا يعكس نجمة، ولا يحضن قمرا، ولا يهش وجهه لهفيف أجنحة الطيور التي تعبره في كل حين.. ما أظنه يتحرك واو ألقيت فيه آلاف الأحجار.. إنه سرعان ما يسرطها ويكفنها في وحل الأعماق لتصير شيئا منه.

لما وصل إلى الطريق المعبد، شعر ببعض الطمأنينة والهدوء، إذ أن الطريق لا يخلو من شباب يتسكع، ولا يخلو أيضا من ذوي الحاجات والضرورات، المضطرين إلى التنقل واستعمال السيارات، ولهذا زال خوفه، وحل محله شوق عارم إلى سماع التسجيل في غرفته.

حدثت منه التفاتة إلى مقبرة النصارى، فتوقف يتأمل الشواهد المحطمة والصلبان المهشمة، وبقاياها واقفة كالموتى وقت النشور.. وهي صامتة بين أشجار الصنوبر الطويلة، التي توجت رؤوسها بأعشاش "اللقلق" كالعمائم السوداء.. وقد رأى "الشيخ" هذه القبور تدمر فما أنكر، ورآها منسق القسمة السابق فلم يظهر أي اكتراث، وإن أخفى رضا وموافقة، وربما يكون قد وضع هذا الفعل غير

الإسلامي في دائرة محاربة الاستعمار. إنه احتيال مشبوه على ذاكرة الأجيال؛ حتى لا تعرف أن غزاة أقوياء وأذكياء، تسربوا ذات ضحى من ثقوب عيوبنا وشقوق معاصينا، وعنترياتنا البلهاء، وهزمونا.!

غزاة أقوياء أذكياء.. عاشوا هنا وتناسلوا، ملكوا الأرض واستعبدوا الإنسان، ونقشوا على جبين شمسنا وصدر نجومنا ذكريات، وما زال يشدهم إلى هنا حنين.. وأي حنين. !

في طريقه إلى داره صادف بعض الشباب يتسكعون مثنى وفرادى، ووجد غيرهم متحلقين على الرصيف تحت أشجار الكاليتوس، يستمعون إلى أغاني "الراي"، ويصرخون في رعونة كالذئاب الجائعة، ويقرعون سمع الاخرين بالسباب البذيء والشتم الجارح الجريء.. لم يعرفوه، ولو عرفوه لدعوه إليهم.. ربما ليقصروا به الليل.. !

ولكن أي انحراف في الذوق، هذا الذي جعلهم يكلفون بهذه السخافة، التي تصاحبها موسيقى تئن بها آلات الطرب المشدودة المكدودة، وهي تجلد بالسياط وترفس بالأرجل!؟

ولما دخل القرية كانت دكاكينها قد أغلقت أبوابها، والحركة قد قلت في شوارعها ودروبها، وكان يود أن يعرج على مقهى "عمي صالح"، فيشرب زجاجة مشروبات، لكنها كانت مغلقة، فمضى يتبع قدميه صوب بيته، خاصة وقد قل الأصدقاء، ورغب عن صداقة لم يجن منها إلا العبث والندم، وله في صورة أبيه كفاية وغنى، فهو كما رأيت من قبل يحدثها في جد الأمر وهزله.

لما دخل حديقة بيته شم شذى "الليمون"، وسمع همس العصافير الخائف بين أغصان الليمونة، وقد أرهبها ظلام الليل وأرعبها.

لدى الباب نزع حذاءه المطاطي، ودخل حافيا، وهو يشعر بمتعة ونشوة، رغم أن أمه حذرته –عندما كان صغيرا، وبعدما صار كبيرا– ألا يمشي حافيا على البلاط البارد والسطوح الإسمنتية.. ولو كان في إمكانه أن يتبع نصائح أمه وتوجيهاتها، لخرج من كتلته وصار ملاكا، لكن حتما سوف يفقد الكثير من المتعة.

وأول ما فعله بعد أن ضغط على زر القاطعة، ثم استلقاؤه على السرير مجهدا، هو أن وصل المسجلة بالكهرباء، وضغط على زرها ليعيد الشريط من أوله، فبدأ النهيق كأحسن ما يكون صفاء ووضوحا، ليتلوه النقيق، وكأن ضفدعا حقيرا مرتزقا مأجورا، هو الذي لبى دعوة الحمير، فراح يحرض الآخرين على الاستجابة لنداء الحمير؛ فاستجاب له مرتزق ثان فثالث، فرابع، فإذا المستنقع كله يلبي بصوت واحد موزون.. وظل يصعد حينا ويهبط حينا آخر في رتابة، كالموج الهادئ في مده وانحساره.

لكنه شعر أن الاستماع إلى النقيق والنهيق، تحت هذا الشلال الغامر من الضياء، خرق لطبيعة المشهد، فتحامل على نفسه، وقام وأطفأ المصباح، لينتعش النقيق ويتسربل بكامل معناه في الظلام الحالك حقا، عندما أطبق الظلام صار للنقيق معنى وعمقا.. حقا، لا نقيق بلا ظلام.. وماذا عساها تقول الضفادع وسط الوحل والعفونة والظلام؟ !

الماء العذب لما يتدفق في المستنقعات يأسن، والشراغيف الصغيرة لما تفتح عيونها ترى الوحل وتشم العفونة، وتسمع نقيق الأمهات والآباء والأجداد، فتظن أنه لا يوجد أنظف من الوحل وأزكى من العفونة وأطرب من النقيق.. وجدتهم ينطون فنطت، ويستنشقون العفونة فاستنشقت، ويطربون لهذا الصوت الرتيب فقلدته في بهجة وحبور.

إيه عليك يا شراغيف.. ماذا لو مددت بصرك ليسبح في المرج الأخضر؟.. لكن ذلك لا يكون إلا عندما تجتاحك الرغبة في النوم.. ماذا عليك لو قلدت العصافير في زقزقتها الملائكية؟ لا شيء.. سوى أن الزقزقة تتطلب غصنا، والغصن يستلزم شجرة، والشجرة تستدعي فضاء والفضاء يتطلب تحليقا، والتحليق لا بد له من أجنحة.. فآه من الأجنحة. !

أشعل من جديد مصباح الغرفة، ورفع عينيه إلى صورة أبيه، فرأى ما يشبه ابتسامة الأسى والأسف بشفتيه. بل ليكاد يقول: "الله يا زمن !.. صارت داري معطنا للحمير ومستنقعا للضفادع.. داري التي كانت تملأها ضحكات الأطفال وصوتي الزاجر، وصوتها الحنون، وقرآن ما بعد صلاة العصر، صارت فضاء للنهيق والنقيق وكل ما أنكر الله من أصوات.. قبحك الله من وريث سوء.. الله يا زمن" !

ابتسم في وجه أبيه مواسيا، كأنه يخفف وقع الأسى والأسف، وقال:

-لا .. لا تهول الأمر يا أبي.. دعه في حجمه..

لا تكترث يا أبي.. إنها حمير وضفادع، ونهيق ونقيق، ومعاطن ومستنقعات، وعفونة الأبوال والأرواث والوحل القديم.. حاول أن تسد منخريك فلا تشم العفونة، وأن تسد أذنيك فلا تسمع أنكر الأصوات، واغمض عينيك فلا ترى القبح والقذارة.. لك أن تستنكف وتتنزه، ولك أن تتعفف وأن تتأفف، لك أن تفعل ما تشاء يا أبي.. وقد فعلت أنا كل ذلك من قبل.. جربت ألا أسمع وألا أشم وألا أرى شيئا.. لكني وجدت العفونة تأتيني من داخلي، ووجدت المستنقع ينبع مني ويمتد في ويكتسحني.. وسمعت آلاف الضفادع الهرمة العجوز تواصل نقيقها في تلافيف فكري وعلى منابر روحي،.. أحس كأن معطنا كبيرا لإبل الصحراء في ركن قصي خفي من نفسي..!

جربت يا أبي.. لكني وجدت أن كل ما أنكره ما هو إلا ظلال ثقيلة لورم خبيث ممتد في؛ الأشباح التي أراها في كل زاوية ومنعطف، الأوهام التي تقلب في حسي وعيوني وضميري صورة الحقائق وحقائق الصور، فتجعلني آوي إلى فراشي قبل حلول الظلام، الضلالات التي أفسدت باسم الإيمان إيماني.. هذا كله انعكاس للمستنقع الآسن الذي أحمله بين جنبي منذ قرون.. ولا شك أن في أعماق المستنقع أشلاء وجماجم منورين وهياكل عظمية، وسيوفا ورماحا وبشارات نبوية، وفوانيس وقناديل وشموعا منسية؛ أطفأتها الردة وبقية الأحزاب والروح القبلية، لا تنظر إلي هكذا يا أبي.. نظرتك المتأسفة الحزينة شوكة توخزني، فأبوح بالألم المكنن نهيق ونقيق، وأشياء أخرى لا تعني شيئا، كما لا تعني شيئا بقية الأشياء.

الليل نزوره بلغة النهار، والربيع نتلف مباهجه بلغة الخريف، فإذا هو صفرة وذبول، وأوراق متناثرة كتناثر العبرات من عيون البؤساء، وتناثر العبرات من أفواه المجانين.

لا تكترث يا أبي.. نهيق ونقيق وأشياء أخرى لا تعني شيئا، كما لا تعني شيئا بقية الأشياء.. حتما أن كل ضفدع يريد أن يقول كلاما مختلفا عما يسمع.. حتما يوجد في المستنقع خصام وصراع وتشاكس، لكنها تعبر عن جميع تلك الحالات المختلفة المتناقضة بنبرة واحدة !.. وإنها لفي حيرة لماذا لا يفهم بعضها بعضا.. ولما تتعب تنطمر بين وحل الأعماق، لتجدد حيويتها، وتسترجع أنفاسها، ثم تظهر من جديد فوق سطح المستنقع.

يضحك كالأطفال، ويدير الشريط من أوله، ويواصل مخاطبا صورة أبيه، التي يبدو عليها أن الدهشة قد عقدت لسانها، وجعلت بصرها يزيغ، ولو نظرت أنت إلى الصورة لرأيت شيئا من ذلك:

-استمع وأنصت، فلعلك قد تفهم شيئا.

وينطلق النهيق حادا قويا واضحا (حتى لا أقول فصيحا صريحا).. ولا شيء في الغرفة غير مصباح مبرقش بالونيم، يذر الضياء، وعيون في عيون، وأنفاس تصعد وتهبط في صدركم زفر من المواجع والألم، وكم تنفس من العذاب، وكم أتعبه أنه لا يستطيع البوح بالسر.

النقيق يتجاوب مع النهيق؛ كأنهما يصدران من مستنقع واحد.. ولما توقف النقيق أسكت المسجلة، وقال لأبيه دافعا في وجهه زفرة أسى وأسف:

–هل فهمت شيئا يا أبي؟.. –بعد فترة قصيرة من الصمت كمن ينتظر جوابا– لا شيء طبعا.. وما عساك تفهم مما تسمع إلا ما تسمع؟.. إن الذكي لا يفهم الغباء بسرعة، والعبقري لا يفقه الفوضى كما ينبغي. (بعد أن تنهد) هذا الذي يراد منا أن نتبناه ونناقشه ونفهمه ونحلله، وننظمه ونشرحه في الحواشي.. هذا الذي يراد لنا أن نصفق له، ونهتف باسمه، ونقاتل دونه، ونموت في سبيله شهداء..! لأجل هذا يؤول الحق، وتزور الحقيقة، حتى تتغطى سوأة الباطل ذات الدمامل والقروح.. !

هذا الذي يراد لنا أن نمجده بالشعر والأناشيد والأغاني، والمحفوظات المدرسية.. !

أنا لم أرد شيئا من هذا، ولذا قررت أن أقاوم السأم بالسأم، وأن أطرد الملل بالملل، وأن أهرب من العبث إلى العبث.

ثم استدبر صورة أبيه، وأقبل على الوراق يسودها، وعلى السطور الشاحبة، يجعل منها أثلاما، يبذر فيها الكلمات والمعاني والأفكار.. قد تتوفر لها الظروف والشروط لتعطي الشذى والندى، وتنشر الظل في وجه الهجير.. وقد تتوفر لها شروط أخرى، فتكون لهبا متوهجا متأججا، يحرق ويأتي على الأخضر واليابس، ولا يترك إلا الرماد وأعمدة الدخان.

وقد تهيأ لها الظروف فتنسف وتفجر، وتزلزل الأرض تحت أقدام الأوثان، وآلهة الزيف.

ولما انتهى من الكتابة، وبدل أن يرمي هاتين الورقتين، قام إلى الأوراق الأخرى المتناثرة على أرضية الغرفة وجمعها، ثم رقمها حسب التاريخ الذي في أعلاها. ثم قام إلى فراشه واندس تحت الغطاء، بعدما شغل شريط قصار السور للمرحوم "عبد الباسط عبد الصمد" في المسجلة الكبيرة، وراح ينصت كالخاشعين أو المتخاشعين لعله يفلح.. وإنه لفي شك من ذلك ما دام مرميا في هذه القرية، بين هؤلاء الناس !.

ولم يوقظه من نومه إلا شمس التاسعة صباحا، تتمسح بأجفانه كما تتمسح القطة المدللة بساقي صاحبها. كما ساهمت في إيقاظه هذه العصافير، وهي تزقزق بين أغصان الليمونة فرحة محبورة بالنور والشمس ودفء الحياة.. وكيف لا يفرح من لا يتذكر أمسه ولا ينتظر غده؟ !

وبعد أن غسل وجهه، ومشط شعره كما يفعل في أحايين قليلة، لم يجد في المطبخ شيئا يأكله، ولم يجد في غرفة النوم شيئا صالحا للأكل.. ولو كان الخبز اليابس. !

ولما فتح مصراعي النافذة لتهوية الغرفة، وقعت عيناه على قطع خبز يابسة، كان قد وضعها عند أصل الجدار، لعل ندى الليل يرطبها ويجعلها طرية، فتأكلها القطط والكلاب. قفز إليها وأحضر منها قطعا. لم يفعل الليل فيها شيء، لأنه لم يكن نديا، وراح يهشمها على حديد الشرفة الصغيرة، ويأكلها مستمتعا بدفء الشمس وزقزقة العصافير، رغم أن الخبز لما يصير بالفم يتطلب لعابا فوق العادي ليجعل القطعة الناشفة مضغا لا يغص بها أثناء البلع. وخلال ذلك كان يفكر أنه في إمكان المرابين والمحتكرين " والقطط السمان"، ان يفطروا على قطعة خبز ناشفة، يهشمونها على حديد شرفاتهم، دون أن ينقعوها في عرق الأجراء والكادحين.

وفي إمكان الجنرالات وأباطرة الدم أن يفطروا على شيء مثل هذا، منقوع في الخل أو زيت الزيتون، متحاشين دم الجنود المدفوعين في القفا، إلى أن يقتلوا أو يقتلوا، ومتحاشين كذلك دموع اليتامى والأيامى المفجوعين بفقد الأحبة..

وما هو بالعسير كذلك على حراس الضلالات والأحبار والرهبان وفقهاء السلطان، أن يعيشوا على القناعة كما يعظون أتباعهم، وكما يختمون مواعظهم "ربنا أعطنا خبزنا كفاف يومنا".. ويا حبذا أن يؤثروا ما عند الله على ما في أيدي الناس وبنوك الملوك، وأن يتخففوا قليلا من مسموح الرهبنة وعباءات التقوى الزائفة..

-السلام عليكم. قالها "بوخالفي" بائع الكتب القديمة، فقطع عليه استرسال خواطره وتداعي أفكاره.

-وعليكم السلام "بوخالفي".. كيف أصبحت؟.

رد عليه "بوخالفي"، وهو يوقف عربته -التي هي عبارة عن صندوق، ذي عجلات ومقبض للدفع، وسطح عليه كتب ودوريات قديمة:

-إن كان يهمك كيف أصبحت، فاسمع مني.. تخاصمت مع زوجتي، وزجرت أمها، وعبست في وجه أمي، وضربت الابنة، وجريت وراء الابن فأفلت مني، وقلبت حليب الفطور، وأطفأت النار، وأزعجتني القطة بتمسحها فهشمت رأسها بكأس انكسرت هي كذلك، ولما خرجت غاضبا رأيت -أول ما رأيت العجوز "أم السعد" (هي عجوز يتطير بها أهل القرية). وأتبع هذا كله بابتسامة حزينة. فأخذ "منصور" يضحك بانشراح غامر، فاتسعت بسمة "بوخالفي" أكثر، فقال:

-اضحك.. لك الحق أن تضحك قبل أن ترى وجه زوجتك المهمومة، وابنتك حزينة مغمومة، وابنك يعتبرك كالاستعمار، لتفكر بعدها أنت في الانتحار، وتتمنى الأجل قبل الأجل. ثم تلمس بعض الكتب وواصل حديثه:

-ألا تشتري اليوم كتبا؟.. لقد اقتنيت كتبا جديدة.

قفز من شرفة النافذة، واجتاز باب الحديقة، وصافحه وهو يسأله:

-أين هي هذه الكتب الجديدة؟

-ها هي. مشيرا إلى مجموعة على يمين سطح الصندوق، ولما أخذ يقلبها ويقرأ عناوينها، وجدها كلها تتحدث عن السحر والصرع، والجن والشياطين، والرقية الشرعية، وأخبار الراقصات وحياة المطربين وتفسير الأحلام، وتعليم الطبخ وأهوال القبور والاستعداد للموت.

-أهذه هي؟.. أليس عندك غيرها؟.

-أنا أدرى منك بسوق الكتب؛ وأدرى منك بما يستهلك الناس.. إن الطلب لا يقع إلا على هذه، لقد كثر عليها الطلب بشكل كبير. وبعدها انحنى وأدخل رأسه في جوف الصندوق ليبحث له عن كتب أخرى، فكان صوته يأتي مغموما:

-عندي غيرها، إنما أدركتها العنوسة. وكان يريد أن يقول كلاما آخر، لكن عطاسا حادا قطع عليه كلامه، فأخرج رأسه من جوف العربة قائلا:

-فتش أنت.. ها هي أمامك، لقد أفسدت الحساسية حياتي.. وإنها لمعجزة أني لم أصب إلا بها؛ فتحت الصفيح ولدت، وتحته أعيش، وتحته أموت. فأكمل "منصور" ممازحا، وهو يدخل رأسه في العربة:

-ومن تحته سوف تبعث حيا !. وراح يقلب الكتب القديمة، التي كان فوقها حذاء مثقوب، قد يأخذه "بوخالفي" إلى عند الإسكافي. استخرج من بينها "المقدمة" و"نقد العقل العربي" و"ذهب مع الريح" ثم التفت إلى "بوخالفي"، وهو يضرب براحته على أغلفة الكتب، ليطير ما تكدس عليها من غبار:

-أنت لا تدري لماذا بارت هذه الكتب، وكسدت كما تكسد تجارة الطهر بين قوم "لوط"،.. لأنها تقول الحق المر وتصرح بالحقيقة الجارحة، وتجهر بالسر المخفي، وتحدد الورم الخبيث، وتقول ما تقول بدون كناية أو تعريض أو مجاز.. إنها سهم يوجهه الفكر الحر من قوس الإرادة الطيبة إلى كبد الحقيقة الغائبة.

نظر "بوخالفي" نظرة استغراب بعد أن لم يفهم قوله ولا مقصده، وقال وهو يضرب كفا بكف:

-حقا.. الدوام لله، الله يصلح لك ذريتك، ولكن أني لمجنون أن تكون لك ذرية. !

وضع "منصور" "المقدمة" على سطح العربة، فأعادها "بوخالفي" إلى ظلمة الجوف، وهو يستمع إلى "منصور".

-"المقدمة" عندي.. أما هذان فسأدفع لك ثمنهما بعد أيام..

-من حسناتك يوم القيامة !. —قال ساخرا وأكمل- ولكن أنى لمثلك أن تكون له حسنات عند الله، ! سكير، فوضوي، ناكر خير ومعروف، مجنون، وقح.. وكيف يربح من افتتح يومه مقرضا !؟.

ورفع صوته مناديا:

-"اقرأ باسم ربك الذي خلق". وراح يكررها وهو يمضي صوب الثانوية، حيث اعتاد أن يعرض بضاعته، وحيث اعتاد أن يجد من يقبل عليها. أما مؤخرا، فحتى أساتذة الثانوية يعرضون عليه كتبهم القديمة والجديدة على السواء بأثمان مغرية.

لماذا حين نحتاج الأكل نعرض كتبنا للبيع.. وحين نزهد نزهد في العمل، وحين نتوب إلى الله نعطل العقل ونستغني عن النباهة، ونضرب صفحا عن التفكير ونصير خاملين؟

استرجع كل ما قاله "بوخالفي" في حقه، وابتسم، وعاد إلى غرفته يتصفح الكتابين، وقد عقد النية أن يماطله في الثمن حتى ينسى.

في حدود الساعة التاسعة وثلاثين دقيقة خرج من الدار، يحمل كيسه البلاستيكي فيه مسجلته وواصل كهربائي قد يحتاج إليه في مهمته، وأثناء الطريق عرج على "كشك الأمان"، واشترى علبتي "شمة"، وكان الأطفال يحيونه مبتسمين، فيرد التحية مبتسما، ويحييه بعض الرجال إشفاقا وتلطفا، فيكشر في وجوههم ويعبس، ليؤكد لهم صحة ظنونهم الآثمة، فما حيوه إلا اختبارا

وقبل أن ينعطف يمينا ليدخل الحي القديم، تقدم يسارا خطوتين، وقطع الرصيف بخطوة واحدة، إلى دكان الحلاق ليمشط شعره ويحلق ذقنه، فمن المستحيل، إذا رأته على هذه الهيئة الرثة أن تكرم وفادته أو تحسن مثواه، فالنساء يحببن الأناقة ويؤثرن الأنيق الوسيم، حتى ولو كن طاعنات في السن.. هكذا جبلهن الله.

بعد دقائق، ها هو ينعطف إلى الحي القديم ذي البيوت الموصولة ببعضها بعضا، والذي كان في الأصل محتشدا استعماريا، بنته "فرنس" لإيواء المهجرين من أهل المداشر والقرى، وذلك حين خططت لفصل الشعب عن الثورة. ولقد وزعت أغلب سكناته على المجاهدين بعد الاستقلال، ربما حين خططوا لفصل الثورة عن الشعب !.. أغلب فتيات هذا الحي متحجبات عفيفات، وأغلب إخوانهن ملتحون ملتزمون بأخلاق الدين، وأغلب عناصر الأحزاب الإسلامية الثلاثة من هذا الحي.

-"جدتي نعناعة".. "جدتي نعناعة". هكذا صاح بها وراح يعدو خلفها بعد أن رآها تنعطف وراء تلك الدار.

-"جدتي نعناعة".. السلام عليكم، التفتت إليه وقالت، وقد شعت أساريرها بالطيبة والرضا:

-هذا أنت.. صبحك الله بالخير والعافية.. ماذا تريد؟.

ولما صار واقفا إليها، مدت يدها لتصافحه، وانحنت وقربت جبينها المغضن من فمه ليقبله، ففعل كل ما أرادت ونوت، بعدما التفت في كل اتجاه مخافة أن يراه أحد "سلفية القرية" فيشيع في أصحابه: أن منصورا قبل نعناعة !!.. وليس مستبعدا أن يعقد له أحد "الشيوخ" جلسة.

-رأيت اليوم في نومي أنني اشتريت من عندك بيضا بعلبتي "شمه"، وسمعت هاتفا يوصيني قائلا: "افعل ما تؤمر يا "منصور" وإلا..، وأفقت مذعورا وأنا أرتعش كالدجاجة التي أصابها الوباء. ودون أن يفسح لها مجالا للتعليق قال وهو يدس في يدها علبتي "الشمه":

-ها هما العلبتان، فأين البيضتان؟ أجابته كالساخرة:

-إنك لم تتوضأ فكيف تكون رؤياك صادقة؟.. لن يكون إلا رشاش بول الشيطان أصابك أثناء النوم..

كاد أن ينفجر ضحكا من أمر هذا الشيطان، الذي انتقل من الوسوسة لنا إلى التبول علينا.. لقد هزلت !.. ثم إنه تظاهر بالجد، وهو يقسم لها ممسكا بسوالفها الحمراء بالحناء:

-وحق هذه الشيبة المنورة عند ربي أني ما نمت حتى صليت العشاء، وقرأت القرآن، واستمعت للشيخ "عبد الباسط عبد الصمد..".

مشت أمامه نحو بيتها وهي تسأله:

-كيف حال أمك؟.

-بخير يا "جدتي نعناعة".. وهي دائما تسأل عنك وتسلم عليك، وتقول: جدتك "نعناعة" عجوز طيبة، وجهها وجه الجنة.

وقفت أمام باب حديدي أزرق، وتناولت مفتاحا يتدلى من حزامها الصوفي الأحمر المشغول بخيوط فضية وذهبية، وفتحت الباب وقال له مرحبة:

-أهلا.. مرحبا.. قرب. وناولته مقعدا خشبيا صغيرا، ثم أخذت تحدثه في أمور شتى، خاصة ما تعلق بأيامها الذاهبات، وما ألم بها من آلام وأوجاع بعد غياب المرحوم. وكان هو يتظاهر بالاهتمام حينا، والتأثر حينا آخر، والإشفاق بين هذا وذاك. وعندما ترى منه الاهتمام أو التأثر أو الإشفاق تنشج وتتظاهر بالبكاء، وتعصر عينيها بسبابتيها وإبهامها، فما يجدان للدمع من أثر، أما هو فكان يتنهد، ويقول معلقا على ذلك كله:

-هكذا الأيام؟

وطال الحديث بينهما حتى مله واستعذبه، واستوحشه واستلطفه، وتضجر منه وارتاحت إليه، وتمنى لو أن الحديث ينقطع بسبب ما، وتمنت لو أن الحديث يطول بأسباب ما. ولقد كاد أن يقطعه غاضبا لو لا حياء يعقد لسانه ويلجم فمه، خاصة مع النساء. ولكن الله لطيف لما يشاء.. ففي هذه اللحظة سمع دجاجة خارج الحوش تقرق، فشعت أساريره وانبسط محياه بعد ملل وضجر، واتسعت عيناه أكثر، كأنه يريد أن يرى كل الجهات، ليرى من أين تهل عليه البشارة !.. قالت له "العجوز نعناعة":

-تنح قليلا من طريق الدجاجة، فهي تريد أن تدخل خمها لتبيض.

سألها مبتهجا، وهو يلتفت خلفه، ليجد الخم في ركن الحوش تحت جذع الكرمة:

-هل تصوت الدجاجة وتقرق قبل أن تدخل الخم؟.

–وبعد أن تبيض كذلك –أجابته– ولو لا أن أخاف أن تكذبني لقصصت عليك من شأنها قصصا طريفة.. إنها ليست كباقي الدجاجات.. إنها مباركة.. إنها "مرابطة".

–لا داعي لذلك يا جدتي "نعناعة"، فأنا أعرف تلك القصص الطريفة، وأهل الحي جميعا يعرفونها. وأخذ يخرج بلهفة المسجلة والواصل الكهربائي، وهو يسألها:

–أين هو مأخذ التيار؟.

دفعت باب الغرفة بيدها، وأشارت أسفل يمين الباب من الداخل، وقالت:

–هنا.. وماذا تفعل به؟

لم يجبها، إنما تظاهر أن الأمر جد، ولا يحتمل الكثير من الثرثرة الفارغة وتضييع الوقت، فأخذ الواصل الكهربائي إلى حيث مأخذ التيار، ثم مده إلى حيث باب الخم، وغطى المسجلة ببعض القش، بعد أن ضغط على زر التسجيل، وقال مبتسما:

–افتحي باب الحوس لتدخل الدجاجة.. حتما ستبيض اليوم بيضة ملونة. !

أما هي فقد أنكرت كل ما ترى، وأنكرت كل ما تسمع، ولم تفهم شيئا مما يحدث أمامها، وأغلب ظنها أن نوبة جنونه قد طافت به وتلبسته، فلا بد أن تطيعه في كل ما يأمر باللين والرفق، وإلا كسر الدار وما في الدار من متاع. وكأنه فهم ظنها –أو بعض ظنها– من خلال حركاتها الزوجلة المضطربة، ويوح عيونها القلقة.. فأعجبه ذلك أيما إعجاب، وراح يدعمه بحركات لا يستدعيها الموقف ولا يتطلبها المقام.

ولما دخلت الدجاجة أشار إلى الجدة "نعناعة" بأن وضع سبابته معترضة مع شفتيه، بمعنى اسكتي ولا تأتي بأدنى حركة. وفي الوقت الذي بدأت فيه الدجاجة تقرق أدخل الواصل الكهربائي في مأخذ التيار، ليبدأ الشريط يدور، والدجاجة تصوت في شيء من الإلحاح، وهو في قمة الابتهاج، لأن الله سبحانه دائما ييسر له أموره بطريقة لطيفة. أما هي فقد كانت مغبرة الوجه، متأثرة لحال الدجاجة دون أن تستطيع أن تفعل لها شيئا.

ولما رأى لأنه سجل ما فيه الكفاية، سحب الواصل الكهربائي من مأخذ التيار، واقترب منها وهمس في أذنها ليزيد الجو الذي انقلب فجأة رهبة وغموضا

–اذهبي وافتحي الخم لها واحذري.

مدت يدها إليه خائفة وجلة، وفتحته على عجل كمن يخاف أن يجذب إليه جذبا خاطفان وعادت لتستند إلى باب الغرفة كاسفة البال مضطربة الشعور، وهي تلعن في قرارة نفسها "الشمه" والرؤيا والساعة التي وقفت فيها إليه. وقد أراد بعدها أن يجرها إلى أحاديث هامشية، كتلك الأحاديث التي تحفل بها العجائز وتنشطن لها، وتنطلق فيها ألسنتهن، وتهفو إليها قلوبهن، لكنها كانت متحفظة أشد التحفظ، تجيبه باقتضاب، وتشيح عنه بوجهها، كأنها تود لو أنها لم تره من قبل، أو لو أن أمه لم تلده !

وظل هو كالضيف الثقيل، يجرها إلى الحديث جرا، ويدعوها إلى الضحك والفكاهة بنكت باردة، لا تختلف في تأثيرها عن الذي يريد أن يدغدغك بالشوك !.

وما إن سمع الدجاجة تقرق من جديد، حتى أدخل الواصل الكهربائي في مأخذ التيار من جديد، وأشار إليها أن اسكتي.. وراح الشريط يدور، والدجاجة داخل الخم تقرق كالمحبوس يتأوه بحثا عن الحرية.

ولما رأى أنه قد سجل من هذا الصوت –الذي يختلف شيئا قليلا عن الأول- ما فيه الكفاية، قال لها وهو يجمع حاجياته:

-افتحي لها الخم يا "جدتي نعناعة" فقد اشتاقت إلى الحرية –وواصل كمن يحدث نفسه

-هل قدر عليها ألا تلد إلا خلف القضبان؟.. العبيد وحدهم هم الذين لا يشعرون بالحرج أن يتناسلوا خلف القضبان، وأن يضعوا أبناءهم في مهاد الذل، ويقمطوهم بقماط العبودية.

هي لم تجد حرجا أنها لم تفهم شيئا مما قال.. ومن الجنون أن تفهم المجانين.. ولقد تنور وجهها –رغم سمرته الشديدة وتجاعيده الغائرة- لما رأت الدجاجة تركض خارج الحوش، وهي تنفض جناحيها.

دس "منصور" في يدها ورقة من فئة الخمسين دينارا، وقال لها:

-قد فعلت كل ما أمرني به الجن الأحمر، وقال لي: بعدها ستبيض دجاجة العجوز "نعناعة" مرتين في النهار، وتمام الثلاثين بيضة واحدة من ذهب، وقد هددني بأنه سوف يخنقني أو يزهق روحي إن لم أفعل. ولم يكد يمضي في طريقه خطوتين، حتى انقلب إليها ليسألها:

-هل عندك ديك قوي، مليح العرف والصوت؟.

أجابته، وقد راقتها البيضة الثلاثون:

-وهل أترك دجاجتي وحدها تعاني الوحدة والكآبة؟ !.. إنه هو الذي يوقظني لصلاة الصبح، أما المؤذن، فلا يصلي على آذانه إلا الكسالى.

ابتسم لها، ومضى راضيا مرضيا، وهو يدندن بهذين البيتين من الشعر:

ربـــــاب ربة البيت   تصب الخل في الزيت

لها تسع دجاجات   وديك حسن الصوت

بينما انطلق في أثره صوت هذه العجوز، وهي تنادي على الدجاجة والديك، لتعطيهما بعض الحب.

كان يود أن يعرج على مقهى "عمي صالح" فيشرب قهوة، ويلم بمخبزة "عمي محمد" ليشتري خبزة، ولكن الشوق إلى سماع صوت الدجاجة على الشريط قد زهده في القهوة، ورغبه عن الخبز، بل جعله يشعر بالشبع والامتلاء. وماذا عساه يجد في المقهى غير السنة حداد أشحة على الخير، تسلق أعراض الناس سلقا، وغير أنياب ذئبية تقطر من دمائهم، ابتداء من رئيس الدولة وانتهاء بعمي "يعيد الزبال.. !"

وماذا عساه يجد في المقهى غير أطفال يأخذون عن الكبار خوارم المروءة، ويتعلمون عنهم نواقض الرجولة؟ !.. وماذا عساه يجد في المخبزة غير وجوه شاحبة، ما أقدسها لو كانت تخشع في صلاتها كخشوعها وهي تنتظر خروج الخبز الدافئ من الفرن. !

ولكن، ما عساهم يفعلون غير هذا، الناس طيبون ومساكين، ولا ذنب لهم في ما هم فيه.. حتى يولدون يجدون أنفسهم اسرى شرانق نسجها الأولون خيطا خيطا، ونمقوها بألوان تسحر البصيرة قبل البصر، وما دون ذلك فراغ يحذر منه، وباطل يتقى.. وحيثما وصل ريق إبليس تموت الحرية، وتجهض الإرادة الطيبة، والفكر المتسامي الذي يقرأ كل ما تقع عليه عينه باسم ربه، وليس باسم الكاهن أو السادن أو الحزب.

قبل أن يلج باب الحديقة ألفى أطفالا صغارا يلعبون على الرصيف، وقد اتسعت عيونهم وتوردت خدودهم، وطار بهم الفرح بعيدا عن حدود الزمان والمكان. ولما ظن أن صياحهم هذا البريء سوف يشوش عليه الاستماع إلى صوت الدجاجة، اتجه نحوهم، وقال وقد انقبض محياه كمن يريد أن يصور فزعا ورعبا مستطيرا، وخوفا يوشك أن يقع:

-أيها الأطفال انصرفوا.. فروا إلى امهاتكم !. انصرفوا قبل أن يأتي إليكم "شمهروش.. !"

ولا أحد منا يعرف من أين يأتي "شمهروش" المهيب،.. فقد يطلع من شقوق الأرض، وقد ينزل من غيم السماء، وقد يخرج من جوف هذه الشجرة، وقد يمرق من خلف ذاك الجدار، وقد يباغتنا من داخل معاطفنا.. أي نعم.. إنه "شمهروش. !"

انقبضت وجوه الأطفال، واغبرت أساريرهم، وانقشع سريعا عن الوجوه البريئة الفرح والعافية، فانصرفوا مسرعين، وقد نسوا حتى كويرات اللعب، وكل واحد منهم يتمنى ألا يؤخذ من حيث لا يحتسب حتى يصل إلى حضن أمه، وتم ما عساه يفعل "شمهروش."؟

أما احدهم، وقد كانت دراه بعيدة –قياسا إلى صغره وصغر خطاه–، فقد أخذ يبكي ويصيح، فشعر "منصور" أن قلبه ينصدع، فأخذ ينادي:

-أيها الأطفال عودوا، عودوا والعبوا وأنا احرسكم، إنما كنت أمازحكم فقط وألاطفكم، وأختبركم إن كنتم رجالا أم نساء.

لكنهم كانوا قد تفرقوا وغابوا خلف الأبواب، وفي قلب كل واحد منهم نصيب من الخوف، سوف يكبر ليصير خرافة وضلالة.

لما دخل غرفته رمى الكيس البلاستيكي الأسود على الطاولة، واستلقى على الفراش دون أن يفكر في الاستماع إلى صوت الدجاجة.. لقد كان الهم باديا عليه، والكآبة غير خافية. رفع عينيه إلى صورة أبيه، فألفاه ينظر إليه كالشارد الساهي.. وظلت العيون في العيون، والصمت يقول للصمت الكئيب ويسمع.. بعدها قال "منصور" في نبرة المتأسف الحزين:

-ما أحقرني وما أتفهني يا أبتاه.. منذ قليل أطلقت من خيالي الموبوءة كذبة شوهاء، فأصبت البراءة والفرح وعدة ابتسامات في مقتلها.. كانت كذبة انشطارية يا أبي.. وما عذري إلا سماع صوت الدجاجة المسجل !.. فكيف ألوم باقي التافهين حين يقتلون ويسرقون ويحتكرون ليستمتعوا بشهوات أخرى.. هي أشهى من شهوتي وألذ !؟.. إني لكالذي يسحق وردة ليشك في عروة قميصه شوكة سوداء، أو كالذي لا يطرب لضحكات رضيع بقدر ما يطرب لسعال شيخ يتلمس حافة قبره بعصاه.

سكت قليلا، ثم قام وعقد يديه وراء ظهره، وراح الغرفة جيئة وذهابا، ويقول ساخرا:

-"شمهروش" !.. وما "شمهروش" هذا إلا حجة المبطلين، وسلطان العاجزين، ومنطق الكاذبين، وقناع أهل الخداع، لماذا لا نقنع الناس بالرعب والخوف؟.. وهم لماذا لا يقتنعون إلا بهما؟ !.. هنا، في تربة هذا المنطق الأخرق نبتت هراوات القوات الخاصة، وسياط الجلادين وأحذية العسكر وفتاوى الأمراء. !

أبتاه.. لماذا نشوه الفضاء النظيف، ونمسخ الكون اللطيف الأليف من أجل شهوة حقيرة ومصلحة تافهة !؟ فخخت المنعطفات، ولغمت المعاطف والأشجار، وشوهت الحقائق، وأثقلت القلوب الصغيرة بالألم من أجل أن أستمع إلى صوت دجاجة !.. ألا ما أحقرني يا أبتاه.. !

أما كان يكفي قول الحقيقة لأقنع وليقتنعوا، فينصرفون وأستمع بعد ذلك إلى كل دجاجات الدنيا؟ !

الغيب كان جميلا يا أبتاه فمسخناه وشوهناه ولغمناه، وجعلناه منطقة للرعب واللامعقول، ومملكة للشر العدمي القاتل، يحكمها "منكر" و"نكير" !.. فأين الجنة والحور العين، وانهار الخمر والعسل، والشموس الأبدية الإشراق والملائكة الذين جمالهم لا يضاهي؟ !

كل التشوهات كانت في البدء من أجل مصلحة قضيت.. كما قضيت أنا مصلحتي لكن بعدما عكرت ضمائر، وخدشت نفوسا كالمرايا الصقيلة.. أنا لست غير هؤلاء الأطفال، وأنت كذلك يا أبي.. أرضعونا الخرافة والوهم، فصار فينا الخوف كبيرا.. وتعلمنا كيف نعيش لأننا نخاف أن نموت، وكيف نموت لأننا نخاف أن نعيش، وفي الحالتين نحن فاشلون وجبناء، ومهووسون ومرضى.. وهكذا صارت لدينا عقدة الخوف عقيدة.. علمونا أن نكبر لنصير صغارا.. وأن نعيش لنكون جاهزين للموت، وأن نتقدم لنعود إلى الماضي، علمونا أن نستيقظ لنعيش لذة التثاؤب وانتظار النوم. .. !

فعلا.. إنه لم يكن يمثل أو يهرج —وما أقدره على التمثيل والتهريج لو أراد ذلك- كان يتألم بحق، ويشعر بعقدة الذنب في العمق، خاصة وقد تعلق الأمر بأطفال صغار، لا بد لهم في معاصر الكبار، وما لهم في مخازيهم من نصيب.

رغم هذا، فقد تحامل على نفسه، وخالف ندمه، ومد يده إلى المسجلة، وأعاد الشريط من أوله، وراح يستمع إليه وهو مستلق على السرير،. ولما بدأت الدجاجة تدفع صوتها الواهي الضعيف، كما يدفع "سيزيف" صخرته، حينها انقشع عن وجهه الندم والألم، وطافت بشفتيه راحت تكبر وتتسع شيئا فشيئا، حتى صارت ضحكة صغيرة، فأخرى أكبر، فهقهة عالية جبت ما قبلها من هم وغم.

والشريط يدور، وصوت الدجاجة الواهي الضعيف الرتيب يتواصل مثقلا باليأس، كأنه دعاء مضطر تقطعت به الأسباب، وظن أنه قد أحيط به، فصار نهبا للوساوس والأوهام..

لا شيء يتكرر في رحم النهيق أو النقيق، إلا هذا الصوت الواهي الضعيف.. الضارع الباكي.. الذي لا يستطيع أن يصعد نحو الأعلى كثيرا، غنما قصاراه أن يمتد طولا وعرضا كما يمتد الوخم فوق المستنقعات كغشاوة الضلال وقد رانت على قلوب الحيارى..

الصوت يعلو قليلا كالمندهش، أو كالذي أخذه الانبهار، او كالمفجوع المستغيث بالآخرين،.. هكذا علمونا أن نبحث عن القوة خارج ذاتنا.. هذه الذات التي صوروها لنا وعاء معاصي.. فنشأنا نخافها ونكرهها، ونستعيذ بالله إن ذكرناها خطأ أو سهوا..

علمونا أن نلتجئ دائما إلى خارج الذات.. أي إليهم.. وحرموا علينا البحث عن القوة داخلنا، لأن ذلك يعني أنهم لما يبحثون عنا ليمارسوا فينا شهوة التسلط والمشيخة، لا يجدون قرب ظلالنا إلا جسدا من طين !.

أسكت المسجلة متنهدا، وراح يجهر بخواطره قائلا:

-إيه أيتها الدجاجة.. ضعي بيضتك واخرجي، كأنك لم تقاسي آلام الوضع، لتمتد إليها الأيدي الجشعة الطماعة، فتحولها ذهبا، أو تطعمها أبناءها الصغار.، لتنفش فراخك الصغيرة عفن المزابل وغبار الأرصفة، بحثا عن لقمة خبز داستها عشرات الأرجل.

أية قوة في داخلك قاهرة، ترغمك أن تبيضي، وأنت تعلمين أنها من نصيب الآخرين؟. !

الآن فقط، وبعدما سكت، شعر أن الجوع يعضه في سادية معلنة، ولا بد من طعام ليسكت إلحاح المصارين.. وكل خياله صار الآن مركزا على لقمة الخبز وصحن الحساء، فراح يفتش في جيوب سراويله ومعاطفه المرمية هنا وهناك، والمكدسة تحت الوسادة، لعله يجد فيها ! بعض النقود، فمن عادته السيئة أنه يغفل عن تفتيش جيوب ملابسه حين ينزعها ليرتدي غيرها. وكم مرة سهلت عليه هذه العادة السيئة صعبا، ويسرت له عسيرا، وفتحت له على حين غرة أبوابا وسبلا ما كان لها أن يفتح لولاها.

وما أبسط هذه الأبواب، وما أيسر هذه السبل التي تفتحها في وجهه هذه النقود، فهي باب مطعم، يدخله كالآخرين، ويخرج منه وهو يحدث ذلك الصوت الذي يشبه زقزقة العصفور، الذي يحدثه كل من ينقي أسنانه بشفتيه ولسانه، مستعينا بين حين وآخر بعود ثقاب، كأنه أكل لحما مشويا أو مصليا. !

كانت تتدلى من بين أصبعيه سيجارة كالشرحين يخرج شطاه.. وها هو يدخل مقهى "عمي صالح"، التي تكاد تكون خالية ممن روادها، لو لا شيخ كبير، أوكأ رأسه في الركن قرب الصناديق الفارغة، وغفا، وكان لا تبدو منه إلا عمامته البيضاء، كأنها كوة في الجدار.

-أين الزبائن؟.

رد عليه "عمي صالح" دون أن يلتفت إليه، لأنه عرفه من صوته.

-هذا أنت أيها المجنون.. لقد ذهبوا لمناصرة فريقنا الذي يلعب ضد فريق "آقبو".. من تظنه يفوز؟. هذا السؤال طرحه لاعتقاده أن المجانين ينطقون الحكمة، ويتكلمون من حين لآخر بلسان الغيب.

-لا أحد.. سيخسران المقابلة، وسينتصر الحكم..

-كيف؟ !.. سأله وهو يقدم له قهوة وقازوزة.

-لأن الحكم هو الذي يحدد نتيجة المقابلة. رد عليه "عمي صالح" معترضا:

-إنه حكم نزيه أيها المجنون.. أبوه حج معي إلي بيت الله الحرام.

-النزاهة ماتت يوم قتلتم "السيد علي". هكذا رد عليه وهو يمسح فم القازوزة، دون أن ينظر إليه، بينما كان "عمي صالح" ينظر إليه مستغربا، ولقد هم أن يقول له شيئا ما أو ينكر عليه شيئا آخر، لكنه لم يفعل، إنما انشغل بغسل الملاعق والفناجين. إنما من عادة أصحاب المقاهي وسائقي السيارات الأجرة وبائعي السمك، من عادة هؤلاء ألا يصبروا طويلا عن الكلام، (وإن شئت لاحظهم !)، فعاد "عمي صالح" يسأله:

-ما عدت ترتاد المقهى كثيرا.. وصرت لا أراك إلا غاديا أو رائحا، يدفعك جنونك إلى حيث لا تريد، ويجرك القرين، فتمشي وراءه طائعا ذليلا.

رد عليه "منصور" وهو يحرك قهوته، بعد أن أضاف إليها قطعتي سكر:

-ليس من عادتي ان أتردد على المسالخ، لأني عندما أشم رائحة الفرت، وأرى لون الدم يأخذني الدوار وتركبني الجنة.

-أمازلت لم تركبك الجنة بعد؟ ! –هكذا قال له ساخرا، بعد أن حاول أن يفهم ما يعنيه "منصور" بكلامه، ولم يظفر بشيء – إنما أنا المجنون، لأني حين أراك يرق قلبي لحالك، وأكلمك على أنك عاقل وطيب كأبيك، فيكذبني منطقك، وتسفهني سفاهتك. واخذ المكنسة، وخرج من خلف المحسب إلى القاعة لينظفها، ولسانه لا يفتأ يكيل السباب والشتم لكل من كانوا هنا:

-أبناء الكلاب!.. الجيف القذرة !.. كأن أمهاتهم هن اللواتي يكنسن وينظفن !، بصاق أسود كريه كقلوبكم، لا يعرفون إلا التدخين و"الشمه" والولوغ في أعراض الناس..

بطالون متسكعون.. يريدون أن يأكلوا الخبز بالقفازات الحريرية، دون أن يعرقوا !!.. من علمهم هذا؟ !!

-"حاسي مسعود". قال له "منصور" ساخرا، كأنه يجيبه، لكن "عمي صالح" لم يلتفت إليه، وربما لم يسمعه من شدة الضجيج الذي تحدثه قوائم الكراسي والطاولات، وهو يدفعها يمينا وشمالا.. وواصل كعادة أصحاب المقاهي ألا يصبروا على الكلام:

-كل واحد منهم أبناء كلاب يريد أن يصبح رئيسا، ريثما يقرر بعدها ما يريد أن يكون.. !

والله لو كنت رئيسا لأعطيت كل واحد منهم أشباره ليعلن فيها قيام دولته، وليعزف في سمائها نشيده الوطني، وسنرى بعدها !.. أبناء الكلاب التنابلة الكسالى.. أيديهم أنعم من أيدي زوجاتهم، ويقولون: نحن رجال.. تفوه.. السقاط أبناء الحرام !!.. تشم السم يا ابن الكلبة –(قال هذا عندما وجد بصاق شمة في فنجان) –طبعا.. لم يألف أبوك الطاولة النظيفة والكرسي النظيف وفنجان قهوة أمامه، وأنوار الكهرباء تنهمر عليه من فوق رأسه،.. إنما ألف المغاور كالثعالب والذئاب، وألف الأكواخ التي لا يدخلها إلا منبطحا، وأن يشرب قهوته في "جفنة" من طين، وأسته تلحس الوحل والغبار !..

تفوه يا كلاب (قال هذا عندما وجد كأسا فيها عشرة أعقاب سجائر، وقد اختلط رمادها وتحلل في ما بقي فيها من ثمالة).. إنهم لم يعرفوا لماذا وضعت هذه هنا (منفضة السجائر.. وللحق فإنها كانت نظيفة تماما).. من يراهم في ثيابهم الجميلة وذقونهم الحليقة، ومن يرى قصات شعورهم يخدع فيهم.. يحسبهم أهل حضارة وتقدم.. طز فيكم أبناء الكلاب.. عودوا إلى مداشركم وقراكم، وعيشوا على الأعشاب والثمار البرية كبهائمكم !.. والله لو كنت أنا الرئيس !.. دمرتم مداشركم وقراكم، قبل أن تعمروا مدنكم، فبقيتم في العراء. تتمرغون في النعم كالحمير الجرباء وتسألون الله أن يرفعها ويقطعها !.. وترفلون في العافية وتسألون الله أن يهتكها عنكم.. وسوف يأتي اليوم الذي يقول لكم فيه:" فإن لكم ما سألتم".

في هذه اللحظة كان قد وصل بالكناسة إلى باب المقهى، فرأى شابا من أنصار الفريق يقدم عليه، فسأله وهو متوكئ على المكنسة:

-هل انتصرنا؟. رد عليه الشاب وهو يلوح بيده غاضبا متضجرا:

-لقد أوقف الحكم المباراة لما رأى دفاعنا متماسكا، وهجومنا نشيطا سريع التمريرات، وحارسنا يقظا كالجن، لما رأى كل هذا أيقن أن النصر لنا، فصفر نهاية المقابلة بحجة انعدام الأمن وقلة انضباط الأنصار في المدرجات، فدخل رجال الدرك الملعب شاهرين هراواتهم، وأيديهم تتحسس وتتلمس مسدساتهم.

-وهل كان شيء من ادعاء الحكم حقا؟

-نعم، لقد كنا هائجين مائجين –رد عليه وهو يحيي "منصورا" – نطبل ونزمر، ونهدد ونصيح، ونتوعد الحكم ومساعديه، رغم اننا لم نسجل أي هدف.. وأنت تعلم أن كل الذي كان منا محض ماء.

نفض "عمي صالح" المكنسة في الدرجة الوحيدة للباب، ليزول ما علق بها من غبار وأعقاب السجائر، ثم أسندها في الركن خلف المحسب، وقال لمنصور:

-أنت مجنون أم "مرابط" درويش؟ !.. لقد انتصر الحكم وألغى المقابلة.

لم يرد عليه بشيء، فليس من عادته أن يتحدث في مواضيع الرياضة، وإن كان يمارسها من حين لآخر، وأخرج ورقة من الجيب الخلفي لسرواله، وبسطها على المحسب، وكتب فيها:

"الجنون سلوك مجازي يخالف مألوف الناس ومعايير العقل الجمعي في تشكله التاريخي، أو لغة مجازية رمزية، لا يفهما الناس إلا عندما يقع ما يترجمها إلى لغتهم من أحداث ووقائع."

بعد هذا لف الورقة على شكل سيجارة، ونزع حذاءه، وراح يحك بها ما بين بنانه، لأن ما فيها لا يصلح إلا لذاك، ثم قال "العمي صالح":

-أقرضني خمسمائة دينار، وسأعيدها إليك كاملة حالما ترسل لي أمي المصروف.

-عار عليك أنك ما زلت تطمع في أمك.. شمر على ساعديك وكل اللقمة الكريمة، وقد أعطاك ربك من المواهب ما يجعلك في غنى عن الناس، بل ما يجعلهم في حاجة إليك.

رد قاس، لا يصدر إلا عن مشفق نصوح.. وليس فيه إلا الحق. والحق لا يخدش كرامة ولا يجرح كبرياء، إنما قد تكون لهجة "عمي صالح" هي التي جعلته يشعر بالإهانة، فرد عليه بألم عليه مسحة من غضب.

-لماذا لم تقل مثل هذا الكلام للذين لم يكونوا يملكون ثمن سيجارة وفنجان قهوة، حتى شمرت أخواتهم وامهاتهم وبناتهم عن أفخاذهن؟!. واغرورقت عيناه بالدمع، وقصد الباب ليخرج، ثم التفت إلى "عمي صالح" قائلا:

-لن تكون رجلا حتى تقول الحق، ولا يهمك في وجه من، وتقف مع الحق ولا يهمك ضد من.

-لا.. لا، إنما أنا، لكن، مسألة الحق حق، إنما لربما. وتركه يتلجلج في كلامه ويتلعثم لا يستطيع أن يقول الحق وخرج. إنما لربما مشى بضع خطوات، أقبل على نفسه يوبخها ويعنفها.. اللعنة !. لقد أخطأت وأظهرت التأثر والإحساس، وليس من المنطقي أن يشعر المجانين بالإهانة والإذلال.. وليس من حقهم أن تكون لهم حشرجة في الصدور وحزن في القلب ودموع في المآقي.. ليس من حقهم أن يكون لهم إحساس بالشرف والكرامة.. لا بد أن أعود إليه، فأصالحه بإظهار ما يصدق ظنه الآثم بي واعتقاده الكاذب في.

وذاك ما كان بالفعل، فقد عاد إليه، وأظهر أمامه من الفوضى، ما جعل "عمي صالح" يعتقد أن ظنه به غير آثم واعتقاده فيه غير كاذب. ورغم ذلك وجد نفسه مضطرا تحت تأثير خليط من العواطف الرقيقة أن يدفع إليه خمسمائة دينار، وليس هو أول من اقترض ولم يسدد، فأخذها وخرج وقد ضرب عصفورين بحجر، واطمأن –فوق هذا- إلى صدق ظنه في "عمي صالح" من أنه طيب رغم خبثه.

في الشارع وجد الناس قد وصلوا من الملعب البلدي الجديد، وانقسموا جماعات جماعات، كلها تشتم الحكم وتتهمه بالتواطؤ، وكان اللاعبون يتخايلون بين الجماهير بلباسهم الرياضي الأحمر، وكل واحد يشعر أن عشرات العيون تتمسح به، فيزيد في تيهه وخيلائه كالديك الرومي بين إناثه !.. كم يفسد الرياء ويزيف الذات. !

أما هو فقد مل هذه المظاهر الخادعة، رغم أنه كان لونا من ألوانها، وكره هذه المناظر الزائفة التي لا تدل سوى على أمة تفرغ كبتها في الفراغ، وتجلد ظل الزناة وتنتقم من زبد البحر !. تفاداهم جميعا وهو يشعر باحتقار لهم جميعا.. ولو كان الموت بيده لدراه عليهم؛ ولرآهم صرعى كالجرذان المسمومة.. ما أعظم الله !.. كم يصبر على ما يكره. !

لما تجاوزهم رأى جاره يفرغ شاحنة آجر مستخدما طفلين صغيرين، احدهما "ابن الهجالة"، والثاني لا يعرفه، فعرض عليه خدمته فقبلها على مضض، بعد الانتهاء من التفريغ، أعطى "ابن الهجالة" خمسين دينارا، وللآخر مثلها، أما هو فلم يعطه إلا عشرين دينارا، أضافها إلى أجرة "ابن الهجالة" (أي بلال)، ومضى في طريقه ينفض يديه من غبار الآجر، ويوقع بصفيره لحن أغنية قديمة، حققت لصاحبها شهرة كبيرة أول ما ظهرت

حياة هذا الشعب يضبطها المؤقت، ويحركها الموسمي، فالفن مواسم.. والتدين مواسم.. والسياسة مواسم.. أرسل قهقهة تجعل كل من يسمعها يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. لماذا؟.. هكذا.

لا بد من فعل شيء ما يخرج هذا الشعب من البلاهة إلى النباهة، ومن الضجيج الصامت إلى الصمت الهادر، ومن "فوضى الشيوخ" المرد والطفال الملتحين إلى حكمة الأنبياء والصديقين.

الشارع الطويل يغري بالسير فيه.. فيه أطفال يلعبون، وقطط تلف حولهم رافعة أذنابها، وفتيات عائدات من الثانوية في أحجبة رمادية وخمارات سوداء.. كان في إمكانهن أن يختصرن نصف المسافة إلى ديارهن لو مررن من وسط القرية، لكن هناك رجال جالسون على المقاهي وأبواب الدكاكين مثل أكياس القمامة !، وآخرون متحلقون حول طاولات الورق و"الدومينو" كما يتحلق الذباب حول العفونة. ومن حق هؤلاء الرجال ألا يروا ما يفتنهم ويفسد عليهم دينهم، وينقض إيمانهم الشفاف الرهيف.. وهل هناك من فتنة أشد على قلوب هؤلاء وأفسد لدينهم وإيمانهم من طالبات الثانوية إن مررن من هنا متحجبات كحمامات السلام:!

–تفوه.. يا أبناء الحرام.. برروا بالدين كل العقد. !

قالها وهو ينقلب على عقبيه إلى الدار، ليكمل قراءة كتاب شرع فيه منذ مدة، ولما صار قرب الدار تمنى من كل أعماقه أن يكون الأطفال قد صدقوا أن "شمهروش" خدعة وخرافة من بقايا الجاهلية الأولى.. عند هذا الحد قفز إلى ذهنه اسم "سيد قطب"، والجاهلية المتجددة، والمشنقة وهزيمة 1967 وغيرها من الأحاسيس المشجرة.

لم يدر كم استغرق من الوقت حتى قرأ أربعين صفحة من هذا الكتاب، هي فصل كله وبعض من الفصل الذي يليه.. هو الآن لا يعرف كم تكون الساعة، إنما عندما فتح النافذة لتهوية الغرفة من دخان السجائر وزهومة الحذاء والجوارب ألفى الحركة قد سكنت، والظلام قد أطبق، وأهل القرية قد آووا إلى بيوتهم إلا قليلا منهم، يحبون التسكع تحت ظلام الليل.. وما عن فلسفة أو حكمة يتسكعون تحت ظلام الليل. !!

شغل المذياع.. كان يقرأ بعض الأخبار، لكن أخبار أية ساعة؟ !.. حينها شعر بقيمة الوقت وقيمة ساعة تجعل حركاته وسكناته مضبوطة وفق حركات مجتمع وسكناته.. أحس بالجوع.. إذن الوقت وقت عشاء.. ليس بالضرورة.، فحتى الساعة البيولوجية خربها بفوضاه !.. مصارينه عقارب ساعة فوضوية، قد تطلب طعام الإفطار ظهرا، وطعام الزوادة على العاشرة ليلا، والعشاء عندما تدق الثالثة صباحا.

أغلق الباب خلفه، ومضى نحو مخبزة "عمي محمد"، وكله إصرار على أن يعلق آلة للزمن في معصمه كالناس جميعا.. كما أنه اكتشف أن الفكرة التي راودته منذ أيام، كانت فكرة حمقاء.

مر بمقهى موصولة بـ"البارابول"، فرأى أمامها حركة غير عادية؛ شباب واقفون وعلى أكتافهم كراسي، وآخرون ينادون على الذين في الداخل أن يحجزوا لهم أماكن قربهم، فتذكر أن هذه الفوضى لا تكون إلا عندما تعرض القنوات الفرنسية فيلما إباحيا، أو ما يشبه الفيلم الإباحي، ولا تستغربن إذا رأيت الآباء والأبناء والإخوان يتفرجون على مشاهد واحدة ولقطات واحدة..

فالآباء والإخوة الكبار يكونون في الصفوف الأولى، بينما يأتي الأبناء والإخوة الصغار في الصفوف الأخيرة، حيث الإضاءة خافتة جدا. ويتفرقون بعد الواحدة ليلا دون أن يصادفوا بعضهم بعضا، ليقوم الأخ الصغير بفتح باب الدار للأخ الكبير، وهو يتثاءب كمن قام من نوم عميق، وهو الذي لم يدخل تحت الغطاء !. ويقوم الأب ويهدد الابن بالطرد في جوف الليل، لأنه ضاع بمخالطة الضائعين والسكارى، وتهب الأم من نومها لاسترضاء الطرفين، لأنها تعرف كل الحقيقة.

ناس يرقصون في كل عرس، ويتبعون كل ناعق، ويصفقون لكل مهرج، ويصدقون كل كذاب، ويكترون سواد كل دجال، ويستقبلون في صلاتهم كل الاتجاهات، ويبكون قدام كل حائط، ويمجدون القاتل ويلبسون سواد الحداد على القتيل، ويبيعون القرد ويضحكون على من يشتريه، وفي الأخير لا يؤمنون إلا بما يشتهون.

هؤلاء بالضبط الذين تجدهم يتدافعون بالمناكب قدام أبواب المساجد، وحول أحواض المائضات، متأبطين سجدات صغيرة، هي من بركات "مكة" و"المدينة" —وإن كانت قد صنعت بالصين– هؤلاء هم الذين تراهم متجلببين في البرانس والعباءات الحجازية، تفوح منهم رائحة العطور المختلفة، الإخوة الصغار والأبناء في الصفوف الأولى، والإخوة الكبار والآباء في الصفوف الأخيرة، ويستمعون كما يتفرجون، ويتفرجون كما يستمعون !!.. ويخرجون وما علق بقلوبهم شيء، لأن القلب لم يعد فيه متسع لشهوات الروح بعد أن اكتظ بشهوات الجسد.

خرج من المخبزة متأبطا خبزتين كبيرتين دافئتين، وفي يده كيس بلاستيكي فيه سردين وزيتون وبعض المخللات. حتما سوف تمعده هذه الوجبات الباردة، فقد صار ساخرا منهم جميعا، وراح يتغنى ببيت شعر، ما أظن أن أحدا غناه من قبل:

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ولما دخل الدار وأضاء الغرفة، أقبل على الخبز بالسردين والزيتون المملح والمخللات، يأكل في شراهة وتلذذ، ويدندن بأغنية فرنسية تعبيرا عن سروره ورضاه، وربما تعبيرا عن يأسه وقنوطه. أي نعم؛ فقد يكون الضحك أحسن من يعبر عن الحالات القصوى للحزن، وقد تكون القهقهات الرعناء خير استجابة لحالة الألم القاتل. ولن يكون ذلك إلا لما تعجز الشحنة الشعورية في المعنى عن استيعاب شدة توتر الحالة، فينتكس التعبير الإنساني إلى الضد.

ثم ضحك حتى طار بعض الفتات من فمه، وقال وهو يمضغ الكل والحروف:

–فيلسوف !.. أما كفاك أنك مجنون؟ !. ومد يده إلى مرآة كانت أمامه على الطاولة، وراح ينظر إلى نفسه كيف يأكل، وكيف يمضغ، وكيف يتوقف عن المضغ ليبلع.. كيف تتحرك عضلات وتنقبض أخرى، وكيف ينتفخ حنكه ليصير قبيح المنظر، ثم قال كمن يحدث مؤاكلا:

–لو راقب المرء صورته وهو يأكل، لصار الناس جميعا يطفئون الأضواء، ويغلقون الأبواب والنوافذ حين يجتمعون إلى الأكل.

أدار الشريط من أوله، لتنطلق الأصوات المنكرة، التي توحي بالقبح والتشوه والرداءة.. تفطن إلى أن هذه الأصوات والاستماع إليها، ومحاولة فهمها قد شغله عن أمور كان يأتيها بين الحين والحين؛ فقد شغلته عن الاستماع إلى الأغاني الشرقية وتتبعها في الإذاعات، وشغلته عن الاستماع إلى الأغاني الفرنسية ذات المضمون الجيد، وصرفته أو كادت تصرفه عن الاستماع والإنصات إلى القرآن الكريم،

وهو الذي ألف الاستماع إليه حتى وهو في أسوء حالاته النفسية، فيجد فيه من الشفاء والرحمة ما لا يجد مثله حفاظه وشراحه والمسترزقون به، وما لا يجد مثله كذلك هذا الجيل الجديد من المتدينين، الذين يدندنون صباح مساء حول الكتاب والسنة، و"قال الله.. قال الرسول". وما الكتاب والسنة عند هذا الجيل، إلا أصوات مؤثرة، ومواعظ محلقة تجلد الأعصاب وتتهم الواقع.

صوت الدجاجة الواهي الضعيف، إن صور شيئا، فإنما يصور مواكب المتدينين المتماوتين في حركاتهم الرتيبة، وأبناء الحياة يتفرجون عليهم كأنهم يتفرجون على سلالات منقرضة، أو قادمين من كواكب أخرى، أو خارجين من قبورهم يتعثرون في أكفانهم.

ثم إنه جهر بخواطره هذه، لأنه من حين لآخر لا يكفيه أن يسمع صوت العقل وهمس الضمير، إنما يريد أن يسمع ذلك كله، وقد نفخت فيه الروح وانطلق من بين الشفاه.. وهل فينا أحد لا يحب أن يسمع صوته؟.

-كيف يبني ويشيد من يدمر أصالة الإنسان؟.. كيف يقدر قدسية الحياة من علموه أن رضا الله يكمن في إهانة الذات وإذلالها؟.. كيف يصنع الحياة من علموه أن الجمال فتنة تتقى، والفرح معصية ترتكب، والنظر إلى المستقبل بأمل غرور واستدراج شيطاني؟ -بعد صمت قصير أكمل كم يحدث نفسه- لو أن لي منبرا في ساحة مغبرة وغوغاء ورعاعا، أوزعهم على مربعات غروري كما توزع البيادق فوق رقعة الشطرنج !.. -بعد صمت قصير، واصل كمن يحدث نفسه- أنا كذلك موبوء وحقير مثل الذين أحتقر !. وسكت..

صوت الدجاجة الواهي الضعيف، يوحي بخيالات أولئك الخابطين في التيه، ويعكس ظلال أولئك الضالين الحيارى الذين يرفضون أن ينظروا إلى وجوههم في المرايا، حتى لا يعرفوا أنفسهم، ويرفضون أن يغسلوا الوسخ لئلا يظهر من تحته لون جلودهم الحقيقي.

الواهمون الحالمون الباحثون عن قطرة ماء في أعماق السراب.. عطش.. ظمأ.. تيه.. قلق.. خوف.. أمل يائس !!. وهم يتوكأون على عظام ضحاياهم، ويضربون في صحراء بلا نهاية، لأنها تمتد في داخلهم، ويحملونها في الحل والترحال، وحيثما يظنون أنهم أشرفوا على النهاية، تنبسط الصحراء أمامهم واسعة شاسعة، حارة ظمآى؛ تخاصر الأوهام في مداها السراب كالأشباح العجاف..

الضاربون بلا هدى خلف الأماني المهلكات، ولا يقين سوى الظنون. لفحت وجوههم مرايا البؤس في شمس الهجير، ولا ظلال ولا نخيل ولا عيون. قتلوا رسولهم قبيل الصبح.. أي قبل انطلاق العزف في عرس الغواية والمجون.

أولا عصا تستنطق الحجر الذي انطبقت شفاهه مثل أجفان العجائز عن عيون؟ الرمل يعوي والليالي السود: ماذا تبتغون؟

فتجيب بنت الطور: ماذا تبتغون؟

القمل والصئبان تفرش ظلها العطشان في شعر الجفون..

والضاربون بلا هدى خلف الضياع يرددون بلا حياء: -من نكون وهل نكون ومن نكون؟.

ونريد ربا غير رب العالمين.

ربا نسويه كذاك العجل من ذهب ومن ماء وطين..

من رعشة الأعصاب.. من عرق الجبين..

من كد كف الكادحين.

والريح تنقض في السما غزل الغمام.

والسوس يأكل في ظلام البؤس أوتاد الخيام.

والجائعون على ظهور الجائعات وراء خطو الجائعين يرددون.. ينددون.. يعددون:

متى يكون العيد؟؛ قد طال الصيام !؟.

لا شيء.. أثداء النساء تقرحت.. وظهورهن تقرحت.. وعيونهن بلا رموش، والشفاه مثل جلد الميتين.

وبطونهن بها جنين.

يا أيها الرب الذي نسف النبي ألا انبعث.. هذا رمادك في القلوب وفي الضمائر والعيون.

كن طيبا وتجل في رأس الطريق لأجل دمع الطيبين.

الشمس تنتزع الشوى، وسياطها صارت جلودا في ظهور السادرين.

ماذا يريد من السماء الحالمون التافهون؟.

الشوك يأكل من حفاهم، والدجى يمتص من نور العيون.

والتيه تلحسه المآقي الباكيات بلا دموع.. لم تعد تجدي الدموع ولا الأنين.

ماذا يريد من السماء السادرون، الصادرون عن اليقين، الواردون على الظنون؟.

اللاهثون وراء خطو السامري، يتقيأون زمانهم والرمل والريح التي أصواتها تعوي كإعصار الجنون !!

-ماذا يريد السادرون؟. كررها "منصور" بصوت قوي اهتزت له أركان الغرفة، ورمى الكتاب الذي كان بين يديه، بعدما تأكد من عنوانه.

قام من مكانه كأنشط ما يكون، -لأن الغضب من الحالات المحرضة للقوة والطاقة- ووضع المسجلة ولوازمها في الكيس البلاستيكي الأسود، وارتدى معطفا صوفيا، ولما صار خارجا بباب الدار نزع الخف النسوي واحتذى حذاء مطاطيا، وراح في عرض الشارع يبتعد قليلا قليلا عن الضياء الشاحب حتى اختفى في جوف الظلام، فلا تسمع أو ترى من شيء يدل عليه، سوى احتكاك الكيس البلاستيكي بالمعطف، أو وقع خطاه المطاطية على إسفلت الطريق.

لم يصادف أحدا، لأن كل الساهرين منشغلون بمشاهدة فيلم السهرة، فمضى في طريقه حتى انعطف يمينا ودخل أزقة الحي القديم.

هل تراه يريد دار الجدة "نعناعة"؟.. ولماذا بالضبط؟.. أنسيت؟، لقد سألها إن كان لديها ديك حسن الصوت، ربما يريد تسجيل صوته هو كذلك،.. شيء مضحك حقا.

ولكن أنى له ذلك؟.. يبدو أنك لا تعرفه جيدا !.. لا تخف عليه، إنه يحسن التلصص لأنه يعجبه، وهو دائما يفضل أن يمارس بعض الشقاوات الطفلية البريئة، التي قد تغضب بعض الوقت، لكنها تظل في ذاكرة الأيام نكتة تحكى، وطرفة ثقال ويتفكه بها الناس ويضحكون.

أنا لا أشك أنه يقصد دار الجدة "نعناعة".. وإنه ليستطيع أن يتسور الحوش ويقفز إلى رحبة الدار على رؤوس البنان، ويستطيع أن يفتح باب الغرفة بأنفاس مكتومة، ويستطيع أن يواصل الواصل الكهربائي بمأخذ التيار، ثم يصعد بمسجلته فوق السور، وله —إن كان دقيقا في عمله ومحتاطا– أن يعلق المسجلة قرب الغصن الذي يبيت عليه الديك.. أدري، قد يضطرب الديك، قد يخاف لكنه لن يطير. وحتى إذا سمعته الجدة "نعناعة" فلن تظن غير أنه رأى قطا أو ما يشبه القط فخاف. ويستطيع "منصور" أن يقضي ليلته ساهرا فوق السطح القرميدي، وليس مستبعدا أن يكون قد ارتدى المعطف الصوفي لأجل ذلك.

وبمجرد ما يبدأ الديك في صيحاته الأولى حتى يقفز إلى الحوش ليدس الواصل الكهربائي في مأخذ التيار، فيدور الشريط والديك يصيح، وقد يكون محظوظا لو يطلق الديك ثلاث صيحات أو أربع، ولنجعلها وترا فتكون خمسا أحسن. إنما في هذه اللحظات قد تستيقظ العجوز للصلاة.. ربما هي لا تستيقظ باستمرار، فقد صار النوم يغلبها، حتى ولو استيقظت، فإنه يأخذ المسجلة ويقفز هاربا في الغبش.. وله —إن أراد– أن يسحب الواصل الكهربائي بقوة، ويعود إلى داره ما خسر شيئا، بل ربح صوت الديك. !

قد تستيقظ العجوز وتفاجئه، وقد يفجعها فتنخطف وتستغيث وينفضح أمره، ويعتبرونه جاء ليسرق متاعها.. وأي متاع لديها يغري بالسرقة؟.. !

ولكن حتى إذا رأته، فإنه سرعان ما يقفز إليها ليسكتها بـ"شمهروش" وإخوان "شمهروش"، ولا شيء يمنعه أن يكشر في وجهها، ويخرج لسانه ويجحظ عينيه، ويقول لها بصوت أجوف عميق: "أنا شمهروش".. عليك أن تسكتي وإلا قطفت عمرك !.. يستطيع أن يفعل كل هذا، ومن السهولة بمكان أن تقتنع العجوز "نعناعة"، وتعود إلى فراشها وهي ترتعد وأسنانها تصطك، وشفتاها ترتعشان بسور "الإخلاص" و"المعوذتين"، وقد تزورها الحمى يوما أو يومين أو ثلاثة أيام.

كل احتمال تضعه في حسبانك يستطيعه، وكل خطة تتصورها يقدر عليها، وكل ما تعتبره ظنا ووهما يصير بين يديه حقيقة ويقينا.

وبعد هذا كله، يبقى ما كنا فيه مجرد تخمين ورجم بالغيب، لأنه يستطيع أن يسلك سبيلا أخرى لم نتفطن إليها، وأن يقصد هدافا آخر لم يدر في بال أحد.. إنما سوف نتأكد من كل هذا حين يرجع إلى بيته.. هذا إن رجع. !!

* * *

في ساعة الصبح الأولى كان يخرج من الحي القديم واهنا مكدودا، رآه بعض الذين لا تثقل عليهم صلاة الصبح من شيوخ وشباب، فظنوا به الظنون، وكانت سيئة مع الأسف، فتأففوا ومضوا لإلى المسجد، يدعو له بعض الشيوخ، ويدعو عليه بعض الشباب.

أما هو فما أحسن الظن بأحد ولا أساء، فالبرد أنهك مفاصله وجلده، وعيناه المثقلتان بنوم أحرش تجعلان اندفاعه في الطريق صعبا عسيرا، وكان لا يقطع من طريقه إلا بضع خطوات حتى يتثاءب بصوت مسموع يبعث على السخرية ويغري بالضحك.

ورغم الإنهاك الذي ألم به، فإن ذلك لم يمنعه من الانتباه إلى هذا الشذى الذي يلف القرية في غشاء شفاف، كما أعجبه سعال الشيوخ، وهو يخز الصمت الجاثم على الدروب والمنعطفات، وراقه كذلك ذلك الضوء الذي يتدفق عبر خشبيات مصاريع النوافذ، ويرتسم على الطريق فيدعم غبش الصبح وهو يتنفس مكابرا ومراغما تحت غرور الظلام.

وكم راق في عينيه مرأى أولئك الأطفال الصغار يحثون الخطى نحو المسجد في همة مؤمنة. ولكن بمجرد ما يجري عليهم القلم، حتى يفسد عليهم "الشيوخ" المرد إيمانهم الفطري، ويعكروا عليهم صفو براءتهم الطفلية، حين يريدون أن يجعلوا منهم أصواتا متلاشية في كومبارس الأتباع، ورؤوسا في قطيع المريدين، فيحملونهم ما لا تطيقه أعصابهم وأرواحهم من التنابز الفقهي، فيلبسون عليهم دينهم، وينكسرون تحت ثقل الضلالات السخيفة.

لما وصل داره استقبلته قطة بمواء واه ضعيف جائع، فرمى إليها بقطعة خبز ما زالت في جيب معطفه، ثم دخل الغرفة واستلقى على السرير دون ان ينزع حذاءه، وعلا شخيره قبل أن تنغلق عيناه.. لقد كان متعبا جدا، فقد يكون سرى الليل كله إن لم يكن قصد دار الجدة "نعناعة" كما راودتنا الظنون من قبل.

وهبه أراد ذلك، فقد لا يستطيع شيئا مما أراد، وقد يتعب، إذ أنه ليس من السهولة أن يفتح الباب، فقد يجده مغلقا بإحكام، لأن الشيوخ والعجائز لما يقتربون من الموت يبالغون في أسباب البقاء، فتكثر العجائز من الحديث عن الأطباء والحمامات المعدنية، ويكثر الشيوخ من الحديث عن النساء والزواج مرة ثانية. !!

وهبه استطاع أن يفتح الباب، فليس من السهولة أن يتسلق العريشة، ليصعد فوق القرميد، إذ من المستحيل ألا يحدث صوتا يوقظ الجدة "نعناعة" وينبه الجيران. وهبه استطاع ذلك —وما هو بمستطيعه– ألا يفزع الديك لما يقرب المسجلة منه؟.. وإن الديك الذي لا يفزع ديك خامل كسول، لا يعرف كيف يرحب بتباشير الصبح، ولا كيف يبشر بآيات الصباح !

ولنفترض جدلا أنه قد تيسر عليه كل ذلك، فكيف يعيد جمع أدواته والقفز من فوق القرميد وتسور جدار الحوش؟.. لن يستطيع أن يفعل كل ذلك دون أن يحدث ما يثير انتباه الآخرين.. اللهم إلا إذا كانوا كأهل الكهف، تحسبهم أيقاظا وهم رقود.. فأين قضى الليل كله إذن؟..

عندما يشغل المسجلة نعرف ذلك..

*　　　*　　　*

-أوه !.. يا له من حلم مزعج !.. ألا تكفيني كوابيس اليقظة؟ !.

قالها وهو يمد يده ليطمئن على الكيس البلاستيكي وما فيه.. كان ذلك وقت صلاة العصر بالضبط، وقد يكون صياح الأطفال يلعبون في الطريق هو الذي أيقظه، وقد يكون صوت المؤذن وهو يدعو الناس إلى الصلاة والفلاح. وقد تكون قرقرة المصارين هي التي أفسدت عليه نومه، ودست فيه ما شاءت من الوساوس والكوابيس. وقد يكون الشيطان هو الذي بال في نومته —كما تعتقد الجدة "نعناعة"– !.. إذا كان شيء من ذلك، فقد تمت المهزلة !

مشى حافيا إلى المطبخ —ويا طالما نصحته أمه ألا يمشي حافيا على الرخام– وتناول ما وجد هناك من الطعام. ثم دخل الحمام وصب على رأسه سطلا من الماء البارد، رد عليه شيئا من حيويته، ورد إليه بعض نشاطه، وأقبل بعدها كالفرح المسرور على المسجلة ليدير شريطها، فيدور على نهيق ونقيق وصوت دجاجة و.. يا للروعة !!.. مدهش !.. تسجيل مهني دقيق، لعل الله يريد خيرا بهذا الشريط، أعاد الشريط إلى الخلف قليلا ثم تركه يدور، رائع !.. إنه صوت التحدي.. كأنه صفارة إنذار أو جرس ذكرى في عالم النسيان.. إنه تمرد على الأصوات الواهنة الضعيفة.

يحدث القطع ويتوتر الإيقاع كالمارد ينفض عنه تراب القبور، ويلوح بقبضتيه صارخا: إني هنا أعداء الحياة.. توتر يصور حالة من فاجأه شيء رائع حبيب، كان ينتظره، صوت يكاد أن تمتد له أيدي، وأن تتكور له قبضات، ليهز أسرة النائمين.. صوت السهوة، ويمسح الوسن العنكبوتي عن العيون، وينضح بالصحو الوجوه الوادعة الغافية، ويفتح عيونها على الحقيقة الرائعة، لتنور بها التقاسيم والأسارير.

ثلاث صيحات كان ثمنها السهر والبرد والسهاد وخدوش في الساقين، لكنها واضحة صافية عليها من ندى الصبح البليل شيء قليل.. وأي ورد لا يؤلم شوكه، وأي نحل لا يلسع دون شهده؟. فالورد الذي توخزنا أشواكه يكون أزكى، والشهد الذي يلسعنا نحله يكون ألذ وأشهى.

ليس مستبعدا أنه سوف يسجل نباح الكلاب إن استطاع إلى ذلك سبيلا. وإن سبيله إليه لسهلة ويسيرة إن أراد. فما عليه –إن كان فطنا ذكيا– إلا أن يقصد "الفيلا" التي ملأت الفضاء طولا وعرضا في المدخل الجنوبي للقرية، فإن في ساحة مدخلها يربض كلب من سلالة ألمانية، ينبح الليل والنهار، خاصة لما يتحرش به الأطفال والعابرون.. عندها يكاد أن يجن من النباح، وقد زادته الوحدة توحشا وشراسة، لأنه ساكن "الفيلا" الوحيد. فصاحبه لا يأتي إليه إلا مرة كل أسبوع لما يأتي ليتفقد "الفيلا" ويتفقده ويحضر له طعامه وشرابه –وما أدسم طعامه وشرابه !– أو لما يأتي في عطلتي الربيع والصيف رفقة زوجته الفرنسية العجوز وأبنائهما، فيمكثون بها ما يقرب الشهر أو يزيد عليه قليلا ثم ينصرفون.

من السهل عليه –إذا تفطن– أن يأتي في ساعة من ليل أو ساعة من نهار، ليقف بالباب ويتحرش به ويهيجه، ومن الأفضل له ان يكون ذلك ليلا؛ ففي الليل تكون الكلاب في أقصى التوتر والانتباه، لأن الليل هو مجالها الطبيعي الذي تحس فيه الكلاب أنها قد صارت كلابا حقا.. وفي الليل يكون النباح أعمق وأصدق، وربما هي كذلك تحس ذلك.. لكأن الظلام هو الذي يحرك أوتار حناجرها.

وإن خطر على باله أن يسجل نبيب التيوس، فذلك سهل يسير. فما عليه إلا أن يتذكر اسم "عليوة الزوالي"، فأهل القرية يعرفونه جميعا، لا لعلمه أو غناه أو تقواه، إنما لبؤسه وشقاه؛ فله من الأطفال ثمانية إذا رأيتهم حسبتهم مشردين، وله زوجة ممعودة ومصابة بالصرع والحساسية.

وللعلم فقط، فإن كوخ "عليوة الزوالي"، لا يبعد كثيرا عن "الفيلا" السابقة، ولهذا فهو مهدد بالهدم وصاحبه مهدد بالترحيل، بحجة أنه بناء فوضوي. ولكن الناس يتساءلون بمكر: "لماذا لم تعرف الدولة أن هذا الكوخ فوضوي حتى قامت "الفيلا" بجواره.. ثم يقسمون بما لا يجوز به قسم أو يمين على أن صاحب "الفيلا" ذا اليد الطولى في إدارة الولاية هو الذي يريد أن يرمي "عليوة الزوالي" في العراء ليوسع حديقة "الفيلا"، وليمسح من وجه الفضاء الذي يحيط به ما يشوهه. وهم يقسمون –بما لا يجوز به قسم أو يمين–، لئن هدمت الدولة الكوخ ليجعلن عاليها سافلها. والله يشهد إنهم لكاذبون..

المهم، "عليوة الزوالي" هذا، يملك قطيعا من الماعز وفيه تيوس، وقد اتخذ له مراحا صغيرا قرب الكوخ، فباستطاعة "منصور" أن يسجل ما شاء، خاصة وأن التيوس قد شبقت واشتدت غلمتها، فهي طول الليل تنبنب. لكن عليه أن يعد للبرغوث عدته قبل أن يفكر في عدة البرد. وإذا حدث أن انتبه "عليوة الزوالي"، وجاء ليتفقد قطيعه، فما أسهل أن يهدئ باله بعشرة دنانير أو أقل، وإن شاء زاد عليها قليلا، فذلك أرضى له، وأطيب لخاطره، وأسكن لفزعه وخوفه إن خاف وفزع.

وقد انشغل الناس كثيرا بما جد من أمره، إذ صاروا لا يرونه إلا حاملا كيسه البلاستيكي، قاصدا به هذه الجهة او داخلا به هذا الزقاق. وقد يصادفه كذلك بعض المتسكعين الليليين والسكارى، فلا يحفل بهم ولا ينتبهون إليه؛ إذ أنه صار سليط اللسان منذ أن غطي على عقله، وصار وقحا، لا يستحيي أن يواجه أي واحد بحقيقة فيه يكرهها أو عيب فيه يحاول أن يستره جهده.. لأجل هذا صار الناس يكرهونه. باستثناء أولئك الذين لا يملكون ما يخفونه عن الناس من أمثال السكارى والمعتوهين، وما عساه يخفي الذي أبدى سره وهتك الستر عن عيبه وجاهر بمعاصيه؟. !

وللحق فإن الناس قد انشغلوا بالكيس البلاستيكي الأسود اكثر مما انشغلوا بحامله. فمنهم من يقول: ليس في ذلك الكيس إلا قناني أم الخبائث، قد أقبل عليها بكل شراهة، وانقطع لها بكل شغف، وسوف تحرق كبده، وتذهب بما تبقى من عقله، ولن تدعه إلا خرقة بالية على غبار الأرصفة. ومنهم من يقول: إنه صار يتاجر في المخدرات، فهو يطوف بها ويوزعها على الزبائن كل مساء. وليس صعبا

على الشيطان أن يغريه بهذه التجارة –كما يزعمون–، خاصة بعد أن يضرب له الأمثال بقوم كانوا فقراء فتسلقوا سلم الغنى بسرعة مدهشة، بفضل اللفائف والأقراص والحقن.

ولم لا يكون وكيلا لأحد "الأغنياء الجدد" الذين امتطوا صهوة الحرام، واختصروا المسافة والجهد إلى الربح الكبير والثراء العريض. وإنهم ليجدون على ظنهم هذا آيات وعلامات في "منصور" تؤكده وتصدقه، وهو أنه ظهر عليه هدوء وميل إلى الوحدة وإعراض عن الناس، وإيثار للصمت، وهو الذي لم يعرف إلا الفوضى والتطفل على كل الناس، والميل إلى المخالطة والمعاشرة.

إلى طرف ثالث يظن به ما هو أفحش وأوغل في الإثم وأبعد عن سواء السبيل، وليس مستبعدا أن يكون هو بريئا؛ إنما المستبعد أن نظن البراءة في "بقرات إبليس" !.. وإلا بماذا تفسر أن المصلين كثيرا ما يجدونه في غبش الصبح خارجا من هذا الزقاق أو ذاك الدرب، أو داخلا القرية من مدخلها الجنوبي منهوك القوى؟.. وماذا عساه كان يفعل هنا أو هناك، إن لم يكن يقرع أبواب الإثم ويتمسح بتلابيب الفواحش؟

أما هو فليس بغافل أن الناس قد انشغلوا به، وتفرقت بهم فيه الظنون السوء، أثاروا حوله الشكوك. وإنه لراض عن كل ذلك، مغتبط به أيما اغتباط؛ فيكفيه حسن صنيع أنه صرفهم عن أعراض كثيرة إلى عرض واحد ينهسونه وينهشونه غدوا وعشيا ولو إلى حين !

طافت برأسه كل هذه الهواجس والوساوس والظنون، وهو بين أغصان الليمونة يثبت المسجلة على أحد الأغصان، قبل أن تسرج قناديل السماء وتأوي العصافير إلى أغصان الليمونة إنه يريد أن يسجل زقزقة العصافير الصباحية، أو إن شئت قلت: الصلوات الصباحية، فما ينبغي لذاك الجمال كله إلا ان يكون صلاة !.. فكل مخلوق يفتح يومه بالصلاة ويختمه بها، إلا كثير من الناس.

دخل الغرفة وتأكد من الواصل الكهربائي، فوجده كما يحب ويريد، فرفع عينيه إلى صورة أبيه فرأى كأن شحوبا قد اعتراها بفعل الغبار، جعل نظرته تبدو حزينة، فأخذ إسفنجة مبتلة وورقة صحيفة، وشرع يمسح زجاج افطار حتى جعله صافيا نقيا صقيلا، فأرضى أباه، فتهللت أساريره وتنور وجهه ولمعت عيناه ببريق الرضا والامتنان، فاستلقى على السرير وراح يحدث أباه، أو صورة أبيه إن كنت قد نسيت:

–ابتسم.. ابتسم بشفتيك، فإن لم تستطع فبعينيك، فإن لم تستطع فبقلبك، وذاك أقصى ما تستطيع.. أحسك الآن تبتسم.. هل هذا صحيح؟ (بعد صمت قصير كمن ينتظر جوابا) أحسك يا أبي كأنك قد قلت: نعم.. هل هذا صحيح؟ (بعد صمت قصير كمن ينتظر تأكيدا أو نفيا) أحسك كأنك قد قلت: نعم.. صحيح. هل هذا يا أبي صحيح؟ (يصمت برهة من الوقت) أحسك يا أبي كأنك قد تضجرت من هذه الأسئلة، وصرخت في: نعم.. صحيح.. صحيح.. صحيح !!. هل هذا يا أبي صحيح؟. (يصمت قليلا ثم يواصل): أحس كأنك تكاد أن تنفجر من حماقتي المشاغبة، وتقول: صحيح !.. يا لك من ولد عاق !.. هل يا أبي هذا صحيح؟.

وبعد صمت قصير، يحس خلاله أن أباه قد كف عن مكاشفته بما يحس ويجد، فيقول له وقد غير مجرى الحديث:

–عندما كنت صغيرا كنت تلاعبني وتضحك، بل كنت تقهقه، هكذا أنبأتني أمي، لكنني الآن لا أنكر ابتسامتك رغم أنها محفورة في أعماق عيني، ولا أذكر ضحكتك رغم أنها مطبوعة في أعصاب سمعي وكويرات دمي. ولا اذكر قهقهتك رغم أنها بعض رعشات جسدي.

كان شيئا رائعا لو كان لي بعض ذلك، لأعيش عليه. لكني لست آسفا أن شيئا من ذلك لم يكن، إنما لا أريدك أن تنظر إلي شزرا او ترمقني باحتقار.. كلهم ينظرون إلي شزرا ويرمقونني باحتقار، فخالفهم أنت. وإذا فضلت أن توافقهم وآثرت أن تكون معهم علي، فافعل، إنكم لن تضروني قيد أنملة، لأن القمع والكبت والقهر لم يترك في نفسي وروحي شيئا لشيء.

بعد صمت قصير، عاد ليرفع عينيه في وجه أبيه، ويقول وعلى شفتيه ابتسامة فهمت شيئا مما يريد أن يقوله الكلب –حاشاك–؟. إنه يريد أن يقول: إن صوتا يدغدغ الصمت، وإن همسا يتثاءب تحت أعطاف السكون.. كأني أسمع وأرى يا مولاي فانتبه. لكأني أسمع أقداما تدق إسفلت الطريق أسرى بها العزم والهمة العالية.. انتبه يا مولاي، إنهم يعبرون صوب الفجر ليزيحوا عن ينابيع النور أطيان الظلام.. بل لكأني أسمع خفق النوايا بين دقات القلوب.

عودوا.. إلى أين أنتم ذاهبون؟.. ماذا تطلبون؟.. لا شيء قدامكم، فعودوا إلى نومكم كالآخرين.

نباح يريد أن يطمس صوت الديك أو يلغو فيه لئلا يسمعه الناس، ولئلا تسمعه الحياة الغافية، فتهب وتتدفق حبا وحبا وكرما وسنابل قمح وعافية.

هذا يا أبي صوت القوادين، باعة الضمير المسروقين حراس السارقين..

هذا صوت الذين يؤجرون أفكارهم للذي يدفع أكثر..

ورغم ذلك، لا بد أن تتدفق الحياة، صافية نقية، بريئة عذراء، فتغمر بالحب المنبوذين، وتلف في الدفء المقرورين أحلاس البرد. وتنتشل الضائعين وتعود بهم إلى عش السكينة وحضن الأمان. لا بد أن تتدفق الحياة وتملأ أفواه الجائعين بالخبز، وتنضح قلوب اليائسين بالأمل، ويروي حليب الشمس كل الأفواه العطشى، ويرطب كل الشفاه المتشققة الكاحلة، ولا يبقى نباح الكلاب إلا نكتة سوداء في ذاكرة الأحرار، وصدى متلاشيا تتقاذفه دور الأرشيف الرطبة.

آه يا أبي.. كم مرة تمنيت أن أكون –ولو لساعة واحدة– مثل سليمان النبي، أعرف منطق الطير وأبجدية الطبيعة.. ما أعظمني لو يكون لي ذلك، ولو لساعة واحدة.

ورغم أنه مسح زجاجة الإطار بالإسفنجة وورقة الجريدة، إلا أن صورة أبيه ما زالت تبدو شاحبة باهتة، كأنها تكابد هما نفسيا كبيرا، أو تقاسي ألما لا تريد أن تبوح به لأحد. وإن لم يكن هذا، فلا شك أن الأب قد مل من "هرطقات" الابن وتضجر من هذا التفلسف الرومانسي، وسئم من هذه الأحاديث السخيفة التي يلقيها عليه ويسوقها إليه كمن يدق مسامير في طبلة الأذن. !! حك "منصور" أرنبة أنفه، وقال لأبيه:

–ربما أثقلت عليك بهذا الكلام الفارغ، وهذه الزفرات التي تبدو لك جوفاء، إني أحس ذلك منك، وكأني بك قد ضقت بهذه اللغة التي لا رصيد لها في ذاكرتك.. فلك الحق أن تتضجر وأن تتضايق، فلست أرغمك على أن تشرب العسل إذا اعتقدت واقتنعت أنه صاب وحنظل.

ولكن –في نفس الوقت– أرجوك ألا ترغمني بتوسلات عينيك، أن أكلمك بلغة ناشفة الأوصال كمفاصل العجائز، مبحوحة النبرات كسعال المصدورين.

أرجوك ألا ترغمني أن أحدثك عن أنس ما زالوا كما تركتهم، يأكلون وينامون، وينافقون، ويقفون أمام الله بعد أن أوصدوا أبواب القلوب واطفأوا مصابيح البصيرة.

ثم، أتظن أن هذه الفسحة من الديموقراطية صادقة ودائمة؟ ستكون طيبا وجاهلا، يعني مواطنا صالحا إذا صدقت ذلك،.. إنها فخ دولة واستدراج سلطة ليتميز الناس، فتسهل التصفية..

وأنا يا أبي كأني مصاب بداء "المثقفين" العضال، لا قدرة لي على المواجهة، ولا طاقة لي بالحياة الخشنة، ويا كم أخاف أن أراني أتفيأ ظلال مشنقة يوما ما، أو أؤنس وحشة زنزانة رطبة، أو أرى دمي على إسفلت الطريق.. ربما أنا جبان، وليس عيبا الجبن في "المثقفين" !!.. ربما أنا مثلهم لي رغبة في أن آكل قوتي بالشوكة والسكين والقفازات الحريرية.

ربما أنا برجوازي صغير في جلد كادح، وزنديق في عباءة إمام، ومفسد أخدع الناس ببلاغتي وفصاحتي حين أتكلم عن الإصلاح، وقد أكون مستبدا متجلببا بالتواضع الزائف الرخيص، وداعية محترفا إلى سبل الشيطان، أتموه للناس في العباءة واللحية والسواك.. ربما أنا واحد من هؤلاء، بل إني أملك الغرور الكافي لأكون كل هؤلاء !!

لهذا كله، أرجوك أن تفهم الإشارة حين تضيق العبارة، وأن تسمع الصمت لما تعجز ذبذبات الكلمات، وأن تقرأ في فضاء عيوني ما يضطرب في خاطري وتشفق أن تبوح به شفتاي.

إذا رضيت بهذا فذاك، وإن أبيت فإني على أتم الاستعداد أن أسدل الستار وأطفئ الأضواء، وأذري على وجهك غبار البلى، وأعلن النهاية بطريقة عبثية لم يتوقعها أحد من الناس. !

ليس شرطا أن أنتصر، وأظهر قدام الناس واقفا على جثة عدوي، وأنا أنفخ في مأسورة مسدسي لأطرد ما بها من دخان. وليس شرطا أن تبدو أنت مجبورا سعيدا كأبطال الأفلام الهندية، وجهك مضاء ببسمة عريضة، وفي عينيك تتألق دمعتان للفرح كقنديلين في معبد.

ليس شرطا أن يكون هذا أو بعض هذا،.. سأنهيها كما تنتهي، ربما ببيضة فاسدة تنكسر على وجهي، وتجعلني لا أرى، فيعلو في القاعة الهرج والضجيج والتصفيقات الساخرة، وينهال البيض الفاسد أكثر، فيصير الركح زلقا، ويسقط الممثلون واحدا إثر واحد.

وربما تكون النهاية بهراوة أحد رجل الأمن تنزل على أم رأسي فتشجه، لأنني كنت وقحا وجريئا، وتجاوزت الخطوط الحمراء.. والخطوط عندنا كلها حمراء !..

ولم لا تكون النهاية كالتالي، وهو أني في قمة تأزم المسرحية أدرك تفاهة ما أقوم به من تهريج، وأحسن بوخز الضمير، فأغادر الخشبة دون انحناءة تحية أو إشارة اعتذار. نعم، كثير من المهرجين يصدقون ما يقومون به من أدوار، فتذوب شخصيتهم الحقيقية وتتلاشى، ويقعون فريسة للوهم الكبير.

أعرف زميلا لي من أيام الدراسة الثانوية، مثل في مسرحية دور "هارون الرشيد"..، ولما انتهى العرض، نسي اسمه الحقيقي وأسماء الناس من حوله وأبى أن يخلع العمامة والعباءة والقفطان، ومضى في الشوارع يحدث الناس باللغة العربية الفصحى، وما العربية الفصحى لديه إلا: "اضرب عنقه يا غلام.. اقطع لسانه يا غلام.. ارقصي يا جارية".. وما زال لحد الآن يعتقد أن كل الرجال غلمانه، وكل النساء جواريه، وكل السحاب، أنى أمطر فإن خراجه سيأتيه !

آه لو يعلم الناس النوايا الحقيرة الضئيلة التي تحرك هؤلاء الذين نسميهم "الكبار".. هؤلاء الذين يقتلون لتسعهم الحياة، ويسحبون الظلام على الناس ليبقوا وحدهم في بقعة الضوء، ويشرعون ما يجعل الناس لا تسعهم حتى جلودهم ضيقا وحرجا، ويكممون الأفواه ليصيروا أهل بلاغة وفصاحة وبيان.. والذي يعدو وحده يكون الأول دائما. !

أرأيت يا أبي؟.. إن كانت كل الدروب تؤدي إلى "مكة"، فكل الأحاديث عندنا تقود إلى أزمة الحرية؛ إذ لا حياة بلا إنسان، ولا إنسان بلا دين، ولا دين بلا حرية.

كلهم قتلة محترفون، فلماذا لا نحكم إلا الذين يطفئون الحياة بالهراوة والخنجر والرصاصة؟.. وما شأننا مع الاخرين الذين يكفنوننا في جلودنا باسم الدين والثورة والوطن؟. !

لا تصدقهم يا أبي.. فباسم الثورة كدسوا الثروة، باحتيال بسيط على الحروف كما ترى !.. وباسم الوطن نفخوا الروح في الوثن، وباسم الدين ألجمونا وصيرونا رؤوسا في "كومبارس" البلهاء، الذين لا يحسنون إلا ترديد وتمطيط كلمة: "آمين" خلف "الشيخ" إذا دعا.

كأنك تريد يا أبي أن تجرني –بحسن انتباهك وإنصاتك– إلى الخوض في ما لا أحب الخوض فيه.. رحماك يا أبي إنني جبان، ولي رصيد من "الثقافة الدينية" يؤهلني لأجلد أعصاب الناس المشدودة المكدودة بكلمات تسقط من بين الشفاه كالرصاصات الزائفة، وكأوراق الخريف الصفراء، وسأطيل في أدعية الاستفتاح، وأدعية تكفير المجلس، وأكون جريئا في تفسيق الناس، و"تبديع" (من البدعة) كل وجوه الحياة، لأكون أنا "الشيخ" !.

نظر في ساعته، ثم أطرق مفكرا، قبل أن يكمل مخاطبا صورة أبيه:

–طوباك أنك لا تظمأ ولا تجوع، ولا تستيقظ ولا تنام، ولا تفكر في غد، ولا تشعر بالرغبة الملحة في الثرثرة واللغط، وأنا –ككل المهرجين– أريد من الآخر أن يكون أذنا تشمع، لا رأسا يفكر ولسانا يوافق ويعترض.

يتوقف قليلا كمن يسترجع أنفاسه، ويحرك رأسه متعجبا من نفسه ويقول:

–ما أوسع براري الكلام.. والله لو اطاوع نفسي ما توقفت عن الكلام حتى يكل فمي.. كيف تكون الحياة لو أن كل واحد منا يحمل على منطقة من جسده عداد كلام، وتكون كل كلمة تقال بثمن؟ !.. حينها سوف تتغير خريطة العالم.

ثم إنه أغلق فمه بأصابعه الخمسة، وخرج يريد "مطعم السلام" ليتناول وجبة دافئة، ولكنه قبل أن يمضي في سبيله انحرف خطوتين يمينا حتى صار تحت الليمونة، وراح يرهف السمع ليسمع همس العصافير اللطيف كوجيب القلوب التي استفردها العشق. وفعلا، فقد كانت تشوش بأجنحتها –لعلها تفعل ذلك حين يغلبها النعاس وتكاد تسقط– وكانت تهمس همسا مبهما، كأنها تريد أن تطمئن إلى الذي عن اليمين أو الشمال، كما يفعل الطفل الخائف لما يريد أن يطمئن إلى يد أبيه، أو عنق أمه لما يسعفه الحظ وينام قربها في الظلمة الدامسة.

في مدخل المطعم وجد "ابن الهجالة" –أي "بلال"– يأكل لمجة، والصندوق الصغير مشدود إلى عنقه، ومن حين لآخر يمسح أنفه بكم معطفه البالي، وكان بطرته المتهدلة على عينيه يشبه أولئك اليتامى والطفال الفقراء، الذين برع في رسمهم فنانو عصر النهضة الأوروبية، خاصة عندما ينساب على جانبي وفضته خطان رقيقان أبيضان من المخاط البارد، ويكادان أن يشكلا في منتصف الشفة العليا نقطة مائية كاللؤلؤة الصغيرة، لو لا أن يدركها بكم معطفه البالي ويمسحها كما رأيت..

سأله "منصور" وهو يمسح على رأسه:

–كيف تحصل على لقمة الخبز بين هذه الكشاك الكثيرة، خاصة بعدما صاروا يبيعون "الشمة" والسجائر في المطاعم والمكتبات والمقاهي.. كيف تخطف دنانيرك من بين هذه الأيدي الشرهة للمال؟.

مسح أنفه بكم معطفه.. فهو مزكوم على ما يبدو، وأحدث حركة خفيفة برأسه ليرد الشعر المتهدل على عينيه، وقال:

–اسمع يا "منصور" كل شيء قد تنفع فيه الحيلة وينفع معه الحرص إلا الرزق والأجل، فالدينار الذي كتبه الله لي يستحيل أن يسوقه الحرص أو تصرفه الحيلة إلى جيب هذا أو ذاك حتى ولو كان الرئيس.

-من علمك هذا يا "بلال"؟

-أمي -أجابه "بلال"، - وهي تعلمت هذا من القرآن الكريم.

-صدقت أمك، وصدق من علمها يا "بلال" -قال له "منصور" متنهدا - إيه.. ما أعظمنا لو كان لأغنيائنا بعض قناعة فقرائنا، ولفقرائنا بعض مال أغنيائنا هيا معي.

وجذبه من يده إلى داخل المطعم، كعادته دوما حين يجد في جيبه فضل مال، ويصادفه على الرصيف فقير أو جائع أو آخر انقطعت به السبيل. وبعد مدة خرج وهو يصرقع أصابعه، ويوحوح من فحة الفلفل.

*　　　　*　　　　*

قبل أن يرفع الفجر لحاف الليل الثقيل عن وجه الصبح، كان هو واقفا إلى النافذة يتجسس على العصافير الغافية، ويعب من عبير الصبح وشذاه الممزوج بأريج الليمون.. مشنفا سمعه بالاستماع إلى تلاوة مباركة بتلاوة الشيخ "محمود خليل الحصري"..

بعد مدة مر شيوخ صوب المسجد، ومر آخرون يريدون وجهات أخرى، ومرت أرملة في الأربعين من العمر، تعمل في قاعدة شركة إيطالية لأشغال الطرق، كان هو من الذين انتشلوا جثة زوجها من تحت التراب، بعدما انطبقت عليه بئر كان يحفرها لصاحب المزرعة.

لمعت عيناه لأنه سمع عصفورة زقزقت، واتسعتا أكثر لأنه سمع أخرى تزجرها وتنهرها، وارتعشت شفتاه بابتسامة خفيفة، لأنه سمع ثالثة تزجر الثانية وتدافع عن الأولى، وسمع رابعة تتدخل للإصلاح بين الجميع، فأسرع إلى الواصل الكهربائي ودس رأسيه في ثقبي مأخذ التيار، ودار الشريط وبدأ موسم الفرح فوق أغصان الليمونة.. هنا قفزت إلى مخيلته صورة المطرب "فريد الأطرش.." وكانت العصافير فوق الأشجار تشبه تماما روضة أطفال يلثغون بالأصوات الأولى من حروف الأبجدية.. زقزقاتها كأنها فرحة الدهشة أو فرحة الانتصار.. ذهب الليل وطلع النهار وانهمر فيض الألوان على الأرض والسماء.. قد يكون هذا منها صلاة أو تسابيح أو غناء.. قد يكون. حسبه أنه لطيف ومبهج، وتلقائي وبريء، وهذا نشيد الحياة.

وكأن العصافير تتنافس أيها يسمع صوتها أكثر، فاحتدت الزقزقات واشتدت، وصارت موحية أكثر لمن يحسن الاستماع والقراءة والتدبر معا.

وقد كان شيئا ملائما تماما أن العصافير بدأت تطير، لتهدأ الزقزقات قليلا قليلا، فسحب الواصل الكهربائي، ليتوقف الشريط بفعل قطع خارجي مفاجئ، ليكون الرمز كامل الإيحاء..

ثم إنه قفز من النافذة، وتسلق الليمونة، وعاد بالمسجلة يضمها إلى صدره، كما تضم الأم ابنها لما يظهر تفوقا أو يحسن الإجابة، فيدخل السرور إلى قلبها.

وقبل أن يدير الشريط ويستمتع بالاستماع إليه، فضل ألا ينغص عليه ذلك شيء، فتوجه إلى المطبخ، وأحدث بالملاعق والصحون ضجيجا تافها لا لزوم له، لأن فطوره لا يزيد عن خبز بالزيت، وإن زاد فما يعدو حبة طماطم مملحة.. فما الداعي إلى ضرب الصحون بالملاعق والصحون بالصحون؟ !

ثم أقبل على الشريط يديره ويستمع إليه، وقد امتلأ الشارع بالحركة التي لا اتجاه لها، وبالنشاط الذي ماله من غلة ومردود، وذلك بعد أن غمر ضوء الشمس وجه القرية الهادئ الرتيب.. قريتنا لا تفرح بالحياة..

وما إن بدأت الزقزقات العذبة تقطع النباح الغليظ حتى تهللت أساريره ولمعت عيناه بنشوة الفرح، وافترت شفتاه عن ابتسامة كلها رقة وعذوبة.. كان يستمع بإعجاب، والأصوات تتداخل وتتشابك تشابكا سريعا كرعشة الأنامل الماهرة فوق مداسات "البيانو".

وما إن توقف الشريط حتى قفز من السرير، وضرب باطن كفه اليسرى بقبضة يمناه، وهو يهتف بانتشاء:

-الله !.. ما أروعها !-وأكمل يخاطب أباه- أما قلت لك: لا بد أن تتدفق الحياة؟.. إنه صوت التحدي، ليس شرطا أن يكون فخما ضخما مجلجلا.. حسبه أن يكون أصيلا عميقا.. إنه فعلا صوت البشارة والحياة.

ما أجملها من أصوات لم تعرف إلا البراءة، ولا تستطيع أن تكون إلا طيبة، ولا تصدح إلا بالحق.. ليس في عالمهم سادة مستبدون وعبيد يحقدون، ولا مكتنزون بخلاء وفقراء لصوص، ولا مترفون ومحاويج.

هل استمعت إليها مسرورة محبورة، لم يفكر أي منها في فرض صوته أو طريقته في التغريد، ولا في إسكات الاخر لأن صوته يبدو له غير جميل أو لا يروقه، كما يحدث في عالم الإنسان، لما يتحرك المعقدون والناقصون ليفرضوا على الناس رؤيتهم للحياة.

لن يحدث هذا بين العصافير، فالمشاعر متجانسة، والأحاسيس متآلفة، ولكل واحد مكانه من الغصن، ورفعته من الظل وفسحته من الحرية؛ أما الفضاء فهو مشاع. !

هل استمعت إليها تنادي على الخير وتتواصى بالمحبة؟..

إياك أن تظن أن ما سمعته فوضى من الصوات وخليطا من الأنغام، إن الانسجام بينها ليس كبيرا فقط، بل إنه دقيق جدا كذلك، كل منها يغرد في الوقت المناسب ويسكت ليستمع في الوقت المناسب.. وحده الإنسان يسكت أخاه ليكون الفصيح، ويضعفه ليكون القوي، ويقهره ليكون المهيمن، ويكبت أفكاره ليكون الألمعي اللوذعي، ويمحو ظله ليبقى هو صاحب الظل العالي.. ولما يظن أنه تمكن من ذلك كله، يغار من نفسه المستبدة فيحطمها ويموت.

هل استمعت إليها.. إنها لا تغير لغتها حسب المواسم والمواقف والفصول، إنما يغير لغته الطماع والمنافق والجبان؛ الطماع لما يطمع يجامل، والجبان لما يخاف يسترضي، والمنافق لما ينافق يتملق. أما العصافير فحين رضيت قنعت، ولما آمنت أمنت، ولما كملت عاشت بصراحة.

كل العصافير تعيش سعيدة، تفتتح يومها بالصلاة والتسبيح، لا يمنعها عن ذلك حر أو قر، ولا ألم وجوع، وتنتشر بعد ذلك تبتغي من رزق الله، لا يصدها سياج ولا يردها حراس، ولما تشبع لا يدفعها الحرص على الاستزادة، بل إنها تحط على الأغصان والشرفات وأسلاك الكهرباء لتمارس المحبة. ولما تموت، تموت وهي تشعر أن الله أعطاها فأرضاها، وأنها أخذت كل ما كان لها، بعد أن قدمت كل ما كان عليها.

وما يهمها كيف تموت؛ فوق غصن شجرة.. على قارعة طريق.. على حافة نبع متدفق.. بحصاة غادرة يطلقها ولد شقي، بفخ من آخر أشقى.. لا يهمها كيف تموت، حسبها أنها ما قصرت في حق الله ولا في حق نفسها والآخرين. عاشت كما قدرت لها الألطاف أن تعيش، ولما ماتت ماتت كالشمعة التي احترقت كل ذبالتها، وكالقناديل الذي غار ينبوع ضياه، وكالوردة التي ذوت بعدما شحب اللون وجف الأريج؛ فهوت بكل كبرياء لتصير سمادا لورود أخرى.

أو ليس هذا هو المجتمع الذي دعا إليه الرسل، وبشر به الأنبياء، وضحى من أجله الربانيون؟ !.. مجتمع تعيشه العصافير فوق ليمونة دون أن تسفك قطرة دم، أو تريق قطرة حبر، أو تنصب مشنقة، او تحاكم قلما حرا، أو تقمع رأيا وقناعة.

الحياة يا أبي ليس خطيئة، كما يقدمونها للطيبين، وليست مغامرة، ولعبة حظ لا لزوم لها. الحياة لا تتطلب شيئا كبيرا لتكون جميلة ومريحة، إنما تتطلب أن نتحرك فيها بحجمنا الحقيقي وأن نكون صادقين معها، لتكون صادقة معنا وتعطينا من اللذة بقدر ما نسبغ عليها من صدق.

سكت قليلا، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا، ويداه معقودتان وراء ظهره، ثم توقف في وسط الغرفة وراح يخاطب أباه بنبرة أسى:

-لكن هناك الملوثون الذين يزعجهم أن تكون الحياة صافية نقية، والظلاميون الذين تتأذى عيونهم من مرأى زخات النور وهي تتوالد عن بعضها بعضا في غير ابتداء أو انتهاء، والسدوميون الذين يستقذرون أن يصير الناس أطهارا، وهناك المنحرفون الذين لا يستقيم في عيونهم حتى صراط الله المستقيم..

هؤلاء جميعا هم الذين يقتلون العصافير ويسمنون الكلاب. ويزهقون الرواح ويزيدون في وحل المستنقعات ويغتالون فجر الأمل المرفرف في الحنايا والضلوع، ويخيطون الشفاه ويعترضون على الله أن خلق هذا الشق العرضي تحت أنوف الناس، الذي يطل من خلاله الإنسان من كهوف الأعماق كلمة صادقة وموقفا حرا وكبرياء لا تلين.. هؤلاء هم وباء الحياة.

سكت وظل يحدق في وجه أبيه، فرآه لا يوحي بشيء ولا يعبر عن أي شيء، بقدر ما يوحي بالملل والسأم والإعراض عن هذا الابن المهرج، الذي أفسد عليه وحدته وأقلق حكمة صمته. فهو داخل هذا الإطار الذهبي خلف هذه الزجاجة الباردة، مرغم أن ينظر إلى ابنه وأن يسمعه دون امتعاض. ولو كان يعلم أن صورته سوف يحدث لها كل هذا الألم لتصور مغمض العينين وفي أذنيه لفافتان من قطن أو كويرتان صغيرتان من فلين. ولو أنه كان يملك القدرة على الحركة لاستدار إلى الجدار. ولو كان يملك ذلك لم لا يفتح فمه أحسن، ويصرخ في وجه ابنه الذي صار ثقيلا بشكل لا يطاق:

-اسكت !.. رجوتك أن تسكت يا ولدي.. ارهقت أمك وتريد أن ترهقني، من أية عفونة عجن قلبك؟.. لماذا أنت فقط من بين أبنائي الذي اختار سبيل الضياع؟ !.. ما كان بودي أن تتنزل من صلبي نطفة تزعج الناس وتجعلني أشعر بالحرج بين الموتى.. أنت الوحيد الذي ينتابني الخجل حين يذكره القادمون إلى هنا..

رجوتك يا ولدي أن تسكت.. لا تخدعك ملامح وجهي الساكنة كالمرآة التي تقشرت فضتها وصارت لا تعكس شيئا، إنني أكاد انفجر ضيقا وانزعاجا.. فاسكت يا ولدي أو قيء بعض ما في روحك من مستنقعات اللغو. !

-لن أسكت –قالها ملوحا بقبضتيه في وجه أبيه كالغاضب المتحدي- أتتركني حتى أنسى لغة الناس وينفض من حولي الأصدقاء ثم تقول لي: أسكت؟ !.. لن أسكت.. وستبقى رغما عنك تسمعني، لم يعلموني كيف أحاور الأحياء، إنما علموني كيف أدفع ذباب السأم عن الموتى بمراوح الكلام الفارغ، وها أنذا أفعل.. أضحكهم وأسترضيهم. علموني كيف أكتب وصيتي في عامي الأول، وأبني قبري، وأظل بعد ذلك سبعين سنة على حافة القبر أنتظر الموت، كما تنتظر الجميلة فارس الحلام، وأبكي على خطاياي الوهمية، ولا أنقطع عن ذلك إلا لما أجدد كفني وحنوطي.

بأي وجه أقابل الأحياء وما انطبعت على وجهي إلا صفرة الموتى المفزعة؟.. !

أالآن وقد حفرت أسناني من كثرة الحديث عن الموتى والموتى، وساقاي ترتعشان وتصطكان من ذكر الرحيل إلى هناك؟.. !

ها أنت في قبرك، وأنا على حافة قبري، ولا بد عليك أن تسمعني، فلا طاقة لي بانتظار الموت في صمت ثقيل كالموت. أدمنت صمتك يا أبتاه، فلا تطردني إلى فوضى الناس وألقت ظلالك الرمادية الشاحبة فلا ترميني في شمس النهار..

خرج إلى شرفة النافذة، وراح يراقب المارة والعابرين، الذين تقودهم رغبات قد تكون مخادعة، وتسوقهم أهداف قد لا تتحقق.. إنما حسبها أنها حركتهم وجعلت لعيونهم غرضا ولخاطهم سبيلا وممشى.. وما الحياة إلا طموح وعرق يسفح في اتجاهه، يكفيهم أنهم لا يعانون قلق السؤال.. وهذا الذي يجعل الحمقى والمغفلين يقطعون حياتهم مطمئنين مرتاحي البال والضمير.

رأى شيوخا يدفعون نقالات لا تكاد تظهر تحت احمالها صرير العجلات، ورأى فتيات واثقات الخطى يتجهن صوب الثانوية، ورأى شبابا لم يجدوا ما يعملون فهم يلعبون "الضامة" على الرصيف، ورأى أربع عجائز منحنيات على عصيهن، لا شك أنهن يتجهن صوب مستوصف القرية؛ وبعد عشرين حقنة وستين قرصا ستخرج كل واحدة منكن شطأها، لتستوي شابة من جديد. !!

وكما رأيت، فإن الخلل واقع والعطب حاصل، وهذا الذي يجعل الحياة تتدفق في غير طائل، وهذا الذي يقلقه دائما، فعاد إلى الغرفة وراح يخاطب أباه بنبرة الشامت المتحدي:

-إنك لا تملك إلا ان تسمعني وتراني!.. وكأنك تود أن أسكت، ولن أسكت، لن أسدل الستار واطفئ النوار وانحني للمتفرجين محييا وألوح بيدي مودعا، حتى لو أرادوا هم أن يخرجوا فلن يخرجوا، فالأبواب مغلقة بإحكام، والحراس مأمورون أن يطلقون الرصاص على كل رأس يطل على فضاء القاعة.. قدري أن أحكي في ضجر، ومحكوم عليهم ان يستمعوا في ضجر، ويتفرجوا في ملل، وأن يصفقوا من حين لآخر ليوقظوا النائمين على أكتاف بعضهم بعض.. أدري أن أرضية القاعة صارت موحلة بالمخاط والبصاق الأسود واللعاب غير المستساغ الذي تفرزه الغدد لما تشعر بالغثيان.

وأدري أن فضاء القاعة صار كالمستنقع الطائر من دخان السجائر والأنفاس المتضجرة، ورغم ذلك لن أفتح بابا ولا نافذة..

إني السيد في القاعة..

وأنا الآمر والناهي..

وأنا الملك المملوك،

وأنا السفاح هنا ودمي المسفوك

وأنا الشاه وأكرم بي من شاه. !

سيفي لسن كسيوف الشرق يذوب حياء في لحم العنق..

وسياطي تعرف في ظهر الشعب جميع الطرق..

وأنا الديك الرومي هنا، والشعب دجاجات عن سهوه —وافرحي– ساه

والشعب ظلال حذائي مرميا، وأنا وحدي ظل الله

وأحس كأن لحونا من شفتيه تتدفق، وكأن رؤى من تحت لسانه تنبثق. سكت قليلا ومد يده إلى جبينه كمن يريد أن يمسح العرق، قد أثقله العرق !.. ثم نظر إلى صورة أبيه كمن شرد فكره في أقاصي الأبدية، او ذابت روحه في جمال الملكوت، ثم أعاد الشريط من اوله ليسمعه مفتتحا بالنهيق.

لم يكن يتصور أنه سيدخل المراح بكل السهولة تلك، ولم يكن يظن أنه سوف يخرج منه بنفس السهولة تلك. ولم يدر بخلده مطلقا وهو يخرج من داره أنه سيقضي مهمته بكل ذلك التوفيق والنجاح.. لكن يأبى الحظ إلا أن يبقى حليفه.

كان يظن أنه بمجرد ما يفتح باب المراح أو يقفز السياج، بمجرد ما يفعل ذلك حتى تهجم عليه التيوس لتنطحه بقرونها المعقوفة، وتدوسه بأظلافها الحادة. لكن شيئا من ذلك لم يحدث؛ فقد كانت التيوس منصرفة إلى غلمتها تلبيها وإلى شهوتها تشبعها وتقضيها، وكان العناز وصغارها مستسلمة لهذا القضاء، مشفقة من هذا النبيب المنكر الذي تصدره التيوس في أدبارها، وهي تلكزها بأظلافها الحادة الوسخة.

ولو أنك تسمع نبيبها هذا من بعيد، فإنك تجزم أنها تردت من شاهق، أو غارت بين أضلعها طعنة قاتلة، وإنها بذلك لتبعث على الضحك الخجول، بينما هي لم تستح ولم تخجل وهي تنغص على القطيع ليله ونهاره في سبيل شهوة عابرة.

أدرك أن التيوس ليست سوى صوت أجوف، ومضى في طريقه متجلببا بالظلام، وقد تملكه العجب من أمر الماعز كيف قلدت أمرها هذه الأصوات الجوفاء.. ابتسم وقال بصوت يسمعه أي واحد يكون في هذه اللحظات يمر متجلببا بالظلام:

-إنها تأثرت بالماعز البشري فقط؟

لما اقترب من العمود الكهربائي الذي اعتاد بعض البطالين الأشقياء أن يشربوا الخمر تحت ضوئه الأصفر، رأى أربعة شبان مخمورين، ثلاثة يصفقون ويغنون ورابعهم يرقص.

أراد أن يعرف الراقص والمصفقين، فراح يقترب أكثر كالمتلصصين.. آه !.. يا للعجب !. إذن فالإشاعة التي سمعها من قبل كانت صادقة.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لقد تخفف من عباءته الحجازية وخفه الجلدي، ودخل في سروال "جينز" وقميص نصف الكم، يعني –بلغة القديمة– لقد تبرج.. !

أما المصفقون فسكارى قدامى يعرفهم جميع الناس، كأنهم يرحبون به في شلتهم. إذن لقد صدق الناس حين تحدثوا أن "باباي كا جي بي" قد اختلف مع "الشيخ" في شأن مرتكب الكبيرة، فـ"الشيخ" يرى أنه غير مخلد في النار، بينما يرى "باباي كا جي بي" أنه مخلد في النار.. واجتازهم وتركهم يصفقون وهو يرقص مخمورا، ولم يفاجأ أن تكون عاقبته مؤسفة هكذا، فبدل أن يعلموهم التوحيد علموهم التثنية، وبدل أن يدلوهم على خطى الرسول دلوهم على خطى "الشيخ" وبدل أن يجعلوهم رجالا احرارا صيروهم قوادين بامتياز !

إذن صدقت الإشاعة، واختلف "باباي" مع "الشيخ" وهو الذي ما طر شاربه بعد، ولم يجلس إلى طاولات التعليم والدراسة إلا أربع سنوات في ابتدائية القرية، قبل أن يطوف به طائف ذات مرة، فيجعله منبوذا من العقلاء ومنبوذا من المجانين.

وسوف تصدق كل الإشاعات في قابل الأيام، بعد ان انهارت حصون القيم أمام طيش الصبية ونزق المجانين، الذين ظنوا أنهم صاروا زبيبا وما كانوا عنبا.

إذن، لقد صدقت الإشاعة !.. مشهد كاد أن ينسيه نجاح مهمته، فهو –وإن لم يكن على علاقة طيبة مع الله على الدوام– لا يرضى أن تسوء علاقة الناس بالله، ينكرون أفضاله ويجحدون آلاءه ويقصرون في شكره.

لما دخل داره كان جائعا وحزينا ومطعونا في العمق، ومع ذلك لم يجد الرغبة في أن يبحث في المطبخ عن أي طعام يسكت به هاتف الجوع. ولم يجد الرغبة في أن يبحث في أعماق نفسه بكل ما اختزنت عن دواعي الأمل وبواعث الفرح الجميل.. لقد آثر أن ينام جائعا

حزينا كمن يريد الانتقام من نفسه. استلقى على السرير وراح يفكر في عاقبة "باباي كا جي بي" وأمثاله من الذين يحشونهم بالأهواء الحقيرة، والرغبات الدنيوية المتسربلة بالدين، وظل يتقلب على أشواك التحسر والألم حتى نام.

وفي الصباح استيقظ كما يستيقظ الآخرون.. بدون مقدمات وجد عينيه تنظران واذنيه تسمعان، وفي عروقه تسري حرارة الحياة ورغبتها.. وكالآخرين وجد نفسه يفتش عن ماء وصابون ليغسل وجهه وأطرافه، وعن طعام ليأكله. لكنه اختلف عن الآخرين في كونه لم يخرج من بيته إلى حيث يبيع بعض العرق لقاء أجر معلوم، يكون منه الغذاء والكساء والدواء، وتقضى به مآرب أخرى. لم يفعل هذا كالآخرين، إنما جلس إلى طاولته ليدير الشريط من أوله ثم يستمع باهتمام. إنه يعلم أن تسجيل هذا الشريط قد صرفه عن الناس وألهاه، لكنه صرفه وألهاه عن فراغه كذلك، وشغله عن تسكعه الليلي والنهاري، وجعل له هدفا حتى لو كان تافها وحقيرا، حسبه أن يسعى إليه كالآخرين، ويبذل في سبيله عرقا وجهدا. ولما بدأت الزقزقات تنطلق من الشريط كأحسن ما تكون نقاء وصفاء، حينها استجمع كل مشاعره وقدرته على التركيز، وراح يستمع ببلا غ الاهتمام، منتظرا اللحظة التي يقطع فيها النبيب الزقزقات.

رائع !.. فجأة علا النبيب قويا أجوف مغرورا.. إنه سعار الغريزة يخنق تسابيح البراءة، هذا صوت من يظن أنه حين انتفخ وانتفج قد هيمن.. إنه جنون الموج يعلو مدعوما بالملح معمما بالزبد.. لكنه سرعان ما يتبدد ويتلاشى في مسامات الرمل وتجاويف الصخور، التي لا دور لها سوى تكسير الموج إذا عتا وفضح الزبد إذا اختال وتاه.

هو هوج الريح يغريه انسحاق الأعشاب بمغالبة السرو والسنديان.

هو دمدمة الرعد يريد أن تخشع له كل الكائنات، لكن سرعان ما تمتصه الوديان والشعاب ليصير مجرد ذكرى سيئة.

هو خوار عجل "سيناء" الذهبي ينساح في قلوب أوليائه رهبة وخشوعا فيسجدون. لكنه لا يخدع الأنبياء، فيضرمون في زيفه نار الحقيقة، ويجعلونه رمادا تذروه الرياح المختلفة الهبوب، ليتوه عباده وصناعه في كل اتجاه، يبحثون عن منفى يحضن ظلالهم المكدودة، وعن قبور يولمون فيها أجسادهم للدود، ثم يصيرون سمادا لنوار وأزاهير أخرى تبهج الحياة، وتغري العصافير بالزقزقة والفرح.

ودون أن يلتفت إلى أبيه راح يكلمه كأحسن ما يكون الصديقان، حيث ترفع بينهما الكلفة:

-أبتاه.. ما أظنك تعرف هذا الصوت، لأنك تحسبه نبيب تيوس هاجت غريزتها..

لا يا أبي.. هذا "براح" المنايا العور.. ومؤذن البلايا الأصم القبيح.

هذا زفير السوط وخشخشة الأغلال، وصرير الأبواب الحديدية الصدئة، ورائحة الرطوبة في الأقبية الباردة الصامتة، لو لا قطرات العفونة التي تقطر من سقوفها في رتابة قاتلة.

هذا صوت الوحش المسعور الرابض خلف جلد الإنسان، يتملص من قيوده وأغلاله..

أرأيت كيف تموت العصافير، وتنفض مرعوبة في كل اتجاه، تاركة ورائها زقزقاتها مزقا وأشلاء معلقة على الأغصان، متعفنة كقرابين إبليس.

هكذا تصوح مواسم الفرح، وتغدو هشيما تنفخ فيه الريح، لتخرج شطأها مواسم الأحزان، ويظهر طلع المواجع المشؤوم !

فالآن تسوق زفرات الصدور سحابات الدموع إلى سماوات العيون لتسقط الأمطار وتهتز الأرض وتربو، وتنشق عن قبور جديدة لراحلين جدد، يطرقون بوابات الجحيم عن جدارة واستحقاق..

هذا صوت من يقهر ولا يقنع، ويتسلط ولا يحكم، ويطغى ولا يعلو، ويتجه ولا يصل، ويأسر الأجساد لتنفلت من بين أصابعه الأرواح، ويخضع الهامات لتنتصب الهمم في أروع كبرياء.

لما توقف الشريط تنهد، وقام إلى شرفة النافذة مستروحا، فرأى الناس في غدو ورواح، كما كانوا في الأمس وقبله، وكما يكونون غدا وبعده.. فحياتهم فيلم ممل متآكل الحواشي، كل يوم يعاد عرضه، وينتهي بنفس اللقطة العبثية: يأتي الظلام، تهدأ الحركة، وفي غفلة منك تكون الشوارع خالية.

صرقع أصابعه قبل أن يغلق المصراعين الداخليين للنافذة، فرغم أن الجو خانق داخل الغرفة بفعل دخان السجائر، إلا أنه يؤثر ذلك على الضجيج الأجوف الذي يقرع الأسماع دون حياء، فيعده البعض كبر ملاحم، ويراه آخرون أورادا وترانيم، وترى فيه طائفة ثالثة صلوات وتسابيح يقرعون بها باب الله، وما هي في الحقيقة إلا ضجيج أجوف ودندنات فارغة بلهاء.

عاد إلى مكانه من الطاولة، وراح يتصفح كتبا ومجلات قديمة في قلة اهتمام، كأنه لا يريد أن يقرأ فيها أي شيء، ثم كعادته التفت إلى صورة أبيه مبتسما كما يبتسم الأطفال حين يهمون بالطلب والسؤال:

-أشعر يا أبي أنني في حالة غير سوية، فقد أدمنت الحديث إليك، وصار جزءا من شخصيتي، وشهوة كبرى تبحث عن التلبية والإشباع.

لقد زهدت في الحديث إلى الناس، ولقد أعرض سمعي عن ضجيج الحياة، وهي تدفع أبناءها إلى الأمام طوعا أو كرها. صرت عندما أنظر إلى الشارع المتدفق ضجيجا وفوضى وحميميات أخرى، عندها أشعر بالدوار، فأغمض عيني كي لا يتحرك العالم، وأسد أذني كي يتوقف الضجيج والفوضى، ويؤوب العالم طوعا أو كرها إلى السكون والسكينة والهدوء؛ فأجد ذاتي تتجمع من جديد، كما تعود الأوراق المتطايرة إلى الأرض بعد هدوء العاصفة.

تعجبني أنت أيها الصامت المتكلم..

تعجبني أيها الأبكم الناطق، والبصير البصير، والثابت المتحول،

تعجبني أيها القابع في ظلال هذا الإطار الذهبي المزخرف.. إني أستودعك كل الأسرار، فلا نور إلا ما شع من عينيك الساكنتين، ولا نشيد إلا ما ترنمت به شفتاك المطبقتان، ولا حكمة إلا ما قال صمتك.. ربما يا أبي آلمك قولي: إني جبان.. نعم وأكررها: إني جبان بمفهومكم، لكنني مواطن طيب مسالم، لست على أحد مع أحد، أملك الكثير من مبررات الحياة، ولهذا لا أرى جدوى كي أموت.. أرى الحياة ليست بعيون في رؤوس الآخرين..

إنني أملك الكثير من الآمال أستطيع أن أحققها لما أصير ذيلا للآخرين، أو رأسا للذين يطمحون أن يكونوا الحاكمين، ولاغم هذا لا أريد أن أكون قطعة غبار لهؤلاء أو أولئك، أو قناعا يرتدونه حين يريدون ارتياد المناطق الخطيرة. فالأرض أوسع، وفيها أكثر من عرش وأكثر من تاج، وفيها من دفء الشمس ما يغني عن حرارة الحقد والحسد، ولست قزما حتى أضطر إلى استشراف الحياة من فوق أكتاف الآخرين، وإني لأملك صوتا متميزا، يغنيني لأن أضطر معه إلى إسكات الاخرين كي يسمع الناس صوتي.

التيوس فقط هي التي تحسب ظلها من طولها، وصداها من صوتها، وما في بطنها من قذارة من وزنها. (بعد صمت قصير، كان خلاله شاردا).. ما أعظمني يا أبي لو كنت أخاطب الناس كما أخاطبك، وأسمعهم كما أسمعك وأسمعك..

هذا أنا كما تراني، خلف ثلاثة أبواب موصدة، بل أربعة، ومن ورائها جميعا أخاطبك وأسمعك أيها البعيد القريب.. ولا شيء يربطني بما وراء هذه الأبواب إلا ما تقتضيه الضرورة البيولوجية.. لقد قنعت بالنظر في عينيك، وتملي ذكريات مواسم وجهك. ورغم ضياعي فأنا أعتبر نفسي أهدى الناس، ورغم فقري فأنا الأغنى بذكريات الرنين في جيوبك، ورغم جوعي المر فقد بشمت من خيرات بيادرك التي كانت.

في هذه اللحظة بالضبط سمع طرقا متتاليا على الباب، فأسرع ليفتحه، فإذا به يجد "باباي كا جي بي" ماثلا أمامه، قابله بابتسامة صفراء ما دعت إليها ضرورة.

–السلام عليكم.

–وعليكم السلام ورحمة الله –رد عليه "منصور"– ماذا تريد؟

أخذ يتلعثم في كلامه، وراح يتلفت كمن يخاف أن يفاجئه أحد أو يراه..

–ما بك؟.. مالك؟.. هل جرى وراءك أحد فجئت تستجير؟.

–لا.. لا، أخاف أن يراني أحد أتباع "الشيخ" الضال.. لقد أوصانا من قبل ألا نكلمك.

–ماذا تريد بالضبط مني.

أشار إليه أن قرب رأسك، ففعل "منصور" ذلك على مضض، فراح "باباي" يهمس في أذنه، ليستوي "منصور" بعد قليل واقفا وقد أربد وجهه غاضبا، فراح يزجره وهو يشير بيده إلى الباب.

–أخرج !.. اذهب أيها الوقح !. شيوخكم قبل أن تطر شواربكم، لتصيروا زنادقة على أبواب الثلاثين. ثم صفق الباب في وجهه بشدة، فانقلب "باباي" على عقبيه وهو يكاد يتعثر من الخجل وسوء الاستقبال والشعور بالخيبة. فالذين أرسلوه إليه غدروا به وغرروه، حين قالوا له: "إنك بمجرد ما تطرق الباب حتى تدخله، وما إن تدخل تأخذ ما يروقك دون اعتراض منه، وإن اعترض فما أسهل أن تخادعه لتسرق منه ما تشاء، فكل شيء قابل للبيع هذه الأيام.

أما هو فحين سكت عليه الغضب شيئا قليلا، أحس ببرودة فانتبه فألفى نفسه حافيا، حينها تذكر أن أمه كانت دائما توصيه ألا يمشي حافيا على البلاط البارد:

–بل أمشي عاريا فوق شظايا الزجاج وبين الشوك الذمام!.. فليس من الشرف والتذكار الجميل أن يعرف القادمون أني تواطأت ورضيت بالعيش في هذا المجتمع المنافق.. وليس من المروءة أن يكتب التاريخ أني كنت رأسا في هذا القطيع !..

تفوه !.. لا يخلصون في طاعة، ولا يتقنون معصية ولا يتجملون في نفاق !!.. سأمشي عاريا لتنهشني جميع الأوبئة، فلا شيء يغري بالبقاء هنا، ولا شيء يرد للحياة قدسيتها ويحفظ لها عذريتها.

سأمشي يا أمي عاريا حافيا فوق المسامير الصدئة والحصى المسنون الجارح.. جاء يسألني أين تباع الخمر ابن الحرام !.. ها أنذا في الثلاثين من العمر وما زلت مأخوذا بدهشة الميلاد، ومفجوعا بقطع الحبل السري، بينما هو خلال عشرين سنة استطاع أن يولد وأن يعيش ويجن ويعود إلى عقله –أو هكذا أوهمه المستكثرون من المريدين والأتباع– وأن يؤمن ويناقش إيمان الآخرين، ثم يتزندق ويعاني

القلق الوجودي، ويختار الخمرة ملجأ من القلق ومنفى !، ليعيش ما تبقى من عمره على هامش الحياة كسلة نفايات، تفوح منها الزهومة والروائح الكريهة..

علموهم أن يصيروا كبارا دون العشرين، ليقضوا بقية عمرهم أطفالا مراهقين.

دخل غرفته وقد كان في الرواق، واستلقى على السرير منتفخا غضبا، وشرد بفكره في البعيد، وسبابته عن غير قصد منه أو شعور تداعب وفضته، وتفرق عنها شعر الشاربين، الذي من عادته أن يحلقه فهو لا يحب أن يكون "خوانجيا" باللحية والعباءة، ولا يحب أن يكون ليبيراليا بالبطن المنتفخ والوجه الأملس الحليق، ولا يساريا بسروال "الجينز" والنظارة الدائرية البيضاء والشارة الحمراء. إنه يريد أن يكون إنسانا في عين نفسه قبل أن يكون أي شيء آخر في عيون الآخرين..

مد يده وضغط على الزر لينطلق النهيق والنقيق، وعيناه مركزتان على صورة أبيه ذات الجمال الهادئ والنظرة التي توقف زمنها منذ عشرات السنين، فهي كالساعة المعطلة تماما.. فقد أطلق ابتسامة صغيرة رسول استئذان وقال:

-أبي.. يا من صرت أبي لأنك ابن جدي وحفيد أبيه.. أنا وأنت في غرفة مغلقة في بيت مغلق، في حديقة مغلقة، في قرية مغلقة، في بلد مغلق، ما يفتح كوة على الزقاق إلا ليغلق فوق رؤوسنا سماء بكل ما فيها من زرقة ونجوم..

ها أنا لا أعرف من فضاءات سوى ما احتزنت عيونك؛ ففي فضاء عيونك أكون صقرا، وأكون عصفورا وإن شئت كنت ذبابة !.. أي نعم، قد أمل وقد أضيق، لكنه قضاء الله وقدره، بل حاشا لله.. إنه قضاء الناس وقدر التاريخ.

قد تتساءل ما الذي يعجبني في هذه الأصوات المنكرة.. فأجيبك: لأنها لا شيء فيها يمكن أن يعجب الآخرين، ثم لأنها وجدت ما يشاكلها في نفسي.. من زمان وأنا أشعر أن كل المجاري تصب في، وأن كل أشواقي في قبضة الكبت، فصرت مستنقعا ذا عينين ولسانا وشفتين، يمشي على قدمين..

في كل يوم أشعر أن داخلي ينهار نافذة إثر باب، بعد مئذنة وجدار؛ فأنا الآن خرائب وأطلال، تأوي إليها الفئران والجرادين، وتردد عليها الغربان ما شاء لها تشاؤمها، وعلى جدرانها المتهاوية ترثي البوم أهلها الراحلين كلما جن الظلام..

ولدت بربيع سرمدي، عشقته بأحلام وردية، ضمخته قبل العشرين بوجوه الصبايا، لكن الأيام أرسلت عليه إعصارا فيه نار فاحترق، فلم تبق إلا أشواك الذكريات، تخزني كلما فكرت في أدنى حركة.

أنا لست رومانسيا يا أبي أتلهى باستعراض تاريخ الأحزان وذكريات الشقاء، ولست ساديا أتلذذ بتعذيبك وتشريح الجراح المتعفنة.. ولست مازوشيا أبحث عن اللذة بكي جلدي، ولست نرجسيا أذوب عشقا في مغازلة تقاسيم وجهي وقد داستها حوافر الخيل.

يتوقف عن الحديث، يشرد بفكره بعيدا، تذبل عيناه أكثر، لا شيء يتحرك فيه غير سبابته تفرق شعر شاربيه عن وفضته، ثم يواصل كلامه، وقد صار صوته حادا نوعا ما:

-لا.. سأعترف ولن أفر من وجه العلة المأساة.. إنني رومانسي مريض، أتلهى باستعراض تاريخ الأحزان وذكريات الشقاء ونشر ملاحم الدم على حبل الأيام كي تجف من رطوبة النسيان.. ولا شيء غير الدم.. دم على ورق المصاحف.. دم على أعمدة المحاريب.. دم على رمل الصحراء !.. لا شيء غير بطون مبقورة وأكباد ممضوغة، ورؤوس الأطهار يتقاذفها الأوغاد والسقاط وأبناء الطلقاء، وأهرام من جماجم الغوغاء.. !

لا شيء يرن في أذني سوى: "إضرب عنقه.."

أنا سادي لأني أنكأ قدام عينيك كل جراحات السلف، وأقتحم حمى الفقهاء وأنفش في رماد الفتن وأشلاء المفتونين، وأقلب أوراق الفنانين ومذكرات الطلقاء..

أنا مازوشي، أمد أطراف أصابعي مستمتعا بنار أعصابي وهي تحترق، ويأسرني احمرار دمي وهو من شفاه الجرح يندفق.

نرجسي أنا لا أعرف من هذي الحياة غير ألبومي القديم والمرايا..

أتمطى في فضاها وأنادي في خشوع: ألف شكر يا إلهي أنني لست سوايا.

ألف شكر يا إلهي لم يزل انفي كأنفي وعيوني كعيوني..

وتقاسيم المحيا كتقاسيم المحيا؛.. موسم نضده الله بسحر وفنون.

وشفاهي.. يا إلهي !! هي –والله– شفاهي !.. مثل ينبوع الأغاني والتحايا.

أنا ما زلت أنا.. مثل جدودي، إنما دون جوار وسبايا.

مثل جدي.. إنما دون سحابات لأني –ها هنا– دون سماء

والذي تخرج أرضي من غلال ومحاصيل ونفط، مثل جدي أنا أعطيه لقطعان النساء

وامني عامة الشعب بجنات وحور، وقصور وخمور، وبحار من حساء..

ثم أصغي لترانيم البلايا في ليالي الكادحين الفقراء..

نطع ما تحت رجلي من سهول وحقول وصحاري، والعصا ظل خطايا.

ورحى القهر بقلبي تقتفي خطو النوايا..

ولهذا تطلع الكلمة من بين شفاهي مرة الطعم شظايا.

أتمنى –مثل كل الناس– أني ذو جناح..

فأباري في السما هوج الرياح..

وأجر الشمس من خدر الشروق العذب، من خلف الوشاح..

أتمنى أنني أفتض أختام السماوات وأغتال المنايا.

أتمنى.. إنما جدي الذي عاش قديما، عاش في ظل التكايا.

مستريحا بين غيمات البخور.

وسيوف مغمدات ونحور وصدور

وأنا مثل جدودي.. مثلما كانوا أكون..

مثلما صاروا أصير

أتمنى مثل آبائي القدامى أنني أدخل جنات النعيم فوق صهوات الخطايا.

يا غراب البين ردد لحننا الدامي الجريح.

واسكبن دمع الأماني فوق رايات الفتوح.

لم يعد للشرق خيل.. لا.. ولا شعر فصيح.

نحن جندلنا عليا، واختفينا خلف جدران المخازي، ثم قلنا: إنهم أتباع "موسى" و"المسيح"

ورفعنا فوق سيف الغدر قمصان الصحابه.

وزحفنا نستشير الطبل والدف ونستفتي الربابه.

وننادي: يا لثارات السحابه !

يا غراب البين ردد لحننا الدامي الجريح.

أنت أولى بالأغاني يا غراب البين في العصر الكسيح.

بعدها قفز من مكانه، وهو يلوح بقبضتيه كالمنتصر ويقول:

-يوريكا !.. بنهيق الغراب أختم سمفونية العبث.. رائع أن يكون النعيق بعد النبيب.

10

لم يعد وجهه بالذي يتفقد إن غاب، ولا بالذي يلاحظ إذا ما يتركه من فراغ، حين ينسحب من حياة القرية، التي تضطرب في تكرار ممل –كما رأيت- رتيب. وليست حياته بالتي تنقص أو تزيد حياة القرية في الرتابة والملل. وإن كان هو يعمل على تأثيث فضائها الزجاجي، وإثرائه بتلك الحوارات مع أبيه الميت، المعلق على جدار الغرفة كالساعة المعطلة على وقت واحد ساكن، وعلى نظرة واحدة.. وعلى حالة واحدة. وفي كل مرة يحاول أن يسقط على الصورة أزمانا شتى، ورؤى مختلفة، وحالات متناقضة ثم يوهم نفسه أنه حصل على شيء !.. إنه كالذي يطمع في الزبدة من مخض الماء، وكالذي ينسج منديلا من دخان السيجارة.

تفقده بعض أهل القرية فلم يجدوه، وتساءلوا في شأنه، فما ظفروا عند بعضهم بعضا بجواب.. وقد اختلفوا في تفسير سبب اختفائه من جديد، وإن كان أحدهم قد قال لهم: "إني رأيته في المدينة". فلم يتحمسوا لتصديقه، لأنهم كلما اختفى عن الأنظار ظنوه عند أمه في المدينة، ليكتشفوا حين يظهر أن ظنهم كان خاسرا غير مصيب. ولم يقتنعوا كذلك –كما أشاع أحدهم- أن الدرك الوطني ألقى عليه القبض، وساقه مكرها إلى مستشفى المجانين.. لم يقتنعوا لأن جنونه ليس بالذي تعالجه المستشفيات أو تنفع فيه التمائم والرقى.

أما هو فقد كان في المدينة حقا، ومن رآه فيها كان من الصادقين. فقد أنعش قلبه بحديث أمه الذي صار يميل إلى الحديث الفارغ، ومسح عن عينيه غبار الأيام بمرأى وجهها اللطيف، الذي بدأ يميل إلى الذبول، وبدأت تظهر في تقاسيمه تباشير الخريف..

إن كان لخريف العمر تباشير. كما أنه زار بعض الأصدقاء في المدينة، وأخذ منهم كتبا كثيرة على سبيل الاستعارة، وإن كان قد عقد النية على ألا يعيد إليهم ولو كتابا واحدا، مطيقا بذلك مثلا فارسيا: " مجنون من أعار كتابا، ومجنون من أعاده".

وفي المدينة كانت له الفرصة كي يتجول وحده على شاطئ البحر ساعات.. فلم يجد في البحر غير مالح وموج يرطن ويقيء الزبد الأبيض في كل حين. حاول أن يجد سحر البحر الذي طالما تحدث عنه أهل الفن والشعراء، فلم يظفر من ذلك بشيء !.. هل تراهم يكذبون على الناس ويدعون؟.. ربما؛ وذلك ليس مستبعدا. لم يجد في البحر غير هدير الموج المزعج ورائحة الطحالب.. ولم يجد فيه إلا أنه كان ذات مرة معبرا للغزاة، حين امتطوا صهوته وأسرجوا ظهره بجوار منشآت كالأعلام ! وهجموا على هذا الوطن الذي كان جديرا بمئة وثلاثين سنة من الاستعمار جزاء حماقته ومعاصيه !

–تفوه. بصق على البحر وعاد أدراجه نحو المدينة مفكرا ماذا عساها أنت تضيف بصقته إلى ملوحة البحر أو عفونة شواطئه؟.. وماذا عساها أن تزيد في حجم البحر بصفته هو؟

شعر بتفاهة سلوكه هذا فأغرق في الضحك، فالتفت إليه العابرون مستنكرين، إذ ليس في عرفهم أن يضحك المرء وحده.. هذا عيب.. هذا جنون !. فضحك لهم ثانية فتعجبوا واستنكروا أكثر، فضحك عليهم في المرة الثالثة فإذا بهم يضحكون جميعا ويقهقهون. حينها أدرك أنهم فهموا النكتة الكبيرة التي أطبقت على كل حياتهم.. إن وجودهم نكتة كبيرة.. ثم تظاهر قدامهم بالبكاء والنشيج. فاشتد ضحكهم، ثم غاب في زقاق ضيق بعدما علمهم كيف يضحكون عندما يكون الحزن طاغيا والمصاب جللا

وما أرخى الليل سدوله حتى كان حديث ذلك الحي كله، لطرافة جنونه وخفة ظله. وقد بلغ ذلك أمه، فتألمت وشعرت بالإهانة.. أم يكفيه أن أضحك أهل القرية فيزيد عليهم أهل المدينة؟.. لكنها أمه، وهو يعرف من أين يأتي رضاها فترضى عنه وتدعو له فوق ذلك.

وهو يعرف كيف يجعلها تضحك.. بل تقهقه أيضا، وتسأله أن يكف عن هذه الشقاوة. ليس صعبا عليه أن يضع يده على الحقيقة المضحكة المبكية.. ولأن الناس ليسوا في المستوى الذي يؤهلهم للبكاء عند سماع النكت، فهم يضحكون فقط، ولهذا صاروا ضحكة وأضحوكة للآخرين.

لم يدر بالضبط كم مكث في المدينة، لكنه شعر بضجر من ظل في أحد أزقتها عشر سنين، وهو لا يكره المدينة، بل إنه كان بها شغوفا في طفولته، لكنه يكره التشويه والمسخ الذي أصابها، فلقد اختفت كل مظاهر المدينة، واستسلمت لمشروع الترييف الذي جعل منها دوارا كبيرا بطرقات من زفت، وأكواخ بعضها فوق بعض من الإسمنت المسلح !. ولهذا قرر أن يعود إلى القرية رغم أن أمه تترجاه أن يمكث أكثر، وأصدقاءه كذلك يفعلون. لكنه لن يعدم شيئا يتحجج به لأمه ويقنع به أصدقاءه.

وللحق، فإنه ما عاد يجد عند أمه ما يغريه بالمكوث، ولا يجد عند أصدقائه ما يجدون عنده من متعة وطرافة. إذ لا حديث لأمه إلا عن زواجه متى يكون ومن الفتاة التي يريد، ولا حديث لأصدقائه إلا عن السيارات والنساء و"الدوفيز" و"الفرار" إلى أي منطقة في العالم.. المهم أن يغادر هذا الوطن، الذي لم يعد فيه معيشة لأحد كما يزعمون.

لهذا فهو ينفر منهم جميعا، فما يشده إلى أمه سوى شعوره المتزايد إلى حنان ما، أو حاجته إلى النقود. وشهادة لله فإن أمه لا تبخل عليه بالحنان، ولا تضن عليه بالنقود؛ فهي تعطيه كل ما لديها من حنان، وتعطيه من النقود ما يجعل حياته هينة لينة، سهلة ميسورة لو أنه يحسن تقدير تدبيره وتدبير تقديره.

وما يشده إلى أصدقائه سوى هذه الكتب التي يستعيرها منهم، فيعطونه إياها في غير إلحاح كبير منهم، كأنهم يريدون أن يتخلصوا منها بطريقة ذكية لا تجعلهم يشعرون بالذنب، وهو لا يحب الحمقى والمغفلين إلا عندما يستعير منهم كتبا أو يشتريها، حينها يتمنى لو أن جميع الناس حمقى ومغفلون !.. قد يبدو هذا مضحكا، لكنها الحقيقة التي لو فهم بعضها بعض الناس لكنا بخير.

لما رآه بعض أهل القرية ينزل من سيارة أجرة، وفي يده حقيبة ظهر ذات فصالة ولون عسكريين، عرفوا أنه قد بدأ يحضر لموسم الاصطياف، الذي اعتاد أن يقضيه متنقلا من قرية إلى أخرى في هذه الجبال، خاصة لما كادت هذه القرى أن تقفر من أهلها الذين آثروا العيش على أطراف المدينة.

حتى المواطنون الذين صاروا لا يحبونه، لا يستطيعون إخفاء شعورا باللطف يغمرهم كلما رأوه. ولا يستطيعون إخفاء شعور بالفقد إذا لم يروه ثلاثة أيام متتالية، فهو حبيب إلى كل القلوب أثير لديها إذا لم تجحد الأهواء ذلك.

سلم عليه بعض الناس، فحياهم باسم وجه متهلل الأسارير، ومضى في طريقه يوزع الابتسامات ويجمع الحسنات، ثم عرج عن كشك صغير واشترى علبتي سجائر ولوازم أخرى تافهة، من صنف اللوازم التي تبيعها أكشاك القرية. ولعلمك فإن ملاك هذه الأكشاك الصغيرة الحقيرة كلهم مجاهدون قدامى، وزعت عليهم جزاء استبسالهم في حرب شرسة خاضوها ضد فرنسا والحلف الأطلسي واللفيف الأجنبي والخبثاء من أهل الوطن الذين كانت أشرس من الجميع.

قفز باب الحديقة، بعد أن حاول فتحه لم يقدر، وفتح باب الدار، وقال بصوت مرتفع:-ها قد وصلت فلا تقلق يا أبي.

ورمى تلك الحقيبة الظهرية على السرير، والتفت إلى صورة أبيه، فلم يكد يتبين منها إلا إطارها الذهبي، أما الصورة فقد كادت تتلاشى تحت غبار كالزغب.. فأخذ يضحك وهو يثبت الكرسي أسفل الصورة إلى الجدار، وتناول الإسفنجة القديمة التي اعتاد أن يجدد بها صورة أبيه كلما علاها الغبار أو تغشاها البلى، وراح يخاطب أباه بنبرة لا تصدر إلا عن الآباء لما يرفقون بأبنائهم:

-أرأيت؟.. حين أتخلى عنك يغزوك الغبار ويقضم ملامحك البلى. أما حين تتخلى عني، فإني أسترجع حريتي، وأخرج حيث الشمس والفوضى الوجوه التي ترغب في الحياة..

صحيح، قد أكتسب ملامح جديدة بفعل الشمس والعرق والبرد، واختلاف الأيام على وجهي وهي تغزل الفصول وتنسج الحياة.. وقد تصير أناملي مخشوشنة بفعل الأشواك والمسامير، إذ ليس كل من جس الحياة وقعت يداه على القطيفة والحرير !..

قد يحدث ذلك، وقد يحدث أكثر من ذلك أو أقل، ولكني سأعيش حياتي حية عذراء مدهشة، ولن أعيشها حياة مكرورة عن حياتك.. ليس مفروضا علي أن أظل أشبهك لكي أعيش وأكتسب شرعية الحياة.

نزل من فوق الكرسي، وتراجع خطوتين إلى الوراء، وتأمل الصورة قليلا، ليقول بعدها:

-لك الحق أن تكفهر، فليس من الأدب أن أفتتح الحديث معه بهذه السخافات، التي ما زالت تسمعها من شهور.. ولكن طبيعة حياتي فرضت علي أن أكون سخيفا وثقيلا.

وأكمل الحديث وهو يستلقي على السرير متعبا، بعد أن غسل وجهه وأطرافه:

-أمي مفروض عليها أن تقول: "لا بأس".. فهي -حسبما لاحظت- تقولها مضطرة إليها يائسة منها. بالأمس فقد استرقت النظر إلى سالفيها، فرأيت شعرات بيضاء، فأصابني لأجل ذلك حزن غير يسير.. لقد "شاخت" أمي على ذكراك.. إنها تزحف في اتجاهك، تتشاكس فيها الرهبة والرغبة.. أما أولادك الآخرون، فهم مقبلون على الحياة بشراسة لا توصف.. يعبون من لذائذها عبا مفرطا،

ويتنافسون مع الآخرين في سبيل استغوائها تنافسا يوشك أن يكون غير شريف، يكلفهم جهدا ومالا ونفاقا. وهم لا يذكرونك إلا إذا تطلبت حياتهم شهادة وفاة الولي، فيستخرجونها من مصلحة الوفيات بالبلدية، وغالبا ما يكلفونني بذلك..

كنت كلما استخرجت شهادة وفاتك، أحس أنك حي وفعال كذلك، وتستطيع أن تعرقل حياة وأن تدفع أخرى إلى الأمام. لم يبق في مسبحة الوفاء يا أبي إلا ثلاث حبات؛ أنا وأمي وأنت.

أما أنا فقد عز علي أن تقطع الزمن البرزخي في صمت قاتل.. فأردت أن أخفف عنك، واعتبر هذا مني جهد المقل، ولا شكر على واجب..

وأما أمي، فيبدو أنها عاشت معك من السعادة، ما لا تريد أن تعكره بمعاشرة رجل آخر، قد يحقق لها ما لم تحققه أنت. لكن للفرحة الأولى والدهشة الأولى قدسية لا تتكرر أبدا. خاصة عند الذين يعرفون معنى الفرحة الأولى والدهشة الأولى، وما أقلهم.

وقطع عليه استرساله في الحديث مع أبيه طرق بقضيب حديدي على باب الحديقة، فخرج مسرعا، فإذا به بذلك الشاب الذي يشبه الفيل حين يقف على قائمتيه الأخيرتين.. أما زلت تذكره؟ كان واقفا لدى الباب، ومعه أربعة آخرون، ودون تمهيد بتحية أو سلام أو كلام لطيف؛ بادرة قائلا:

-أين شريط الحيوانات الذي وعدتني به؟.

-هو موجود عندي، وسأعطيكه اللحظة

-هاته، وإن لم يعجبني سأدق عنقك أيها المجنون.

حينها شعر بقشعريرة تغزو كل جسده، وتستفز كل مساماته، ليس من هذا التهديد الأجوف، إنما من هذا الشريط لو يقدر له أن ينتشر على نطاق واسع. ثم هدأت نفسه واطمأنت بعد أن استيقن أن هذا الشريط لن ينتشر، وإذا انتشر فلم يفهمه أحد.

ناوله الشريط وقال له مداعبا:

-أنت سوف تفهمه من الاستماع الأول، لأن كلمات أغانيه مكتوبة بلغتك.

لم يتفطن أي واحد منهم لمقصد "منصور"، إنما اكتفى هو بالقول منصرفا:

-سأدق عنقك إن لم يعجبني.

إنه ليس شقيا بشكل كبير، إنه لا يخيف إلا الذين لا يعرفونه، يكفيه أن تقر له بالقوة والبطش وشدة البأس ليصير قطا وديعا.

وظل يرقبهم وهم ينصرفون، وهم يضعون الشريط في المسجلة الكبيرة التي معهم، وسرعان ما انطلق النهيق، فأخذوا يضحكون بقوة وجنون. أما هو فقد عاد إلى غرفته مرتعشا كمن أملت به الحمى، أو تملكه إحساس قد لا يختلف عن إحساس الأم وهي تودع ابنتها إلى بيت الزوجية، فهي حزينة لأنها فقدت ابنتها، وهي مسرورة مجبورة لأن ابنتها كسبت شيئا عزيزا على قلب كل امرأة.

دخل غرفته، وهو لا يدري أيضحك مثلهم، أم يظل ينتظر عاقبة أمره في حذر.. فالناس ليسوا جميعا أغبياء حتى لا يفهموا قصده وما يرمز إليه. وهب الناس أغبياء، فهل الدولة غبية؟.. مستحيل أن يكون غبيا من يستطيع أن يقتل النباهة، ويمحو التفرد ويطمس الخصوصيات، ويجعل الناس رؤوسا في قطيع.

حتما سوف تتفطن الدولة إلى مقصده، وحتما سوف تفك رمز الشريط، وحينها لا ينفع العقل ولا يجدي الجنون؛ لأن أشد ما تكره السلطة العقل، وتكره أكثر منه بدرجات الجنون..

لما دارت بذهنه هذه الخواطر والتساؤلات، ود أن يفتح الباب لينطلق في إثرهم ليسترد الشريط حتى ولو كلفه ذلك دق عنقه.

وفعلا، فقد خرج من بيته، لا ليسترد الشريط، ولكن ليراقب أمر هؤلاء الشبان وما عساهم بشريطه يفعلون. ولما اقترب من عمود السكارى (ولكل واحد الحق في أن يسمي معالم الجغرافية التي يتحرك فيها)، رأى مجموعة من الشباب قد انضمت إليهم ليصير عددهم حوالي عشرين رأسا، كانوا يضحكون ويقهقهون، وصوت الدجاجة يختلط بأصواتهم مفجوعا. وكلما فكروا ضحكوا أكثر حتى لفتوا إليهم أنظار العابرين، الذين كانوا ينضمون إليهم بين الحين والحين، وما إن ينضم إليهم من ينضم حتى يشرع في الضحك.

عاد أدراجه إلى بيته، وهو يشعر بالخوف شعورا حادا، جعله يندم على أول يوم مد فيه أول خطوة في طريق المغامرة. فكر أن يصعد إلى ساحة القرية ليصيح في الناس:

"أيها الناس اسمعوني وعوني.. أنا لست مجنونا، إنما كنت أمازحكم فقط لأنظر كيف تعملون.. وقد كان لي ما أردت، وقد أتقنت اللعبة إلى الحد الذي انطلت عليكم وتلبس عليكم الأمر فصدقتم. وها أنا اليوم أشهدكم أني قررت أن أعود إلى عقلي، والله على ما أقول شهيد". لكنه قدر أن الناس سوف يعتبرون هذا دليلا قويا على استغراقه في الجنون إلى نقطة اللارجوع.. وكاد هو أن يصدق هذه الحجة، فصرف عنها عقله وتفكيره، وقرر أن يكون جبانا أمام هذه الوساوس والأوهام، وأن يخوض هذه اللعبة المجنونة حتى النهاية، فهي مسلية لأنها غامضة وفيها عنصر المفاجأة.

وما أخرجه مما هو فيه إلا طرق خفيف على الباب، فقرر ألا يجيب حتى ولو كانت أمه !. وبعد إلحاح الطرق خرج من غرفته وفتح الباب فألفاه الأستاذ (حمدان). رجل طيب، كان ذا ميول يسارية معتدلة، من كثرة حبه للنقاش لا يسلم حتى بالمسلمات، ولا يقر بالبديهيات. لأنه يقر للقدماء بأية عصمة، ففي كل ما قالوه نسبة من الارتياب أملاها الهوى السياسي أو التعصب المذهبي الطائفي:

-السلام عليكم يا "منصور".

-وعليكم السلام أستاذ.. تفضل وشرفني بالدخول إلى كوكبي. هكذا رد عليه باحترام، فهو يحب من تمقت السلطة من عناصر الطبقة المتوسطة.

-لا.. شكرا، إلى فرصة اخرى، إنما أريد منك أن تعطيني نسخة من الشريط الذي سميته موقفا "سمفونية العبث".. وأرجو أن تكون سجلت عنها أمثلة كثيرة، لقد سمعته في الشارع.

فكر "منصور" قليلا قبل أن يعيد بصره إلى الأستاذ (حمدان)، فرأى على محياه رجاء عز عليه أن يخيب، وابتسامة رقيقة متأدبة آلمه أن تمسحها أنامل اليأس، فدخل إلى غرفته، وعاد وفي يده شريط أعطاه إياه قائلا:

-خذ.. إني أعلم سأدفع الثمن وحدي، ولكن لا بأس علي في ذلك، فالمجتمع الذي يقل فيه الفدائيون يقل فيه الحياء، وإذا عز الدم هانت الحياة.

-أعد.. أعد من فضلك. قال الأستاذ (حمدان) يترجاه.

-والله لست أذكر ما قلت.. فدعني يا أستاذ، كأني بك تصدق الحكمة القديمة "خذ الحكمة من أفواه المجانين".. لا تصدق، فكثير من الكذب صار صدقا بالأقدمية، وكثير من الكلام العادي صار حكمة لأنه قد مرت عليه القرون.. الكلام عندنا كالخمر، يكون

جيدا بقدر ما يكون قديما، أنا لا أصدق يا صديقي، فالحكمة كانت فن العمل، فصارت على أيدي الكسالى مرضى اللغة: فن القول.

-أعد هذا من فضلك –قال الأستاذ (حمدان) وهو يبحث في جيوب سرواله عن ورقة وقلم- هذا كلام رائع، أريد أن أكتبه لأحفظه.

-لتصير لك ذاكرة. قالها "منصور" وهو يصفق الباب في وجهه، ويعود في غرفته، فهذا من بين أشياء كثيرة يمقتها في اليساريين ومن شايعهم؛ التحذلق، النقاشات الجوفاء، الاهتمام بالأمور التي لا معنى لها.

بعد مرور عشر دقائق قرر أن يتبعه ليرى ما يكون من امره مع هذا الشريط، فهو يعرف أنه سوف يتوجه إلى "مقهى عمي صالح"، فكثيرا ما رآه هناك يرتشف قهوة المساء رفقة شلة من الشباب ذوي مواهب في الأدب. وقد كان ظنه فيه حسنا، ورأيه فيه صادقا مصيبا، إذ أنه حين دخل المقهى رآهم متحلقين حول مسجلة المقهى التي يستعملها "عمي صالح" للاستماع إلى القرآن الكريم صباحات الجمع والمناسبات الدينية. ويستعملها في الترفيه عن الشباب بالأغاني في باقي الأيام.. وإني شخصيا محتار كيف يرفه المرء عن نفسه بأغاني تافهة، بل كيف صار هذا الصراخ أغاني. !

فجأة علا النهيق في القاعة، أسرع نحوهم "عمي صالح" وهو يسأل مندهشا:

-ما هذا؟.. حمير في مقهاي؟ !. فأشار إليه الأستاذ أن اسكت، فسكت ظنا منه أنها أصوات قصيرة لتجريب الشريط فقط، لكن النهيق ما زال متواصلا، فأراد أن يتكلم، فأشار إليه الأستاذ مرة أخرى أن أسكت، وكانت على وجهه علامات تضجر. أما الآخرون فكانوا يستمعون وينصتون بشيء من الاهتمام، وعلى شفاههم ابتسامات استحسان وإعجاب.

لك يفهم "عمي صالح" شيئا مما يحدث، فالنهيق ما زال متواصلا، وقد انضم إلى طاولة هؤلاء بعض الزبائن المدفوعين بالفضول. لم يتمالك "عمي صالح" نفسه هذه المرة فصاح:

-لعنة الله على شياطينكم !.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. !!

-أوه !.. أنت لا تفهم يا "عمي صالح".. والله لا يوجد فرق بين هذا الشريط، وبين هذه الكدسة من الأغاني التي تجلد بها أعصابنا صباح مساء. فاصبر علينا قليلا !.

-ماذا ألم بك يا أستاذ.. هل أصبر على النهيق؟ !.. زد فوق هذا فإن أشرطة الأغاني التي بحوزتي يحبها الناس ويتذوقونها.

-هذه كذلك سيحبها الناس ويتذوقونها، فما ضرك لو صبرت قليلا؟

في هذه اللحظة بالضبط علا النقيق، فتذكر "منصور" الذي كان يراقب الوضع جالسا إلى طاولة قرب الباب، تذكر المستنقع والوحل والليل. وفي هذه اللحظة صاح "عمي صالح" ومد يده ليخطف المسجلة من بينهم:

-لعنة الله على شياطينكم !.. ما رأيتكم كاليوم مجانين،.. نهيق ونقيق، حمير وضفادع، ماذا تفهمون؟ !

أمسك أحدهم يد "عمي صالح" وردها متأففا:

-أوه.. تأبى إلا أن تكون برميلا من الضجيج.. دعنا !، إن كنت لا تفهم أي شيء فنحن مستعدون لكي نفهم كل شيء،.. ولو أن كل شيء لا نفهم قيمته أهملناه وأتلفناه لدمرنا نصف العالم.. إنما..

-هل أسكتناه هو لتثرثر أنت؟ !. اسكت، دعنا ننصت..

هكذا قاطعه صاحبه متأففا فسكت، وأسند خده براحة يمناه، وراح ينصت كالآخرين، والضفادع تنق نقيقا موزونا، فما كان من "عمي صالح" إلا أن قال غاضبا وهو يريد الخروج:

-والله لن اجالسكم أبدا.. و والله لأغيرن نشاطي التجاري، فقد صبرت على كل شيء إلا أن تصير مقهاي مربطا للحمير ومستنقعا للضفادع، هذا الذي لا صبر لي عليه.

-كانت كذلك منذ أن دشنتها أول مرة.

هكذا رد عليه "منصور"، لكن "عمي صالح" لم يسمعه أو ربما تظاهر بذلك فقط، وواصل كلامه:

-من ذا يلوم من يأتيني غدا بشريط، وقد سجل عليه خوارا ونبيب تيوس، وآخر بشريط قد سجل عليه جدته تنازع وجده المصدور يكح ويعطس.. وكل واحد يريد أن يسمع ذلك في مقهاي ! والله زمن !..

وواصل حديثه أو خصامه يخاطب "منصورا":

-أصبر يا "منصور"، لن تبقى وحدك سوف يلحق بك هؤلاء وآخرون لا تعلمهم، شف قناع عقلهم فهم، في النزع الخير.

لم يجبه "منصور"، ولم يعره أدنى اهتمام، ويبدو أنه هو كذلك لم يكن ينتظر ردا أو اهتماما، فقال ما قال وخرج يضرب كفا بكف:

ولما أخذت الغربان ترسل نعيقها المزعج –وقد سجله "منصور" عن فيلم "ويسترن" حين زار المدينة– حينها انقبضت أسارير الأستاذ وظهر عليه ما يشبه الخوف والقلق.. ربما يكون يتطير بصوت الغراب !.. نعم، رغم ادعائه التقدمية ! ورغم هذا الانقباض البسيط، فقد عاد وانبسط، وضرب الطاولة بقبضته وهو يقول:

-هذا هو الفن وإلا فلا.. هذا هو الإبداع الإنساني الخالد، هل فهمتم المعاني العظيمة التي صبت في هذا الشريط؟.

لم يرد عليه أحد منهم، فأكمل حديثه وقد هدأ شيئا قليلا:

-كأني أقرأ سيرورة مجتمع وصيرورة أمة.. كأني أتبين ملامحه الشاحبة المتلاشية من خلال هذه الإيقاعات الموزعة كلمسات ريشة.

إن هذا الشريط يحدثنا عن القهر والحرية، والوجود والتشيؤ، والحياة والموت، والطموح والنكسة، إنه يتدفق حركة وانطلاقا.. هل فهمتم معنى النقيق والنهيق، والدجاجة والديك؟.. هل فهمتم لماذا جاءت بهذا الترتيب؟.

كانت الحيرة على وجوههم أحسن جواب على أنهم لم يفهموا شيئا، فأخرجهم من حيرتهم بصوت كالهمس، كأنه يخاف:

-أما النهيق فصوت الجهلة والحمقى، لا تستجيب له ولا تفهمه أو تتفاعل نعه إلا الذهنيات المستنقعية الضحلة، أما صوت الديك فهو نداء النخبة الثورية طليعة المجتمع إلى التغيير، الواعية بشروط الفعل الثوري، التي ترفض الرداءة والنمطية، أما صوت الدجاجة فاعتبروه حشوا غير ذي قيمة، أما صوت التيوس فهو رمز للبرجوازية المتعفنة المنتفعة بالأوضاع، أما العصافير فأصواتها رمز المستقبل والحياة الرائعة التي تبشر بها النخبة الثورية. أما النباح فرمز للثورة المضادة التي لا يرضيها مطلقا أن تقوم النخبة الثورية بحركتها التقدمية داخل المجتمع، أما النعيق فيرمز للموت كما هو معروف والخراب، وأراه في غير محله.. ربما أمثلة عقلية متواكلة متشائمة، مستسلمة للمنطق البرجوازي، فكان أولى به أن يضع الزقزقات مكان النعيق، ليستقيم هذا الإبداع الرائع مع سيرورة التاريخ وصيرورته.

هنا تدخل أحدهم ليقول كلاما، فهو دائما يحب أن يقول حتى ولو كان الحديث حول "النسبية" !!:

ألا ترى أن صوت الدجاجة يرمز للأفكار التقليدية، وهي تحاول التوفيق بين جمود المحافظين المنتفعين بالوضاع السكونية، وبين دعاة التجديد وضرورات العصرنة؟.

رد عليه آخر:

-هذا ما أراه أنا كذلك.. وقد يكون صحيحا. فقال الأستاذ وهو يضغط على الزر ليعيد الشريط من أوله:

-قد يكون هذا صحيحا، إنما الأعمال الإبداعية العظيمة لا تكفيها قراءة واحدة.. فلا بد أن نسمع الشريط مرات ومرات لنكشف أسراره ونفك رموزه ونضيء خباياه وخفاياه.

سمع "منصور" كل ما قالوا، ولو لا الخوف من عاقبة أمره لأخذه الزهو ولدغدغه الفخر. فقد قالوا في شريطه ما لم يقولوه في ديوان شعري أو مجموعة قصصية. وقد أوحى إليه شريطه بما عجز عنه كتاب فكري. لكن الخوف من المجهول الذي يحسه ولا يتبينه أذهب عنه شهوة الفخر وحرمه من لذة الزهو.

في الشارع الذي بدأ يحمل تباشير الصيف، بهذا الغبار الذي تثيره السيارات، والذي كان وحلا منذ شهور.. كان يفكر في النهيق والنقيق وما استتبعاه، ويحاول أن يجد لها تفسيرا وقائيا مقنعا لا يزعج أي واحد. لكن الاخرين سيورطونه بما يسقطون عليه من مكبوتات لا يعرفون لها اسما ولا تأويلا. وكم من أفكار وأشعار وأغاني لم يبق فيها لصاحبها إلا توقيع باهت في الأخير..

ولماذا نذهب بعيدا، وهذا كتاب الله قد صار كأنه كتب كثيرة، بعدما أشبعته الملل والنحل شرحا وتأويلا. وما أخرجه من هذا الشرود إلا يد قوية تمسك به من قفاه، وتكاد ترفعه، وصوت غاضب يقرع سمعه:

-هل صحيح تقصدني أنا بنهيق الحمار؟.

التفت إليه مذعورا، فوجده ذلك الشاب الذي يشبه الفيل، فأخذ "منصور" يحاول التملص منه وهو يقول:

-لا.. أنا لا أقصدك، ولا أقصد أحدا غيرك.

فسأله آخر نحيف وهزيل وذو صوت ضعيف يكاد يشبه صوت الطفلة اليتيمة:

-إذن تقصدني أنا بصوت الدجاجة؟. فرد عليه "منصور" متضجرا وهو يمضي في طريقه:

-دعوني، أنا لا أقصد أحدا من الناس.

فسأله ثالث، كان سمينا قصير القامة.. مقاس حذائه ستة وأربعون، يفأفئ في كلامه ويتأتى:

-إ إ إذن تقـ .. تقـ .. تقصدني أنا بصو .. صو.. صوت الضف.. ضف .. ضفدع، سنتفا.. فا فاهم .. مم..مم.. مم من بعـ.. بعـ ..بعـ .. بعد.

فأخذ أصحابه يضحكون عليه، خاصة لما صار يبعبع مثل الخروف، وكان الذي يشبه الفيل يغريه بمنصور.

ها قد بدأت الشكوك تحاصره، والظنون تدور بهن والتساؤلات تعترض سبيله.. هل صحيح أنه قام بشيء ذي قيمة ومعنى؟.. ربما، فالكثير من الأشياء تحمل قيمتها في ذاتها، وهناك أشياء أخرى تستمد قيمتها من إسقاطات الناس وأهوائهم، التي تتحكم فيها الظروف المختلفة والتطلعات المتباينة.

أما الأستاذ (حمدان) فقد أكد لتلك الشلة، وهم في المقهى:

-إنه عمل رائع.. لست أدري كيف اهتدى إليه. — يسكت قليلا لينظر في وجوههم متلمسا رد الفعل، قبل أن يضيف:

-هل رأيتم نعمة الجنون؟.. هل رأيتم كيف يهب الروائع التي يبخل بها العقل؟.

من منكم يستطيع أن يتبين الشعرة الفاصلة بينهما؟. أرأيتم كم يضل العقل وكم يهدي الجنون؟ !

سأله أحدهم وهو يشعل سيجارة من بقايا أخرى، فهو يتخذ التدخين علامة على أنه يعاني قلق الإبداع، ويعاني اللانتماء، ولا بأس أن أضيف لك شيئا عنه، فقد اتخذ بومة ذات مرة يحملها معه، ويسكنها في غرفته، فأغضب أباه وأضحك عليه الناس، وتطيرت بها أمه فقتلها:

-ماذا تظنه يقصد بالنباح؟..

لم يترك آخر —وما أريد أن أسميهم بأسمائهم، لأنهم أدعياء متحذلقون !- لم يترك الفرصة للأستاذ (حمدان) كي يجيب، فقال:

-لعله يقصد الحكمة القائلة "الكلاب تنبح والقافلة تسير". فأسرع الأستاذ (حمدان) بالتصحيح:

-" القافلة تنبح والكلاب تسير"

-صحيح كذلك —قال الآخر موافقا- إنه يريد أن يصور عزم الشعب على المضي خلف النخبة الثورية، رغم العراقيل والعوائق التي يضعها المثبطون المعوقون في طريق المسيرة الشعبية.

-دعك من "المثبطون" و"المعوقون".. إنها مصطلحات لا تحمل إلا دلالة أخلاقية، وهي فارغة تماما من قيم اجتماعية وسياسية.. قل: أي كلام آخر. وواصل حديثه وهو يقلب عينيه في عيون أصحابه

-أما قلت لكم: إنه عمل فني رائع، ذو مستويات متعددة من القراءة والفهم.. ويا حبذا أن يقدم كل واحد منا مقاربة مفهومية حوله، وحول مستوى المثاقفة فيه، ومستوى تمركزه حول البناء النصي.

أما هو فما إن دخل المطعم حتى بادره الطباخ قائلا، وهو يطل عليه من الكوة الخشبية التي يوزع منها الصحون والأطباق:

-دوخت الناس، وتريد أن تدوخ الحيوانات.. هل عندك نسخة أخرى من هذا الشريط؟..

أجابه "منصور" وقد جلس إلى الطاولة، وشرع يقضم الخبز:

-نعم ما زال عندي ثماني نسخ أخرى.

-اجعل لي أنا كذلك واحدة يا "منصور". هكذا طلب منه أحدهم كان جالسا إلى طاولة خلف غيمة من دخان السجائر، يبدو أنه مدير "سوق الفلاح".. بل هو. فرد عليه دون أن يرفع عينيه نحوه:

-لك شريط من الآن شريطة أن تدفع الثمن، أنت تمثل الدولة هنا، والدولة غنية والشعب فقير.

-وجبتك على حسابي.. هذا هو الثمن. رد عليه مدير "سوق الفلاح" مبتسما.

وأقبل على صحن الحساء ينقع فيه الخبز ويلتقمه في غير انتباه منه، لأنه كان يفكر في شأن الشريط، وإلى أي مدى يمكن أن يصل تأثيره، ومدى عمق الحفرة التي يمكن أن يوقعه فيها إلا إذا فهمته كل الجهات المغمورة فيه. لهذا فقد شعر بالجوع، فلم يجد الإحساس بالشبع. ولو يجد صحنا أو صحنين آخرين من الحساء لما قال:

يكفيني.. فما زال في بطنه متسع لثلاث صحون. لكنه حمد الله ومسح فمه، وأشعل سيجارة وخرج يتبعه مدير "سوق الفلاح" ليعطيه شريطه من "سمفونية العبث".

على ضوء الشعاع الخافت الذي يأتي من عمود الكهرباء تبين ظلال شخص واقف قرب باب الحديقة فبادره بالسلام:

-السلام عليكم..

-وعليكم السلام.. أنا "عبد الوهاب"..

-آه.. الأستاذ عبد الوهاب.. أهلا وسهلا.

إنه أستاذ الموسيقى والنشاطات الفنية بالثانوية "سلفية القرية" يكنونه بـ "شيخ قرآن إبليس"، لأنه يعلم الطلبة الموسيقى والرسم. وشهادة الله، فقد مرروا معيشته. وهم يضيفون إليه تهمة الزندقة والنفاق، لأنه يصلي !

-حدثني الأستاذ (حمدان) عن شريط طريف قمت بتركيبه، فهل لي أن أسمعه إن كان ذلك لا يزعجك ولا يسبب أي حرج.

-لا.. أبدا، هذا يروق لي -أجابه "منصور" بالفرنسية- أنت أولى من الجميع، انتظر قليلا.

وبعد هنيهة عاد ليسلم لكل واحد منهما شريطا، ثم يودعهما، ويغلق الأبواب الثلاث خلفه، ليخلو إلى كتبه التي جلبها معه من المدينة يتصفحها.

فتح الكتاب الأول، وهو ديوان شعري، قرأ في صفحة منه ما يلي:

المارد الجبار يطلع ثائرا من قمقمه

فلتهفتوا يا سامعين النار تقطر من دمه

ولتسمعوا يا سامعين الرعد دمدم في فمه

* * *

المارد الجبار ينهب كل أوجاع المسافه

ويدك أوهام التمني خلف أسوار الخرافه

والبرق يهزأ بالدجى، ويقد من دبر لحافه

وتناول الكتاب الثاني، فإذا به رواية يابانية، أما الثالث فكان "نحو مجتمع إسلامي" لـ "سيد قطب". راح يقلب صفحاته في غير انتباه، شاخصا ببصره في نقطة غير محددة من الجدار، وحين أفاق من شروده رماه كسابقيه وقال متنهدا:

–الأحلام العظيمة دائما تكون مقصلة الرجال، وكثيرا ما تلتف الأفكار حول عنق أصحابها لتأخذ شكل المشنقة، والمواقف التي تحيي الآخرين بها يموت أصحابها.. غريب حقا أن يموت الأحرار ليعيش الجبناء والطلقاء.. وعجيب أن يتهاوى العباقرة ليصعد على أشلائهم الحمقى والكسالى. !

التفت إلى صورة أبيه، وقال وهو ينفث دخان سيجارته في شراهة وقلق:

–أما أنا يا أبي، فلا أدعي أية بطولة، ولا أريد أن أموت لتسميني الغربان بطلا وشهيدا، أريد أن أحيا في الناس كواحد من الناس؛ لا يسمعني أحد إذا تكلمت ولا يشير إلي أحد إذا مررت.. أريد أن احيا بكل ما يملك الجبناء من رغبة في الحياة !، ولو كالصفر الصغير خلف الفاصلة.. صحيح أن ما عند الله خير وأبقى، لكني لم أبلغ الدرجة العليا من الإيمان واليقين حتى أؤثر ما أتخيله على ما أراه وأحسه.

أنا لا أريد أن اموت ليحيا القطيع، إنه لن يلد إلا رؤوسا أخرى.. إنك لن تستطيع أن تتصور كم أحب الحياة.. ولن تستطيع أن تتصور كم أموت حين أذكر أني كل يوم أقترب من أجلي بيوم، لتمتد في النهاية يد الملاك فتحسب مني نفخة الله وتتركني طينا على طين !.. وتكتمل المهزلة حين يظهر الأصدقاء الحزن والأسف، ويرشون جثماني بالعطر، ويقولون عني: لقد كان طيبا، وكان وكان، وما أكثر "الكائنات" حين نرفع الراية البيضاء وننسحب من زمن الناس.

أبي أنا لا ادعي أية بطولة، ولا أود أن تحيا أمة إذا كان ذلك يكلفني قطرة دم واحدة من رأس خنصري.. ولا أود أن يروى العطاش إذا كان ذلك يتطلب مني دمعة واحدة. وليس يعجبني أن تتدفق على حياة الناس آلاف النهارات، إذا كان ذلك بساعة من الظلام أقضيها في زنزانة رطبة.

أنا أنا، ويكفيني هذا. وأنا لا أصدق أنني أمتد في الآخرين، أو أنني بهم ولهم، وليس يرضيني مطلقا أن يجتاز الآخرون إلي حدود أناي، وإذا كان بعضهم في فليخرجوا غير مشكورين وغير مأسوف عليهم. وإني مستعد اللحظة أن أطفئ شمعة وجودي إذا كنت لا أستطيع أن أكون أنا أنا غير مشوب بالآخرين..

أي وجود للماء حين يتلاشى في بياض اللبن.. قد تقول: إنه ضحى ليكون اللبن صائغا ولذيذا، له ذلك إن شاء، أما أنا لست مستعدا أن أتلاشى ليتشكل من رمادي الآخرون.. أنا الآخرون. !

أنا كون مستقل لي زمني وفصولي، ولن أموت إلا حين أفقد تجانسي.

أبي –قال مواصلا بعد صمت قصير، أطفأ خلاله سيجارة وأشعل أخرى– إن الشريط الذي عشت معي أياما على إيقاعاته المتناقضة المنكرة، هذا الشريط قد يحدث لي أتعابا كنت عنها في غنى.. وبالتالي فأنا نادم على أول أيامي التي عشتها مع الحمير والدواجن والضفادع والكلاب.. أنا ندم على أول يوم لمعت فيه في رأسي فكرة إعلان الجنون، ذلك لأني انفضحت وبدوت أمامهم جاهلا أحمق، لا أتقن أبجدية الجنون.

زد فوق هذا، فليس مكتوبا علي أن امثل دور المجنون ليكتشف الآخرون تفاهة عقلهم وتهافت معاييرهم.. أنا على يقين انهم سوف يصعقون حين يستيقظون من حلاوة الحلم على مرارة الحقيقة.

في هذه اللحظة كأن الباب يطرق.. نعم إنه يطرق..، وليس من عادة الناس أن يطرقوا عليه الباب في هذه الساعة التي توشك أن تكون منتصف الليل.. كان يفعل هذا الندامى القدامى الذين انفضوا، وكان يفعل هذا كذلك المطرودون من بيوت آبائهم لسوء أخلاقهم، فكان يأويهم..

أراد أن يصمت وألا يتنفس حتى يظن الطارق أنه غير موجود، لكن المذياع كان يذيع أغاني بلغة لا يفهمها، وكانت الغرفة كذلك مضاءة، ولهذا وجد نفسه مضطرا أن يخرج حذرا، ولما فتح الباب وجد "بوخالفي" واقفا، فبادره بالسؤال، وقد انتهى من قراءة سورة "الفلق" في نفسه:

–خير إن شاء الله !

–الخير مع وجهك إن شاء الله –رد عليه "بوخالفي" مطمئنا– إنما لقد كنا ساهرين مع الشريط الذي ركبت، وهو طريف بحق، فهل تستطيع أن تكرمني بشريط منه، ولك علي أن أصبر عليك وعلى مماطلتك في تسديد ثمن الكتب.

–وهل فهمتم منه شيئا؟

–أنا شخصيا فهمت من الشريط أشياء لا أستطيع التعبير عنها، كأنه نبهني إلى شيء ما.. آه لو كنت حاضرا لما كنا نستمع إليه، كنا كالمجانين غارقين في الضحك، إنه لا يمل، فكلما استمعت إليه تجددت طرافته.

–وهل فيكم من فهم معنى النباح –مثلا– والنهيق؟..

–نعم، فهم ذلك "المكتب السياسي"، لأنه أكمل السهرة معنا لما خرج من الاجتماع، وقال لنا "إنه خطير".. فضحكنا عليه هو كذاك..

–وما رأيك في "المكتب السياسي"؟. سأله وهو يتظاهر أنه يمزح، فأجابه "بوخالفي":

–أو ما تكفيه هذه الكنية، فهي تدل عليه بحق، بلا موقف وبلا اتجاه، إنه ذيل ديك، هو كل الاتجاهات ضد كل الاتجاهات.

عاد "منصور" إلى الغرفة وأحضر له الشريط، وسلمه إياه، فقال "بوخالفي":

–أنا أدري أن لا سبيل إلى النوم، فسأقضي معه ساعات الأرق –وأكمل ضاحكا– أما إذا استيقظت أم الأولاد فالويل لي.

11

عشرة أيام كانت كافية لتوزع الأشرطة العشر، ولنسجل عنها عشرات الأشرطة الأخرى، وتسمعها عشرات الآذان، وتعجب بها عشرات الأذواق، وتمجها عشرات أخرى، ولكن تسمعها على مضض، بل تتظاهر بتذوقها والإعجاب بها، فقد يكون فيها حقا ما يتذوق ويعجب به.

عشرة أيام كانت كافية ليصير هذا الشريط حديث أهل القرية جميعا؛ فعلى أصواته المنكرة ينامون، وعليها يستيقظون وبمصاحبتها يأتون ما يأتون، ويدعون ما يدعون؛ فما تدخل دكانا إلا على نهيق ولا تخرج منه إلا مشيعا بالنقيق، ولا تمر قرب ثالث إلا قال لك النبيب:

هلم !. إن فهمت منه أنه يقول هذا أو ما يشبهه. ولا تلم بمقهى إلا رأيت الناس يشربون قهوتهم على صوت الدجاجة الواهن الضعيف أو النباح الحاد الغليظ، دون أن يجدوا في ذلك حرجا أو يتأففوا منه مجاملة، بل إنهم اندمجوا في الشريط اندماجا كليا..

حينها عرف الجميع أن بعض الجنون عبقرية، أو أن العبقرية شعبة من شعب الجنون، وإلا كيف لم يفكروا هم في تركيب هذا الشرط، وقد عاشوا مع الحمير وعرفوا الضفادع، وخاضوا في مستنقعاتها، ويا كم باعوا واشتروا من دجاجات، وكم ذبحوا من ديوك، وكم ربوا من سلالات الكلاب، كما أنهم يعرفون العصافير والتيوس والغربان التي لا تدور إلا على الجيف.

إذن فقد انتشر الشريط وشاع، وتفرق بين الناس وذاع، وقد شغلهم عن أحاديث السياسة والنساء وصراع الأحزاب، حتى أن "بوخالفي" صار لا يبيع كتبه القديمة إلا على أصوات هذا الشريط، وقد ساعده ذلك في جلب المتفرجين على الأقل، هؤلاء الذين كانوا يتظاهرون بتصفح الكتب وقراءة الفهارس وعناوين الفصول، وما أن ينتهي الشريط حتى يردوها إلى أماكنها، وفيهم من يتعلل بغلاء الثمن، والله يشهد أنهم غير مستعدين أن يدفعوا فيها ولو سنتيما واحدا !، ولماذا يكون ذلك منهم؟. فالوعي لا يريدونه، والمتعة ما أسهل ما يحققها التلفزيون.

ولكن أنى للسياسة أن تترك الأعمال الجميلة جميلة؟، لا بد أن توظفها، وإن تستطع لا بد أن تشوهها حتى لا يستفيد منها الخصوم.

فقد اهتمت الطبقة السياسية في القرية بهذا الشريط اهتماما لم يكن يتوقعه أحد، وجست به نبض الرأي العام جسا خبيثا خفيا، أزو كذلك ظنته، وما أكثر ما تطوف الظنون الحمقاء بالسياسة ورؤوس اصحاب السياسة. ولهذا فقد عقدت المكاتب البلدية لمختلف الأحزاب بهذه القرية اجتماعات سرية مضيقة، وبعد استماعها إلى الشريط حاولت العناصر المثقفة في هذه المكاتب –وما أقلها– أن تحلل الشريط وأن تفك رموزه كما فك "شامبليون" سر "حجم رشيد" من قبل، وما ذلك منهم إلا لكتابة تقارير ترفع إلى الإخوة والرفاق و"الشيوخ" في المكاتب المركزية بالعاصمة.

وقد كادوا أن يجمعوا أول أمرهم أن هذا الشريط الملعون حملة انتخابية سابقة لأوانها، ولكن ضد من، ولصالح من؟ !.. لا أحد يدري.. فعادوا واعتبروه مؤامرة تستهدف التجربة الديموقراطية الفتية في البلد، بل أنه استهزاء بهذه التجربة وسخرية منها ومن القائمين عليها والمصدقين لها.

أما "جماعة السلفية" في القرية فلم تكف نفسها عناء البحث عن حقيقة هذه الظاهرة، كشأن هؤلاء دائما حين يعرضون عن فهم الظواهر المتجددة، إنما يكتفون بتفسيرها أو تبريرها بما قال السالف الصالح وغير السالف الصالح، هذه الجماعة لم تكلف نفسها عناء شيء من هذا، بل قالت: إنما أملى عليه هذا المنكر أولياؤه من الشياطين وقرناؤه من الجن، وإنه لفي حاجة ماسة إلى رقية شرعية، ليقوم بعدها سليما معافى، زكي القلب، طاهر النفس، مثقلا بالندم، ليقبل على صلاته وصيامه كأحسن ما يقبل عليها التائبون.

أما "الإسلاميون" الذين لا يرون بأسا في ممارسة السياسة، ولا يجدون في ذلك حرجا، فما اختلفوا هذه المرة، ولا تقطعوا أمرهم بينهم زبرا كما يفعلون في كل أمورهم، بل إنهم اتفقوا على أن الشريط إيقاظ للفتنة النائمة.. لكنهم حتما سوف يختلفون في شأن السبق و"براءة الاختراع" !.. فارتقبهم وانتظر.

وتماشيا مع منهج الجميع الذي يستمد حجته من التاريخ، فقد نبشوا في تاريخ عائلة "منصور" وماضيها، وما أسهل وأسرع ما قالوا: إن جده كان إقطاعيا، ولم يكن على علاقة جيدة بثورة التحرير ولا جبهة التحرير الوطني، وأنه مات بالسكتة القلبية لما اممت الثورة أراضيه، وهذا دليل على أنه ضد المشروع الثوري منذ بزوغ فجره.

ومن أدراك أن منصورا كجده تماما تجري في عروقه دماء الإقطاع الزرقاء، ويحمل فيروس العداوة لأي مشروع ثوري طموح يستهدف إصلاح أحوال الشعب وتحسين معيشة الكادحين، وتحقيق الأمان والرخاء حتى يرعى الذئب الغنم كما كان ذلك في عهد "عمر بن عبد العزيز".

وقد حاولت الطبقة السياسية في هذه القرية أن تجعل منه خصما مشتركا أول أمرها، تواجه فيه حين تواجهه عدوا للتقدم والديموقراطية وحقوق الإنسان. لكنها – مع الأسف الكبير- طبقة سياسية منافقة، لا يلزمها عهد ولا تلتزم بوعد، ولا ترقب في علاقاتها إلا ولا ذمة.

أنا لست قاسيا عليهم.. هذه حقيقتهم، وإلا بماذا نفسر أنت أنهم كانوا يتسللون إلى داره خفية عن بعضهم بعضا، وينفردون به في الأزقة، بل ويدعونه إلى الغذاء أو العشاء، ويسألونه عن موقع حزبهم على الشريط، ويعرضون عليه بعض المال ليجعل منهم الديك أو التيوس، ويسألونه عن موقع خصومهم على الشريط، ويجعلون له أموالا أكثر ليجعل من هؤلاء الخصوم حميرا أو ضفادع أو غربانا !. فكان هو يأخذ منهم المال جميعا، ويعد هؤلاء بما يعد به أولئك، ويخلف وعده معهم جميعا، تماما كما يفعلون.. وللحق فقد تحسنت حياته المادية بشكل كبير.

وهكذا، فقد رأيت أنه ما أساء الظن بهم حين اعتبرهم شريحة اجتماعية منافقة، إلا قليلا منهم، لا يبحث أصحابها إلا عن الخروج من حالة الخمول والتهميش إلى دائرة الضوء والفاعلية الوهمية.

إذن، فقد خيبوا الظن واختلفوا في قراءة الشريط وتأويله، ومحاولة الاقتراب من رموزه ودلالاته، وما الاتفاق الظاهري إلا لتمرير الخديعة !.. يا للنفاق !!

لكن الرأي الذي كاد الرأي العام أن يستقر عليه، هو أن النهيق يرمز لكل جماعة سياسية أو إيديولوجية لا تستطيع أن تجدد خطابها، فصار صوتها منكرا ممجوجا بفعل التكرار والاجترار.

وكم يسيء الخطاب إلى طموحات المشروع الحضاري الذي لا يخلو من قيم إنسانية عالية جديرة بالتزكية والتثمين، لكن النية وحدها لا تكفي لجلب الماء إذا كانت الأواني مثقوبة.

أما الضفادع في المستنقع فترمز لكل جماعة من الناس أصيبت باليأس والإحباط نتيجة فشل المشروع التغييري الذي وضعت في نسقه؛ فشله في تحقيق طموحاتها في التقدم ميدانيا أو في إخراجها من الحالة المستنقعية –إذا سلمنا أن المستنقع دلاليا هو رمز للمجتمع الفاشل المتخلف – إلى حالة الطهر والانطلاق، فهي تتفاعل مع دعاة هذا الخطاب المهزوم بصوت منكر نكاية فيهم وشماتة بهم، بمعنى أنهم صاروا صدى للنهيق، وصار المستنقع مرآة عاكسة للمعطن. أما الدجاجة بصوتها الواهن الضعيف، فقد قال بعضهم: إنها رمز للجمعيات النسوية اليائسة من تحسن حالة المرأة في مجتمع ذكوري البنية والنسق، وإن سمى أجزاء البنية وقطع النسق بأسماء عليها من الحداثة طلاوتها ومن العصرنة نغمتها.

وقال بعضهم: إنما ترمز الدجاجة إلى أي جماعة سياسية أو إيديولوجية عقدتها المحن والفتن والتجارب التاريخية الفاشلة، فاستعذبت الوهن واستلطف الضعف، وصارت تخشى أن تغامر من جديد، بل صار الانسحاق والدعوة إلى الفشل، والدعوة إلى الهزيمة –قبل وقوعها- مقوما أساسيا من مقومات خطابها، بمعنى أنها جماعة أصيبت بداء "المازوشية السياسية" تسعى إلى تحقيق ذاتها بإنكار ذاتها.

أما الديك وصوته، فآه من الديك وصوته !!.. فكل جماعة سياسية تريد أن تكونه، بل تؤكد على أنها هو بأغلظ الأيمان وأعمق التحاليل؛ فالديك من جنس الدجاجة، كان يشبهها في مرحلة ما، لكنه لما كبر قرر أن يتخذ الأشجار العالية والكمات منبرا لتبليغ صوته صريحا فصيحا، لا لف فيه ولا دوران، بينما ظلت هي تخاف أن تبسط جناحيها في وجه الريح.

الديك يرمز —كما ظنوا- إلى الجماعة السياسية التي تقول ما تعتقد أنه الحق في صدق، دون كناية أو تعريض أو مجاز.. هي التي تغالب من أجل المطالب، وتعد الناس بالانقلاب الجذري الشامل. لأن الديك لا يصيح —في الغالب- إلا إذا كانت هناك بشائر انقلاب بين ساعات الليل وساعات النهار.

بل إن أحد المجاهدين القدامى قال للناس —وإن لم يجد من يوافقه — إن الديك يرمز لفرنسا، ومعنى هذا أن هذا الشاب المجنون يعيش حنينا مكبوتا إلى فرنسا، فلا بد أن يذبح !.. نعم، هكذا اقترح، ولو أخذ برأيه وذبح كل من يحب "فرنسا" لكانت المهزلة مدهشة !

أما النباح، فما أسهل ما حددوه.. إنه عدو الديك بالضرورة، إنه تلك الطائفة السياسية التي يمثل فمها تسعين بالمئة من جسدها.. فهي ليست إلا الصوت الأجوف الضخم، عايشت كل الحكومات، وعارضت كل الحكومات من حضن كل الحكومات، لا يختلف دورها في الساحة السياسية عن دور الديوث والقواد في المجتمع النجس المفكك. وقد أنكرت كل تشكيلة سياسية أن تكون هي المقصودة بالكلب ونباحه.

أما العصافير فهي رمز للمستقبل المشرق والغد الباسم الخصب الذي تعد به كل الأحزاب الناخبين.

أنا النبيب فقد كان أمرهم غريبا معه، وموقفهم أغرب حياله !.. ما علقوا عليه ولا أعطوا له تفسيرا.. ربما لم يشأ أي واحد منهم أن يكون هو البادئ بالتعليق عليه وتفسيره.. أتراهم لم يفهموا معناه؟.. هذا مستحيل، على الأقل تخمين، على الأقل ظن حتى ولو كان آثما.. !

أما الغراب، فهو أستاذ الجرمة باتفاق الجميع، وهو الدليل إلى الدم والجيف والأشلاء، وهو يرمز إلى الذين يملكون الرغبة في أن تعم الفوضى في البلاد.

هذا إن لم يكن صوت الغراب حشوا لا لزوم له، أملته ذهنية متشائمة، تعيش القلق والغربة.

وكم كان في ود الجميع أن تكون الزقزقات خاتمة الشريط، تحقيقا لطموح الشعب وآمال المستضعفين الذي عانوا طويلا وانتظروا فجرا، ربما لم تغزل خيوطه حتى الآن. تمنى الجميع أن ينتصر صوت الحياة، صوت المستقبل، لكن يبدو أن "منصورا" يعي ما يفعل، فقد رأى أن الحياة ليست جديرة بالحياة، وأن المستقبل ليس أهلا لذاته، وأن البشارات لا بد أن تنطمس وتنتكس حتى تتعلم أسماع الناس كيف تتلقى هتاف البشارات، وتتعلم عيونهم كيف تتعلق بأنوارها القزحية.

أما قراءة الأستاذ (حمدان) ذي الميول اليسارية المعتدلة —كما عرفت من قبل- فهي بعد أن وضحها وأسس لها، لا تختلف في خطوطها العريضة وسياقها العام عن قراءة الطبقة السياسية في القرية. لأن السياسة —في نظره، وأنا أتفق معه- ليست إلا أداة أو منهج عمل، للتمكين لمشروع ثقافي معرفي شامل، يهدف إلى تزكية مجتمع، وإعادة ترتيب حركته وفق تصور معين متميز.

من هذا المنطلق رأى الأستاذ أن الحمير بنهيقها المزعج ترمز إلى كل من لا يحسن تبليغ خطابه الإيديولوجي، لعدم قدرته على تجديد خطابه وتأثيث فضائه، وشحن أوعية اللغة بطاقة جديدة ومعاني جديدة. وبالتالي يسيء إلى رسالته ومثلها العليا، فينفر ويرغب عنها عوض أن يرغب فيها.

أما الضفادع في مستنقعها الآسن، فهي رمز لكل مجتمع تهيمن عليه هذه الإيديولوجية المحبطة ويصوغها هذا الخطاب المتهافت.. فهي رمز للمجتمع النمطي السكوني.. المجتمع المستنقعي المتشيء، الذي يحول إلى نسق حياتي رتيب، وتصير حياته أشبه بحياة الضفادع في حالة البيات، تأكل مما ادخرته عبر تجربتها التاريخية.

أما صوت الدجاجة، فيرمز للأمة التي استسلمت للقدر في تشكله التاريخي الذي صاغ مفهومه الإقطاعيون والبرجوازيون. فصارت هذه الأمة تتسلى بدموعها، وتتغنى وتفرح بتعداد آلامها ومواجعها التي صارت أغاني واناشيد.

أما صوت الديك فهو يرمز للحق والعدل والحرية، هذه القيم التي تختزنها كل نفس آدمية سوية العاطفة والإحساس. لكن الوضاع الاجتماعية المنحرفة تقهر هذا الصوت وتضغط عليه ليسكت أو ليتدجن. ورغم ذلك فإنه لا يموت ولا يتدجن، لنه أصيل في بنية الوجود الإنساني. ويحكم الحتمية التاريخية لا بد لهذا الصوت/ الرمز أن يظل حيا يقاوم وينطلق وينتصر، ويكسر بنية الحياة التي لا تنتج إلا العدمية، ويمضي بالحياة في حركة تقدمية نحو المستقبل.

أما النباح، فهو رمز للثورة المضادة والمنتفعين بالأوضاع الساكنة، المنتشرين بين أرجل الموائد والكراسي.. هؤلاء هم سدنة البرجوازية وسحرتها وحماتها المخلصون، لأنها هي مطمحهم وهدفهم، فهم يقدمون خدماتهم لها مجانا. وانهيار البرجوازية هو انهيارهم، وإن كانوا يستطيعون أن يلبسوا لكل مرحلة مسوحها، وأن يجدوا لكل نغم الرقصة التي تناسبه.

الكلب ليس سوى ناقوس المنتفعين بالانحراف.

العصافير –في نظره– ترمز للحياة المتدفقة المتجددة في كل رمشة عين، الماضية قدما، رغم شبكة المعوقات النفسية والأخلاقية والاقتصادية والتاريخية، التي تكون في مجموعها نسقا معرقلا وقامعا للحياة.

لكن الثورة بحكم جدلية التاريخ وسيرورته لا بد أن تنتصر مبشرة بفجر جديد، تضيء فتيله شروقه إشراقة إنسان جديد.

أما النبيب والتيوس فلم يقل فيهما الأستاذ شيئا، بل اكتفى بالصمت وعدم التعليق مؤقتا. إذن فالأستاذ جبان، والذين حوله جبناء، فالثوري لا يقر بوجود خطوط حمراء أو مناطق محرمة، وإذا أقر بذلك فهو ضد نفسه وضد مبدئه، والثورة عنده لعق باللسان.

أما نعيق الغراب– في تفسيره– فهو رمز للظلام والظلامين والفوضى والفوضويين، وهو رمز للاضطرابات التي تحدث حين يستطيع حماة البرجوازية أن يشاغبوا ويثيروا القلاقل عندما لا يستطيعون تبديل المشروع الثوري أو اختراقه أو تحويله عن مساره.

ولك الآن أن تعرف ما قاله "الشيخ"، فهو لم يكلف نفسه عناء البحث عن الشريط أو تسجيله أو الاستماع إليه. إذ ما ينبغي –كما قال لأتباعه– لذن ان تسمع القرآن آناء الليل وأطراف النهار، ما ينبغي لها أن تستمع إلى هذه المنكرات المبتدعة والبدع المنكرة. واكتفى بأن أصدر فتوى –من خلال ما نقل إليه التباع– تحرم هذا الشريط تحريما قطعيا، وقال للناس إن الله لا يجيز تسجيل هذا الشريط ولا ترويجه ولا الاستماع إليه ولا دفع ثمن فيه، ولا قبض ثمن منه.

وأكد لهم أن كل ما في هذا الشريط منكر يجتنب، وفاحشة يتنزه عنها، ولغو ما ينبغي الخوض فيه، بل الإعراض عنه أولى وأجمل وأحرى بالمتقين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون، مستشهدا على كل هذا بآيات بينات واحاديث شريفة.

فالحمير أنكر الله أصواتها، وضرب بها مثلا للذين يخونون أمانة التبليغ، كما أن إبليس دخل سفينة "نوح"(ع) ماسكا بذبي حمار، ولولاه ما عصي الله بعد الطوفان أبدا.

أما الضفادع فيها تتشبه الجن حين تريد أن تكيد للمسلمين، كما أن "مسيلمة الكذاب" خصها بالذكر لما أراد أن يعارض القرآن. أما الدجاجة فلا بأس بها لو لا أنها خالطت المنكر الكبير فتدنست، ونفس الحكم يجري على الديك، أما الكلب فالأسود منه شيطان، وبه ضرب الله مثلا للذين ينسلخون من آيات الله. كما أن جنس الكلاب قد عصى "نوحا" (ع) ونكح على ظهر السفينة. أما العصافير فصوتها منفردة لا بأس به، أما مجتمعة فمكروه لأنه يشبه الموسيقى ويشغل بالمتاع الزائل الفاني عن المتاع الخالد الأبدي.

أما التيس فهو وقح قليل الحياء شديد الغلمة، فينبغي الإعراض عنه لأنه لا يذكر إلا بالجماع. وأما الغراب فهو الذي علم ابن آدم كيف يستر الجريمة، ولو لاه ما قتل أحد أحدا بعد الجريمة الأولى، وقد عصى "نوحا" (ع) حين أرسله يستطلع له اليابسة.

ولا أحد يدري لماذا لم تجد فتوى "الشيخ" صدى في النفوس، ولماذا لم تؤثر في القلوب، وعلام لم يلتزم بها أحد من الناس حتى الأتباع المقربون؟.. فقد ظل الشريط يسجل ويروج، ويدفع المال فيه ويقبض، ويستمع إليه باستمتاع رغم ما فيه من منكر وفاحشة ولغو.

ولو كنت أنا مكان "الشيخ" لحاولت أن أفهم لماذا لن تلامس فتواي حرارة الحياة، فلم توقفها حين ارادت لها أن تتوقف، ولم تزد في اندفاعها إلى الأمام حين أرادت لها أن تندفع إلى الأمام. لو كنت أنا مكان "الشيخ" لفعلت هذا، لأن المر صار ظاهرة، إذ ليست هذه الفتوى الأولى التي لم تؤت أكلها، وليست الأخيرة بالتأكيد.

لكن الأمر سوف يبقى هكذا ما دام "الشيخ" منصرفا عن الحياة إلى التاريخ، وراغبا عن حميميات الحياة راغبا في مثالية الكتب المنتقاة بعناية فائقة.

وهناك قراءة أخرى لهذا الشريط لا تتفق مع مقاربة الأستاذ (حمدان)، ولا مع تحاليل الطبقة السياسية، ولم تأبه لفتوى "الشيخ"، غنها قراءة مقموعة ممنوعة.. القراءة الحرام. تستطيع أن تسميها "القراءة الجنسية" ولا حرج. قام بها المراهقون بحيث أسقطوا عليها مكبوتاتهم في هذه القرية، فأعطوها تفسيرا حسيا طريفا ظريفا، يغري بالاستماع، ويغري بالتصديق كذلك لتسلسله المنطقي. بل إنه في عقدته وحبكته وظلاله — ودون اعتبار للصدق عن عدمه- أحكم من مقاربة الأستاذ (حمدان) وقراءة السياسيين وتفسير "الشيخ".

ولم يكتف هؤلاء المراهقون بهذا فقط، بل أجروا حديثا أو حوارا يطول ويقصر بين هذه الأصوات، بل قال: أنهم حولوا هذه الأصوات إلى لغة الناس. ولو لا الحياء من الله، ثم مراعاة للذوق العام، وإيثارا للعافية، ومخافة أن تتشوه صورة هذه الحيوانات والطيور في أذهان الناشئة، لو لا هذا كله لقصصنا طرفا من هذه القراءة، ولأثبتنا بعضها للتفكه لمن أراد التفكه، وللسخرية لمن أراد أن يسخر، وللدرس والمقارنة لمن كان جادا فآثر الدرس والمقارنة.

وقد وجدت هذه القراءة من الانتشار والذيوع ما يثير الدهشة ويبعث على الإعجاب، حتى أن هذا الذيوع يكاد أن يثبت أن صاحبها ما قصد إلا هذا التفسير وما أراد إلا سواه، أما ما دون ذلك من القراءات فتحذلق وافتراء.

وقد حفل الناس بها لأنها مقموعة ممنوعة، لا يجاهر بها أصحابها، ولأنه قد ترسب في أعماق نفوسهم أن في هذا البلد لا يقمع إلا الحق ولا يمنع إلا الصدق، ولا يسجن إلا الرجال.

أما "عمي صالح"، وبما أنه من أنصار الحزب الذي كاد الإجماع أن يقع على أنه هو المقصود بصوت الديك، فقد مسجلته لا تتوقف عن إذاعة هذا الشريط، من بعد صلاة الصبح إلى بعد صلاة العشاء, فعلى أصواتها يشرب الزبائن قهوتهم، وعليها يدردشون ويجدون ويهزلون، وكلما صاح الديك كبر "عمي صالح" في فخر وكبرياء وصدق، أما عندما يطغى النبيب، فإنه يتظاهر أنه لم يسمع، لأنه مشغول بغسل الفناجين والملاعق وأشياء أخرى.

وإن انصرافه إلى هذا الشريط بكل عواطفه، قد أحدث بعض الجفاء بينه وبين "الشيخ" لو لا بعض المصالح التجارية التي أبقت على "شعرة معاوية"، فكلاهما يجامل الآخر إلى حين.

وربما قد تتساءل عن شأن "عمي محمد الخباز" مع هذا الشريط، إنه صار لا يبيع خبزه إلا على أصوات هذا الشريط. لكنه لاحظ أن الزبائن الذين يكنونهم "الحماريين" و"الضفدعيين" و"الدجاجيين"، لاحظ أن هؤلاء صاروا لا يشترون الخبز من عنده، إنما يفضلون عليه خبازا آخر، ولهذا خفف من حماسه لهذا الشريط، وصار لا يستمع إليه إلا سرا.. فللقمة العيش كذلك سلطتها على المشاعر والقناعات والمبادئ.

أما صاحب المقهى الموصولة بـ"البارابول"، فقد رفض رفضا مطلقا أن يسمع صدى هذا الشريط يتردد في مقهاه، وقال للمستفسرين واللائمين: "أنا أطلب لقمة خبز، ولست سياسيا، ولست من أنصار أي حزب سياسي".. أنا هنا في خدمة الحمير والضفادع والدجاجات والديوك والتيوس والغربان السوداء.. كلهم زبائني وأنا في خدمتهم، أستقبلهم بنفس الابتسامة، وأمسح طاولاتهم بنفس المنشفة ما داموا جميعا يدفعون نفس الثمن عما يشربون.

وقد أحدث هذا الشريط بعد أن ذاع وشاع، أحدث تنابزا سياسيا، بقدر ما فيه من الأذى لبعض الأطراف، به طرافة وفكاهة للرأي العام، أدخلت بعض البهجة إلى النفوس المثقلة بالألم، وبعض الخفة واللطافة إلى حياة القرية المنقبضة الثقيلة.

فقد صار الناس إذا رأوا أحدا من "الحماريين" نهقوا في وجهه أو وراء ظهره. وإذا رأوا أحدا من "الضفدعيين" نقنقوا أو "قرقروا"، حتى تخرجه هذه النقنقات أو "القرقرات" الثقيلة عن طوره المألوف وخلقه المعتاد. وإذا مر بالنس أحد "الدجاجيين"، بالدخول في تقليد أصوات العجائز والنساء حتى يدعون الدجاجات إلى دخول الخم عند المساء: "بيتي.. بيتي.. بيتي"..

أما "الديكيون" —كما ظن بهم وسرت عليهم الكنية– فكانوا إذا مروا بقوم جالسين، ورأوا بينهم مناوئين سياسيين وخصوما، أخذوا يضربون جنوبهم بأيديهم كما تفعل الديوك حين تهم بالصقاع والزقاء.

وبهذا الشريط الغريب، صارت القرية ركحا طويلا عريضا واسعا، تؤدى عليه مسرحية غريبة ليست بالملهاة الصرفة، وليست بالمأساة الخالصة، ولا يمكن أن نقول: إنها شيء بينهما؛ أبطالها كل من تحرك وظهر من خلف الستار، حتى وإن لم يقصد التمثيل ولم يسع إليه فذاك دوره بالضبط؛ يمثل دور من لم يقصد التمثيل ولم يسع إليه !.. كلهم على خشبة المسرح يحللون ويناقون، ويهاجمون ويدافعون، يعدون ويتوعدون، ويسألون ويسألون، ويتساءلون جميعا عن معنى جواب السؤال والجواب.. كل حركة تحدث، وكل كلمة تقال، وكل خطإ يرتكب، فذلك عين الصواب، لأنه وارد في النص المفتوح.

ولا تظن أن منصورا قد نجا من هذا الذي يحدث، أو أنه ظل يتفرج عليه وبين شفتيه تتأجج جمرة سيجارة.. كلا، فقد أصابه شواظه، وطارت إليه بعض شظايا الانفجار.

فقد هدده بعض ضحايا الشريط بالقتل، وتوعده أبناء الضحايا بالانتقام والثأر، وأسمعه آخرون كلاما بذيئا فاحشا، ورمى "الضفدعيون" داره بالحجارة، ومن حسن حظه أنه ما اعتاد فتح النوافذ والأبواب !.. ولقد سره ذلك كله أيما سرور. أما "الدجاجيون" فقد سدوا باب حديقته بالأوساخ والقمامة ليلا، وكتب شاعرهم قصيدة يهجوه فيها، وقد سرته القمامة والأوساخ، وبدرجة أقل سرته القصيدة، لأنها نظم وليست شعرا.

وقد كان ينتظر أن يدافع عنه "الديكيون"، لكن شيئا من ذلك لم يحدث، لأنهم لم يجدوا فائدة تذكر في الدفاع عن مجنون.

كل هذا حدث، وكل هذا ماض والدولة في صمتها المريب، غير آبهة بما تسمع، وغير عابئة بما ترى. لكنها في الأخير وجدت نفسها مضطرة تحت إلحاح الإشاعات والظنون إلى أن تتحرك، خاصة، وأنها لم تنج هي كذلك من غمز وهمز ولمز وجده الناس مبثوثا في حنايا الشريط، وظلوا يكتمونه ولا يبوحون به إلا للخلصاء وأهل الثقة من الأصدقاء.

وقد شاع خبر مفاده أن الدولة قد قامت بتحليل الشريط وقراءته، واستنتجت منه ما جعلها تأمر رجال الأمن أن يلقوا القبض عليه، بحجة إخماد الفتنة وإلجام الفوضى. وقد كان لها ما أرادت، وطبيعي جدا أن يكون ذلك، فلا أحد يستطيع الهروب من الدولة.

12

لما صار مرميا في القفص المعدني لسيارة الدرك الوطني، وكانت يداه مقيدتين، تذكر نظرة الأسود القلقة من داخل أقفاصها في حدائق الحيوانات. وتذكر كذلك نظرة القرود وهي تنط بين القضبان مع فرق "السرك".. لم يدر إلى أي الصورتين هو أقرب، وبأيهما هو أشبه.

قد يكون أقرب إلى صورة الأسد، لأنه استطاع أن يستثير الدولة، ويخرجها عن حلمها العميق، تماما كالذبابة التي تستطيع أن تغضب الأسد فيزأر ضيقا وانزعاجا.

وقد يكون أقرب إلى صورة القرد، لأنه أضحك أناسا وأزعج آخرين، وحول هذه القرية إلى "سيرك" كبير.

يداه مقيدتان ومربوطتان إلى قضيب من قضبان القفص. وكان بإمكان الدولة أن تستغنى عن هذا كله، فيكفيها أن ترسل إليه مع "بوخالفي" –مثلا– أو "عمي سعيد الزبال"، ليذهب إليها طائعا مختارا، دون أن تثير شهية الناس للقيل والقال والكلام الفارغ.

ولما كانت السيارة الداكنة الخضرة الناصعة البياض تتسكع به في شوارع القرية، لقضاء بعض اللوازم الخاصة، أو رغبة من رجال الدرك في عرضه على الناس، ولسان الحال يقول: "ها هو.. لقد ألقينا عليه القبض، لا احد يفلت من الدولة، فذراعها طويلة، وسمعها مرهف، وبصرها حديد، وعضتها !.. لكم الويلات من عضتها !.. ها هو ولن نعيده إلا وقد شفي من جنونه".

لما كانت السيارة تتسكع به كالمرآة المغناج أمام أعين الرجال الجائعة، تذكر الكثير من الأحرار والثوار، وقد أحاطت بأيديهم مثل هذه الأساور.. تذكرهم وأقوامهم يكرمونهم فيرفعونهم فوق أعواد المشانق، وتوضع عنهم اعباؤهم بين أضراس المقاصل.. شعر بالزهو والفخر لأنه قد يصبح واحدا من هؤلاء، وفي نفس الوقت شعر بالخوف والإشفاق، وأحس كأن حبلا مفتولا حول رقبته، يقطع أنفاسه لتجحظ عيناه، لتصير صورته تبعث على الأسى والأسف والرثاء.. بل إنه رأى رأسه يتدحرج على بلاط بارد، وفي عينيه ما زال يضطرم لهب الفجيعة..

شيئا آخر يكون الناس والحياة، حين تطل عليهم من قبضة الدولة !.. ما زال يحب الحياة بكل ما فيها من طيبات وخبائث، ولهذا استبعد أن يكون جديرا بموتة مروعة رائعة.

أوصلوه.. أنزلوه، دفعوه أمامهم، ركله أحدهم دون داع للركل، اعترض آخر، أما هو فقد كان منضبطا وملتزما. في الرواق فاجأته لكمات سريعة ومركزة، حتى أنه لم ير من ضربه، ولم يحدد الجهة التي تأتي منها اللكمات، ولهذا لم يقاوم، وكيف يقاوم ويداه مقيدتان؟!. تمتد من خلفه لتفتح بابا أمامه، ليجد نفسه مرميا على بلاط بارد، يكمد بأطراف أنامله آلاما حارة في وجهه.. تذكر نصيحة أمه ألا يمشي حافيا على البلاط.. ها هو الآن كله على البلاط البارد !!.. ما عساك يا أمه تفعلين؟.

لا شيء في هذه الغرفة سوى كرسيين معدنيين، تفصل بينهما طاولة، وسوط كذنب البقر معلق في مسمار دق في الباب، وسورة للرئيس حوصرت في إطار خشبي، معلقة على الجدار هي كذلك، كأنها تنتظر من يحقق معها أو تحقق معه.. وهناك طنين ذبابات، كأنها أدخلت عمدا هنا، لتلطف الصمت المخيف، ولا شيء بعد ذلك سوى الفراغ ينعكس في مرايا ذاته ومن حسن حظه أن صورة الرئيس تؤنسه وتواسيه.. إذن فما عليه من بأس.

وفي انتظار أن يدخل أي واحد لأي شيء، وطردا للخوف وانشغالا عن الفراغ، راح يفكر لماذا تصير الحرية مزعجة للدولة، وما هي الأدوار التي تمر بها دولة ما لتصير نقيضا للحرية، ولماذا لم يستطع الثوار بدءا أن يدعو الناس إلى الحرية في إطار فكرة الدولة، أو لماذا لم يجعلوا من الدولة ثورة مستمرة.. ما وزن الدولة التي تزعجها الحرية؟، وأية حرية !، وقد كانت بالأمس القريب تزعج بها الآخرين.. في الأخير تأكد أن الحرية والإنسانية وجهان لعملة واحدة، فحيثما وجدت الحرية يطلق الإنسان صرخة الميلاد، وحيثما يوجد الإنسان تتوهج شمس الحرية..

بمثل هذه الأفكار الوردية يستعين المساجين على تجاوز الجدران والسجان والقضبان، والطيران في براري الوهم أو الحلم كالجوارح. وكما أمسك إبليس بذيل الحمار ليدخل سفينة "نوح"، فقد أمسكت بذيل هذه الأفكار الجادة خواطر مضحكة لتدخل قلبه وتشغل فكره، وتروح عنه بعض ما يجد.

تذكر شريطه الملعون، وما فيه من أصوات، وكيف تخربت هذه الحيوانات، وانخرطت في الأحزاب المعتمدة، لتمارس حقها المدني في الترشح والانتخاب، ولك أن تتصور ما ينبني على هذا الحق المدني من فوضى ومهازل ومضحكات كالبكاء.

-هل أكرمتموه؟. هكذا تناهى إلى سمعه صوت من الرواق.. فعلا إنه جائع..

أجابه صوت كأنه يصدر من آخر الرواق:

-نعم.. فعلنا ذلك، عندما تدخل عليه أنظر إلى عينه اليسرى.

-حسن جدا. قالها بلغة فرنسية هذا الذي يبدو أنه في الرواق.

مد أنامله إلى عينه اليسرى فألفها منتفخة توجعه، فعرف ما معنى الإكرام، وضحك لأنه أدرك وجها آخر من وجوه الاحتيال على اللغة.

فتح الباب، دخل عليه أحدهم يعرفه جيدا، بينهما ألفة سابقة، جلس على كرسي معدني، وأمره أن يجلس على الكرسي الآخر ففعل.. وكانت الطاولة بينهما –على صغرها– كأنها صحراء واسعة يتراقص فيها السراب.. كل شيء يفصل بين المواطن والدولة يكون واسعا وإن دق ورق..

على الطاولة وضع الدركي بعض الأوراق، ثم قام وأحضر السوط ووضعه مع الأوراق.. فاحتار "منصور" أيهما يكمل الآخر، إن كان السوط يكمل الأوراق، فالأمر رائع ولا بأس به، أما إن كانت الأوراق تكمل السوط، فإنها الكارثة. ومهما يكن من أمر، فقد عقد النية والعزم على أن يقول الحق والصدق. لأن الصدق إن لم ينج فإنه لا يوبق ويردي، وإن لم ينفع لا يضر.

ولأن الدركي يعرفه جيدا، فقد سجل عنه الكثير من المعلومات دون أن يسأله، وبعدها سأله بلطف، وأي لطف لمن قدامه السوط !؟:

-ما رأيك في السياسة؟. أحس "منصور" أن الرئيس هو الذي يسأله، فرفع إليه عينيه، فرأى على ملامحه الصرامة والحزم، فأجاب دون أن يرجع عينيه عن وجه الرئيس:

-أنا لست سياسيا، ولا أحب أن أكون سياسيا.

-لماذا؟.. أو ليست السياسة بابا من أبواب الرزق، ومجالا مهنيا لتشغيل المتقاعدين البطالين؟.. إنهم يقبضون رواتب مغرية.. حتى المعارضة تقبض !

وكان جبين الرئيس قد انعقد كعلامة استفهام، بعدما تغضن من كثرة المشاكل والهموم، فأجابه:

-إني أطمع أن ادخل الجنة. هنا ارتفع السوط وهوى على كتفه، كأنه كان موصولا بزر كهربائي.

-إذن أنت من "الهجرة والتكفير" !؟.. وهل الجنة من إقطاعيات جدك حتى لا يدخلها السياسيون؟ !. ولما سكت عن هذا المحقق الغضب، عاد ليسأله:

-ما رأيك في الأحزاب السياسية في هذه القرية؟.

-عمل رائع قامت به الدولة لامتصاص البطالة وإثراء حديث المقاهي، وتكوين الممثلين، وشغل الناس عن السياسة.

وحين وقعت عينه على عيني الرئيس رآه كأنه استحسن هذه الإجابة، ولو استطاع لعض شفته السفلى كمن يحذره ألا يذيع هذا السر، وألا يبوح به لأي كان.

-أي الأحزاب أقرب إلى قلبك.. يعني مع أي حزب تشعر بالتعاطف.

-أقرب حزب إلى قلبي هو ذاك الذي شعاره: "الحق والعدل والحرية".

-بمعنى أنك غير منتم؟

-نعم –أجاب وعيناه في عيني الرئيس- فرآه كأنه يقول له ساخرا: "من هذا المنطلق ستبقى غير منتم لو عمرت عمر سيدنا "نوح"".

-ما رأيك في أصحاب اللحى.. بمعنى في أي شيء يختلفون عن الآخرين؟

-يختلفون عن الاخرين بالعباءات واللحى.

-لا .. لا قصدي من حيث المشروع السياسي، فهم يقولون: إنهم يريدون الدولة الإسلامية؟..

نظر "منصور" إلى صورة الرئيس، فرأى على ملامحها ما يشبه الريبة والانتظار القلق، فأجاب:

-فيهم الصادقون، وفيهم قوم يدعظون فقط.

-ما معنى يدعظون؟

-معناه يطعزون، من الفعل الثلاثي "طعز".. يطعز..

وهنا تهللت أسارير الرئيس، ولو لا الوقار البروتوكولي لضحك، وقام المحقق من مكانه، وراح يتحرك في الغرفة الضيقة، ويمناه تضرب راحة يسراه بالسوط، فينثني كما تنثني الراقصة الماهرة الرشيقة على ذراع مراقصها. بينما ظل هو هادئا، وعيناه تتحركان على وجه

الرئيس في هدوء، كأنهما تحاولان أن تقرأ شيئا في هذه الملامح الهادئة المنضبطة، ذات النظرة المريبة، التي لا تشعرك بالاطمئنان الكامل، ولا بالخوف اللازم الذي يجعلك تحتاط وتتخذ الأسباب.

-أنت لست هنا من أجل الذي مر –عاد المحقق يسأله من جديد- أنت هنا من أجل الذي سوف يأتي. أنت هنا من أجل شريط "الكاسيت"، الذي أحدثت به فوضى وفتنة، ودشنت به الحملة الانتخابية قبل أوانها.. من الذي دفعك إلى ذلك، وبم وعدك، وكم أعطاك؟.

-في الحقيقة يا أخي..

-أنا لست أخاك !- قاطعه المحقق وهو ينبهه بلسعة سوط على كتفه- أنا هنا القانون، والقانون لا أم له والدة ولا أب حتر يكون له إخوة.. هنا لا أخوة تجدى، ولا رحمة تنفع ولا دموع تشفع.

لم يشأ هو أن يتألم، رغم أن الضربة أو الجلدة أوجعته، لأن التألم قد يغرى هذا بالمزيد، وحتى لا يشعر كذلك أنه حقق رغبته، ونال بغيته بالسوط.

-يا حضرات.. تعرفني أعيش وحدي بلا أنيس، شعرت ذات مرة بغربة قاتلة، بفراغ فظيع يجتاحني، شعرت بمساحة مظلمة في قلبي تتحرك وتكبر، ملأتني بالوساوس والأشباح، فأردت أن أقاوم الغربة والخوف والوساوس، فكان هذا الشريط..

-هذا جواب تقنع به الحمقى والمغفلين أمثالك، أما أنا فلا.

-ومن أنت حتى لا تقتنع؟. سأله "منصور" دون أن يسحب عينيه من وجه الرئيس.

-أنا الدولة يا وقح !.

وإذا الرئيس قد اعتم عمامة كعمامة "محمد علي"، وصار ذا لحية كلحية "بربروس"؛ ولسان صارم يتدلى كسيف "الحجاج"، والجواري حولة كفراشات الربيع يتهادين حوله، ويتمايلن بكؤوس الخمر والمبخرات، وينثنين كأغصان البان، ويدخلن أيديهن الناعمة، ويضمخن بالطيب ما تحت عباءته، والفقهاء والشعراء والحكماء وتجار الحكمة، على صدى قرع الأقداح يتناقشون ويمارسون لعبة التزحلق على قشر الكلمات، ويستعرضون ذكريات الكفاح وأيام الاستعمار والصراع الطبقي، وباقي الأوهام والحلام الوردية التي صارت نكتا تؤلم طرافتها. حين أفاق رأى الرئيس ينظر إليه في صمت، بينما واصل المحقق يسأله:

-ما لك؟.. هل أغمي عليك.. هل أوجعتك الضربة، لا بد أن تعترف بكل المعاني والرموز السياسية التي أودعتها في أصوات الحيوانات.

وجد في نفسه رغبة ملحة في البكاء، لكنه تمالك نفسه وقال بصوت ضارع:

-يا حضرات.. لقد قولوا هذه الحيوانات والطيور ما لم تقله !.. يا حضرات أنا بريء، إنما السياسة تلقي بظلالها الكريهة على كل شيء استنطقوها هي.. أنا بريء يا حضرات.

قالها بصوت مرتفع نوعا ما، لكن السوط كان له بالمرصاد:

-لا ترفع صوتك فوق صوت الدولة. !

-لم لا أرفع صوتي –قالها مهتاجا وعيناه تتأججان غضبا في عيني الرئيس- عندما كنت صغيرا قالت لي أمي لا ترفع صوتك فوق صوت والديك، فنشأت عاقا، وفي المدرسة قالوا لي: لا ترفع صوتك فوق صوت المعلم، فطلعت جاهلا، وفي المسجد علموني ألا أرفع صوتي فوق صوت الإمام، لأن ذلك لغو، فتعلمت النجوى والنفاق، وها أنت تقول لي: لا ترفع صوتك فوق صوت الدولة، فأعلنت في غرفتي دولتين ورفعت في سماها رايتي، ورفعت فيها صوتي، ليرتد إلي صداي غير محرف ولا مزيف ولا مشوب.

-قلت يا متشرد لا ترفع صوتك فوق صوت الدولة !. هكذا يسكته المحقق، وهو يحاول في عصبية بالغة أن يسد فمه بمقبض السوط، لكن "منصورا" ينحرف قليلا لينزلق السوط على صفحة خده والرقبة، ويقول كالمتحدي:

-وما الدولة هذه؟ !. فيجن جنون المحقق ويدفع "منصورا" بقبضته قائلا:

-هي التي تستطيع أن إسكات الحمقى حين يرفعون أصواتهم.

ورغم الألم الشديد في الظهر والدبر، فقد رد عليه وهو واقع أرضا.

-الدولة عندي هي التي تستطيع أن تستمع إلى الحمقى حين يرفعون أصواتهم، دون أن ترى في ذلك إزراء بها أو حطا من شأنها.

يساعده المحقق على الوقوف والجلوس، ثم يقول له بنبرة زاجرة:

-أنت هنا عند الدولة، تتكلم حين تسأل، وتصمت حين تزجر، وتفعل ما تؤمر، ولست في مقهى "عمي صالح" تمارس جنونك الهزلي !.. أجبني: ماذا تقول حيوانات الشريط لبعضها البعض؟.. أية رسالة سياسية تريد أن تمررها، ولصالح من؟.

-يا حضرات، لقد أجبتك من قبل، أنا لم أقصد شيئا، إنهم هم الذين ألبسوها هذا المعنى، لقد كانت هذه الحيوانات موجودة، وتصدر أصواتها ما دعتها الضرورة إلى ذلك.. ولم يقل أحد من الناس أنها تعني هذا الحزب أو ذاك، أو تحط من قيمة هذه المؤسسة أو تلك، فلماذا يحدث هذا فقط عندما سجلتها أنا؟ !.. إنها مؤامرة ضدي.. إنهم يريدون تصفيتي، فاحمني يا رئيس.

-الرئيس في العاصمة يا مجنون، والعاصمة بعيدة جدا.

-عفوا.. فاحمني يا حضرات. ثم يرفع عينيه إلى صورة الرئيس ليكمل قائلا:

-احذروا السياسة فقد شوهت كل شيء.. إنها سوس القيم والمبادئ.

ظهرت على وجه الرئيس ابتسامة سخرية.. نعم، ابتسامة سخرية، واضحة المعالم، .. كأنه يريد أن يقول: "نحن لا نريد من أي أحد أن يعطينا دروسا".

-الآن يجب عليك أن تنهق كالحمار، ولا تتوقف حتى أشير إليك بالتوقف.

-هذا عيب يا حضرات !.. إني إنسان، ويمكنني أن أتفاهم معك باللغة.

-العيب في الجامع يا قليل الأدب !.. الدولة لا يعترض عليها أحد.

وبدأ "منصور" ينهق كالحمار، فاعترض عليه المحقق قائلا:

-ارفع صوتك.

-أما قلت لي: لا ترفع صوتك فوق صوت الدولة؟. !

-لا .. هكذا ارفع صوتك فوق صوت كل الدنيا إن استطعت.

ولما وجد نفسه مكرها على أن يرفع صوته، ندم كما لم يندم من قبل. ندم على أول يوم قرر أن يكون فيه مجنونا ليعرف الآخرون مستواهم العقلي. أشار إليه بالتوقف وسأله:

-يكفي.. ماذا تريد يا حضرات !.. أنا لست حمارا لأفهم النهيق.

وللاختصار، فنفس الشيء فعله مع باقي الأصوات التي في الشريط، وأثناء ذلك وجد المحقق نفسه مدفوعا إلى الضحك، وكذلك "منصور"، فقد ضحكا معا بكل عفوية وانشراح كأحسن ما يكون الصديقان حميمية وخلة.

-يا حضرات لقد قولوا الحيوانات والدواجن ما لم تقله، كشأن أمثالهم القدامى من الجبناء التافهين، الذين خافوا أن يجري الحق على ألسنتهم، فأجروه على ألسنة الحيوانات والصبية والجن والمجانين.

لم يعلق المحقق بشيء على ما كان يسمع، إنما سأله وقد التزم الوقار:

-كيف استطعت أن تقنع الناس أنك مجنون.

-لأنني مجنون حقا يا حضرات.. –ثم رفع عينيه إلى صورة الرئيس وواصل كلامه– لم لا يصدقون الذين من قبلهم أن رسل الله مجانين وسفهاء ومعتوهون.؟.

يا حضرات إن عقل القطيع في أذنه.

نظر المحقق في ساعته، وجمع أوراقا سودها وأخرى ما زالت بيضاء، وأعاد السوط إلى مكانه، وأغلق الباب خلفه وخرج، ليبقى هو وجها لوجه مع الرئيس، ويا لها من نشوة غامرة أن تبقى وجها لوجه مع الرئيس.. !

تتملكك في البدء حيرة تحدثها رهبة الملك، ثم بعدها تحس أنك في حاجة إلى صرقعة الأصابع وتفقد الهندام.. في هذه اللحظة بالضبط تخشى أن تكون فتحة السروال مفتوحة.. إنها لفضيحة كبرى إذن.. تتسلل عيناك خفية عن الرئيس.. الحمد لله هي مغلقة.. هذا جلال الملك يشعرك أنك غير لائق ولست في المستوى.. بعدها تحتار ماذا تقول وكيف تقول.. تحتبس الألفاظ، يجف ماء المعاني، تشعر أن الكلمات كلها ليست في مستوى المقام.. إنها هيبة الدولة حين تغمر البسطاء، أو حين تفاجئ البسطاء.

ورغم هذه المشاعر الخجلى، فقد استطاع أن يستوي في قعدته، ويسند ظهره إلى الجدار، ويخاطب صورة الرئيس بعد أن قمع ثوباء لذيذة:

-سيدي الرئيس:

أحييك بما شئت من التحيات، فأنا أعرفها من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.. أحييك كما تحب وترضى.. أحييك بصفتك مناضلا ومجاهدا، وثوريا ورفيقا، وأخا ومناضلا، وسيدا وأبا للأسرة الثورية، وقائدا لمسيرة التصحيح والقائد العلى للقوات المسلحة.. ما أعظمك يا سيدي.. كيف استطعت أن تكون كل هؤلاء !؟

أحييك بتحية أهل الجنة، ولكني أخاف أن يجد عليك الشيوعيون في أنفسهم، ويتهموك بـ"الأصولية"، وما أريد أن أضيف إلى مشاكلك مشكلة أخرى معهم.

أحييك بـ "صباح الخير أيها الرفيق"، وحينها ما أظنك –تسلم من لسان "الخوانجية"، وربما قد تجد نفسك خارج ملة النبي (ص).

أحييك بـ" أنعمت صباحا يا أخا العرب".. وهل تظنن أن دعاة العنصرية عندنا سوف يسكتون؟.. إنهم سرعان ما يدقون الطبول وينفخون في الأبواق، ويثيرون النقع الاصطناعي، لينجلي بعد هنيهة، وأنت موصوم وموسوم بـ "البعثية".

بماذا أحييك يا سيدي؟..

أحييك بـ "Bonjour"، ولكني أخاف عليك من "الأسرة الثورية" التي سوف تستنفر عظام الشهداء، وما يزيد عن أربعين سنة من التاريخ.. وقد تستطيع أن تقلب بك الكرسي، وأنا لا احبذ أن اكون سببا في ذلك.

وأعرف كيف أحييك تحية عسكرية، لكني لا أحب أن أكشف ما تود أنت إخفاءه خلف النظرة الوديعة، والبدلة الأنيقة، وربطة العنق الحريرية الملساء ذات البريق اللطيف الشفيف.

وما رأيك سيدي الرئيس، لو أحييك –على سبيل المداعبة والملاطفة ليس إلا- بتحية "رعاة البقر"..؟

ولكن من يضمن ألا يتحرك غلاة الفرونكفونيين، وأشياعهم من أدعياء اليسار المتبرجزين، ويتهمونك بالتفريط في مصالح استيراتيجية..؟..

بماذا أحييك يا سيدي؟.. !

وكل الكلام لدينا كما ينتهي –سيدي- يبتدئ.

وكل المعاني لدينا يلغمها الأدعياء، وكل السواقي بلا مورد.

لقد لغموا كل حرف جميل.. وكل المعاني صداها صدى..

أضعنا ملامحنا في المرايا العقام، بها النور لم يولد.

وبعنا خطانا التي سددت إلى الأنبل الأعظم الأرشد..

وعدنا جياعا حفاة عراة، وصرنا قطيعا بلا مرشد.

تمر بنا الذكريات الغوالي، ولكن تمر بدون غد

بماذا أحييك؟.. إن كنت تدري أجبني، أجبني يا سيدي.

فكل اللغات –كما قد رأيت- بدون اتجاه ولا مقصد.

يسكت قليلا، كأنه ينتظر من الرئيس المعلق على الجدار أن يجيبه.. كأنه لا يعرف أن الرئيس –أو من صورة الرئيس- بشيء، غير نظرة عميقة الصمت، كأنها تختزن أسرار مدهشة، وأصل كلامه كمن أقام حجته:

-كما قد رأيت الجميع، فكل الكلام عجين، وكل الكلام بلا مقصد.

وذاك الذي أسهر النوم في مقلتي، ودر السهاد على مرقدي.

بماذا أجيبك يا سيدي؟.

يلجأ إلى الصمت قليلا، ربما ليسترد أنفاسه، أو ربما ينتظر أن يرى شفتي الرئيس تتفرجان عن ابتسامة حانية، ويده تمتد لتربت على كتفه في حنان، مراعية الآلام التي أحدثها السوط، ثم يقول له:

-لا عليك يا ولدي.. حيني بما شئت، وأشك إلي بثك وحزنك، فلكم يعجبني أنه يعجبني أن أستمع إلى الناس بلا ترجمان، وألمس جراحاتهم وآلامهم بدون قفازات عازلة.

لكنه لم يسمع من الرئيس حتى همس الشهيق والزفير، كأنه يخرج أنفاسه مثقوب مساماته، حينها قال له:

-كما تراني يا سيدي الرئيس، ها أنا مرمي كجيفة تعافها حتى الذئاب والكلاب.. ومثلي مئات مرميون كالجيف في الأقبية الرطبة، بغير ذنب اقترفوه أو جرم اجترحوه، سوى أنهم صدقوك لما ظهرت على شاشة التلفزيون، تبشر بالعدل والحرية وصيانة الحقوق في إطار مصلحة الجماعة وحقوق الأمة. وإني أعيذك بالله سيدي أن يخزى من صدقك، لينعم بالأمن والأمان من كذبك.

-مثلي مئات المظلومين مرميون خلف جدران السجون، ينتظرون عفوا منك، حينها يسترجعون إنسانيتهم وكرامتهم، ويعودون إلى ديارهم.. إنهم مثلك يحبون أن يكبر أبناؤهم بين أيديهم، ويعجبهم كذلك أن يفتكوا من قبضة الأيام بعض الرحيق المغتصب من وجوه نسائهم..

قاس جدا أن ذوي جمال الربيع بلا قاطف، أو يجف ماء العناقيد بلا شارب..

مثلي عشرات المقهورين، انتابتهم الرعشة الوجودية، فأرادوا أن يمدوا قامتهم في وجه الشمس، ليكتشفوا طول ظلالهم، وأن يعرفوا أصواتهم ليعرفوا حجم صداها، ولا يحول بينهم وبين ذلك إلا إشارة سامية منك، وما أظنك سوف تحرمهم منها، فالحر لا يعلو قدره إلا بين الأحرار، والكريم لا يترفع ذكره إلا بين الكرام، والسيد السيد لا يهزه إطراء عبيده وغلمانه، بقدر ما يهزه ثناء السادة والنجباء. فكن فردا من شعب حر، ولا تكن ملكا لقطيع من العبيد والخصيان.

سيدي الرئيس:

في الوطن عشرات الآلاف من اليتامى والأرامل، تعسر عليهم أن يضمنوا لقمة خبز ناشفة، لكن يحدوهم أمل عجيب في أن يوما يأتي، وتعطف عليهم بنظرة حانية سامية، فتسبغ عليهم شيئا من أرزاق هذا البلد. وما أسعدك عندما تكون نائما، بينما أرملة يقظانة تدعو لك في سجودها بالستر والعافية.. وما أعظمك حين يناديك كل يتيم "أبي".. إذ ذاك تستطيع أن تستغني عن الحراس، لأن الشعب كله حراس، وتستطيع أن تستغني عن السيارة المصفحة، بعدما صفحت الوطن كله بالحق والعدل والحرية.

أنا وأنت –يا سيدي- سجينان؛ إنا تحاصرني أربعة جدران، وبعض القوانين التي لا تشك أنت شخصيا في تفاهتها، ومن حسن حظك أنها صارت لا تجري عليك، فهنيئا..

بينما أنت تحاصرك آلاف العيون المفجوعة، وآلاف الأفواه الجائعة المقموعة وآلاف القلوب القلقة الحيرى، وآلاف السواعد المفتولة العاطلة عن العمل، وآلاف الأقدام العاطلة عن المسير.. تحاصرك آلاف الأماني المهيضة الجناح، وآلاف الصدور التي ثقبها الرصاص في الساحات العمومية.. تحاصرك ملايين الجدران وملايين "القضبان"، "فعلى أي جانبيك تميل" ؟ !

أما والله لو كنت مكانك سيدي، لتمردت كما يتمرد البسطاء، ولتظاهرت وجهرت بالسوء من القول كما يفعل المظلومون، ولهمت على وجهي في البراري والبوادي كالسائحين، عاريا من كل شيء، إلا من ذنوبي وخطاياي.. أي جحيم هذا الذي أنت فيه؟. !

كن مثلي، تظاهر بالجنون، وتحرر، وارم عنك الابتسامة الصفراء ذات المقاسات المحددة، ومزق عنك الأقنعة التي تضغط على وجهك، لقد ضيعت ملامحك الأولى، ويا ويح أمك يا سيدي حين تبحث عن وجهك فلا تجده، وتريد أن تكون أنت الذي كنت من قبل فلا تستطيع !

لقد صار وجهك تحت القناع قناعا.. حرر خطواتك من أغلال الكاميرات، واجر واقفز واعط الحرية لبنان رجليك في خف نسوي مثلي، لقد أرهقتها الأحذية الرئاسية اللماعة.

هنا رأى كأن وجه الرئيس استفهاما يشبه التكذيب، أو يشبه الريب، فأكمل يؤكد له ذلك:

-صدقني يا سيدي الرئيس، وإن شئت جرب، وسترى أي شيء غريب عجيب تكونه الأنثى تحت الأصابع الحرشاء !

لا تقمع في نفسك براءة الحياة وعفويتها، كي يراك الآخرون كما يحبون، كن كما تحب أنت، وإن رفضوا فارم إليهم بالمفاتيح واخرج غير آسف عليهم، وعلى ما هم فيه من زخرف، وإن سدوا في وجهك الباب فاقفز من النافذة، وقد ينتبهون قبلك فيحاصرون النافذة، فاقفز من فوق السور، وأنت تصرخ: "ابحثوا لكم عن قراقوز غيري، تدسون في أحشائه أصابعكم الآثمة، وتحركونه كما يحلو لكم". اقفز من فوق الجدار المحصن، وستجدني خلف الجدار.. أي في الشارع، وفي أقل من رمشة عين نتلاشى في الناس كالناس.

ستجد الكثير من الطيبين مستعدين أن يدفعوا ثمن فنجان قهوة، وآخرين يدفعون ثمن صحن من حمص ضوعف زيته، أما الهريسة فكما تشاء. ومن السهولة بمكان أن نعثر على سريرين في حمام. أما البق فلا أحد يضمن شيئا لأحد.. أنت ونوعية جلدك !. لكن بمرور الأيام، سوف يخشوشن جلدك، ويصير لا تؤذيه حتى لسعات العقارب.. أي نعم سيدي الرئيس، لماذا تخاف أو لماذا تتعجب.

يكفيك أن تنام واصابعك تخلل شعر حريتك الطليقة، وتتلمس في دهشة صوفية مفاتن جسدها الملكي.. سوف تجد في الشارع من يعلمك لتصير ميكانيكي سيارات، أو حلاقا أو طباخا. كما تجد في شارعنا كيف تقترف بعض الذنوب من صنف اللمم، لتبقى دائما تشعر بالذلة أمام الله.

إذن ما عليك أنت إلا أن تجتاز السور الحصين، ودع الباقي على الشعب.

سوف تصير جميلا بلا أصابغ أو رموش مستعارة، وتصير غنيا وليس في حسابك دينار يؤانس دينارا، وتصير قويا وأنت لا تملك رصاصة مطاطية واحدة.

وتصير محميا بلا حراس، وعزيزا بلا نياشين أو شارات الملك، وحبيبا إلى الناس بلا قصائد أو أغاني.

فاقفز من فوق السور لترى أنه بإمكانك أن تقود الوطن كله من آخر كوخ فيه.

سيدي الرئيس: إني أحذرك.. ففي البلد آلاف الدجالين العريين، يزينون لك الباطل فتراه حقا، ويشوهون لك الحق حتى تراه وبالا خطيرا وشرا مستطيرا، ويحرفون الكلم عن مواضعه ليوافق هواك، حتى تظن نفسك منزها عن الخطأ. وكم يخشى هؤلاء أن تصرخ فيهم يوما: "انصرفوا أيها الدجالون. من ضاق عليه الحق فالباطل أضيق".. حينها يخنسون ويخسأون.

وفي البلد آلاف اللصوص "المحترمين"، ينهبون المخازن بوجهك، ويحاصرون أرزاق الناس بإمضائك، ويفتحون أغلاق الكنوز والثروات بلسانك.

ثم يصمت قليلا، ويروح يتحسس كتفه وعينه اليسرى، ثم يشرد بعيدا، ويبدو على محياه حزن عميق، ثم يتنهد، ويرفع عينيه إلى الرئيس قائلا: ما الذي يمنعنا أن نكون أصدقاء –(هنا رأى وجه الرئيس قد انقبض كمن فوجئ بما لم يكن ينتظر)..

أي نعم، أصدقاء.. لماذا ترفع حاجبيك؟.. أصدقاء، نتبادل الرسائل والهدايا والصور التذكارية، ونتزاور أيام الأعياد، ونأكل معا أحشاء الأضحيات، وقد نصاب معا بآلام المعدة، فنشرب كوبين من الزعتر تعدهما أول عجوز نصادفها في حارتنا، وهي توصينا ألا نكثر من أكل أحشاء الأضحيات.

وفي غير شعور منه كان الذي حقق معه قد دخل، وكان يستمع، وفي هذه اللحظة قاطعه قائلا:

–هذا غذاؤك أيها المجنون، وقد أفلحت أمك إن أدخلت في جنونك حتى الرئيس، ناولني يدك. وانحنى عليه وفك قيده.

ولما صار وحده حرك الحساء بالملعقة، وضغط على قطعة الخبز بأصابعه، فوجدها يابسة لا تنضغط، وراح يعيد تحريك الحساء ببطء، كأنه يبحث عن شيء "غارق" فيه !

احتسى حسوة وحسوة وثالثة أخرى، ورفع عينيه إلى الرئيس المعلق على الجدار وقال متأففا:

–لا يذاق يا سيدي الرئيس، إنه ماء دافئ تسبح فيه إحدى عشرة حبة لوبيا.. لو كنا أصدقاء لآثرتك بثماني حبات، وقنعت بثلاث.

وراح يستعين بطرف القيد الحديدي في تهشيم قطعة الخبز اليابسة، ورفع رأسه إلى صورة الرئيس وقال مبتسما:

–يصلح القيد لتهشيم الخبز الحافي كذلك (وتنهد وأكمل حديثه): آه لو كنا أصدقاء يا سيدي.. نلتقي صدفة في المسجد، ونقف جنبا إلى جنب أمام الله، وتشملنا نفس الذلة في حضرته، ونرجو نفس الشيء منه، ثم تلقي السلام على شعبك الذي على اليمين، وعلى شعبك الذي مال على الشمال، ثم نخرج، وعند باب المسجد تجد أن أحد الطيبين قد أخذ حذاءك الرئاسي اللماع، ربما ليفاخر به أهل حارته، وترك لك مكانه حذاء رقع قد تغير لونه وجلده، تنتعله فيوجعك، لأن جلده يابس، ورغم ذلك تمشي به راضيا هنيا، لنجلس بعدها على مقهى نرتشف قهوتين، قد تختار أنت ركنا مظلما شيئا ما حتى لا يرى الناس الحذاء، وأختار أنا أن أجلس في ساحتها حتر يراني الناس معك، ويروا حذاءك القديم.

وقد تأتيني أنت بأعذار لتنصرف، أقسم عليك أنا أن تبقى قليلا حتى يراك الناس معي ويروا حذاءك القديم. وقد يكون "القواجي" ذكيا، فيشغل مسجلة المقهى بشريط للحاج "محمد العنقا"، ليعبق الجو بإيقاع الأصالة، وقد تعجبك الأغنية، فتروح –في غير شعور منك– توقع بأطراف أناملك على خشب الطاولة. وعندما نريد أن ننصرف نختلف، لأن كل واحد منا يريد أن يدفع هو ثمن القهوتين، فيتدخل "القهواجي" بصفته أصيلا وابن بلد ليقول لنا: "لا أنت ولا هو.. إنما على حسابي أنا".. أو يخبرنا أن قهوتينا كانت على حساب مواطن دفع ثمنها وخرج.. أما قلت لك إن الحياة سهلة ميسورة عندما نقنع ولا نطمع؟.. !

ثم إنه لما تستأنس بالحرية أكثر، سآخذك معي على دراجة إلى البحر، وسنمشي حافيين على الرمل الذي حكمت عليه النواميس ألا تبتل شفاهه إلا بملح البحر، ولا تتنفس رئتاه إلا فقاعات الزبد، ثم نجلس معا على صخور الشاطئ التي تكاد أن تشبه الخوازيق !.. أرأيت؟، حتى الطبيعة عندنا تشكل أشياءها وفق أشكال لا نحبها !؟.. لا علينا.

بعدها نلقي صنارتينا في البحر، ليلعب الحظ والصبر دورهما بعد ذلك، أما أنا وأنت فنردد معا خلال ذلك "نشيد حزب الشعب"، وما يهمنا شيء في أمر أصحابه، فقد مضوا إلى ربهم، وبهذا نضع أنا وأنت، وأنت وأنا، فهكذا توجب اللياقة واللباقة، المهم بهذا نضع حدا للتزمت والتطرف المتشنج الذي سنته "جبهة التحرير"، لما جعلت أن الناس يعتقدون أن كل من خالفها خائن للقضية الوطنية، ليقتدي بها اليساريون والاشتراكيون، حين رأوا أن كل من خالفهم في نظرتهم لثورة البناء والتشييد رجعي وبورجوازي عميل. ليتم هذا التطرف والتشنج "بأصحاب اللحية" الذين شاعوا في السواد، أن كل ما خالف نظرتهم وفهمهم للدين مارق زنديق، أو هو من المروق والزندقة قاب قوسين أو أدنى.

وهم كذلك لن تنجو رقابهم من حبل يحكمون فتله، ومن لغة يسعرون معانيها.

قد تجد، وأنت تنتظر خيط صنارتك أن يرتعش متعة في الحديث، فتبدأ تحدثني عن أمور تافهة وبسيطة جدا، وأخرى حميمية جدا، لتكتشف أن لغتك لا تسعفك في التعبير عن الأمور البسيطة والتافهة، لقد جنت عليك لغة البروتوكول.. ولكني إنقاذا للموقف ودفعا للحرج، أتظاهر أن الأمر عادي وأني لم أستنتج أي شيء.

وإني على ثقة كبيرة، أنك سوف تستنتج، أن جدران القصر الرئاسي مبطنة وملبسة بطبقة عازلة ونابذة للغة الشارع، بكل ما فيها من صدق جارح، ودفء حار، وشجاعة أدبية بالغة، يراها البعض وقاحة.

ثم إنك لا تجد حرجا –وكيف يبقى الحرج أو الكلفة وقد صرنا صديقين– فتحدثني عن هواياتك، فاحذر أن تدعي أن هوايات المجتمع المخملي هي هواياتك، لأنني حينها لا أصدقك، وكم يحرجني ألا أصدقك، بل ربما قد أغضب، وقد يدفعني الغضب إلى تذكيرك بأيام الجبل ورطوبة "الكازمات"، والنوم على "الديس" وليس بينه وبينك غير جلدك وتوسد قشرة البلوط، وليس بينها وبين رأسك غير غضروف أذنك، الذي يجعلها وثيرة نوعا ما.. وقد أذكرك بالخوف الذي يصيب البطن بالاحتقان أياما وأياما، وبالخوف الذي يصيب البطن بالإسهال الحاد.. !

إننا شعب محدود الهوايات، فقد علمنا أجدادنا ألا نهوى إلا الحياة واستفزاز الموت، وتربية الثأر في أقفاص الصدور، فاختر لنفسك هواية أو اثنتين.. وإني أشير عليك بالأولى.

سيدي الرئيس:

بعدها قد تأخذني معك إلى المطار لاستقبال رئيس أو ملك،.. لماذا تتعجب وتقطب جبينك؟.. أنا أضمن لك أن دهشته سوف تكون عظيمة، وستكبر أنت حين تقدمني إليه قائلا: "إنه مواطن بسيط، اصطحبته معي لاستقبالك".. حتما سوف تملأ صورتك كل آفاق بصره وبصيرته وروحه، وستعمر هيبتك كل أقطار قلبه، بينما يصير هو أمامك أضأل من عود ثقاب، وإن لم تصدقني جرب، وإن شئت تخاطرنا.

لا تخش شيئا سيدي الرئيس، سأكون لبقا جدا، فإن كان الزائر رئيسا، فسوف أصافحه مبتسما، ويسراي وراء ظهري، لكنني أخاف أن أصافحه باليسرى –وكثيرا ما يحدث مني هذا– لأني أشول..

أما إن كان الزائر ملكا، فلا بد أن أزيد على ما سبق انحناءة لطيفة، فذلك أرضى لغرور الملك وأشفى لصدر جلالته.

وإن كان الرئيس مرفوقا بالسيدة حرمه، أو الملك مصحوبا بجلالتها، فإني أعطيها أطراف أناملي لتضغط على أطراف أناملها، وأنحني أمامها بوجه عليه غلالة من حياء زائف، وعينين ذابلتين، تماما كعيني القط المدلل الكسول، وهو يستحم في الدفء حول الكانون.. إن كنت ما زلت تذكر القطط والكوانين ورماد الكوانين، فحتما سوف تتخيل عيني وتضحك.

وإذا حدثت نظرة منك إلي، فسوف تتعجب، وتقول في سريرتك: "ابن الحرام !.. أين تعلم كل هذا النفاق؟.." !

وليكن في علمك –سيدي الرئيس– أنه بمجرد ما تستدبرني السيدة حرمه، أو جلالتها، حتى تتسعا عيناي لتصيرا كعيني القط في الليالي الشتوية، وسرعان ما ينقشع عن وجهي الحياء الزائف، الذي سميته أنت –صادقا– نفاقا.. واعتبارا للثقة الموجودة بيننا، لا أخفي عنك أنني أريد أن أعرف طراز النساء اللواتي يعشقن الملوك، وأريد كذلك أن أحفظ تفاصيل قوام الملكات. وإذا رأيتني أمد كفي أو أصابعي إلى أنفي، فلا تقل "لقد أصابه الزكام".. لا .. لا، إني أريد أن أشم أطراف أصابعي لألهب أعصابي بعطر الملكات مشوبا برائحة بشرتهن وعرقها.

سكت قليلا وهو يحدق في وجه الرئيس، فرآه محتارا يكاد أن يبتسم لو لا أنه يخاف، فابتسم منصور، وقال:

–كأنك يا سيدي تريد أن تقول: "يا ابن الحرام !.. كيف انتبهت إلى هذا؟..، آه لو كنا أصدقاء من سنين.." !

بعدها رأى على وجه الرئيس استنكارا لما يسمع، بعدها قطب جبينه، وسرعان ما انمحى الاستنكار وزوال التقطيب، ليحل محلهما شرود حزين مهموم، أظهر تجاعيد الجبين العميقة، كأنه يريد أن يقول –لو كان يستطيع أن يقول: "أنا مثلك يا "منصور"، أريد كل هذا، لكن عندما تكبر أنت وأموت أنا، ستعرف عدد الرؤساء الذين كانوا يحكمونني !.. أنا أحيا بلا أصدقاء يا "منصور".. كلهم يحبونني لأنني أملك القدرة على ترصيع أكتافهم بالنجوم وصدورهم بالنياشين، ويحبونني لأنهم باسمي يكدسون ويجمعون.

يحبونني لأنه في مقدوري أن أنتشلهم من هامش الحياة إلى بقعة الضوء والحضور، ولم يكونوا من قبل شيئا مذكورا.. يحبونني لأن علاقتهم بي تجعل سيئاتهم حسنات، وخبثهم طيبة ونباهة. أتسمعهم يا "منصور" وهم يسبون الرئيس السابق،؟.. إن نصيبي من الشتم بصفتي الرئيس اللاحق سيكون أوفر !.. إنهم من طينة فريدة يا "منصور"، أنا أعرفهم أكثر منك، إني أكرههم حين يطعنونني من وراء ظهري، وأكرههم أكثر حين أكاد أن أتعثر فيهم وهم يتمسحون بحذائي، ورغم هذا لا أستطيع أن أفعل لهم أدنى شيء، لقد عرقوا بشكل عجيب. وأرجو أن تبقي هذا سرا بيني وبينك، فو الله ما أفضيت به إلى احد سواك، لأنه مهما يكن تبقى مصلحة الوطن والملة فوق كل الآلام الشخصية.

سكت الرئيس، ولو كان يستطيع أن يتنهد لفعل، ولو كان يستطيع أن يمد أصابعه إلى جبينه ليمسح العرق لكان منه ذلك، ولو كان يقدر أن يمد أصابعه ليوسع قليلا عقدة ربطة العنق لسره ذلك، لأنه كلما تربخ لحم العنق تضيق الربطة لتصير كالمشنقة. حدق الرئيس في "منصور" وقال: "شيء رائع يا "منصور" أن يتحقق كل ما عرضت علي، فأنا مثل كل الناس يعجبني التسكع في الأزقة القديمة، محفوفا بروائح الأطعمة الشعبية والقهوة، والجلوس على المقاهي القديمة ذات الطلاء المتقشر، متحررا من كل شيء، حتى من ظلي !.. ولما يداهمني الليل أطرق أول باب أصادفه وأدخل، لأني الأب الأكبر، قد آخذ معي كيلو غرام من اللحم، أو كيلوغرامين من البرتقال.. حسبما ما يكون في جيبي من دنانير، ولا أخفي عنك أنني أفضل التعامل بالفرنك، لأني حينها أشعر بقيمة ما اشتريت، أرجوك لا تحاسبني، ادري أنها عادة قبيحة جدا، وسوف أقلع عنها لما أقلع من عادة التدخين.. المهم أدخل أول بيت أصادفه، وآكل معهم ما أعدوا من طعام، وأجمع أطفالي حولي، وأحكي لهم عن مشاهداتي في بلاد الناس، وأحكي لهم عن سخافات الملوك وتفاهات الرؤساء؛ حتى يغلبهم النوم متوسدين فخذي.

أشياء كثيرة أريد أن أحققها أيها المجنون.. ولكن بمجرد دخولي إلى مكتبي في القصر الرئاسي حتى تحاصرني أشياؤهم في شكل ملفات وتقارير، فأغرق فيها، وأنسى أشيائي.

وهكذا تبقى حياتي تتكرر، حتى تراني ذات يوم مسجى بالعلم الوطني على عربة مدفع، وهم يسرعون بي إلى قبر بارد من رخام.. فأدخل قبري ألهث، دون أن ترطب كفني دموع زوجتي وبناتي وأبنائي، ودون أن أشنف سمعي بعويلهم وصياحهم.

إننا نسلم الروح بطرقة كرنفالية تافهة يا "منصور"..

حينها ينفض من حولي أصدقائي، فكأنهم ذبابا، وكأنني كنت شيئا من عفن.. إنه مثال مقزز منفر، لكنه أحسن من يقرب الحقيقة ويرسخها في الأذهان.

يا ويح نفسي مما ينتظرني عند ربي.. !

لك الويلات أيها المجنون، لقد استدرجتني إلى الكلام بطريقة ماكرة، ولكن ثقتي فيك كبيرة ألا تحدث أحدا من الناس بما كان بيني وبينك.. وإذا سول لك شيطانك أن تبتزني بهذه المشاعر والأحاسيس الإنسانية التي بحت بها إليك، فألف طز فيك !.. لن يصدقك أحد، أنت مجنون.

ثم سكت الرئيس، واغرورقت عيناه بالدمع، وإنها لدموع كفيلة أن تجعله عند الله مرضيا لو أنها سقطت.. لكن الرسميات تمنع الرؤساء أن يمحوا ذنوبهم بدموع الندم ! فسقطن من عيني "منصور" دمعتان كبيرتان إشفاقا على الرئيس ورثاء لحاله البائسة.

وثم عقد العزم أنه لما يسترجع حريته، فسيدعو أهل القرية إلى ثورة لتحرير الرئيس، إذ لا معنى لاستقلال الوطن إذا كان الرئيس مستعمرا.. !

بعد ثلاثة أيام قضاها في هذه الغرفة الزنزانة، تكلأه عين الرئيس المعلق على الجدار، امضى محضرا امنيا يلتزم فيه، بل يتعهد أن يكون مواطنا صالحا ما استطاع. لا يؤذي الناس ولا يزعج الدولة. بعد هذا وجد نفسه في الشارع من جديد، يحمل حريته الثقيلة، ويبحث عمن يصلبه عليها. لم يدر أنه خلال الثلاثة أيام التي قضاها عند المصلحة الأمنية، صار شريطه منشورا سياسيا ناطقا في يد الجميع ضد الجميع. فكل طرف يوزعه شماتة في الأطراف الأخرى ونكاية في الدولة، فزاد الإقبال على تسجيله وترويجه، وترغيب الناس في الاستماع إليه على أي قراءة من قراءاته المتعددة شاءوا.. في هذا البلد يكفي أن تكون ضد الدولة لتصير بطلا، ويكفي أن تسجنك الدولة لتصير من الأحرار، الذين تبدل الجماهير سيئاتهم حسنات، فلقد عودتهم الدول التي نسجت تاريخهم أن تكون الدولة دائما مخطئة، قاهرة وظالمة.

كان، وهو يتقدم في الشارع إلى وسط القرية، ينتظر متى تتفطن إلى قدومه الجماهير، فتنطلق حناجرها بالهتاف وتكبيرات النصر.. كان ينتظر متى يتنافس عليه الرجال الأشداء، أيهم يحصل له الشرف فيحمله على كتفيه، ويطوف به الأزقة والشوارع، والنساء يزغردن والطفال يرمونه بالورد، والصبايا يرششن موكبه بالعطر، حتى ولو كان من النوع الرخيص، فهو يقدر ظروف الناس، وبالتالي فهو لا يكلفهم ما لا يطيقون، ولا يرهقهم من أمرهم عسرا.. والجمرة من يد الحبيب ثمرة..

كان ينتظر فوق هذا الاستقبال العفوي، أن يقام له مهرجان تكريمي، تتنافس فيه الأحزاب في التنظيم والإنفاق، والتعاقب على منصة الخطابة للإشادة بما فعل، وبما فتح، وبما أثار، وقد رأت هذه الأحزاب أنه فعل وحده ما لم تفعله هي مجتمعة.

وكان ينتظر من شعراء القرية أن ينظموا فيه قصيدتين أو ثلاث قصائد، فيها إشادة بما فعل وبما أسدى.

ليس كثيرا عليه أن يلقى كل هذا، وليس غرورا منه أن ينتظر كل هذا، فأنا شخصيا فكرت في أكثر من هذا قبل أن يفكر هو فيه، وكنت أطمع في أكثر من هذا، قبل أن يرضى هو بهذا القليل.. أما يكفيه فخرا وشرفا أنه استطاع وحده، وبإمكانيات محدودة أن يستثير الدولة ويغضبها بأصوات حيوانات وهوام عجماء؟ !.. فماذا لو أنه ركب ألسنة الناس وأصواتهم؟.

لكن، مع الأسف الكبير، لم يحدث شيء مما انتظر هو، ولم يحدث أدنى شيء مما توقعت أنا شخصيا، لقد كانت الصدمة كبيرة !.. مطلقا لم يحدث أي شيء، بل لقد حدث العكس.

كان كلما تقدم في الشارع نحو وسط القرية منهوك الجسد منفوخ العين محموما، كانت ألسنة بعضهم تخرج في وجهه، وتمد ساخرة حمراء كحبات الفلفل، فكان يسمع من هذا الدكان "أر" –كما تزجر البغال والحمير– متبوعة بقهقهات عالية. ويسمع من تلك المخبزة: "قر" –كنقيق الضفدعة– نكاية فيه وشماتة به. ومن المقهى التي على يمين يسمع "تشر" ! –كما تطرد الكلاب في القرية– ومن الجزارة التي على شماله، ينادي عليه صوت ساخر وقح، كما تنادي العجائز على الدجاجات: "بيتي.. بيتي.. بيتي."

ولم يسمع صوتا واحدا يواسيه، أو يسأله عن حاله وعن عينه.. غريب هذا الذي يحدث !.. أتواصوا به؟.. !

في هذا الموقف بالضبط، أدرك أن ظنه الأول لم يكن آثما، وهو أن بعض المجتمعات ذات ذاكرة غربالية، وليست جديرة بقطرة دم تراق في سبيل صون أعناقها، وليست جديرة بأن تجعل من ظهرك ترسا ومجنا، لتدفع عن ظهورها سياط الجلادين. وتكون خاسرا حين تغالب ظلمات الزنازن، ليفتح لها كوة في جدار الظلام، ترى من خلالها أنوار الحرية.. وتكون أحمق حين تطفئ أنت في سبيل أن تستيقظ هي على هدير الحياة الدافق.

أي مجتمع هذا الذي قلبه معك وسيفه عليك !؟.. يذبحك اليوم ويبكيك غدا، ليراود في اليوم الثالث زوجتك عن نفسها، مقابل ثلاث قطع من الصابون، وصفيحة "مارغرين" وصفيحة زيت من سعة الخمس ليترات.. وقد تكون كلها من هبات الأمم، ليست للبيع ولا المبادلة ولا للمراودة. !

لم تكن ألسنتهم وهي تمتد في وجهه، إلا سياطا أشد وأوجع من تلك التي ذاقها عند الدولة، لأنها تجلد القلب والعاطفة.

بالأمس فقط، أسقطوا كل مكبوتاتهم الدينية والإيديولوجية، والفكرية والجنسية على شريطه. أما اليوم وعدما خففوا من حدة الكبت ولطفوا من إلحاح العقد، ها هم يسخرون منه، وعليه ها هم يضحكون. من أية طينة جبلوا؟ !.. اي شيطان رجيم هذا الذي حنكهم يوم بصقتهم أرحام أمهاتهم كالجراء؟.. لم يرد على أي واحد من هؤلاء، لأنه سيكون سخيفا لو يكون منه رد أو جواب.. بل راح يتقدم نحو موقف سيارات الأجرة، كالروبو الموجه. لما اجتاز السيارة الأولى سخر منه سائقها قائلا:

–أر.. أر.

–أر على أمك يا قواد !!. هكذا رد عليه "منصور"، وهو ينظر إليه في غضب، فما كان من هذا الأخير إلا أن هم بضربه، لكن منصورا عاجله بصفعتين سريعتين، أطارتا مخاطه، فتدخل أصحاب السائق قائلتين:

–لا تؤاخذه.. لا تجاريه، إنه مجنون وحتما ان الدولة قد أكرمته فوق ما يستحق.

فقال له السائق، وهو يتحسس الصفعة التي على خده الأيمن، ربما كانت هي الأشد إيلاما، كما كان يتملص، أو يتظاهر بالتملص من أيدي أصحابه الذي أحاطوا به:

–والله لو لم تكن مجنونا لمسحت بوجهك الطرق.. تفوه. !

أما هو، فقد طافت بشفتيه ابتسامة، أو قل: لقد حدثته نفسه أن يبتسم، رغم الآلام النفسية التي يحسها، وذلك لما سمع تهديد هذا "الضفدعي" الفاشل.. إنه من حزب الضفادع..

وانطلقت به سيارة الجرة نحو المدينة المجاورة.

في الحي الجديد الذي عرفت من قبل، كل شيء صار قديما.. متآكلا.. مهترئا وقبيحا، فلم يشأ أن يقلب نظره في هذا الفضاء المشغول بالفوضى، إنما اقترب من الشقة الأرضية التي عرفناها معا منذ مدة، ورمى النافذة بحصاة أو حصاتين، وإذا بنفس المرأة التي خرجت إليه سابقا تخرج إليه الآن، لم يطل شعرها كثيرا، فقالت وهي تتثاءب وتستر فمها بظاهر يدها اليسرى، كأنها أفاقت لحظتها من النوم، أو أنها اللحظة تريد أن تنام:

-من؟ .. آه، أنت !.. كيف حالك. قالت هذا وانفرجت شفتاها عن ابتسامة مجاملة، لكنها لا تخلو من سحر وجاذبية، ثم أكملت —لم تزرنا منذ مدة-.

-السلام عليكم "الحاجة".. والله كنت مشغولا ببعض الأمور —وتابع حديثه مستفسرا- كيف حال "الحاجة"؟.

-عندنا منها الكثير هذه المرة، فلقد غضت الدولة طرفها.. كم تريد؟

-ليس عندي إلا ثمن اثنتين.

انسدل الستار الحريري برهة من الوقت، لتعود وتسلمه شيئا ملفوفا في كيس أسود، وتقبض بضع ورقات نقدية، ثم يسألها:

-كيف حال "الحاجة"؟. أجابته دون أن تنظر إليه، وهي تعد الأوراق النقدية:

ذهبت مع "الحاج" إلى "بجاية" منذ يومين ولم تعد بعد، كان الله في عونهم.

-و"الحاجة"؟. قهقهت بصوت مكتوم، ورفعت رأسها لترد الشعر إلى الخلف، كاشفة عن جيد جميل، وأجابته:

-سبحان الله.. كما وجدتها آخر مرة زرتنا فيها

-و"الحاجة"؟

-تحركت ريحها هذه المرة فدرت. ثم أكملت تسأله، وهي تحدق في عينيه، وقد رق صوتها فصار كصوت الأم الرؤوم الرؤوف:

-ويحك !.. مع من تخاصمت؟.. أرى عينك منتفخة؟

-مع الدولة.. لقد هزمتني شر هزيمة.

هكذا أجابها وهو يتحسس عينه بأطراف أنامله. انحنت إليه تريد أن تلمس جرحه، فأنشدت جبتها الطويلة بين بطنها وحديد الشرفة، فتحدد أكثر صدرها العامر وتميز، أحس برعشة غامضة تعتريه عندما كان يقرب وجهه من أصابعها البضة البيضاء كأصابع الثلج، كما أن فمه قد امتلأ بريق لم يعرف طعمه من قبل.

-لا بأس عليك، ولكن حذار مرة أخرى، تهارش مع من شئت إلا الدولة، فإنها لا تحسن اللعب ولا تحب المزاح.

رد عليها وهو يتحسس بقايا أصابعها على الجرح:

-إنك على حق.. السلام عليكم، لا بد أن أذهب لئلا يحدث لي ما حدث في المرة السابقة.

وربما هذه "الحاجة" -إن كان هذا هو اسمها بين الحاجات الكثيرات اللواتي هنا- لا تحب الكلام الكثير، فلم تسأله عما حدث له في المرة السابقة، وإنما دعت له، وهي تغلق مصراعي النافذة.

-الله يشفيك.. الله يحفظك. وما أحوجه إلى أن يتقبل الله منها الدعاء الثاني.

لم يشأ أن يركب سيارة في عودته إلى القرية، وقد كان في إمكانه ذلك، ولم يشأ أن ينتظر الحافلة، إذ لم يبق على وصولها إلى هذه المحطة إلا نصف ساعة، وليس صعبا عليه أن يوقف بعض السيارات الخواص، وليس مستبعدا أن يحمله هذا منهم أو ذاك.. فما زال في الناس الطيبون.

لم يفعل شيئا من هذا، لأنه آثر أن يقطع المسافة راجلا، ففي ذلك خير كثير. فخلال الطريق يجدد هواء رئتيه بين هذه الحقول والمروج، كما سيجدد ذكرى أيام الدراسة الثانوية، إذ كان يعن له بين حين لآخر أن يقطع المسافة راجلا، رغبة منه في التفسح والتنزه، وممارسة منه لرياضة المشي، وليذوق ما يذوق بعض أصحابه من الطلاب، الذين يقطعون هذه المسافة راجلين في الحر والقر، لضيق ذات اليد، وعجزهم عن توفير دينارين أجرة مقعد في السيارة آنذاك، وليس رغبة في التنزه والتفسح وممارسة رياضة المشي.

وخلال الطريق سيفكر كذلك في أمره، ويحاول أن ينصف الدولة من نفسه؛ فقد يكون ظالما، وقد تكون هي مظلومة، وبالتالي يكون العقاب الذي ذاقه قصاصا عادلا وجزاء وفاقا..

وغدا كان الأمر كذلك، فما على السواد إلا أن يتحرروا من عقدة العداء اللاشعوري لكل ما ترمز إليه الدولة، ولكل ما يرمز إلى الدولة.

فليس كل من ضربته الدولة مظلوما، ولا كل من سجنته بطل، وليس كل من طهرت منه الحياة شهيدا..

وإذا كانت المسافة كافية، فسوف يفكر في ذلك في هذا الشريط الملعون، وبع استحضار إيقاعاته وقراءاته، فليس مستبعدا أن يكون فهم الآخرين صحيحا، على اختلاف ما ذهبوا في القراءة والفهم. فقد يكشف الحق مبطل، ويقوله من يكرهه، وليس مستحيلا على الأعمى أن يصنع أشياء جميلة بعيون أصابعه، ولا على العابث أن يهتدي إلى أمر جليل، يشيب دونه العباقرة..

ومن يدري فقد يكون هو من صنف هؤلاء العميان، إن لم يكن من صنف أولئك العابثين.

عندما وصل إلى الجسر الذي حاول المجاهدون نسفه إبان الثورة، فلم يفلحوا إلا قليلا، عندما وصل هناك، وقف مستندا بذراعيه على حاجزه الحديدي، وراح يراقب ماء الوادي الذي يقل مع تباشير الصيف الأولى. ولما كان الماء يتراقص قدام عينيه كالنقود الذهبية، بعدما ضرجته شمس الأصيل، تذكر أنه في سنته الأخيرة من التعليم الثانوي، ولما صار فوق الجسر بالضبط، أثناء عودته من الثانوية مساء، رأى امرأة تصرخ وسط الوحل، وهي ترمي الرمل والوحل فوق رأسها وتقول::أعيدوا لي ابني، إنه وحيدي، فالدولة لم تلد معي حتى تأخذه مني".. في مساء ذلك اليوم الذي مرت عليه سنوات الآن، عرف أن المرأة أرادت أن تنتحر لما استدعوا ابنها لأداء الخدمة العسكرية، فرمت بنفسها من فوق الجسر، الذي لا يزيد ارتفاعه عما يقارب ثلاثة أمتار.. جبانه، كانت تتدلل على الموت، ولو لأنها أرادت الانتحار بصدق، لوجدت الموت أرخص ما يزجى وأهون ما يطلب ويراد.

لم يدر أية أفكار راودته في الثلث الأخير من الطريق، قد يكون قطعه سهوا، ليجد نفسه في مدخل القرية، والشمس تضرج الشفق الوسنان بحمرة دمائها القانية. أراد بعض الشباب أن يناقشوه في الشريط، وقد كانوا متحلقين مسجلة، فأبى عليهم، ومضى في طريقه قائلا:

-أنتم أدرى بلغة أبناء عمومتكم.

فأخذوا يضحكون، لما تصوروا أنهم صاروا أبناء عمومة للحمير والضفادع والتيوس الشبقة، يؤاكلونها، ويشاربونها، ويتبادلون معها سروايل "الجينز" وأشرطة "الراي" والأحذية الرياضية.

ولم يبتعد عن هؤلاء قليلا، حتى سمع صوتا يصدر من خلف الشجرة:

-قر.. قر.. قر.

-قر على أختك يا رخيص!. وتوجه نحوه يريد أن يصفعه.. لقد صار يستفز، لكن صاحب الصوت فر منه.. آه، هو، لا لوم عليه.. فالملاح يظلمون ولا يظلمون، إنه غلام شقي بعض الشيء، ذو ملاحة وبهاء، وجماله أنثوي، وهو رسول فتيان القرية إلى فتياتها. ويشاع عنه مؤخرا أن أحد "الكبار" يستغله في توزيع المخدرات وإيصالها إلى طالبيها في البيوت.. وذلك لقاء أجر زهيد يكفيه لشراء "الشمة" والسجائر، وبعض العطور الرخيصة.

في مدخل الدار، والليل يوشك أن يلف القرية في سواده كما تلف السلع الرخيصة، وجد الأستاذ "حمدان" ينتظره، فحياه:

-السلام عليكم.. هذا أنت، أين كنت؟ إني أنتظرك منذ مدة.

-وعليكم السلام. وتصافحا، ثم مد الأستاذ يده ليلمس انتفاخ عينه، وهو يقول بنبرة المواسي المعتذر:

-لقد رأيتهم كيف كانوا يضحكون عليك ويسخرون منك، وقد حز ذلك في قلبي وآلمني كثيرا، ولقد هممت أن أسبهم جميعا، ولكني خفت أن يبلغوا الدولة عني، فقد كثر القوادون في المدة الأخيرة.

-لا لوم عليك –قال له وهو يربت على كتفه– إني أعرف كيف أرد على الحمقى.

ثم إن الأستاذ التفت يمنة وشأمة هل يراه من أحد، وأخرج من جيبه ورقتين مطويتين باهتمام، وبسطهما بعناية، وقربهما من عيني "منصور"، وقرب رأسه من رأسه، وهو يقول:

-لقد عكفت ساعات على الإنصات إلى الشريط، وقد كتبت مقاربة نقدية ومحاولة اقتراب من دلالته الحكائية، وقد عنونت هذه المقارنة بـ" مقاربة حكائية نقدية في الفضاء الإبستمولوجي لفسيفسائية الصوت الحيواني المؤنسن".

وأنا أقصد بذلك: تناص المخزون المعرفي الإنساني بالصوت الحيواني المؤنسن.. بمعنى الـ "intextualitè"، بين الشريط في ظاهره، كمجموعة لمنطوق حيواني منسق وهو الـ "texphono"، والشريط المنتوج كما قرأه الناس، وهو الـ "texgeno"، ليجعلوا منه الملفوظ السمعي الذي يريدونه، من خلال التركيز على المثاقفة القطبية والمشافهة الانتشارية.. وأرجو منك أن تقرأه وتعطيني رأيك فيه.

-رائع –قال "منصور"، ويبدو أنه كامل مجاملا ليس إلا– رائع، ذلك أول ما أفعل بعد لحظات..

–صحة– قالها الأستاذ (حمدان) وهو ينصرف. وللإشارة فقد، فإن الأستاذ لا يحيي بـ "السلام عليكم" إلا خطأ ونسيانا، لأنه لا يتحمس للصيغ اللفظية ذات الدلالات الدينية.

أشعل مصباح الغرفة، ووضع الكيس بما فيه على الفراش، ونزع حذاءه ليوقر لبنانه بعض الراحة، فوجد بين البنان وسخا لزجا وعفونة كريهة، فتلفت يمينا وشمالا عله يجد ما يمسح به، فلم يجد شيئا، أو لم تقع عينه على شيء، فأخذ من جيبه "مقاربة حكائية نقدية في الفضاء الابستمولوجي لفسيفسائية الصوت الحيواني المؤنسن"، ومسح بها ذلك الوسخ اللزج، ورماها إلى الرواق، ليخرج بعدها إلى المرحاض، ثم إلى بها ذلك الوسخ اللزج، ورماها إلى الرواق، ليخرج بعدها إلى المرحاض، ثم إلى المطبخ، حيث ظل هناك حوالي عشر دقائق يقرع الملاعق بالصحون، دون أن تنبعث أية رائحة لأي طعام، معنى هذا أن لقمته باردة ناشفة، وخرج بعدها يتمطق كمن أصاب عشاء دسما.

جلس على حافة السرير، وتناول الكيس البلاستيكي الأسود، واستل منه زجاجتي خمر، فكانتا أشبه بسيف الصبح يستل من غمد الظلام، ووضعهما على طاولة النوم كالتوأم الجميل.

فتح الأولى في غير قلق أو رهبة، ثم أعادها إلى جنب الأخرى، وقال وهو يمسح عليها كمن يسمح على شعر أشقر، أو خد خوخي أسيل:

–أنا وأنتما والشيطان ثالثنا، وصورة أبي لنا رابعة.. لكل واحد منا ذوقه وأحلامه، ووجهته الخاصة.

أنا الضائع الكريه، كعربة تجتذبها الأحصنة من الجهات الأربعة.. لي أمل كبير أن أصد الريح بالهراوة، أو أجمع حفنة من دخان في غربال، لي رغبة في وسوسات الغرب، وبي ظمأ إلى هتافات الشرق، ويأسرني ضباب سماوات الشمال، وتسحرني نهارات الجنوب الصافية العذراء.. لي رغبة في كل الجهات، ولهذا أنا واقف في مكاني بلا وجهة.. وما أكثر الأحايين التي يفقد فيها كل شيء من يطمع في كل شيء.

والشيطان يرغب في ملته، ويدعو إلى طريقته بهمة لا تفتر وحماس لا يعرف كللا.. وله الحق في ذلك، ويا حبذا لو يقتدي به أصحابه الدعوات في التعصب للمبدإ والإخلاص للفكرة.

وأبى الذي ما زال في إطاره الذهبي، ومتبرقعا في وقار زائف، كأنه راهب متنسك لا يتقن إلا لغة الصمت.. ومن العجيب أن أبى يحاورني وأفهمه.

وأنتما بلا هوية، ولا جنسية.. وهل تحتاج الحياة إلى هوية أو جنسية؟.. إنها الحياة، إليها ينتسب كل شيء، صمتكما منبع كل اللغات، هدوؤكما هو الذي يقذف الضجيج والفوضى في مفاصيل الحياة.

لما قرب شفتيه من فم الزجاجة، سمع همسا في دمه، يقول كالناصح الأمين:

–منصور.. لا تشرب، فيها إثم كبير ومنافع للناس، فلا تشرب، لقد شربها "النواسي" من قبل فأحرقت كبده.. لا تشرب يا "منصور".

فيرد عليه في نبرة المعاند المكابر، لو يسمعه أحد من الخارج لظنه يتخاصم مع إنسان:

–بل سأشربها وأشربها وأشربها !.. ولتحرق جسدي كله.. هل يخشى الغريق أن تبتل أثوابه؟..

هل يخشى الأعمى أن تطفئ الريح شعلة قنديله؟.. لم يبق شيء يستحق الحياة، كلهم خونة ومرتزقة ومأجورون.. كلهم ديدان حقيرة تعيش على تفسخ جثث الآخرين.

ويقرب فمها من أنفه، فتلتهب أعصابه بطيب رائحتها، وتنتعش روحه من عبير لماها.. وفي اللحظة التي يكاد فيها أن يطبق شفتيه على فمها، يسمع نفس الصوت يوشوش داخل أذنه:

-أوه !.. يا لعنادك ومكابرتك !.. قلت لك : لا تشرب، فإنك حين تبيحها لنفسك، فأنت تبيحها لغيرك، ولا بد أن تقر بحق الآخرين فيها، وإذا صار الجميع يشربها اضمحل مفهوم الحرام والحلال، وبالتالي تزول القيم، وتنتفي صفة الإنسانية عن الناس، وتتفكك القرية، وينهار المجتمع، وتزول الدولة، ويعم الطوفان.

-طز -رد "منصور" على هذه الوسوسة الرخيصة – إنهم يشربون كل شيء.. يشربون الغيبة على مرارتها، ويشربون أموال اليتامى على حرارتها، ويتجرعون الكذب والنفاق، وينقعون الدياثة في مستحلب القوادة، ويتبعون ذلك كله بعصير الحسد خالصا غر مذرح !.. فأين من هذا كله ماء العنب؟ !.. بل إنه يصير من الطيبات من الرزق. ولذا سأشربها وليتفكك العالم !.. ما لي وللناس؟، حتى ولو انهارت القرية، فذلك مبتغاي ومطلبي.

ويعب منها مقدار ثلاث جرعات كبيرة، ثم يعيدها إلى مكانها، وهو يمسح شفتيه بظاهر كفه، ويتلذذ مغمغما، فيتضجر إبليس في دمه:

-كم أنت عنيد !.. إياك أن تذوقها ثانية، لأن هذا معصية، وكثرة المعاصي تزيل الدول، وتعجل بخراب العمران.

فأمسك "منصور" الزجاجة بقبضته، وأطبق على فمها بشفتيه، وعب منها حتى ما أبقى منها إلا أقل من نصفها ليغيظ إبليس:

-يعجبني ذلك، ولن أنزع شفتي من فمها إن كان ذلك يقع بالفعل. وما شأني في بقاء دولة تضربني حتى تنفخ عيني؟ وما دخلي في عمران يعلو على روحي وأعصابي، ليكن خرابا من الآن !

فسأشربها رغم أنفك !.. كأنهم قد وكلوك للدفاع عن قيمتهم واخلاقهم.

-صدق الله.. "قتل الإنسان ما أكفره" -هكذا قال إبليس متعجبا- عندما آمركم بشربها وأزينها لكم، تتعززون وتتمنعون ولا تشربوها حتى أسفح في مداراتكم بحرا من العرق، وحين تزول النشوة تستغفرون الله وتلعنونني.

وعندما أخوفكم عاقبة الأمر تعصونني وتشربون. وكأنكم تتقربون إلى الله بمعصيتي في كل شيء.. !

يا ويحكم، ما عساكم تفعلون لو صرت واعظا، ما دام إيمانكم قائما على معاكستي؟..

أي منطق هذا وأي إيمان !. ثم يكمل بعد صمت قصير، كانت خلالها أنفاسها تتقرقر في سمع "منصور" كطنين الذباب:

-أما وقد فعلتها فاشرب ما تبقى لتحصل على سكرة كاملة، فليس أقسى على أعصاب المرء وروحه غير غنصاف الأمور؛ نصف الدين.. نصف الموقف.. نصف اللذة

صرخ "منصور" وهو يفرغ نصفها الباقي في جوفه، بل في روحه، فهذا أصدق، ويقطر ثمالتها على لسانه:

-لعنة الله عليه، ما أصدقه وما أحكم قوله ! -ثم واصل يخاطب إبليس- هل أتبعك على أن تـ.

ثم أمسك فمه بقبضته مغمغما، وراح يمسح شفتيه ولسانه بأصابعه، ويبصق كمن أكل طعاما غير مستساغ أو خدع في مشروب مر:

-أستغفر الله.. لعنة الله عليه ما أقدره على الاستدراج !.

فأخذ إبليس يقهقه في سمعه كالشيخ الهم المصدور الأدرد:

-لا عليك يا عزيزي.. فعلا إنه ليس من سلامة العقيدة، وليس من استقامة الخلق أن تمحاك النص المقدس. إنما أولى بكم ألا تماحوا قيمه وشعائره قبل أن تتجنبوا مماحكة لغته وتعابيره. لا عليك يا عزيزي، سأكمل أنا. تريد أن تقول: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا؟ لكنك يا عزيزي لن تستطيع معي صبرا.

-لعنة الله عليك !.. لعنة الله عليك.

راح يرددها مهتاجا، وهو يلوح بقبضتيه في كل فضاء الغرفة كمن يريد أن يضرب أحدا. لكنه يسمع نفس القهقهة متبوعة بنفس الصوت الماكر:

-هون عليك أيها البهلوان.. أنا لست هناك، أما تبينت من خلال صوتي أني قد صرت شيخا كبيرا، لقد توزعت في أمم كثيرة حرارة وطاقة، فلم يبق مني إلا القليل..

لقد صرت لا أطيق نزلات البرد، فأنا في دمك، فهو ادفأ وألطف.. إني أتجول فيه كما يتجول الملك في رعيته، وخلفي يلثغ بالمكر الصغير أحفادي.

لم يشأ أن يجاري إبليس في الحديث، لعلمه أنه سوف يستدرجه إلى مطبات أعمق وأخطر وأقذر.. وإنما أعرض عنه، وتناول من فوق الطاولة شظية مرآة، وراح ينظر فيها ويكمد بأطراف أصابعه الجرح الذي أحدثته الدولة، ثم إنه ابتسم كعادته حين يريد أن يوقل كلاما:

-إياك أن تظني أن الدولة سوط وقفص وهراوة، إنها نسق قيمي يدفع عن نفسه بالسوط والقفص والهراوة.. لا تقتربي منها مرة أخرى. كان يخاطب عينه المتورمة !..

وسكت لتظل عيناه شاردتين في مواجع جرحه.. وكانت خواطره نهبا لريح القلق والذكرى.

ولما صار لا يبصر جرحه، رغم أن عينيه مركزتان عليه، أخذت الدموع الحارة تسقط كالثمار الناضجة جدا، تسقط من غير يد قاطفة.. أحس لها حرقة قاتلة في قلبه، فرفع عينيه إلى صورة أبيه، وهو ينشج بالبكاء كاليتيمة صباح العيد:

-أبي .. لو كنت حيا لألقيت رأسي على صدرك، لتمسح على شعري بأصابعك، وتداعب جرحي بلطف فيشفى.

لقد ضربتني الدولة يا أبي، ولا أحد جاء ليسأل عني؛ أو فكر أن يجعل للدولة شيئا حتى لا تضربني ولا تستنطقني بعنف.

لو كنت حيا لما تركتني أرتكب الحماقات، ولما ضربتني الدولة يا أبي. فلماذا مت أنت بينما أترابك ما زالوا أحياء يرزقون؟.. لماذا لم تقاوم كالآخرين، لماذا لم تنبعث من رمادك كالعنقاء؟. كان أولى بك، لما قررت أن تموت ألا تملأني بكل هذا العجز والانسحاق.

كان أولى بك أن تقذفني من صلبك كصغار الغيلم، لا هو يعرفه ولا هم يعرفونه، أو كفراخ طائر الوقواق.. لماذا يا أبي لماذا؟.. !

وشرع في البكاء كما لم يبك من قبل، وقد تكون الخمرة هي التي زينت له ذلك، وسهلته عليه. فهو لم يشعر أنه مهان ومحتقر ومنبوذ كما شعر هذه المرة،.. لقد كان موقف الدولة منه والناس طعنة غائرة، أصابته في مقتل من روحه وشعوره.

مسح دمعه بطرف الغطاء، وجلس على حافة السرير، وواصل مناجاته لأبيه:

-يا أبي أبغيك حيا، لا ظلالا وخيالا في إطار..

ووساما ونياشين تدلت كزهور ذابلات من جدار.

وحنينا في ضلوعي، وأنينا وبقايا ذكريات في دموعي، ونقوشا في سوار.

يا أبي أبغيك حيا.. قم تحرك، وانفض عنك الغبار.

قم تحرك، أو تبخر من عيوني كالضباب.

أو تزحزح عن طريقي، لا تقف قدام خطوى كالسراب.

قم تحرك، وادفع الغارات عني والمنايا والحراب.

وإذا كنت ضعيفا أو جبانا، أو بقايا من تراب في التراب.

فابتعد شيئا قليلا عن طريقي، لتراني كيف أمضي فوق هامات السحاب.

أنت من انزلني من صلبه كالشاة أثغو بين قطعان الذئاب.

أنت من أورثني هذا التلاشي في الغياب.

أنت من عقدتني..

أنت من أقعدتني..

فقطعت الدهر وحدي أتغنى بالذي أعليته أنت زمانا، بين اطلال وجودي كالغراب..

حاصروني.. قيدوني.. عذبوني.. ضربوني، ألبسوني كالغواني حلقة مثل السوار.

لم أجد عندك ما يشفي جروحي وقروحي، غير أقراص تسمى "الصبر" عللت بها روحي كما علل بالحلوى الصغار..

إن تكن حيا فحلق، فالفضا رحب فسيح

أو تكن ذا معجزات فامش فوق الماء قدام عيوني كالمسيح.

وإذا ما كنت شيئا، فتبدد يا أبي كي أستريح.

ضاع عمري وأنا أنفض عن وجهك غيمات الغبار..

وأذود الدود عن وجهك ليلا ونهار.

لم أعد أقدر يا هذا أبي أن أقطع العمر بوجه مستعار.

لم يعد لي غير أن اكسر ألواح الإطار !

بعدها قام يدفعه ويستحثه الغضب، وأسند الكرسي إلى الجدار أسفل الصورة، وصعد فوقه لينزع الصورة، ويكسر الإطار، ويطعم الريح جذذها وشظاياها، لكنه ما كاد يقترب من الصورة، حتى أخذت في الدوران والانقباض والاندفاق، ثم التلاشي وتبدد الظلال والملامح، ليظهر مكانها خليط من عجائب شتى: سحر وشعوذات وأعشاب عطرية، ورقصات صوفية في عباءات مولوية، ودخان وبخور وشواهد قبور، وعمائم عثمانية منتفخة كبطون أصحابها، تتدلى منها سوالف طويلة، ذهبها دخان البخور واحتراق أعواد المسك، وأضرحة أولياء تسبح في هالة قزحية من وهم الأتباع والمعتوهين، وعجائز يضربن دفوفا بأصابيع كالمسامير والإبر، وكن يقهقهن، فيكشفن عن لهوات رقيقة وبقايا أسنان، وعباءات فضفاضة تلهث في فضائها الريح، وصررا تتدلى من زوايا الإطار كعثانين التيوس، ورأى ما يشبه المخالب، وهي تخرج من تحت الجلد متحفزة، ورأى أنيابا تنكشف كلما اهتزت الأشداق الهرتاء، وبدا شيوخ بغير وجوه يتعاطون الحكمة والحشيش وأشياء أخرى.

نزل من فوق الكرسي، وتراجع إلى الخلف خطوتين، ممسكا رأسه بين راحتيه، كمن ألم به وجع أو صداع، وقال:

–ويلمه أبي !.. ماذا يخفي وراء تلك النظرة الوديعة كنظرة الحملان في مراعيها !.. كيف أخفى كل هذه الدنيا السحرية خلف غشاء بؤبؤتيه؟.. ربما من كل هذا تستمد نظرته عمقها وسحرها الآسر.

وقف صامتا لحظات وهو يضغط على عينيه بسبابته وإبهامه كمن يريد أن يطمس صورا أو يوقظ أخرى، وقال فيما يشبه الرهبة المكتومة:

–لو كسرته ألا ينفتح الغيب علي بشلال من الأسرار؟.. أو لا تتخطفني العنقاء وتبقرني أنياب الأشرار؟.. أو لا ترتد إلي يدي خشبا أو فحما أو حجرا، وتحيق بي اللعنات، ويمسخني ربي كلبا أجرب مسعورا أو ضفدعة عمياء؟.. وأنا أرفض أن أصبح غير أنا، وأنا يعجبني جسدي حين يميزني عن باقي الأشياء. ...

بعدها سمع صوتا هامسا يسري في دمه، كان أشبه بزغب الفراخ لما يناغيه النسيم:

–ولماذا تكسره يا ولدي؟.. وماذا عندك من صور لتزخرف بها فراغ غرفتك البلهاء.

لا تكسرها يا ولدي، ستندم حين تجد نفسك مضطرا أن تعلق مكانها صورة عجوز صلعاء. كاشفة عن صدر مسترخ كأطباء الكلبة !.. فلتبق عليها يا ولدي إنك تعرف ما معنى أن يتشاكس فيك الآباء.

فلتبق عليك بكل حرارته ومرارته، إنه جذرك في وجه العاصفة الهوجاء.

تناول الزجاجة المنتصبة على طاولة النوم، كمنارة من نور وسط ظلام لزج، وأفرغ شيئا مما في بطنها في بطنه، ولما دبت فيه حرارتها واستفزت أعصابه بأنوارها الشفافة، عندها رفع عقيرته مغنيا:

يشرب الكأس ذو الحجى ويبقى   لغد في قرارة الكأس شيا

لم يكن لي غد، فأترعت كأسي   ثم حطمتها على شفتيا

ورغم أن التقليد كان رديئا، فقد رأى إبليس يتكوم على نفسه تأثرا كالشيخ الهرم المحموم، وقد شبك أصابعه المجلدة وضمها إلى صدره، بينما كانتا عيناه مغمضتين، وهو يصدر غمغمة يريد أن يعبر بها عن مدى تأثره وعميق انتشائه، ودون أن يفتح فمه، كان صوته ينساب في شبكة الأعصاب، فتسمعه كل مسامة من مساماته:

–أية رعشة وجودية هزت شاعركم هذا، فشقشق بمثل هذا الكلام !.. أوه يا لنشوتي !

احذر الخمرة يا "منصور"، فهي التي هاضت أجنحة الملكين ببابل "هاروت" و"ماوت"، فإذا نفختك كالطاووس لتختال، وقوتك كالأسد لتصول وتبطش بغير وعي، فاعلم أنها سوف تجعلك ترقص كالقرد ليضحك عليك السفهاء والعقلاء، ثم نسلمك إلى النوم كالخنزير الذي أمن بعد روع وفجيعة.

حين نظر إلى أبيه رآه، يراه كاليائس المتعب، الذي أحس بضيعة الجهد وخيبة المسعى، فقال له وهو يتجشأ من حين لآخر، فتملأ رائحة الخمر منخريه:

–أرأيت يا أبي كم هو كيس وفطن ولبق؟ أنا أشهد أنه يحسن عرض بضاعته وتنميقها وتزيينها، وإنه ليذيقك شيئا منها على حسابه مرة ومرتين وثلاث مرات، لتظل طول العمر زبونا لديه.

يأتيك من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وشمالك، يخاطبك بكل اللغات، يستدل بكل الشرائع، وبصراحة، فإني بقدر ما أمقته وأكرهه لأنه عصى الله، فإني أجد في نفسي شيئا من الإعجاب به والإعجاب له؛ لأنه يعرف كيف ينصر مبدأه، وكيف يصبر عليه، وكيف يقوم بعد كل هزيمة، وكأنه لم ينهزم.

لماذا لم تكن مثله يا أبي؟.. ولماذا حين آثر الشيطان أن يظل يكدح في عروقي وأعصابي، ويسابق دمي إلى خلايا لحمي وعظمي، لماذا انسحبت أنت، وآثرت أن تكون وثنا في ساحة تسلح الطيور هيضها على رأسها وكتفيه، أو صورة باهته في إطار على جدار، ينم على وجهك الذباب وفراشات الليل، وتركن إلى زوايا مقلتيك العناكب؟

لماذا لا تنقف هذا الإطار الذهبي المغبر، وتخلع عنك قناع الوقار الزائف، وتنطلق في فضاء الحياة، وتدعو إلى أخلاقك ومبادئك باللغة التي يفهمها الناس؟

لا تظنن أنك تؤثر في، أو انني أشعر بالخوف منك لما تقطب جبينك، أو تزوي عني وجهك..

لا.. أبدا. كل ذلك يدفعني إلى الضحك، لو لا بقية من حياء، ما أظنها إلا أنها سوف تنقشع يوما ما، لنصير بعدها نتعامل بمنطق الربح والخسارة والمصلحة المشتركة.

لم يعد يجد للخمرة ذلك التأثير الغامض الذي كان يجده من قبل، بل إنه ليجد في نفسه فتورا، وفي مفاصله ارتخاء، بمعنى أنه يوشك أن يدخل المرحلة الخنزيرية، حسب منطق إبليس.. في تلك المرحلة تنتابه رغبة في النوم ولو على حزمة شوك، أو في غدير ماء.

لكنه ما زال لديه كلام يريد أن يقوله لأبيه، وما زال لأبيه رغبة كبيرة في الاستماع، وقليلا ما يبدو عليه أنه مل ذلك، إنه كالشيخ البصير لما يقع في أرذل العمر، يصير ثرثارا بشكل لا يوصف، لأنه يود حينها أن يسمع كل شيء، حتى الظلال والأنوار والألوان.

ورغم ما يجد من عياء وفتور، فقد مد يده إلى زجاجة الخمر، يريد أن يفرغ ما تبقى فيها من امتلاء في ما تبقى في أعصابه وروحه من فراغ، ليستعيد نشاطه ونباهته. وما كادت أصابعه تلامسها، حتى تضجر إبليس في دمه:

-أوه !.. لقد أغضبتني اليوم بحق، وما أظنك إلا مأجورا، لماذا تنسى هكذا بسرعة؟، أو ما كنت منذ لحظات تغني

يشرب الكأس ذو الحجى ويبقي لغد في قرارة الكأس شيا؟..

ماذا أبقيت لغد يا غبي؟.. لكنه منطقكم القائم على المكابرة الجوفاء، واللجاج في عنادي ومعاكستي في ما أفعل وفي ما أقول؛ وفي ما آمر به وأنهى عنه.

يا ويحكم مني !.. إن هي إلا أيام قليلة، إن هي إلا أيام قليلة وأرسل لحيتي، حتى تدغدغ ذوائبها سرتي، وأحفي شاربي حتى لا ترون مكانهما إلا زرقة مسودة، وألوث على رأسي عمامة بيضاء في حجم عش "مالك الحزين"، وأرتدي عباءة حجازية مضمخة بطيوب شتى، ثم أبسط رجلي لأدعو إلى سبيل الله.. ويا كم أحفظ من ادعية الاستفتاح.. !

وحينها سوف تكفرون، وتتفرق بكم السبل عن سبيل الله، ور يبقى منكم إلا القليل، لا يهمهم من فم يخرج الحق، ولا تهمهم الأصبع التي تشير إلى الهدف الحق، ولا يهمهم من أية حنفية يشربون ما دام الماء طاهرا عذبا زلالا.

أولئكم هم أعدائي الشرفاء، الذين لئن أغوي واحدا منهم خير من أن أملأ معاطني بالملايين من أمثالكم.

-أقلقتني.. أزعجتني، ألا تنام؟ !. فرد عليه إبليس من ركن قصي مظلم في نفسه، رد عليه بصوت يبقبق كالقدر:

-لا يا ولدي، حتى تنام أنت وأسفح في دمك فيلم السهرة وانصرف.

نظر إلى أبيه، وقال مبتسما في سخرية مرة:

-شيء رائع لو صابرناه، فلا ننام حتى ينام، لسفح في دمه آخر أفلامنا.

يسكت قليلا ويتنهد، ويواصل حديثه كاليائس البائس:

-يا أبي.. إنه إبليس، إنه يعرفهم أحسن مني ومنك..

إنهم ليسوا جديرين بمن يثور لهم، وكم خانوا من يثور بهم، إنهم جديرون بمن يثور عليهم، ويدمرهم تدميرا، فربما من بين الخرائب والدمار قد تطلع النباتات الطيبة.

إنهم جديرون بمن يفضحهم ويعريهم، ويكشف الستر عن معاصيهم، ويقرب المرايا من وجوههم، ليروا حقيقتهم.. وإلى هزيمة أخرى – رفع يده مودعا مبتسما– وكل ليلة وأنت أبي.

13

بعد كل الذي حدث، صار مقتنعا كل الاقتناع بمكاشفة أهل القرية بمعاصيهم، ومصارحتهم بخطاياهم، ومواجهتهم بالمرآة الصافية الصقلية ليروا فيها وجوههم.

ومع هذا الاقتناع المطلق أحس أنه ضيع جهدا كبيرا وأهدر وقتا ثمينا في مداراة عقول حمقاء، ومجاملة أخلاق خرقاء، والتربيت على جلد بلاهتهم الأجرب !.. لقد طال عليهم ليل العمى والعمه، فأنى يبصرون؟.. !

كان يدفع خطاه في الشارع في عياء واضح، كأنه ينوء بكل أوزار التاريخ، أو كالذي يبغض هدفه ومبتغاه فهو يتقيه بالخطى القصيرة !.. أو كالذي لا يريد أن يبتعد عن منطق ومبتدأ إيثارا للراحة وتحاشيا للمغامرة.

حيثما مد بصره لا يرى إلا الأوثان والتماثيل الحجرية من مختلف الأشكال والأحجام؛ تماثيل صناع وطلاب، وبطالين وتجار، وشيوخ وأناس بسطاء، موزعة بطريقة فوضوية. أما الأطفال فكانوا يبدون له في هذا المشهد كالجرى الضالة والقطط الهزيلة، تتمسح بالسيقان الرخامية الباردة. لم يعد يرى وجها جميلا تضيء أساريره قناديل الطيبة والبراءة، ويسري فيه ماء الحياء، كلها وجوه شاحبة، لفتحها نار الحقد والحسد، وبعضها اصفرت من النميمة والقوادة فصارت العيون لا تجد فيها ما يتذوق، ولا القلوب تجد فيها ما يحب.

إنها عيونهم بدأت تبوح بخطاياهم..

إنها أساريرهم بدأت تشف عن معاصيهم..

ينظر إلى العابرين عن يمينه وعن شماله بتهكم وسخرية مكشوفة، كأنه يريد أن يقول لهم: "لقد انتهت المرحلة الأولى بخيبة أمل كبيرة.. تركتموني وحدي أواجه الدولة، فأوجعتني ضربا وأشبعتني إهانة.. لستم طيبين كما كنت أظن مخدوعا، ولا عذر لكم عندي بعد اليوم.. بل أنتم من اليوم مدانون ومتهمون، فلا بد أن يتحمل كل واحد منكم تبعة أوزاره، ويستعد ليحصد غلال معاصيه.

يا طالما علقتم كل مخازيكم ومعاصيكم على مشجب اليهود، ونسبتم كل ضعتكم وحماقاتكم إلى مكر النصارى، وألصقتم كل هزائمكم بالاستعمار.

يدخل المقهى دون أن يحيي أحدا، فهو صار يكرههم لأنهم تخلوا عنه وقت الشدة، وهم كذلك لم يحيوه، لأنه مجنون، ولأنه متهم ومشبوه، وليس مستبعدا أن يكون مراقبا من طرف الدولة، وهم لا يريدون أن يواجهوا الدولة بعناد، أو تواجههم باتهام.

قبل أن يجلس إلى طاولته المعتادة، في ركنه المألوف، عرج على مرآة كبيرة معلقة مكان التي كسر منذ شهور، إن كنت تذكر، فعاجله "عمي صالح" بتحذير في صيغة استفهام استنكاري:

-أتريد أن تكسرها كما كسرت الأولى؟ !.. لا داعي لكل ما تريد إنك وسيم، وقد زادتك تلك الوردة الذابلة قرب عينك وسامة وجمالا.

ودون أن يلتفت إليه، أجابه ساخرا، وهو يتأمل وجهه في المرآة:

-افعل بعض ما فعلت أنا، وستجعل الدولة وجهك حديقة مزدانة بالورد الأحمر الغض.

ولقد انكر وجهه حين رآه.. رآه وجها قبيحا ذميما.. مسح عينه وأعاد النظر، فزاد القبح وضوحا، فأشفق كل الإشفاق. لكنه عاد ونسب هذا القبح إلى وجه المرآة غير الصقيل.

صعد فوق كرسي، ونفث من ريقه في وجه المرآة، ومسحها بمنديله، ثم نظر، فعبس وبسر، ثم أقبل على "عمي صالح" يسأله:

-يا "عمي صالح" هل أنا أنا؟.

فاختلطت قهقهة "عمي صالح" بصوت احتكاك الفناجين في المغسلة، ثم رد عليه:

-يا لك من مجنون غبي.. وهل تريد أن تكون شيئا آخر؟. ليس في مقدورك أن تكون إلا أنت.. الجن فقط تستطيع أن تتشكل في أية صورة شاءت، هكذا قال "الشيخ" أيام كنت أواظب على الصلاة وراءه باستمرار.

لم ير "منصور"، ما كان يظن أنه سيرى من جبين عريض ناصع، وعينين سوداوين، وأنف مستقيم يميل إلى الخنس شيئا قليلا. لم ير من صورته القديمة إلا بعض الملامح الباهتة، التي تبدو كأنها شيء جميل لو لا ما تكدس عليه من غبار النسيان وغبار الإهمال معا.

لم يقل في حق نفسه، إن هذه الغبرة التي علت وجهه هي بفعل المعاصي والخطايا، وإنما علل نفسه بقوله: " لا بد للباحث عن صفاء الفضة وبريق الذهب، أن يناله بعض الوسخ والغبار دون ذلك. وأنى للذي يخفي حقيقته عن نفسه أن يعثر عليها في الآخرين؟

لما قدم له "عمي صالح" كأس الحليب وفنجان القهوة، انحنى عليه ليهمس في أذنه:

-الله يشفيك كما أشفيت صدورنا، وأذهبت غيظها إلى حين، هل تدري أن شريطك أحتفظ به بين أشرطة خاصة لدي؟.. !

آه يا ولدي.. ما أروع الديك حين يصبح !.. يقشعر بدني لما أسمعه، فأكاد أعلن الجهاد وحدي، لأحطم كل شيء يقف أمامي.

سأله "منصور" في سخرية ماكرة، وهو يرتشف من كأس الحليب تارة، ومن فنجان القهوة تارة.

-ألا تخاف أن تطحك التيوس؟.. فقد رأيت أنه إن كان صوت الديك أوضح وأفصح، فإن النبيب أقوى؟..

نظر "عمي صالح" في أرجاء القاعة، هل يراه أو يسمعه من أحد، وقال كالمعاتب المؤنب:

-أما تستحي؟ !.. لقد كثر القوادون يا ولدي؛ فبالإضافة إلى مخابرات الدولة، هناك قوادون لكل الحزاب، وقوادون يعملون لحساب "الشيخ"، وقوادون لجماعات "السلفية".. هؤلاء يريدون أن يعرفوا كيف يفكر الشعب، وماذا يقول حين يخلو إلى بعضه بعضا..

أنت متهم ومراقب من طرف الجميع، لصالح الجميع ضد الجميع..

عد إلى رشدك يا ولدي، ودع الجنون غلى مرحلة أخرى، قد تستقيم فيها الأمور.

-حين تستقيم الأمور، تزول مبررات الجنون، ثم قل لي يا "عمي صالح" كيف يحكم الشعب من لا يعرفه إلا عن طريق تقارير المخبرين، وكيف يعظ الشعب من لا يفهمه، وكيف يقوده من لا يدري ما هدفه؟.

يتأفف "عمي صالح" ويغضب، وينصرف عنه إلى شؤونه المختلفة، وهو يقول:

-أنا الكلب بن الكلب إذ اعتبرتك عاقلا !.. ثم يرفع عينيه إلى السماء متضرعا –اللهم اجعلها آخر دخلة له إلى هنا.

يضحك "منصور"، ويقبل على كأس حليبه وفنجان قهوته، وهو يفكر في "عمي صالح"، هذا الذي يريد أن يبقى طيبا ليجود، ويريد ان يصير بخيلا ليكتنز فيغتني، وحريصا ليدخر، وخبيثا لتفتح أمامه كل أبواب الرزق.. إنه طيب بكل هذه المتناقضات المتعايشة داخل قلبه وشعوره.

كل من يدخل المقهى يأتي إليه ليجالسه ربع ساعة، أو أقل قليلا.. كلهم يشكرونه على الشريط، ويواسونه في جرحه. وكل واحد يقول له: "لقد جرحت مثلك من قبل وشفيت"، ولقد اكتشف الجميع أنهم جميعا جرحوا بالفعل، وسال دمهم حقيقة، وعانوا آلام الجوع، إنما في قضايا ساقطة وتافهة؛ فما أهون الدم الذي يراق في سبيل حبة تين مسروقة، وما أرخص الجرح الذي يفغر فاه لأن صاحبه أقلق امرأة فرمته بحصاة، وما أتفه الألم الذي يكون من احتقان شديد، أو إسهال حاد.

طبعا إنه ليس دما زكيا فيبقى على جبين الذكرى، وليس جرحا رساليا فيمتد العمر باحمراره القاني، وليس ألما قدسيا فتصير لذته معتقة كلما كرت عليها الأيام والليالي.

جميعا يؤكدون له أنهم يحتفظون بشريطة كأجمل ذكرى عن المرحلة.. ولكن أغرب ما سمع هو قول أحدهم –وهو يقسم على صدق ما يقول بأغلظ الأيمان– أن الدولة قد كلفت شخصا سريا بالحضور إلى سوق المواشي والحيوانات، وكل من سمعه يسوق شيئا من السياسة على ألسنة الحيوانات، يكتب فيه تقريرا إلى مصالح الأمن.

ويقسم له هذا الشخص أنه رأى شيخا، من سكان المداشر المجاورة، أحضر حماره ليبيعه مكمم الجحفلة، ولما سئل عن السر في ذلك أجاب: "أنا طالب لقمة الخبز، ولا شأن بالسياسة".

وإذا أردت أن تصدق، فحجتك هي أن أهل القرية صاروا يخافون من السياسة، ولا يجالسون أهل السياسة، وليس مستبعدا أن يبدر منهم هذا، وما هو أطرف من هذا.

وإذا أردت أن تكذب، فيكفي أن تعلم أن ناقل الخبر هذا، لا يقع في الحق إلا خطأ، ولا يقول الصدق إلا مخدوعا.

لما قام "منصور" يريد ان يدرك صلاة الظهر جماعة، سأله "عمي صالح" ساخرا.

–إلى أين.. كأنك تريد المسجد؟.

–نعم، فإني لست متوضئا بعد.

–لماذا تصلي وقد رفع عنك القلم، ولا حجة لله عليك؟.. والله لو كنت مكانك ما صليت.

–يكون ذاك يوم يجعلك الله علي رقيبا عتيدا.

وخرج من المقهى ضاحكا، وبعض الناس يرمقونه في إشفاق وإعجاب، هامسين: "هذا الذي أغضب الدولة، فضربته، إنه رجل." !

بينما كان هو يفكر في شأن هؤلاء التنابلة الكسالى، الذين يريدون أن يتحرروا من تكاليف الدين والدنيا؛ يتمنون أن يرفع عنهم قلم الله، لينجوا من عذاب جهنم، وأن يرفع عنهم قلم الدولة لينجوا من الاستنطاق والتحقيق والسجن !.. انى يفلح من يرى في دولته عدوا يجب أن يقاومن وفي وطنه غنيمة يجب ان تنتهب وتهتبل؟ !

توجه إلى المسجد ليلقى الله بكل أوزار البارحة، فيلقيها بين يديه سبحانه، فإن عاقب فلأنه عادل لا يظلم أحدا، وإن غفر فهو أهل التقوى والمغفرة.

بينما ظل "عمي صالح" الحاج العاقل، ظل في المقهى يسيل لعابه كلما رن دينار أو خشخشت أوراق.

لما مر بساحة البلدية، رأى أطفالا يلعبون، وقد توردت خدودهم، ودغدغتهم العافية، ولمع العرق على أجبنتهم كالغلالات الرقيقة من الذهب، فتنهد متأسفا، وتأسف متنهدا، لأن هؤلاء سيكبرون، وتنتقل إليهم عدوى السخافات الحقيرة التي يأكل الخبز بها الكبار. لأجل هؤلاء الطفال يجب أن نضع عيونهم وأيديهم ومناخيرهم على موطن الداء ومكمن العاهة.. لأجل هؤلاء، يجب أن نقول الحق، ونهتك ستار الزيف عن وجه الحقيقة مهما كانت بشاعته.

يتحلق حوله الأطفال، وهم يصفقون ويرددون بإيقاع راقص خفيف:

-"لاله فاطمة بنت النبي".. "لاله فاطمة بنت النبي. .."

إنهم يريدون منه أن يرقص قليلا، فهو مجنون ولا يخجل من الناس، ويستطيع أن يرقص في غير عرس. لكنه راح يتعذر لهم، لأنه لا يستطيع أن يحرك مفاصله كما ينبغي، لأن الدولة ضربته فأوجعته.

لكن الأطفال يلحون في الرجاء مصفقين، لأنهم لا يعرفون ما معنى أن الدولة تضرب أحد مواطنيها حتى تجعله لا يستطيع تحريك بعض مفاصله.

التفت خلفه، فرأى بعض التماثيل الحجرية تتفرج عليه، فرآها فرصة مواتية ليثبت لهم أنه ما زال مجنونا.

فحرك جسده قليلا كالراقص المكره، ثم مضى في طريقه تاركا خلفه الأطفال يضحكون، والتماثيل الأخرى يدخلها الهواء من أفواهها ويخرج من أدبارها، فيصدر عنها صوت يشبه الضحك.

-هذا ليس مجنونا، إنه زنديق، اخرجوه من بين صفوفكم.

هكذا صاح "الشيخ" في المصلين وهم يصلون الأكتاف بالأكتاف والأقدام بالأقدام، ويسدون الفرج استعدادا للصلاة، فقام إليه ثلاثة مناضلين من حزب "الدجاجيين"، وألقوا به خارج المسجد. فيصلي وحده، ويحمد الله أنهم ما زالو يعتقدون أنه مجنون، وينصرف.

من جديد يندفق هواه وقلقه في الشارع، حيث لا جديد، سوى الفوضى تشكل بطريقة حرباوية، لكنها الفوضى !.. قاذورات، أوراق جرائد وكراريس وكتب مدرسية، وأعقاب سجائر وبصاق "شمه"، وعلب مصبرات وصفائح بلاستيكية، وشيء من خلق الله يتحرك كالأقزام الرتة بين كل هذه الفوضى. شمس ما بعد الظهر مزعجة ومقلقة، من حين لآخر تستر وجهها بالسحاب، كأنها لا تريد أن ترى ما ترى، أو كأنها مصابة بالزكام، فهي تمسح أنفها من حين لحين.

والناس يلهثون.. كالكلاب في الظلال يلهثون. دون سمع أو لسان أو عيون. يحفظون الهمهمات، يعشقون الدندنات.. خلف "علي" يسجدون. في صحون "الشام" يأكلون.

على كل جدار يرى صورتي القاتل والقتيل، والشعب يعتز بالاثنين، يحمل القاتل على الكتاف كالأبطال، ويكتب القصائد في القتيل، ويسمي باسمه الشوارع والمطارات، ويقيم له التمثال.

لم يعد يبصر إلا الخطأ والانحراف، كأن غشاوة كانت على عينيه قد زالت.. والظل تلعقه الخطى، والضوء يزعجه الغبار، ومقلة خرساء، تستف الطريق.

وأنا أفكر في غد فوضى، سيطلقه الدمار مشوها يعوي، فيختنق الشروق.

لا شيء يشبهني سوى هذا أنا، بالوهم ترفعه المنى حينا، وتكسره البروق..

لا شيء أشبهه سوى أمل تفتح كالورود بلا أريج أو رحيق.

ملت خطاي من الطريق، ولا طريق سوى طريق كالطريق..

فيه الكثير من الجراح، تضيء درب الصاعدين إلى المقاصل كالبروق.

فادفع خطاك إلى الأمام، ومت على عطش الرمال، لكي يقول الهاربون: نحبه ذاك الغريق.

وادفع خطاك إلى الأمام، ومت على زبد الحقيقة والبحار، لكي يقول الخائفون: نحبه حقا.. نحب جنونه، لكنه لم يستشر حين ارتمى كالسهم في لهب الحريق.

وارفع خطاك، فقد تدوس بقية من أمة في الوحل تحيا بين أعقاب السجائر، همساكيس الدقيق.

الدرب يا "منصور" يصعد، والخطى تأبى الصعود، ولا محيص عن الصعود.

ما أنت في هذي الدمى إلا كصالح في "ثمود".

ما أنت إلا كالمسيح تشاكست في قتله شيع اليهود.

بالكلمة العذراء ينتشل الخراف من الذئاب، ويبعث الإنسان من صلب القرود.

فانثر رمادك في عيون رماحهم، ثم انطلق، فالغار مفتتح النشيد.

والفجر —إن ضاق المجال– مجالك الحيوي، فاكتب فوق كبر جبينه حلو القصيد.

واقرأ كما علمت آيات الكتاب، وليس فيها منقطة لفتى "ثقيف" أو "يزيد".

وانضح وجوه النائمين بما تراه من الكلام، فربما يأتي الكلام بما تود وما تريد.

فالحرف أفصح من سيوف لا تقول سوى دم، قد جن ينضحه الوريد.

والحرف هدهدك الذي يأتيك من "سبإ" بأخبار العروش.. الحرف عرشك والجنود.

لك ما تشاء من المواجع كي تبوح بما تشاء من الألم.

فافتح شفاه الجرح عن حلو الندا.. وارم الحجارة بالحجارة، والردى ارمه بالردى، إن الذي اغتبق المنية سهمه لن ينهزم.

"منصور".. ما هذا الذي يرمي عيونك في مدارات التحدي،؟ أنت أصغر من عذابات الندم.

"منصور"، لا تذهب بعيدا في الخيال، فلن تطير بلا جناح، ولن تسير بلا قدم.

ونداك وحده ليس يجدي إن تكن أسماعهم فوضى يدوزنها الصمم.

فامسك لسانك، إنما هذا لسانك للنميمة واللقم.

–إلا لساني. قالها بصوت مسوع، لفت إليه أنظار مجموعة من الشباب، تستند إلى الجدار المقابل لبوابة الثانوية، في انتظار الساعة الخامسة، ضحكوا عليه، وضحك هو كذلك على نفسه، لأنه لم يعرف كيف قادته قدماه إلى هذا المكان في هذه الساعة، فلو رآه بعض الناس لظنوا به الظنون السوء، وما أكثر الظنون الآثمة في هذه القرية، ولهذا ظلت لا تنفتح إلا على قليل من الطيبة والانبساط، وبالتالي على قليل من الحياة البريئة.

لم يعد يفهمه من الناس أحد، وما عاد يفهم من الناس أحدا، إلا أباه، فإنه يفهمه جيدا لأنه لا يتكلم ولا يناقش، بعد أن قال حكمته المطلقة، ونذر للرحمن صوما إلى يوم يبعثون.

لو رآه الناس هنا، لقالوا: "إنه جاء لينظر في عيون البنات، ليعرف السر الذي يجعل الناس يحبون الحياة".. إنه ليس من هؤلاء في شيء، لأنه لا يريد أن يقترف جناية في حق أي واحد، وما يحب مطلقا أن تمتد سلالة القلق، أو تستمر ذرية الفوضى.

إن اللصوص والمجرمين والمنافقين، لا ينزلون من رحم الدولة، إنما ينسلون من صلب السواد، ويتربون في أحضانه. وهو لا يود أن يكثر سواد السواد بلص حقير، أو مجرم وضيع، أو منافق خسيس، أو مراء لا يكفيه أن يراه الله وحده.

من خلال نظرات السخرية التي تسدد إليه، يرى بعضها وفيها شك وإعجاب، وكم يزعجه أن ينظروا إليه بشك وإعجاب، رغم أن ذلك ينفخ غروره أكثر، لكن يخاف أن يكشفه ذلك، وتفشل مهمته، التي يريد أن يشرع في المرحلة الخيرة منها، دون أن يجد مدخلا ملائما لذلك. فهو ينتظر أن تقود الصدفة خطاه، أو يمسك القدر اللطيف بيده، ليضعها على رأس الخيط –كما يقولون– وبعدها، فهو يعلم ما يفعل.

* * *

استيقظ من نومه حوالي العاشرة صباحا، لأنه بات ليلته متسكعا، ولم ينم إلا عند أذان الفجر. تناول فطوره الذي كان خبزا وسردينا وزيتونا، وبقية من مشروب في زجاجة، ما عاد يذكر منذ متى وهي في المطبخ.

ربما قد لا تصلح هذه الأرزاق مختلطة، لتكون أول ما يتناوله المرء من طعام، هو يدري ذلك وما فعله إلا عن علم وقصد.

جلس إلى طاولته، وراح يكتب. وبعد ذلك، أخذ كتابا وأخذ يقرأه على إيقاع موسيقى "القدود الحلبية"، تنبعث من شريط اهداه إليه صديق ذات مرة عاد فيها من "دمشق".

هو يعلم أن في هذه اللحظة بالضبط، تكون عينا أبيه مصوبتين إليه، تنتظران متى يستدير إليه، ليؤانسه ويواسيه.

لم يشأ أن يقلق أباه أكثر، أو أن يجعله يتلهف إلى السماع فوق اللزوم، فاستدار ورفع عينيه إليه، فألفاه كما ظن تماما.. في عينيه شوق يكاد يبرد في ليل الأحداق ليصير دمعا سخيا، وفي ملامحه شغف يكاد يلون صورته القديمة، ويوزع عليها الحمرة والصفرة والشحوب الرمادي. فابتسم في وجهه، فكاد المسكين يرد التحية بأحسن منها، لو لا أنه محكوم بما لا يستطيع له خرفا، فقال له "منصور":

–لا عليك يا أبي.. أعلم أنك لا تستطيع رد التحية.. لا تستطيع أن تحرك حاجبيك أو تفتح شفتيك، ولو استطعت لكانت تحيتك أحسن وأبلغ، وألطف وقعا في القلب والنفس والشعور، وإني مقدر ظروفك، وما أنت بملوم.

أبشرك أن ما كنت تتمناه قد تحقق، فهنيئا لقد ظفرت بعد طول صبر وانتظار.. فها أنذا أخضع في الأخير، بل أجد نفسي مضطرا كي أحكي لك عن أصحاب هذه القرية، وبالضبط عن معاصيهم ومخازيهم،.. نعم يا أبي، لا شيء يلقاك أو تلقاه في الشارع إلا المخازي والمعاصي، التي تجعل الذكي اللبيب يشعر بالغثيان.

وليس اختيارا مني أن تكون الحلقة الأولى المتعلقة بـ "الشيخ" إنما هي ألطاف لا أعرف كنهها، وأقدار أمسكت بيدي لتضعها على رأس الخيط الضائع في المجهول، وما علي إلا أن أجذب فقط، وما يهمني من يسحبه الخيط من ظلمة المستور.

كنت وحدي في دثار الليلي لا ادري طريقي.. منعشا كان الظلام، دافئا كان كذلك، كان يغري بالضياع بالتلاشي فيه من غير طريق.. في أحايين كثيرة تصير كل السبل سبيلي، وكل الشياطين الذين عليها هداتي وأدلائي إلى اهداف كلها هدفي.

كنت وحدي في دثار الليل لا أدري طريقي، عندما انتبهت وجدتني قدام المسجد، والمصلون يخرجون، وكانوا قلة لأنها صلاة العشاء، وخرج "الشيخ" في الأخير يحمل قفة. ظننت أن ليس فيها غير ما حلا مذاقه وزكت رائحته. سلك بالقفة دربا غير الذي يؤدي إلى بيته. فظننت به ظنا حسنا واتبعته، وليس عن شك مني في ظني، ولكن ليطمئن قلبي. ومضى وأنا خلفه أقتفي وقع خطاه كالمريد، وشعرت بسمو روحي غامر، جعلني لا أرى فيه إلا أحد العارفين بالله. و"الشيخ" يلف ويدور في انعطاف الزقاق، وأنا خلفه دون أن يشعر بي، لأني كنت أمشي من جدار لجدار على رؤوس البنان.. حتى أوقفني عند باب أرملة تعرفها وأباها، فقلت في نفسي: إنه موقف الليل، فلنقف بين يديه..

حصل الاطمئنان الذي كنت أسعى إليه، ولعلمي أنه بعد لحظات سوف يدخل الدار ويشعل النار، ويشمر ليعد للأرملة طعامها، لهذا آثرت أن أبقى كي أشم رائحة الطعام المبارك، هذا إن لم أتطفل، فأطرق الباب ليردوني بحسوة أو حسوتين، ولي عذري في جنوني.

وبعدما فتح الباب ومرت لحظات، اخذت أسمع حديثا هامسا، فاستيقنت أنّ "الشيخ" يتعمد ذلك كي لا يوقظ أبناء الأرملة.. بعد الهمس سمعت ضحكتين، مثلتهما حمامتين تتناغيان ساعة الأصيل على غصن قليل الظل..

تقدمت من النافذة مرتعشا.. فتحت المصراع الخشبي، وقعت العين في العين، ورأيت، قالت: "اطرده !". رد عليها هو : " ما شأننا به، إنه مجنون لا يفهم، ومن يصدقه إن فهم وقال؟ !" –قالت: "أخاف أن يسترجع يوما عقله !" فطمأنها: "إن العقل يجب ما قبله". وانصرفت يا أبي محزونا كئيبا.

ورغم الخجل والحرج الذي شعر بهما، فقد استجمع شجاعته، ورفع عينيه في وجه أبيه، ليجده مضطربا، قد أسبل عينيه من هول هذه الوقاحة التي تمكنت من ابنه، وجعلته يحكي مثل هذه الأمور في حضرته. ولو أنه يستطيع الكلام لهدد وتوعد، وقال موبخا:

–أما تستحي يا ولد؟ !.. أتبلغ بك الوقاحة حدا صرت معه لا ترجو لأبيك وقارا !؟.. وتكذب على من يعلم الناس الشريعة، وما تدعو إليه من تطهر وعفاف.. ومن يصدقك أيها الوقح العنيد؟ !. فقاطعه "منصور" غاضبا:

–وذلك ظن "الشيخ" الذي أرداه، ومهد له سبيل الشبهات !.. أقسم بالله أني لمن الصادقين، وسوف تشهد الأيام وتشهدكم.. !

أدري أنكم لا تصدقون، لأنكم ألفتم ألا تصدقوا إلا حين يعصى الفقراء والمساكين. أما "السادة المحترمون" فذنوبهم مغفورة، وعيوبهم مبررة مستورة، وكل شبهة تحوم حولهم تحيق بمن أطبقها شرا ووبالا.

والله لقد رأيته، وسأرى بعد اليوم كثيرا غيره، حتى تعرفوا ما الذي يحبس القطر ويغلق أبواب البركات، ويجعل الأرض من تحتنا كالسماء من فوقنا بخيلة مشحاحة. إني أمقت فيكم هذا الوقار الزائف والكبر الأجوف، والتعفف المتساقط المتلهف. وأمقت فيكم هذا الحياء المصطنع كالصبغ الأحمر على خدود الزنجيات.

يصمت قليلا، كأنه يجمع شوارد أفكاره، ثم يواصل وهو يشير بسبابته في وجه أبيه كالمهدد المتوعد:

–أنا لا أستثنيك حتى أنت. هذه أخلاقكم يتوارثها اللاحقون المارقون عن السابقين الآبقين.. ومن حقي أن أشك فيك حتى وإن كنت ميتا !.. وما أضلنا وأضر بنا، إلا أننا لا نستطيع أن نشك في موتانا، أو ننتقدهم أو نقترح عليهم، رغم أنهم يدسون أنوفهم في كل أشيائنا.. حتى في حميميات حياتنا.

تعيشون حياتكم كما تشتهون؛ طيبين وخبثاء، مؤمنين وزنادقة، أبرارا وفجارا، حتى إذا اقتنصكم الموت على حين غفلة منكم، صرتم شهداء، وعارفين بالله، وأولياء صالحين، وأصحاب حكمة، استقبلتم الموت باسمين !.. أي زيف هذا !؟.

إن كنتم فعلا كما تدعون، فمن الذي أغرق التاريخ في الدم، ومن سود وجهه بالدنايا والمخازي، ومن أي الأصلاب تنزلت هذه الأوبئة والبلايا؟..

من حقي أن أتساءل وأن أشك، وأن أشير إلى من أشك فيه، ولك أن تهددني بجهنم وسوء المصير. إني أعلم أنك لست مالكها، ولا أنت من خزنتها ولا من بوابيها، وإذا نجوت أنت منها فبرحمة من الله.

عاد إلى مكانه من الكرسي، وأمسك رأسه بين راحتيه المرتعشتين، ثم استلقى على السرير، وصدره يصعد ويهبط من غيظ ومن غضب.

لكنه غيظ لم يجد من يجعله طاقة لحركة ما، وغضب لم يجد من يجعله وقودا لانطلاقة تكتسح الحواجز والسدود.

إنه لا يملك إلا نفسه وجنونه، يسلطه على من يشاء.. وكم هو موجع أن تحرث البحر، وأن تسوق الريح بالهراوة.

ليس شيئا أن تعرف الحقيقة وحدك، وأن تكتوي بلظاها وحد، وأن تتحدى بها وحدك..

ليس شيئا أن تكون وحدك شاهدها وشهيدها..

ليس شيئا أن تنادي بين عمي سادرين:

-ها هو الفجر تدفق.

ثم تغدو بينهم طفلا تزندق.

ليس شيئا أن تراهم يضحكون:

-أي فجر أيها الأعمى المخرق؟.. !

أي نجم في السماوات تعلق؟.

أينها هذي السماوات التي لون ضحاها مثل لون البحر أزرق؟.

ليس شيئا أن تنادي بين صم يلغطون:

-أسكتو شيئا قليلا تسمعوا بوح المرايا..

وهفيف الشوق في عمق الحنايا..

وانكسار النور في ظل الزوايا..

اسكتوا شيئا قليلا تسمعوا صوت الأماني مثل أحلام الصبايا يترقرق.

ليس شيئا أن تراهم يضحكون.

ويشيرون بغمزات العيون:

-أيها الخرس ماذا ترتجي منا؟.. تكلم.. أيها الأخرس أنطق.. !

ليس شيئا أيها الواقف المقرور في نصف المسافات ترقق..

كل ما حولك من ظل وماء كذبة صفراء، فاحذر أن تصدق.

فالظلال السود أشداق حراب، ونمير الماء أصداء سراب، والذي بينهما شوق تشقق.

أيها الظاعن في ليل البوادي القفر إحذر أن تصدق.

14

كعادته. لم يلق السلام على أحد لما دخل المقهى ضحى، إنما توجه –كعادته- صوب المرآة الحائطية، يقرأ فيها تقاسيم وجهه هذا الصباح، كما يقرأ الآخرون "قال لي برجك" في صحف الصباح. لم يفهم في تقاسيم وجهه أي شيء.. كأن مشاعره وأحاسيسه وباقي مكبوتاته مكتوبة بلغة بائدة.

لم يعجبه في وجهه أي شيء؛ صفرة، حمرة باهتة، ظلال رمادية، وأشياء أخرى لا معنى لها؟ فما كان منه إلا أن بصق على وجهه في المرآة، وهو يقول متأففا:

-قبحك الله من وجه !.. كأن كل معاصي التاريخ قد تكدست عليه. لم يرض عن وجهه، فعن أي وجه يرضى؟.. التفت إلى الناس الذسن كانوا يضحكون، ثم قال لهم وهو يحاول أن يشاركهم شيئا مما هم فيه، لكنه لا يستطيع:

-أنا لا أمزح.. إنه ليس وجهي، إنه قناع مفروض علي.. أحس كأن فيه آلاف البصمات لأناس لم يكونوا كلهم طيبين، وإذا رأيتموني أهرش باستمرار، فذلك بفعل الحساسية التي يحدثها تنافر الوجه والقناع، ولهذا أنا أهرش باستمرار، وأنتم كذلك تهرشون، وتموتون تهرشون، وتبعثون مع الهارشين.

عند هذا الحد ضجت القاعة بالتصفيق فتحمس "منصور" اكثر، ربما لأنه تصور نفسه فيلسوفا، يلقي على الناس شذرات الفلسفة وفصوص الحكمة، ولا فرق عنده أن يكون ذلك في رواق أو مسجد أو مقهى:

-تستطيعون أنتم أن تتحسسوا نضارة ووسامة، لكن ذلك كله صار للأقنعة ماء.. لو تعلمون كم تستهلك الأقنعة من الماء والحياة.. !

حدثت منه التفاتة إلى خلف المحسب، فرأى "الشيخ" يرتشف قهوته في مكانه المعتاد، ويبتسم ويقاوم الضحك حفظا للهيبة والوقار، ألقى عليه "منصور" السلام، فرد عليه بإيماءة من رأسه، وأتبعها بصوت ضعيف يخاطب "عمي صالح"، ويبدو أنهما قد تصالحا، ولا تعجبن إذا رأيت الناس يتصالحون بسرعة، ذلك لأن خصوماتهم تافهة:

-مجنون فصيح، يحسن اللغة العربية، رغم أنه درس في فرنسا.

-هذا لن يفلح يا "شيخ"، سواء درس في فرنسا أو في مكة أو في "كاليدونيا"..

سمع "منصور" كلام "الشيخ" وسمع رد صاحبه، فرد عليهما منشدا، دون أن يقبل عليهما بوجهه:

قل ما بدا لك من زور ومن كذب حلمي أصم، وأذني غير صماء

أعطاه "عمي صالح" فنجان قهوة وقطعة خبز، احتفظ بها خصيصا له، فانهمك في تناول فطوره، وكان الناس يلغطون، فتتسابق أصواتهم إلى أذنيه:

-لقد نهبوه ليلا، وما أبقوا فيه إلا التوافه والرخيص من السلع.

-لهم الحق فالدولة ليست ملكا لأحد، ولكل واحد الحق في أن يأخذ نصيبه منها.

-لكن رجال الدرك ألقوا القبض على اللصوص، وأودعوهم السجن.

-إلا هذي، إياك أن تصدقها، ففي بلدنا نادرا ما يقع اللصوص في قبضة العدالة، وغالبا ما يحدث العكس تماما.. ثم من أدراك أن اللص الحقيقي بيننا الآن، يشرب قهوته في كامل الطمأنينة، بل ربما يزيد عليها أن يسخر منا ومن حديثنا.

عند هذا الحد، انقبض "منصور"، وكاد أن يغص بلقمته، لأن اللص الحقيقي هنا فعلا !.. وها هو يضحك لجليسه، ويحتسي قهوته، ومن حين لآخر يضع كلمة أو حرفين متشابهين، أو غير ذلك في مربعات الكلمات المتقاطعة لجريدة بين يديه وما يذكر اسمه إلا مسبوقا بحرف التبجيل والتفخيم "سي".. وأظنها ترخيما لكلمة "سيد".. وربما لن يقوم من مكانه، حتى يكون اثنان أو ثلاثة من الفقراء قد تشاكسوا فيما بينهم أيهم يدفع ثمن فنجان قهوته !.. ولا تتعجب، فهؤلاء هم الذين يتسترون على اللصوص، ويفدونهم بالطيبين الأبرياء.

-يقول أحد المجاورين لـ "سوق الفلاح" إنه يسمع بعد منتصف الليل دوي شاحنة، فظنهم أنهم قد أحضروا سلعة ما، ومن عادتهم أن يفرغوا السلع ليلا، خاصة المواد الغذائية، لئلا يتهافت عليها الناس ويتزاحمون، وربما يتعاركون.

-ومن عادتهم كذلك أن ينهبوا ليلا، كي لا يراهم الناس. ثم أعقب هذا الكلام ضحك حزين، أو ضحك كالبكاء، ثم سعال حاد، ثم استغفار فلعنات تصب على رأس إبليس.

لم يشأ أن تظل هذه الأحاديث الفارغة تدخل سمعه، فأخذ يدندن بلحن أغنية قديمة، ويوقع بالملعقة على الطاولة، بحركة لا تدل على ذوق متميز. كف عن الدق والدندنة، بعدما أحس بما يشبه الصداع يتشكل في أعصابه، وراح يفكر في عمل يقضي فيه بقية نهاره، خاصة وأنه قضى جل ليله متسكعا يكرف رائحة المعاصي والمخازي، وقد ظفر منها بما يعمل على خلخلة البناء الاجتماعي حين يجاهر بها.

جلس إليه الأستاذ "حمدان" مدة، لا يدري هل طالت أم قصرت، ارتشف خلالها فنجان القهوة، وتحدث إليه عن احتمال أن يجدد اليسار خطابه، على ضوء الوضع الذي سوف يستقر عليه العالم، بعد أن تبرز شبكة العلاقات الدولية، التي سوف يقيمها النظام الدولي الجديد.

وحدثه عن احتمال تراجع مد الصحوة الإسلامية، في ظل انتشار "الخطاب السلفي"، وبداية تراجع "الخطاب الثوري التجديدي"، تحت ضغط الظروف وإيجاد التوازنات بين مراكز القوى في الداخل والخارج، وكذلك اعتماد هذه "الصحوة الإسلامية" على خطاب حماسي، تهيمن عليه النبرة الأخلاقية، مع ضمور الاهتمام بباقي جوانب الحياة التي لا يستغني عنها الناس.

ورغم جدية الأفكار التي يطرحها الأستاذ "حمدان"، فقد كان كمن يحاور وثنا قديما، يكتفي أن يحرك رأسه بين الحين والحين مؤيدا، ويرفع حاجبيه في صورة المتعجب المستفهم. وهو لا يدري أكانت في محلها هذه الحركات والإشارات أم لم تكن.

ولما ودعه الأستاذ يريد الثانوية، أخرج لسناه في ظهره، وقال ساخرا:

-أنا لا أرى خيرا في انبعاث اليسار، أو انحسار "الصحوة الإسلامية"، فكلاهما لا يصدران عن وعي عميق بحتمية التغيير، قدر ما يصدران عن حماس ناتج عن رفض الاختلال الطبقي، وصدمة الحضارة الغربية.

ولهذا فبمجرد ما ينادي عليهم "يزيد" يتبرأون من دعوة "حسين"، وما إن تبسط موائد "الشام" حتى ينفضوا إليها ويتركوا أبا تراب قائما يصلي وحده.

طز يا أستاذ.. احك للنائمين. قالها بصوت مرتفع لفت أنظار من في القاعة، كما لفت من قبل أسماعهم حين كانوا يحاولون أن يتبينوا ما يقول.

قام من مكانه يريد الخروج إلى عرض الشارع. وكما فعل داخلا، ها هو يقف أمام المرآة يداعب وجهه بأطراف أصابعه ويحك ذقنه. ثم ها هو يبصق على وجهه، ويخرج ساخطا كما دخل متبرما بالحياة وأهل الحياة. ومن أين يأتي الرضا بين هؤلاء المعتوهين.

ألقى بنفسه في فوضى الشارع، حيث الناس القانعون المستسلمون قدرا، لأنهم لم يعلموهم المكابدة والمجاهدة قدرا.

بعد تجوال غير هادف، كان وقت الغذاء، لكنه تأبى على نفسه أن يتوجه إلى المطعم. ليس لأنه غير جائع، وإنما لأنه يريد أن يتحرر من الحتمية البيولوجية، كما تراوده الرغبة في التحرر من باقي الحتميات.

ومع علمه المسبق أنه لن ينتصر عليها، فهو يجد لذة في معاكستها ومشاكستها، ويجد لذة حين ينهزم أمامها، لا تقل عن لذة الانتصار.. حسبه أن يشاكس ما لا يشاكس، وأن يعاكس ما لا يعاكس.

ومن أدراك، فبرما بتلك المشاكسة يكشف عن نقطة ضعف الحتميات، تكون منطلقا لتدجينها. وربما بتلك المعاكسة ينفتح باب لم يعرفه أحد من قبل، تصير الحياة من خلاله سهلة ميسورة.

حين اقترب من "مطعم السلام"، أسالت لعابه رائحة اللحم يشوى، فابتسم إقرارا بالهزيمة، ودخل، وهو حائر في أمره، فهو يريد أن يأكل لحما مشويا، وليس في جيبه إلا عشرون دينارا !.. كل تفاهم بعد الأكل مقبولا.

عاد إلى غرفته تلك المليئة بالفوضى والغرابة، كما عرفتها، دون أن يفكر يوما في إعادة ترتيبها. لقد صارت كل ورقة على البلاط دليلا على لحظة من لحظات القلق، وكل جريدة اغبرت أو اصفرت قطعة من تاريخ العناد والأسئلة الحائرة، لقد انطبعت أسنان حذائه وخفه النسوي على كثير من الصور والوجوه التي عزت أن تنطبع عليها القبل الظماء من معجبين أذلهم الحب، ومتملقين أهانهم النفاق.

ولأن هذه الفوضى قد حولت هذه الغرفة فضاء مضطربا بالتناقضات، يحقق فيه ذاته القلقة المضطربة، لهذا لم يفكر مطلقا أن يؤثثها، أو ينظفها، أو يعيد ترتيبها. وإنه ليستطيع أن يفعل شيئا من ذلك، ويستطيع أن يفتح نافذة أخرى في الجدار على الأصيل. لكنه لا يفعل مخافة أن يفقد ذلك الحنين الغامض، الذي يعطي لحياته طعما ومذاقا، بل ونكهة كذلك تطغى على مذاقات كل الحالات الأخرى.

جلي إلى الطاولة، كتب صفحة كاملة، وزاد عليها فقرة في صفحة ثانية، ثم التفت إلى صورة أبيه، فرآه متلهفا مشتاقا، ورأى على عينيه غشاوة كأنها سقط دموع، ولو استطاع الكلام لأجهش بالبكاء وقال:

-أهكذا يا ولدي؟.. أهكذا يحلو لك تعذيبي؟.. هل لأنك تعلم شغفي إلى سماع أخبار الناس وأحوالهم، ألهذا صرت لا تحكي حتى أسفح على قدميك دموعي وتوسلاتي؟.. هيا احك يا ولدي.. رجوتك، صف لي الحياة ودفء الحياة، وجوه الناس، حبات العرق

على الجباه كاللآلئ في جبين العروس.. احك لي عن بقرات إبليس حاشاك (يقصد النساء) عن مكرهن.. عن كيدهن، فقاطعه "منصور":

-سأحكي لك عن ثيران إبليس، هؤلاء الجالسين على الكراسي والمقاهي مثل أكوام القمامة..

ويميلون يمينا وشمالا منشدين:

سأبقي الأرواح يا هذي الغمامه..

صفي حالي لسيدي بوعمامه..

ثم عودي بدواء الداء كيا أو حجامه.

سأحكي لك عن ثيران إبليس المتحركين في وجه الشمس كالظلال المتعفنة.. من فرط ما مسحت من أوحال الطرقات وغبار الأزقة.

عند هذا الحد، رأى أسارير أبيه قد انبسطت بعد انقباض، وتهللت بعد عبوس —حديثهم اليوم، كحديثهم أمس، حديثهم غدا. وهذا طبعهم، فما أنزل الله بينهم حدثا إلا جعلوه عجينا من فرط الاجترار.

حديثهم هذه المرة عن "سوق الفلاح"، فقد استيقظوا صباحا ليجدوه خاويا، فاحتاروا في من نهبه.. ولم تمض إلا ساعات قلائل، حتى سرى خبر بينهم، فحواه أن مصالح الأمن قد ألقت القبض على اللصوص، وساقتهم إلى السجن ليذوقوا وبال أمرهم.. وقج فرح الناس واستبشروا خيرا، لأن الدولة كانت ساهرة عندما كانوا نياما.

وأشهد يا أبي أن مجموعة الشباب الذي سجنتهم الدولة بريئون كل البراءة. فقد مررت بهم آخر الليل، فرأيتهم يقتسمون زجاجة خمر وحقنة مخدرات، ويرددون بأصوات فككها اليأس والضياع والخمر: "من جبالنا طلع صوت الأحرار".. وما أظنك تجهل أن الذي يبالغ في تمجيد القوة، لا يجني إلا الخراب.

وأشهد أني قد مررت باللص الحقيقي في مكتبه، مستدبرا صورة الرئيس، يقضي بحكمة في شؤون العامة. أما شريكه في السرقة فقد تركته في المقهى يرتشف القهوة، ويختبر ذكاءه في مربعات الكلمات المتقاطعة، وهو يحاول أن يظهر للناس أنه قلق ومتأسف ومصدوم.. إنهما رئيس البلدية ومدير "سوق الفلاح".

عند هذا الحد صدم أبوه كذلك، بدا على محياه استفهام كبير، كاد أن ينطمس تحت ظلال التكذيب، فليس من المعقول أن يكون حاميها حراميها.

-لا تكذبني يا أبي، إني رأيتهما معا ينهبان السلع والبضائع.. أين الحارس قد تسألني، فأجيبك: لا ادري،.. وأين حراس الحارس، وابن حارس الحراس !؟..

صدقني يا أبي. إني أستطيع أن أحدد بأي سلعة بدأوا النهب، وبأية سلعة ختموا.. نعم أستطيع ذلك، فقد كنت متواجدا خلف جدار هناك، أقتفي أثر الخطايا، فجأة توقفت شاحنة رئيس البلدية، ونزلا منها الاثنان، وفتحا الباب بهدوء، ثم كسر القفل بمطرقة، وبعد انتهاء النهب سلكوا الطريق الشرقي، حتى صرت لا أسمع دوي الشاحنة.

ظهرت على وجه الأب ريبة وقلق، وكأنه مال إلى التصديق، لكنه يخاف على ابنه أن يكون شاهدا على الكبار فيصير شهيدا لغير قضية. فليس صعبا عليهم أم يقتلوه، وينسبوا الجريمة إلى مجهول ليظل التحقيق متواصلا.

وكأنه قد فهم ما قالته أسارير أبيه، وما باحت به عيونه الحزينة، فقال يطمئنه:

-لا تخف علي يا أبي، أنا أعرف أنهم يقتلون بأسهل مما يشربون كأس خمر –وإن كان للشرب آدابه وطقوسه،- ويقتلون بأسهل مما ينشون ذبابة، إن كان ما زال الذباب حولهم يحوم.

إن الأسد يا أبي قد يسمح لك أن ترفع شدقيه فتبدو أنيابه، ولكن لا يسمح أبدا أن ترفع ذيله فتبدو سوأته !.. إن هذا المثال ينطبق على عالم المصالح المنحطة، فكثير من الديليين، يستمدون وجودهم من كونهم رقعا تستر سوءات المتبوعين الأسياد. وهؤلاء ما أقذرهم وأحقرهم,

ورغم هذه التطمينات، وهذا الاعتداد بالنفس، فإن أباه لم يطمئن إلى أن ابنه يستطيع مل ما يدعيه، ويتجلى ذلك في الأسى الغامر الذي أعطى لنظرته شحوبا حزينا. ولو كان يستطيع الكلام لقال لابنه منبها ومحذرا:

-أنت ما زلت صغيرا حتى تموت، وعندها تشيب من فظاعة الحقيقة، أنت لا تعرف من يضطجع حولي هنا، ما بين مصلوب ومبعوج، ومطعون عند صلاة الصبح، ومذبوح من القفا.. وأنت لا تعرف أن أكثرهم كانوا مثلك، يضحون من أجل أن تسطع شمس الحق، ولما سطعت هذه الشمس كانوا هم في ظلمات القبور وبردها، أما شمس الحق فقد أغمض الناس دونها عيونهم، لأنهم يستعذبون الظلام.

كثير من النائمين حولي أحرار مثلك، ماتوا كي يتحرر العبيد، لكنهم داخوا لما رأوا الحرية تلتف حبلا متينا حول أعناق من تبقى منهم.. وها هم الآن كلما ألقوا نظرة على أهل الحياة شعروا بالأسف..

تجنب يا ولدي مال اليتامى فإن أباهم ينظر إليك، واحذر أن تغرر بنساء الشهداء، فإني أراهم يتمزقون حسرة وغيرة. ولا تنقع ولا أصبعا واحدا في عرق الكادحين فإن الله يغضب لما يراه تحت أقدام المترفين.

إنكم يا حبيبي –هنا طأطأ منصور رأسه خجلا مما يسمع، لأن كلمة "حبيبي" من مرادفات العيب في هذه القرية، لأنها تثير مشاعر غير مقبولة، وتحرك خيالا غير نظيف، لكنه اعتبرها هفوة من أبيه، وواصل الاستماع- تمشون على أكتاف جبارين، وتطأون وجها كانت لا يلامسها النسيم إلا مقطرا أو مصفى، وتدوسون بأقدامكم المغرورة صدور كرام وخدود ملاح، لو كانت حية وتوردت حياء وخجلا لفتنت أكرمكم عند الله، فاحترموا التراب يا ولدي ولا توجعوا الحجر.

كانت كلمات أبيه عميقة وموحية وذات ظلال، رغم ما اكتنفها من يأس وحزن.. وربما كانت كذلك لم اكتنفها من حزن ويأس. لأن الحكمة حزينة.

وقد أثرت فيه كلمات أبيه أيما تأثير، وجعلته يفكر في أمره بجد، ويخطط كيف يتراجع عن كل ما نوى، ويعيش كباقي الناس الطيبين، بلا مشاكسة دولة، ولا معاكسة مجتمع، يكفيه أن يبسط جناحيه في وجه الرياح، أو يلقي بجسده في مجرى التيار، وسوف يكون له بين القطيع شأن وأي شأن.

وبعد صمت طال شيئا قليلا، رفع مجددا وجهه في وجه أبيه، فرآه ينتظر مشفقا، وكله أمل أن ابنه لم يزيد شيئا على نصيحته ورأيه إلا ما هو إثراء وإطراء.

-كم تصيرون حكماء حين تدعون إلى الاستسلام والسكون- رد عليه متهكما- وكم تكونون فصحاء بلغاء حين تطنبون في ذكر عالم الموت والآخرة !.. كأن الله سبحانه ما خلقنا إلا لنموت !.. أف لكم ولحكمتكم.

!ثم قام وصفق الأبواب خلفه غضبا بينما ارتسمت على وجه أبيه علامات الحيرة، يشوبها بعض الندم. لعله قد لام نفسه، ولو استطاع لضرب كفا بكف. فقد كان أولى به ألا يحرجه، وألا يكون سببا في خروجه إلى عرض الشوارع وغبار الأزقة، فهو في هذه الغرفة أحسن، سواء لما يطالع أو لما يكتب، أو حين يستمع إلى الموسيقى الشرقية التي يكلف بها أشد الكلف، كأن سنوات "باريس" ولياليها لم تنحرف بذوقه، أو لم تقومه كما يظن الآخرون. وهو أحسن في هذه الغرفة لما يطوف به طائف من الإيمان، فيقبل على الصلاة أو قراءة القرآن او الاستماع إليه مسجلا بأصوات كبار المقرئين.

وهو هنا أحسن حتى لما يشرب الخمرة مستلقيا على السرير. !

15

أظنك –ونحن نقترب من النهاية مجهدين حسبما أظن– قد صرت في غنى عن أن أذكرك في كل مرة بأحوال "منصور"، وجلوسه إلى طاولته والتفاته إلى أبيه، واستلقائه على سريره ذي المفاصل المزعجة، وسعيه بين الغرفة والمطبخ بحثا عن لقيمات، و..

–ضياعه في حلقة مفرغة، مالها من معالم غير العبث والفوضى والجنون. !

بالضبط كما توقعت انا، فقد أكملت كلامي أنت !.. وضياعه في حلقة مفرغة، مالها من معالم غير العبث والفوضى والجنون، وما أضيع وأتيه من تكون هذه معالم سبيله.. !

لقد نجح استدراجي، لكنك ما احسنت التعبير باختصار، وإن تصبر فسوف ترى أي خط مستقيم هو منطلق إليه، وأي هدف واضح هو يسعى إليه، كالسهم يرمى من قوس "الكسعي".. وأظن أن الجملة الأخيرة هذه قد أعجبتك، بل ورأيت فيها مثلا دقيقا يضرب للذي لا يخطئ هدفه: "كالسهم يرمى من قوس الكسعي.."

وأظن غير مخطئ ولا آثم، أن ملامح "منصور" قد تشكلت في مخيلتك بدقة متناهية، بحيث أنه بمجرد ما تغمض عينيك وتفكر فيه، حتى تراه ماثلا أمامك واضح الملامح صافي الأسارير، وذلك ما كنت أهدف إليه وأصبو.

إذن، ها هو اليوم كباقي الأيام التي خلت، جالس إلى طاولته، يدوي معاصي أهل قريته ومخازيهم في همة لا تفتر وعزيمة لا تلين، وليس لنا أن نعرف من هذه المخازي والمعاصي غير "ما يتكرم" به على أبيه دفها للسآمة والضجر.

إنه لا يرتدي غير السروال، أما الجزء العلوي منه فعار، يكشف عن صحة ويشير إلى عافية.

كأنه وهو يقرأ ويكتب فقط، إنما يسعى إلى دور في الحياة، يؤهله إليه هذا العكوف على القراءة، أو هذا الانقطاع للكتابة. وكأنه ينتظر وهو في هذه الغرفة المغلقة أن يوما سوف يأتي، تأتي إليه جماهير الكادحين، وتكسر عليه الأبواب الثلاث، وتحمله على الكتاف، وتسير به مهللة مكبرة، منادية بحياته، حتى تجلسه على عرش الجمهورية، وتتوج رأسه بالتاج الذهبي، ثم تنثر حوله مجموعة من الحمقى والبلهاء والمعاقين ذهنيا، فيتخذ منهم بطانة كبطانة "بلقيس"..

يا له من وهم !.. لكنه وهم جميل، لأنه يشعره دائما أنه مهم ومؤثر، وخطير ذو حدين؛ خطير على الشعب مع الدولة، وخطير مع الدولة على الشعب، ويشعره كذلك أنه مستهدف، ولن تمضي الحياة بدونه، وإن مضت فلن تستقيم، وإن استقامت فسرعان ما تنتكس، وإن لم تنتكس فحتما يوجد خلل ما في منطقة ما لا يسمح بحدوث الخلل.

لكني لا أظنه مطلقا أنه يفكر بهذه الطريقة، ولن تدفعني بعض نوبات الغضب واليأس التي تنتابه من حين لآخر، كي أصدر في حقه هذا الحكم، وأظن به الظن الآثم. تنهد، وحك إبطه برأس قلمه، ثم استدار إلى صورة أبيه، وحياه تحية عسكرية، فظل وجه أبيه جامدا مهيبا، كأن روح عقيد قد تلبسته.

ضحك من هذه الإسقاطات الكاذبة، التي يثقل بها كاهل أبيه، وقال يخاطبه:

-أراك شغوفا مشوقا إلى سماع أخبار المعاصي والمخازي.. عندي منها ما يجعلك تصاب بالملل والتخمة، وتقول لي راجيا: "حدثني عن اخبار الخير والطاعات..". حينها سأدير وجهك إلى الجدار، وأؤجر فتحة فمي لعنكبوت تتخذه بيتا وأستريح. !

تنهد مرة أخرى، وطأطأ رأسه قليلا، ثم مد يده إلى فنجان القهوة، وحينها انتبه إلى وجود خمسة فناجين أخرى، وفي بعضها نمل ميت في الثمالة اللزجة.

لا بد أن يعيدها إلى "عمي صالح" خفية، وغن رآه، فلن ينجو من سب وشتم. و"عمي صالح" يبقى طيبا حتى عندما يسب ويشتم. وواصل يحدث أباه:

-لعلك ما زلت تذكر تلك الساحة المحفوفة بأشجار الدردار، والتي كانت أيام الاستعمار ساحة تعذيب، ثم اتخذت بعد الاستقلال ساحة للاحتفالات الوطنية والدينية، نكاية في الاستعمار وشماتة به، وصارت في السنوات الأخيرة ساحة يلعب فيها الطفال كرة القدم، بعدما ظهر من جعل تدين الناس كله بدعا تقريبا، وظهر من جعل التاريخ زيفا وكذبة صفراء، ويشير إلى صانعيه بالدم والدموع على أنهم مرتزقة وجياع !، فزهدوا الناس أن يظهروا الفرحة بأيام الدين أو بأيام الوطن.

تظهر على وجه أبيه سمات من يجهد نفسه من أجل التذكر، لكن جهده خاب، فغلبت على عينيه حسرة من يريد أن يقول:

– لم أعد أذكر شيئا يا ولدي، لقد رأيت من الأهوال ما أنساني كل شيء يا حبيبي "منصور". وإن كان يريد أن يضيف كلاما آخر، فقد قاطعه "منصور" قائلا:

-أوه !.. لا تقل لي "حبيبي".. إنها من مرادفات العيب عندنا.. لا بأس عليك، المهم ألا تكررها مرة أخرى.

المهم في هذه الساحة قامت "فيلا" بيضاء امتدت في الجو قدر ما شاء لها صاحبها، وامتدت عرضا وطولا قدر ما سمح به القانون، وهو في أقصى درجات التمطيط، فصارت كالقصر الصغير.

صاحبها لا يعرفه كثير من الناس، صموت خدوم، يفرض عليك احترامه لإقلاقه في الحديث، مكانه في "مقهى الأمل" معروف، وساعة قدومه إليها محددة.

له علاقات واسعة، جعلت الناس يقصدونه في حل مشاكلهم، فيكون ذلك منه بمكالمة تلفونية قصيرة إلى الجهة المسؤولة.

كما أن الشيء الذي جعل الناس يحبونه هو أن هذا الرجل لا يزوره إلا الشخصيات والمسؤولون، من أصحاب البطون المنتفخة، والجيوب المنتفخة، والسيارات المنتفخة، والنساء المنتفخات كذلك ! وهو يستقبلهم ويكرمهم أيما إكرام، وكم يأكلون الشواء بالهريسة عند "عمي أحمد البيفتاكة !!"

أدري أنك تحب الاستطراد في حميميات الناس، وها أنذا قد استطردت لتفهم بقية ما سوف احكيه، وتعرف كيف صار هذا الرجل الغريب ثريا ومحترما، يفد عليه المسؤولون والأغنياء.

كعادتي، فقد ظللت ليلة من الليالي أتسكع على غير هدى، تغريني نسمات الصيف، وتقلقني وسوسات أفكار في رأسي كالنحل المستثار، كنت أحاول أن أحاصرها باللغة، فكانت تنزلق من زوايا الحروف وثقوبها كالزئبق من بين الأصابع. فجأة عرتني من وحدتي والظلام أضواء سيارة تتجه نحوي، ثم تلتها أخرى، كانت الأولى تشبه "الميني كار". اختفيت خلف الشجرة قرب باب "الفيلا"، ورحت أراقب مدفوعا برغبة كبيرة في التجسس وكشف المستور، وكلي أمل أن أعثر على معصية أو خطيئة.

وبعد دقائق، نزلت من "الميني كار" عشر فتيات في لباس غير محتشم تماما، ودخلن "الفيلا". وكان قلبي يدق بطريقة خفت أن يسمعني، وبعد دقائق خرجت عشر فتيات في لباس كلباس السابقات، وركبن "الميني كار" التي انطلقت بهن صوب المجهول تسبقهن السيارة الأولى..

أبي.. رغم أني لا أفقه في السياسة شيئا كثيرا، فلا تظنن أني لم أعرف حرفة الداخلات والخارجات، أو مهنة الداخلين والخارجين، او كيف أثرى صاحب "الفيلا" الغريب، وليلتها فقط عرفت من أين يشتري المراهقون والمدمنون الخمر والمخدرات.

وأحسبك الآن عرفت حجم الشر الذي يخفيه الخير الظاهري أحيانا، وعرفت الخداع الذي يتدرع بالبسمة الزائفة الصفراء.

لم يظهر على وجه أبيه أي استحسان للذي كان يسمعه، فهو –على ما يبدو- لم يستطع أن يتصور كيف تحولت القرية الامنة والمطمئنة، التي كان يستحيل أن ترى فيها أثواب النساء معلقة على حبال الغسيل، كيف تحولت وكرا لهذه الموبقات القاتلة التي يحدثه عنها ابنه في غير حياء. لا بد أن اليهود والنصارى هم الذين وراء شيوع الفاحشة في القرية، هنا قطع "منصور" الصمت الطويل:

لا تظلم اليهود والنصارى يا أبي.. إن الله لا يحب الظلم حتى في ذات أعدائه، ما أسهل أن نعلق معاصينا ومخازينا على مشجب الاخرين، لنبقى نحن محافظين على الطهر الزائف والطاعة الشوهاء.

مشى نحو رفوف الكتب، وأكمل حديثه وهو يفتش بينها عن كتاب:

-بالأمس فقط قرأت قصيدة تنطبق عليكم، وسوف أسمعك إياها.

واستخرج ديوانا شعريا ذا غلاف أخضر، كثيرا ما يرى بين يديه، وراح يقرأ:

-نحن أحباب الإله..

غفر الله لنا ما كان منا والذي سوف يكون

وجميع الخلق –إلانا- خبيثون، ونحن الطيبون.

كل شيء قد علمناه يقينا.. ونسيناه يقينا

ونسينا هكذا حتى اليقين

نحن أحباب الإله المصطفون

من رآنا بين أحضان المخازي يحسن الظن بنا، إذ ليس خزيا ما يراه.

إنما نحن تواضعنا قليلا، كي يرى الناس بأنا خير من صاغت يداه

كل مجد في الدنى نحن أعرناه الجباه

ولسان الصدق إن قال كلاما شفتانا شفتاه.

نحن معصومون بالميلاد، لكن كل ذنب كلما أبصر منا ماجدا ردد: آه. !!

كالذي أبصر –من بعد اشتياق طال في الناس– أباه أو أخاه.

نحن معصومون بالميلاد، لكن كل ذنب خطوه خلف خطانا انطبعت،

أو خطانا انطبعت خلف خطاه

رغم هذا، صدقونا، نحن أحباب الإله. !

16

دخل داره مغبر الثياب، ملطخ اليدين، أما قميصه الصيفي فكان مبتلا من ظهره تماما.. فنزعه ووضعه على شرفة النافذة ليجف. وبعدما غسل وجهه وأطرافه، أقبل على طاولته ليكتب ما عن له من أفكار وخواطر، وما رأى من أحداث في قريته.

وبعد دقائق، استدار إلى صورة أبيه المعلقة كالتميمة على الجدار، وقال له متنهدا، وعلى محياه يبدو حزن مجهد، وفي عينيه ترتعش حسرة متعبة:

–لقد ماتت..

–نعم ماتت كما مت أنت من قبل كالصرصور الجائع.

لم يصل عليها أحد من الناس.. سرنا في جنازتها ونحن نشعر بالخجل، لأننا كنا قلة قليلة. دفناها بجوار الآخرين، من أغنياء وفقراء، وأغبياء وأذكياء، وتقاة وعصاة.. لقد تساووا جميعا تحت التراب، فلم تخرج من قبر الشقي نار، ولم تطلع من قبر التقي زهرة جلنار.. ولقد عز علي يا أبي أن ذاك الجمال الساحر، يصير طعاما دسما للديدان القذرة.

لست أدري لأية حكمة يسرج الله القناديل الجميلة، ثم يرسل عليها الريح لتشربها؟.. !

ما رأيت أجمل من عيونها السوداء، ولا أعمق تأثيرا وسحرا من سمرتها لا تصلح إلا للدعاية لأدوات الزينة والعطور.

أما ابتسامتها، فلله ابتسامتها يا أبي !.. شيء لا يوصف، شيء يلبس الجسد قشعريرة أبدية. هل تصدق يا أبي أنهم طلبوا مني أنا شخصيا أن أقرأ على روحها "الفاتحة"؟..

لست أدري لماذا فعلوا ذلك، ربما استنكفوا هم أن يفعلوا ذلك، أو ربما هم مني يسخرون.

ولقد قرأت عليها "الفاتحة" بقلب ما دق في صدر راهب، وشفتين ما تحركتا تحت أنف زاهد متبتل..

ورغم هذا السرد المؤثر الحزين، فقد احتار لأبيه إذ رآه فرحا مستبشرا، تكاد عيونه أن تتحرك، ويكاد وجهه جميعا أن يكتسب حمرة وردية صافية.

بعد برهة من التفكير، تفطن لظن أبيه الذي جعله فرحا مستبشرا، فقال له وهو يقمع ابتسامة سخرية:

-لا .. لا.. تذهب بك الظنون بعيدا، إنها ليست أمي، هي لم تزل حية، لم أزرها منذ مدة.

بعد هذا، رأى كأن صورة أبيه تعود إلى سابق انقباضها وجدها، فشعر أنه أحدث له ألما كبيرا. لكن ذلك خير له من أن يظل كالمتسول على أبواب القبور الجديدة يطرقها، وعلى باب كل قبر يترك أمله ورجاءه مزقا مهترئة..

طأطأ رأسه، وأكمل حديثه إليه:

-المهم، في تلك اللحظة أحسست بالندم، فقد كان بإمكاني أن أحبها فلا تموت، لكني لم أفعل. وكان في إمكاني أن تعطيني أطفالا كنجوم الليالي الصيفية، خير من نسلك يا أبي، وأنا نموذجا..

خرجت من المقبرة مطعونا في العمق، لأني أحسست أن المرأة التي ظللت أبحث عنها من سنين، قد اهتديت إليها وعثرت عليها، ولكن بعد أن طمرتها تحت التراب، وقرأت على روحها الطاهرة فاتحة الكتاب.

شيء غريب يا أبي أن يهز الجثمان المسجى قلبا خامدا، فيجعله كالبركان يرمي بقذائف الحب وحمم العشق في كل اتجاه..

أثناء عودتنا من المقبرة، كنت أبكي بحرقة بالغة.. فاحتار بعض المشيعين، واعتبروا ذلك مني نوبة من نوبات الجنون، لاعتقادهم أن هذه الفقيدة ليست جديرة بالبكاء، وآية ذلك أنه لم يحضر جنازتها أي واحد من أهلها.

أما انا فقد كنت أبكي بصدق وعمق، لأن المرأة التي كانت نصيبي قد ماتت، بعدما انتظرتني طويلا على الأرصفة وفي منعطفات الأزقة.

انتظرتني طويلا رغم ذئاب الليل والريح والمطر.

الله يا أبتي.. ما أحلى مرارة الحب، ليس أشهى مني غير حليب أمي في عامي الأول. إنها امرأة طلقها زوجها من سنين، بعد ما ولدت له طفلا جميلا، وطفلة ذات بهاء أخاذ. لأن هذا الزوج الملعون أراد الربح السريع، فتزوج طبيبة، أملا في ذلك. لكن ربك ما زاده إلا فقرا مشوبا بذلة، وزاده على الفقر الذليل أن جعل الطبيبة عاقرا، فما كان منه، وبإيعاز من الطبيبة وتواطؤ من القاضي، إلا أن استرجع الطفلة والطفل، فجنت المسكينة أو كادت، فصارت لا تستقر في بيت والدها، وكل مرة يراها الناس تطوف ببيت "زوج الطبيبة" – كما يكنونه–، فينزل إليها الوغد فيضربها والناس أبناء الحرام ينظرون. !

ومرت الأيام، ودارت الأيام، ونسيت المسكينة طرقها إلى دار "زوج الطبيبة"، وضلت سبيلها إلى بيت أهلها، فهامت على وجهها بعدما اهتدت أن كل الطرق توصل لما يتلاشى الهدف.

ذات صباح –يعني صباح أمس– وجدوها مقتولة، فلك يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن القاتل، بل مسحوا سكين الجريمة في صديقتها التي وجدوها نائمة قرب جثتها؛ وسرعان ما نسجوا حول ذلك قصة تافهة تشبههم تماما، وهي انهما تخاصمتا من أجل قطعة خبز، فما كان من صديقتها، وتحت إلحاح الجوع والرغبة فب الامتلاك إلا أن بعجتها بحديدة، فماتت.

أني أنا الشاهد الوحيد على الجريمة يا أبي.. لقد أخذت الأقدار بناصيتي لأكون شاهدا. إني أشهد أن القصة من اختلاق خيال مهووس، بينما التفاصيل الحقيقية هي كالتالي:

-كانت الساعة منتصف الليل، لم أكن بعيدا عنها وصديقتها، مر بي ابن مسؤول أمني، لا أسميه، لأني أخاف أن تذهب إليه لتخبره في الحلم، فيحتاط لذلك، !.. مر بي دون أن يراني، توجه إليها مباشرة، تودد إليها بقطعة خبز، قبلتها منه، فأعجبني حينها هذا الإحسان، وأحسست أن الدنيا ما زالت بخير. ثم رأيته يتلفت ليتأكد من خلو الشارع، ثم أخذ يراودها، ومد يده لينزع عنها جبتها، فدفعته وأبت، فأخرج مسدس ابيه ليخوفها، فارتمت على المسدس تريد ان تنتزعه منه، وفي اللحظة التي حاول هو فيها أن ينتزع المسدس، وقد قبضت عليه خائفة، في تلك اللحظة انطلقت الرصاصة القاتلة لتخترق بطنها، فسقطت في الدم، وماتت دون أن تبكي أو تئن. بينما راح هو يعدو واختفى في المنعطف، ونفس الشيء فعلته أنا اتقاء للشبهات، لأن الشهادة في هذه الأيام، صارت ورطة يتقيها كثير من الناس بالتستر والكتمان؟

هذه هي الحقيقة يا أبي، بكل مرارتها الموجعة؛.. يموت بعض الناس كما تموت الكلاب، وتموت بعض الكلاب كما يموت الناس.

بدا على وجه أبيه بعض التأثر البسيط، كأنه يجامل ابنه في فقد المرأة التي كان أولى به أن يحبها، وأطرق إطراق المواسي الطي يحتم عليه العرف أن يظهر الحزن في مثل هذه المواقف، وإن استطاع أن يزيد على ذلك بعض التحسر والتنهد، فذاك أجمل بالمواسي وأحب للمواسي.

أدرك "منصور" أن أباه لم يتأثر التأثر الصادق، ولم يجد القدرة على أن يمثل دور المواسين الصادقين، فبدا كالممثل الفاشل:

-لك الحق ألا تحزن..

ولماذا تحزن،؟. إنها ليست غنية، وليست بنت غني ولا زوجة مسؤول، وليست مطلقة ما زال فيها ماء الأنوثة يسري، فهي كالحمى المستباح.

لك الحق ألا تحزن.. فالحزن الذي لا يخدع قلبا لا لزوم له، والدمع الذي لا يروي مصلحة عبث، والأسف الذي لا يجلب منفعة حماقة.

لك الحق ألا تحزن..

بل لك أن تفرح كالآخرين حين أحسوا أن يدا في وجوههم، فتفضح بخلهم قد نقصت. وأن إدانة صارخة لتدينهم المغشوش قد صمتت إلى الأبد.

وأن أصبعا تشير إلى قانونهم بالاتهام قد طواها التراب.

لقد كان موتها انتصارا كبيرا لهزيمتهم الكبيرة.. !

نعم يا أبي، وليس هذا تلاعبا بالألفاظ.. بل إنها الهزيمة تنتصر عندما يموت الفقراء جوعا.

إنها الهزيمة تنتصر عندما يموت العراة بردا، والعطاش يموتون ظماء..

إنها الهزيمة تنتصر عندما يتفسخ المنبوذون في الأقبية الرطبة والزوايا المظلمة مثل أكياس القمامة.. هذا كله يمثل انتصار الهزيمة.

بعدها أمسك رأسه براحتيه معتمدا على مرفقيه على الطاولة، وراح ينشج بالبكاء حزنا على امرأة لو كان في الإمكان لو آواها إلى صدره، وأذاقها قبلا دافئات وأحبها كان في الإمكان ألا تموت.

كان في الإمكان أن أفعل شيئا.

كي يظل الورد غضا في حوارينا نديا..

كان في الإمكان ألا أدع الحب يقاسي جائعا فوق رصيف من هوان.

يتمنى شفة حبلى بقبلات عطاش، وعيونا كينابيع الحنان.

وكلاما يشبه اللغو بريئا، وحديثا تافها دون معاني.

وجدارا لجدارين وبابا، وحصيرا قربه بعض الأواني.

كان في الإمكان أن أفعل هذا، إنما كنت جبانا وغبيا.

فارحميني يا فتاتي واعذريني.

وارحمي حزني الذي غشى جبيني..

والأسى والندم المطعون في ليل عيوني.

لم يكن صعبا علي.

أنني أعطيك ركنا دافئا في مقلتيا.

أنني أجعل صدري لك يا روحي مخده.

فوقه تلقين رأسا صعر الحظ له في الناس خده.

وتنامين قليلا فوق آهاتي فتنمو في خريف الخد ورده.

كان في الإمكان أن أفعل هذا، إنما كنت شقيا

فاعذريني.

هو يدري أن عمره لم يعد غير ساعات مستنسخة عن ساعة واحدة، عاشها ذات مرة بحرية وتلقائية. ساعة شعر خلالها أنه كالموغل في الأدغال. في كل لحظة يتوقع أن يلمع أمام عينيه كنز، أو يلتف حول عنقه ثعبان ضخم طويل شعر الرقبة.. ساعة تكتظ بالدهشة والغرابة وأكمام الأسرار. وبعد سنين معدودات، صوحت مواسم الساعة، والتهبت فصولها، وابتذلت الأسرار، واستقر عقرباها على لحظة بائسة.

ثم زحفت تلك الساعة على حياته كلها، كما تزحف الصحراء على الواحة الخضراء، وتكفنها في الرمل والريح، فلم تعد حياته إلا هذه الصحراء، التي تتناثر على وجهها بعض الواحات الضيقة تقاوم الموت في يأس كبير، وما تريد من وراء ذلك غير الموت بشرف؛ إذ في كل لحظة تضيق حلقة الرمل حول رقبتها، ويقل الهواء في رئتيها.

هو يدري أنه ما عاد يقدر أن يكسب أو يفقد، ولقد تساوت في حسه الدقيقة والنهار، وتساوى في مشاعره الحون والفرح، والدمعة والابتسامة.

إنه قبر متحرك من آلاف الجماجم والهياكل العظمية، التي ما زالت تشتهي من خلال شرفات عينيه ودقات قلبه كل مباهج الحياة وغواياتها..

القلب تضغط عليه الهياكل والجماجم..

والدم تشربه الهياكل والجماجم..

والأماني العذاب اللطاف لا تنجو مطلقا من مقص الهياكل والجماجم !

أية لعنة هذه !!؟

يراه الناس، يشيرون إليه، يسمونه، يحتكون به. لكن الناس واهمون –ومتى كان الناس غير واهمين؟.. إنه قناع حي للموتى، وجلد نام للحم مهترئ المتفسخ، وروح للعظام الرميم.. والناس كذلك مجرد قناع ذابل للآخرين الذين كانوا.

حاول مرات أن يحرث عمره البور، ويبذر فيه بعض الأماني الذهبية والحلام البريئة، لكن الهياكل والجماجم في صراعها الدائم، وتنابزها المستمر داست الأماني قبل أن تنتش وسحقت الحلام أن تخرج شطأها.. فاهترأت تلك الماني والحلام، وصارت ترابا.. وحينها شربت الهياكل والجماجم نخب النصر من دمع العيون.. !

حاول مرات كثيرات أن يكذب على نفسه بصوت مرتفع كالآخرين، ويصدق كذبته الصارخة قبل أن يستقر لسانه في فمه، كالآخرين !.. ويعيش راضيا مرضيا، سبابتاه في أذنيه، عيناه في جيبه تسبحان في زجاجة فيها ماء مطهر، وفي فمه قردة حذاء قديم مرقع، فلا سمع ولا قال ولا رأى. !

وكالآخرين يفتح عينيه للآخرين، فيختالون في مراياها كالطواويس المغرورة؛ حتى يحصل لهم الإشباع النرجسي. ويفتح له فمه، فيحركون لسانه بما يريدون من هتاف وصراخ وتكبير فكل الكلام إذا خانته الحيرة، وخان الصدق يصير تافها ومبتذلا.

يستطيع أن يعيش كباقي السعداء لقطعة الخبز الرخيصة، ولباقي الشهوات التي يستطيع أن يحكي عنها لأول قط يصادفه، فيفهمه وينسجم معه.

لو يستطيع أن يتمثل كل هذا، أو بعض هذا في سلوكه ومنطقه، فليس مستبعدا ان يكون سعيدا بحق. لكنه، ولشيء قديم بينه وبين التعاسة والشقاء، فإنه لن يستطيع أن يفعل من ذلك شيئا.

إنه يعرف ويفكك، ويعيد التركيب، ويستنبط، ويرى الأيام وهي لم تزل بعد نطفا في رحم المقادير، فيفر من أهوالها قبل أن تحيق به، ويختفي في رغوة كأس أو ضباب سيجارة، ولهذا يظنه الناس مجنونا. وهذا لا يؤذيه مطلقا، فليس المجنون من غطي على عقله فقط، إنما هو كذلك من انحسرت عن عقله الحجب، وانزاحت من قدام بصيرته الستائر، وتجلى له كل شيء على حقيقته، فأبهرته الدهشة فصر.

لم يعد يجد الرغبة في أن يمضي إلى غده أو شهره القادم أو عامه المقبل، لأنه –بكل بساطة– لا يشعر بالفرق ولا يحس بالانتقال والاختلاف عن هذه الساعة التي تدفع خطاه في كل اتجاه، كالورقة الناشفة في مهب ريح عاصف، فمن الخير له وللأخرين –إن كانوا صادقين– أن يتوقفوا عن الحركة بغير رغبة وفي غير اتجاه مقصود.

لكنها الدروب الملعونة تمتد وتمتد كأنها من مطاط، وكلما ازدادت طولا تضيق، فيخاف أن يفقد توازنه.. والفراغ الداخلي جائع ويبحث عن امتلاء وإشباع، والظلام قد محا كل معالم الطريق، وما أطول –بل ما أقصر، بل ما أطول –الطريق التي بلا معالم، فالماشي

فيها لا يصل لأنه كالذي لا يتحرك.. فعندما تترك خلفك ارتطام صرصور بجدار، لتسمع بعد خطوات مواء قط جائع، ليطرق سمعك بعد ذلك نباح كلاب تتهارش حول كيس قمامة !.. ما أحقر الطريق التي يكون معالمها صوت ارتطام الصراصير ومواء القطط ونباح الكلاب.. !

ورغم ذلك تجد من يسير فيها بجد وإخلاص، ويسفح بين معالمها عرق الجبين.

من حين لآخر يمر به شاب أو رجل، ربما واردان على معصية أو صادران عن خطيئة.. ما عاد يحسن الظن بأحد، لأنه بعد جيل من الزمان، عاش خلاله على حسن الظن، وجد نفسه أنه كان مغفلا وأحمق. وليس الناس بالحمقى مثله حتى يقيدهم الصدق، أو يلتزمون بالطيبة. فالصدق ما در مالا، والطيبة ما أعلت جدارا !.. ولهذا أدمن رائحة المعاصي، كما أدمن عورات الناس التي لا تكشف إلا حين يضرب الليل خيمته، وتنغلق عيون الناس، لكن.. ويلهم من عيون الله. !

وقد مكنه هذا التسكع الليلي الهادف من معرفة المعاصي والعصاة، هذه المعرفة التي جعلته في النهار لا يرى إلا وجوه قردة على اجساد خنازير !!.. أي حقد يستبطن هذا المجنون؟!

صار يعرف كل الزناة واللصوص وبائعي الحشيش ومشتريه، وشاربي الخمر سرا لأنهم جبناء، وصار يعرف كل المفسدين، وبائعات الهوى..

نعم.. كل هؤلاء موجودون، ويتحركون في ليل هذه القرية، التي يظنها من يدخلها نهارا أنها دير وأهلها نساك. !

وكل صنف من هؤلاء يرتكب معصيته ليلا، ثم يقبل على نهاره كالبريء الوديع، غير مكترث لأنه يحسب أن لم يره أحد.

لكنكم هذه المرة لن تفلتوا أيها الوقحون.. !

هذه المرة سترون وجوهكم الليلية في مرايا النهار.. سترونها عارية بدون قناع، حينها قد يختلط عليكم الأمر، فتحتارون أين السوأة من الوجه.

سترون وجوهكم الليلية معلقة على الجدران، متناثرة في الأزقة والطرقات، وستجعلكم لا ترفعون عيونكم في عيون بعضكم بعضا، ريثما يستر كل واحد منكم وجهه، ويسترد قناعه، ولن يكون ذلك إلا في سنوات..

لقد أمهلكم ربكم حتى ظننتم أنه أهملكم، ونسيتم أن آخذه أليم شديد.

حتى أبوه –كما رأيت– صار يستلطف حكايات المعاصي والمخازي وأخبار الفضائح، فهو لا يدخل عليه الغرفة كل صباح إلا ألفاه مسهدا ينتظر، ولما يراه يتهلل ويبشر كالتائه في الصحراء يرى دخانا أو كالصدي يسمع فجأة خرير ماء.

وكم كان يؤلمه، وكم كانت الدنيا تسود في عينيه لما يستلقي ابنه على السرير وينام دون أن يحدثه بشيء، حتى يرتفع الضحى أو تقترب الظهيرة.

لهذا صار يشك أن أباه كان متخلفا وطيبا، كما يقول عنه الناس. لو كان كذلك لما أدمن حكايات المعاصي وأخبار الشر، ولكان يوقفه في الحكاية الأولى، أو ينكر عليه في الفضيحة الثانية، أو يزجره في المعصية الثالثة القذرة. لكنه لم يفعل من ذلك، ولهذا مستبعدا أن يكون أبوه أحد خفافيش زمانه، لا تنتعش مفاصله إلا وهو يلهث مستخفيا في ظلام الأزقة والحارات.. والشجر الطيب لا يطلع الأشجار المرة الرديئة أبدا.

وقطع عليه توارد الأفكار والخواطر أن رأى "باباي كا جي بي" يخرج من بيت امرأة، لا يعرف أهل القرية أنها ساقطة، وها هو "باباي" يدور في المنعطف، ويتلاشى في أحشاء الظلام.. يا ويحنا من تدين اللحية والعباءة.. هكذا همس مبتسما.

لقد حدث أباه عن كل شيء، لأن الليل قد باح له بكل شيء، وطوبى للذي يصطفيه اليل ليطلعه على أسراره وخباياه. فهو يعرف من سرق آجر المسجد ومن اشتراه، ومن أحرق جرار "الطاهر الأعرج" أحد معطوبي حرب التحرير، ويعرف من أحرق معدات الانطلاق في مشروع سينما القرية. ويعرف من أتلفوا معدات "مقهى الزيتون" بدعوى أن صاحبها يبيع الخمر. ويعرف طلاب المتعة الليليين وبائعاتها الليليات، حتى اللواتي لا تحوم حولهن الشكوك، ولا تساء بهن الظنون.

وهو يعرف من ساقوا عناز "عليوة الزوالي" عند غبش الصبح. ويعرف معاصي أخرى كثيرة، وعصاة آخرين كثرا. وقد سجل كل ذلك حسب تاريخ وقوعه ومكانه ومجرميه الحقيقيين. ولا أحد يعرف من ذلك شيئا، سواه وأبيه، وسيعرف الشعب كل ذلك في الوقت المناسب، ليعرف أنه يعيش في أدغال وسط ذئاب وضباع وثعالب، ولكن بأقنعة آدمية.

والدروب تمتد وتلتف وتدور، وتنحدر وتصعد، وهو فيها مستسلم لشكل الدرب واتجاهه، وظلام الليل تضمخه نسائم بحرية، وسحابات تتحرك في كبد السماء..

وأنه لا يدري لماذا ذكرته هذه السحابات بقريش وإيلافها رحلة الشتاء والصيف.. ربما لأن السحب وهي تمر في السماء، تشبه العير وهي تمر في الصحراء.

وهو يمضي في طريقه لا يسمع إلا احتكاك سرواله بين رجليه، أو صوت خفه النسوي يضرب باطن عقبيه كلما رفع خطوة أو وضع أخرى.

إنه لا يعرف أحدا غيره احترف هذه المهنة القذرة !.. البحث عن المعاصي والخطايا، وتتبع عورات الناس.. شيء قذر وحقير !.. لكنه ضروري وحيوي، لا بد للشعب أن يعرف أمراضه بدون تحريف وتزييف، أو مجاملة وتربيت خادع. ولا بد له أن يرى وجهه بغير قناع، وقد يحدث له كما يحدث للطاووس، لما ينظر إلى ريشه فيختال، ولكن لما ينظر إلى حمش ساقيه يطلق صيحة الفزع.. لا بد للسواد أن يطلق صيحة الفزع لما يرى ما تخفيه الابتسامات الصفراء، وكلمات المجاملة الخداعة وصفوف الصلاة التي لا ترص إلا اجسادا أقفرت من قلوبها.

الساعة تشير إلى الثانية ليلا، لم يعد يسمع إلا غمغمات الجوع. فيقصد مخبزة "عمي محمدّ، وراح يطرق بابها بقوة.. بل الجوع الذي كان يطرق الباب.. وظل يطرق الباب بقوة، بل إنه فكر في استعمال قطعة حديدية، لأن "الدراجي" الخباز، يكون الآن في النومة السابعة، متحصنا بشخيره المضحك، ولن يوقظه حتى دوي انفجار..

والباب يهتز تحت ضربات قبضتيه، في هذه اللحظة راودته فكرة تافهة: ماذا لو تفتح "ماري أنطوانيت".. فيشكو إليها قلة الفئران والجرذان في داره، فتقترح عليه البسكويت !

-إخلعها أحسن !.. من أنت وماذا تريد؟. هكذا يأتيه صوت "الدراجي" من الداخل، فيرد عليه "منصور" بصوت خافت:

-أنا "منصور".. أريد خبزا أو بسكويت، لأن في بطني جوعا لا يوصف.. إفتح رجاء.

-لعنة الله عليك يا مجنون !.. كل بعضك. !

وعبر كوة في الجدار، لها وظيفة حين ينقطع التيار الكهربائي، عبر هذه الكوة ألقى إليه بخبزة صغيرة وكيسا بلاستيكيا فيه بيضتان، وقشور بيضات أخرى. التقط كل ذلك بفرح طفلي، ثم وضع فمه على ثقب المفتاح، وقال له:

-بارك الله فيك، كثر الله خيرك، هكذا الرجال.

-انصرف ودعني، فالله غني عن دعائك إذا أراد أن يكثر خيري ويبارك في..

ومن أين يأتي الخير وكيف وأنتم كالكلاب تلهثون. !

له الحق، في النهار تلهثنا اللقمة، وفي الليل تلهثنا الشهوات وفحيح الغرائز !..

"فمثله كمثل الكلب، غن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث.."

واللقمة الناشفة تدافع اللقمة الناشفة، كأنهما تتسابقان إلى بطنه.. والليل المضمخ بالنسمات البحرية يغري بالضياع أكثر.. بالذهاب بعيدا.. بالتلاشي في تلافيف الظلام، وخطاه صارت متعبة ثقيلة كخطى العبيد في الأصفاد، وهو في كل مرة يتثاءب.

نعم.. توجد بين أعطاف الظلام معاصي تغري بالسهر، والمشي على رؤوس البنا، وإرهاف السمع وتدقيق البصر حتى ليكاد المرء أن يرى في ظلام الليل ظل العصاة، أو يسمع كهكهة الشر في الصدور.

لكنه قد جمع من المعاصي ما يكفيه لتأليف كتاب جيب، خاصة إذا أضاف غليه فهرس الأعلام !

كلما فكر أن يوما سوف يأتي، يستيقظ فيه أهل القرية على الحقيقة، ويرى فيها العصاة وجوههم الحقيقية وأسمائهم تتصدر نصوص معاصيهم، على جدران الأزقة والشوارع، كلما فكر في ذاك اليوم تغزوه قشعريرة باردة، يخشع لها كل جسده !.. لأنه يرى في ذلك بداية الانهيار الذي يعقبه البناء على أسس صحيحة، أو التلاشي الأبدي. !

لما دخل غرفته تعبان مكدودا، كان المؤذن يردد "الصلاة خير من النوم"، فتذكر مقالة أحد الكسالى الأشقياء، وما قالها إلا مداعبا: "حتى النوم لا نقول فيه إلا خيرا".. ابتسم لأنه ألفاها تنطبق عليه كل التطابق. أشعل المصباح، والتفت إلى أبيه، فرأى كأن عينيه محمرتان من السهاد، وعلى محياه لهفة انتظار ورغبة في السماع. فقال له ساخرا:

-ما أقدسك لو ان عينيك احمرتا من قيام الليل، والبكاء على ما بدر منك من خطايا !

ما أجلك لو أنك تتلهف إلى سماع الخير والمعروف كما تتلهف إلى سماع الشر والمنكر !.. وما أعظمك لو كنت تتلهف إلى سماع مناقب التقاة، كما تتلهف إلى سماع مثالب العصاة.

ظهر على وجه أبيه ما يشبه البسمة المفضوحة، التي تحاول تمويه صدمة أخلاقية، وأخذت ملامح وجهه تتقلب بين حالات شتى، كأنه يقول:

-لا يا ولدي.. أحسن الظن بأبيك، فإنك مأمور بصريح القرآن ألا تقول لي: "أف وألا تنهرني، وأن تقول لي قولا كريما، وأن تخفض لي جناح الذل من الرحمة، وأن تدعو لي بالرحمة كما ربيتط صغيرا". فأين وقاحتك الجريحة من هذه التوجيهات السامية؟.. !

أنا كنت منصرفا بكل مشاعري وروحي إلى ذكر الله؛ مستغلا الوحدة التي تفسحها لي من حين لآخر، ولكن، إن كنت، أو كنت قد.. ربما، فلا مانع ولا بأس، فأنا على كل حال، لست، وإنما..

وراح يتعتع في كلامه، ويتلجج كمن يريد أن يقول ولا يقول، ويرجو ويخاف أن يبوح برجائه وطمعه.

-أرجوك لا ترحني !.. هي نفس المعاصي تنخر أعصابكم كالسوس..

وهي نفس الخطايا تشوه وجوهكم كالثآليل الفلفلية

وهي نفس الدمامل والقروح في سوء سوءاتكم، تحول بينكم وبين الجلوس السوي.

إذن، فالرجاء منك ألا تترجاني، ودعني أنم.

*　　　　*　　　　*

ما أيقظه على الساعة العاشرة ضحى إلا صوت العصافير، وحرارة الشمس التي تبشر بصيف حار؛ وإنه لشيء جميل أن يكون ذلك، فهو –على الأقل- يخرج الناس من الرتابة حين يدفعهم إلى التأفف والضجر.. !

في المطبخ وجد قطعة خبز وبقية من علبة سردين، فاتخذ منهما فطورا له. ثم أقبل على اوراقه يكتبها وينمقها، فكأنه يعيد كتابة المسودات القديمة بالحبر الصيني. وبعد مدة من الانشغال عن أبيه، التفت إليه، وقال وهو يتنهد من تعب:

-أبي.. أراك ما زلت تطمع في المزيد من حكايات المعاصي والخطايا.. وأراك تريد المزيد من الحماقات السرية، التي صارت لا توحي بشيء بعد توالي الصدمات.

كم أود ان أعرف فيهم شيئا آخر غير ما عرفت.. أود أن أعرف لماذا يضطر مجتمع بأكمله إلى النفاق وارتداء الأقنعة.

أبي.. ها أنا وحدي. فر الندامى القدامى، الذين راقهم عقلي المجنون، ولكنهم اليوم يضيقون بجنوني المتعقل. ولكن، أنى يذهبون؟.. فلم يجدوا قلبا أدفأ من قلبي، ولا دارا أرحب من داري، ولا خمرا أعتق من خمري، ولا سجادة تتجه صوب القبلة بدقة متناهية مثل سجادتي..

أنا على يقين أنهم سوف يفهمونني يوما ما، وسيجعلونني وثنا في القلوب، رغم أني أفضل أن أبقى فكرة نامية في العقول..

سيفهمونني حين أكون أنا لا أفهم نفسي، لنبقى في جدلية فارغة.. أدعوهم إلى الحياة وهم موتى، ولما يستجيبون أكون أنا الميت.

لماذا لا نستيقظ جميعا في لحظة واحدة؟.. ويقدح شرر الفكرة في أذهاننا مرة واحدة، وننطلق نحو العمل كأحسن ما تكون السواعد المؤمنة قوة واتحادا.

لم ير على وجه أبيه أي استحسان أو استلطاف لهذه السفسطة الفارغة –في نظره- لأنه لا يحب إلا حديث المعاصي، وكأنه ندم على أنه كان طيبا وخلوقا، خاصة عندما رأى نفسه يتحلل ويتفسخ ليكون طينا فترابا؛ دون أن يستطيع دفع هذا التفسخ والتحلل، فقال له مواسيا ومحذرا:

-لا تندم يا أبي أنك كنت طيبا وخلوقا، ووفيا لزوجتك وأولادك..

لا تندم فتحرم لذة الاخرة، كما لم تأخذ نصيبك كاملا من لذائذ الدنيا..

قد تكون المعاصي لذيذة، وأنا أدرى منك بذلك.. لكن أما جربت لذة الطاعة؟.. لذة معاكسة إبليس، وإن كنت دائما أخسر معاركي معه، ليس لأنه قوي، إنما لأنه يعرف كيف أفكر.

لقد قدرت مبلغ اللذة التي يحصل عنها الطائعون، وقدرت حجم الحسرة التي يبوء بها إبليس لما نذهب وسوساته أدراج الرياح.

بعدها ركن إلى صمت عميق، لم تتحرك معه حتى عيناه، فكان على كرسيه مثل التمثال الخشبي، يفكر في جنونه الذي ألفه الناس واستلطفوه، وصار عاديا لا يوحي بشيء.. إن رتابة هذه القرية تستطيع أن تستعبط حتى الخوارق والمعجزات.

إذن لا بد أن يشحن جنونه بطاقة جديدة.. لا بد من شيء غير عادي.. لكن أي شيء هذا الذي يجب أن يكون؟.

تأفف لما لم يجد الجواب الشافي، ورفع وجهه نحو صورة أبيه، فألفاه مستعدا لأن يسمع أي كلام، فقال له وهو يهم بالخروج:

-أبي.. كما بدأت اللعبة تنتهي، وكما دخلتها سوف أخرج منها، عاريا كالحقيقة تثقبني عيون الناس، ويلسعني همزهم ولمزهم، ولكني أعددت لهم ما يجعلهم مثلا للآخرين. لقد اكتسبوا مناعة عجيبة ضد النور والكلمة النورانية، ولذا لا بد أن تخرج السياط والخناجر من مصباح "علاء الدين".

وخرج يهيم على وجهه في الشوارع والطرقات.. يبحث عن غير العادي كي ينبه أهل القرية من غفلتهم..

لا شيء في الطرقات غير أشبه بشر.. ! أي مسخ كاسح هذا الذي أصاب روحه وشعوره؟ !. والناس ينظرون إليه ويضحكون، وعندما يضحكون يزدادون قبحا في عينيه. وهم يضحكون وينظرون إليه، فانتبه إلى أنه لا يرتدي غير تبان رياضي لا يصل ركبتيه، فأعجبه ذلك كل الإعجاب، لأن اللعبة كما بدأت سوف تنتهي، وإن يد الأقدار لتنسج لها النهاية.. فأخذ يمارس بعض التمارين الرياضية، وكم سره أن رأى "الشيخ" غير بعيد يشاحح في سعر ربطة جزر.

وبينما كان هو مستغرقا في المشاحجة، يريد أن يشتريها بأقل من سعرها، اقترب منه "منصور" وفي رمشة عين، خطف من فوق رأسه العمامة، ومن فوق أكتافه البرنوس، وأعطى ساقيه للريح، وهو يصيح كالهنود الحمر حين يهجمون، حسبما تصورهم أفلام الغرب الأمريكي. ولم يتوقف إلا قدام دار البريد، حيث رأى طابورا طويلا من البطالين يريدون قبض منحة البطالة. هناك ارتدى العمامة والبرنوس، وصد فوق برميل معدني ظل مرميا هناك من سنين، واخذ يصيح بأعلى صوته كالمهرج أو الخطيب السياسي:

-أيها المواطنون.. أيتها المواطنات، يا معشر "قريش" هلموا جميعا.

والتفت إليه أهل الطابور ضاحكين، ثم أقبلوا عليه، بعد أن وضع كل واحد منهم مكانه ما يدل عليه، ويحفظ له موقعه من الطابور.

وما هي إلا دقائق معدودة، حتى كان الطابور عبارة عن علب سجائر، وصفائح زيت صفراء وكيس مطوي، ودجاجة مقيدة أرهقتها الحرارة، ثم دجاجتان مذبوحتان، فعصا، فقارورة غاز بوتان، ثم عشرات الأشياء التافهة كهذه الأشياء، انتظمت في طابور طويل صامت.

ولما تحلقوا حوله، أشار إلى طابور الأشياء قائلا:

-أنظروا خلفكم. —فالتفت جميع البطالين ضاحكين- هذه هويتكم، هذه بطاقة تعريفكم، ما أنتم لما تضيعون في زحمة الحياة، ونريد أن نبحث عنكم إلا هذه الأشياء الرخيصة.

ولما حدق الناس في الطابور، أعجبهم منظر الأشياء، وقد اختزلت الرجال ونابت عنهم، فأغرقوا في الضحك قائلين:

-يا لك من مجنون.. والله معك حق، صحيح ما نحن إلا تلك الأشياء في هذه الدولة.

وانتظر حتى هدأ الناس كما يفعل أصحاب الخطابة، وتعلقت عيونهم وقلوبهم به، ينتظرون ماذا يقول، وبعضهم تعلقت عيونهم بساقيه وفخذيه من خلال شق البرنوس. وبعد أن أبطأ عليهم تشويقا وترغيبا، افتتح مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم، ثم بسمل وحمدل، وصلى على النبي وآله، وقال وهو يشير إلى العمامة والبرنوس، بطريقة مسرحية:

-هذي العمامة والعباءة يا غواة، وذا أنا صرت الإمام "الشيخ" اهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

أستنسخ الآيات عن وجه النهار، أبشر الأحرار والثوار والخبثاء بالريح العقيم.

في الريح أبذر يا غواة، وفي الرمال دمي يسيل وأدمعي،.. عبثا أحاول أن أرشكم بضحكات النجوم.

عبثا أحاول أن أعيد إلى العروق دماءها، وإلى العيون ضياءها، وإلى الشفاه رطوبة الصدق الكريم.

عبثا أحاول يا غواة.. فليس للأحرار عندكم سوى حبل المشانق من وسام، والمدى والسيف الصقيل.

الآن أرفع في فحيح الريح أشرعة الرحيل.

وحدي أوجه دفتي وسط العباب، ولن أذل كما تريد لي الظروف، ولن أهادن، لن أهادن، لن أميل.

وحدي أسير إلى النهايات البعيدة ضاحكا، متلفعا بالشمس، والمجذاف يلهث في قوارير الأصيل.

لا شيء أترك فيكم إلا سؤالا حائرا قلقا ينغص موتكم.. يدمي الحنين..، يهزكم، يمضي بكم صوب المناحة والعويل.

الآن أركب صهوة السحب العتاق، مضرجا بدم الهزائم والصهيل.

وأعود نحو الله مجروحا يسربلني دمي، وحراب غدر غائرات في ضلوعي مثل أعجاز النخيل.

لحمت حرابكم إلى لحمي.. سأولمه، فلا تستعجلون، فلم أكن يوما بخيل.

وأضيع في شهقات وجدي كالعبير، وكالنسيم وقد تشرس في عذابات الأصيل.

لم يبق لي إلا التسامي والتلاشي في فراديس الجليل.

لم يبق لي.

-والله لن أدفع لكم اليوم ولو دينارا واحدا يا تافهين !.. لقد سحركم هذا المجنون.

كان هذا قابض البريد، وقد كان من حين لآخر، ينادي باسم بعضهم، فلا يستجيبون، بعدما سرتهم اللعبة وسلتهم، فما كان منه إلا أن أغلق الباب، وانضم إلى حشد الفضوليين والبطالين.

- لم يبق إلا أن ألغم موتكم، فلعل صوت الانفجار يهزكم، ويقودكم نحو المتاهة والشتات، وربما نحو الحقيقة والبديل.

غدكم تعقره المعاصي والخطايا القانيات من الدما،.. ساعاته العطشى يسربلها الذهول.

وستنقر الحشرات زرقة جوكم، والطير تلقط حبها من رأسكم.. يا لاهثين وراء السراب، وخلف أظهركم ترقرق سلسبيل.

تتقاسم السبل الظماء خطاكم، والعمر تنهشه وتنهسه المواسم والفصول.

لو لم يقل إبليس قبل مقاله: "إني أرى ما لا ترون" لقلتها وطبعتكم: هذا المقتول، وذا القتيل.

عطشى حروفي يا غواة إلي قليل من حنان، والحنان إلى قليل من أمان، والأمان إلى ضمان مستحيل.

تبا لكم.. كم من نبي جاءكم فطعنتموه بغدركم، وطعنتم ظهر البشارة بالخناجر و الفؤوس.

وركلتم الألواح والصحف المكرمة المطهرة التي نسخت أراجيف "البسوس".

وقطعت عليه حديثه أو خطبته جلبة وصياح قادمان من خلفه، فالتفت ليرى "الشيخ" في معطفه، وبين يديه يسعى بعض أتباعه، وخلفه منهم نفر، وفي يد أحدهم هراوة، فأدرك أن الأذى الذي يمكن أن يطاله، لن يكون قليلا. فصاح في البطالين، وهو يعطي ساقيه للريح:

-أنظروا يا معشر قريش،.. رأس "الشيخ" صغير كأنه برتقالة.!

-لعنة الله عليك، ما أصدقه !.. إن رأسه في حجم قبضتي.. لقد كان كبيرا بالعمامة.

-لو لا هذا المجنون لظللنا نعتقد أن حجم رأسّ الشيخ" في حجم العمامة.

الآن وقف "الشيخ" بين "معشر قريش" —كما سماهم "منصور"- كان في قمة الحرج وهو ينفض العمامة، ويدخل فيها رأسه، وأحد أتباعه ينفض برنوسه، ويلبسه إياه، فاستعاد أغلب صورته القديمة، فقال للناس:

-أرأيتم هذا الملعون؟!.. يريد أن يجعلنا نكتة كبيرة.. لا تصدقوه إن فهمتموه إنه كذاب.. إنه أشعري معتزلي، رافضي ناصبي قبوري، زنديقي شيعي قرمطي. فهمس أحد الأتباع في أذنه، فقال:

-لائكي شيوعي.. لا تسمعوا لهذا الأفاك الأثيم.

والله وتالله وبالله، إما هو وإما أنا.

يبدو أنه كان يريد أن يقول كلاما كثيرا غير هذا، لو لا أن الناس بدأوا ينفضون، وينصرفون ويعودون إلى أماكنهم من الطابور لتحصيل منحة البطالة، وفيهم من يكذب منصورا ويصدق "الشيخ"، وما أكثرهم، ومنهم من يصدق منصورا ويكذب "الشيخ وما أقلهم، وآخرون في شك من كل ما سمعوا ولم يفهموا إلا قليله، فما صدقوا هذا ولا كذبوا ذاك.

وهو يقنع بهذا ويرضيه، حسبه أن يجعل الماس يختلفون ما بين مكذب ومصدق، وشاك ومشكك، فما أهلك الناس وأرداهم إلا التصديق الأعمى لكل من قال، والتصفيق الأهوج لكل من خطب.

لما كانوا يلتقطون حاجاتهم من الطابور، كانوا يضحكون.. يضحكون على هوياتهم، على بطاقة تعريفهم، على ما يرمز إليهم ويختزلهم !

أي نعم .. كانوا يضحكون لأنهم لم يستطيعوا البكاء، وهذه خلاصة الوعي، لما يدرك المرء أنه غير مهم.. أنه ليس سوى نكتة مرة، أو علبة "شمه"، أو علبة سجائر أو دجاجة أرهقتها الشمس، أو قارورة بوتان فارغة، أو صفيحة زيت.. أو.. أو.. أو.

وكان قابض البريد ينادي عليهم بأسمائهم واحدا إثر واحد، والطابور يتناقص شيئا فشيئا.

17

مثل باقي أيامه الماضيات، ها هو جالس إلى طاولته وأمامه أكداس من الأوراق المستنسخة، وأخرى في شكل كراريس صغيرة لم تكبس بعد. ومن حين لحين يمد يده متصفحا بعضها، ومتأكدا من ترتيب بعضها الآخر، ثم يعيد كل شيء إلى مكانه ببالغ الاهتمام.

يأخذ كراسة صغيرة من بينها، ويقرأ عنوانها بصوت مرتفع، كأنه يريد أن يتأكد من وقعه وجرسه "تتمة المغازي في أخبار المخازي". ثن ينظر إلى أبيه، فيراه كأنه استحسن هذا الكلام المسجوع، الذي قد يكون لم يفهم منه شيئا، لكن يكفيه أن يكون مسجوعا ليكون مؤثرا وقيما نافعا.

-أكيد أن العنوان قد أعجبك، إنه عنوان كل المعاصي والمخازي التي شنفت بها سمعك.. آه يا أمة تشتهي التزحلق على قشر الكلمات، والتلاشي في ضباب النصوص.

تذكر أن المؤذن قد نادى إلى صلاة العصر، منذ ربع ساعة تقريبا، فقام إلى سجادته الملفوفة عند رأسه من السرير ليعلي بها المخدة، وبسطها فوق تلك الفوضى التي تعرفها، ثم شرع في الصلاة. فكان –شهادة الله- كأحسن ما يكون الخاشعون، حين يشعرون أنهم بين أيدي الله..

أي ملاك كريم وأي شيطان رجيم، يتصارعان في نفس هذا الشاب وقلبه؟.. عرفه الناس جادا يعلم أبناءهم الفرنسية فاحترموه، وعرفوه طائشا فأحبوه، وعايشوه مجنونا فلم يؤاخذوه، بل أحبوه أكثر !.. فيه من وقاحة الزنادقة قدر ما فيه من تقوى الصادقين. وفيه من حكمة الشيوخ ما يساوي ما فيه من نزق الشباب وطيشه. وكل ذلك يتجاوز في قلب واحد، ويتألف في نفس واحدة، ويحرك خطاها صوب أهداف شتى، فهي كالمركب الضال وسط الموج العاتي، كل الجهات وجهته، لأنه يريد كل المرافي.

ركن إلى الصمت بعد الصلاة، أو ربما ركن إلى اذكار صامتة، انتابه شعور قاتل بالغربة، برغبة كبيرة في الهجرة والرحيل.. لم يبق شيء هنا يعاش له، فيشدك إلى حميميات المكان، ويثير في النفس لواعج الشوق أو الحنين؛ هذا الحنين الذي يعيده إن ذهب، ويدينه إن نأى وابتعد.

إذن لا بد أن يسافر ويغترب.. فالغربة أقرب السبل إلى التلاشي والضياع، والعودة إلى رحم الأبدية، من أجل ولادة جديدة.

بل إن الغربة هي كل ما يجعلك محددا ومتميزا، ولا قدرة لك على التجانس مع الذين من حولك، ولهذا يظل الغرباء أسئلة تتشاكس فيها الأجوبة، ويبقون قلقا يرفرف حول لهب اليقين، كما ترفرف الفراشات حول الأزاهير الندية.. ويبقى الغرباء علامات استفهام كعقدة حبل المشانق..

لكن قبل أن يرفع المراسي، ويبسط في وجه الريح أشرعة الغربة، يود أن يلقي نظرة الوداع على جثمان قريته المسجى في الرتابة والملل.. فقد تثور زوبعة من غبار، فتطمر مباهجها النحيلة إلى الأبد. ولا شيء يؤسفه حينها إلا بعض الوجوه والأمكنة، التي تثير في نفسه شيئا من الحنين إلى ذكريات كانت..

لا شيء يؤسفه حينها، سوى أن بعض مواجعه اللذيذة، قد صارت بلا مرجعية مكانية، ولهذا ليس الوطن إلا حبا للتراب.

في هذه المرة انتابه شعور من يتحرك في الفراغ.. صار كل شيء ينعكس في عينيه بغير معنى، كأنه يتحرك وسط خرائب وأنقاض ! أي تشوه هذا الذي اكتسح روحه وشعوره !.. أية قذارة هذه التي أطبقت على ضميره؟.. !

جاع ولم يجد رغبة في الأكل، تعب ولم يجد رغبة في أن يرتاح على كرسي في مقهى كهؤلاء الجالسين..

إنه يريد أن يمشي أكثر.. أن يتحسس بأصابعه تفاصيل الأزقة والزوايا.

يريد أن يملأ عينيه بما استطاع من هذا الفضاء، فغدا أو بعد غد قد ينكمش ليصير كقطعة من جلد كواه حر الشمس.

غدا أو بعد غد تنقبض الأمكنة، ويسقط الخوف ثلجه، ويعم البرد.. وتلتهب المشاهد بالدماء..

غدا أو بعده تذوب الأقنعة، ويحدد التاريخ لغته، ويبري المكتوب أسنانه كأني أراكم وأنتم تلهثون بلا أقنعة أو وجوه.. عراة من سرابيل الزيف كالصغار لما يطلعون من شرنقة الولادة، ملفوفين في قماطة من بخار الأرحام.. تفتشون عن ورق التوت فلا تجدون، فتنكمشون في الزوايا مذعورين وأنتم تسترون عوراتكم بكفوفكم.. كأني أراكم تلهثون بلا ظلال، وراءكم لاهثون هاربون من لاهثين.. حينها تكون المأساة/ الملهاة قد اكتملت، وتكون الحبكة في قمة توترها، والمتفرجون في أقصى درجات الانبهار.

سوف لن يكون هناك من يضبط أجهزة الصوت والإضاءة، أو يضغط على الزر لينسدل الستار لما يموت الجميع، أو يسقطون كالميتين.

عبث كبير أن يعتقد كل واحد منهم، أنه هو البطل الشهيد.. !

لا شيء يوحد بين الضحايا، سوى أيديهم المرفوعة بإشارة النصر !.. مسرحية عبثية تربك المتفرجين فيحتارون في تحديد البطل من بين القتلى والضحايا !

الليل يزحف والنهار ممسك بضفائر الشمس التي قد وشحت بشحوبها وقت الأصيل والجوع يلجئه إلى حيث الطعام، والحركة بدأت تخف في شوارع القرية. أما هو فقد مل من هذا التسكع الحزين، فآوى إلى ركن في مقهى، توضع فيه الصناديق الفارغة والمكنسة وأشياء أخرى، فكان في ذلك الركن صندوقا خاويا، يفكر في نفسه وما حوت من تناقضات شوهت نظرته للناس والأشياء.. إنه يتمنى أن يتطهر من كل ما فيه، يتمنى أن يكون بين الناس كالناس.

بعد العشاء عاد إلى داره مطعونا حتى النخاع.. عاد وهو يفكر بجد في الرقية الشرعية، فخير له أن يسترقي، إذ ليس من المستبعد أن تكون نفسه وطنا للأباليس والشياطين وإلا من يوحي إليه بكل هذا الشذوذ في الفكر والسلوك؟.. !

جلس إلى طاولته، وراح يلمس كدسة المناشير التي استنسخها في المدينة، كان وهو يلمسها كمن يمسح على رأس يتيم.. أخذ ورقة منها وراح يقرأها، فكانت واضحة تماما، يستطيع أقرب القرويين إلى المية ان يقرأها وأن يفهمها. أعاد الورقة، وتناول الكراسة، وقرأ عنوانها بصوت مسموع لا يخلو من السخرية:

-"تتمة المغازي في أخبار المخازي".. إنه عنوان يغري السلفيين بشرائه، مساكين !.. يعتقدون أن الله خلق اللغة لنمارس بها لعبة السجع وأن كل عنوان غير مسجوع لا خير فيه.

رد الكراسة الصغيرة إلى مجموعتها التي تتجاوز عشرة كراسات، والتفت إلى أبيه، وقال له بلهجة حزينة، لكنها ما كره:

-أبي.. في هذه الليلة سوف تفتح ورود المعاصي السوداء، على جدران الأزقة وزفت الطرقات.. وسوف تمتد إليها يهد الغواة والعصاة لتقطفها، وتشم عبيرها المسموم، ستهب هذه الليلة الريح التي تنكث غزل الأقنعة وتبليه، ويستيقظ العصاة ليجدوا أنفسهم محاصرين بمرايا الحقيقية، التي تعكس حتى خلجات الصدور.. فحيثما نظروا رأوا وجوههم ترتد إليهم كالحة شوهاء..

أبي.. آن لي أن أودعك غير آسف ولا نادم، أبقيك لغبار الأيام والليالي يمحو محياك قليلا قليلا. وغير هياب أقبل على الحياة، وبكل فرح طفلي ألقي بنفسي في بحرها الهدار. قد أقع وأسقط.. أتوقع ذلك، لكني حتما سوف أقف على رجلي، قد أتعثر في المرة الأولى والثانية، لكني في الثالثة أنطلق أدافع أبناء الحياة، وأفتك لقمتي بالعرق، وأبني مقعدي بينهم بالصبر والمصابرة.

قد أمشي حافيا، وأقضي الليالي تحت الجسور وفي الخرائب طاويا، وقد أضع خنجري في عنق أحد الخبثاء او الطيبين لأقتات، قد يكون ذلك أو بعض ذلك، ولكن حسبي أن أعيش حياتي كما أستطيع، وأن أجاهد كي أحياها كما أريد.

أبي.. ليس من الوقاحة أن قلت لك: إنك ما عدت تعني لي أي شيء !.. لم أعد أراك سوى قيد يكبل خطوتي، وخدر يشل عقلي ومفاصلي، وضبابة قزحية على عيني تزيف الحقائق، وتقدم لي الأحزان بلون الفرح، والهزائم في سرابيل النصر، والعقد في مسوح الدين، وترفع في سماء النكسة رايات الفتوح.. !

لست شيئا في عيني سوى واحد من هؤلاء الذين اقتنصهم الموت مكرهين،.. ما عدت أرى فيك آية قداسة، تجعل من صمتك فكرا، ونطقك ذكرا، وشرودك الأبله تدبرا في العواقب.. لا، كان ذلك قديما.

أنا ليس محكوما علي أن أظل طفلا لتظل أنت أبا.. فلا بد أن أصير أبا لتصير جدا، ولا بد أن أصير جدا، لتكون أنت أبا جد، وأكون أبا جد، لتصير أنت جد جد، وهكذا، شيئا فشيئا يطويك الزمان ويدحرجك نحو الخلف، وتخرج من بقعة الضوء التي يحتكرها تابوتك المهترئ.. وشيئا فشيئا تصير ذكرى، وشيئا فشيئا تتلاشى في زحمة الذكريات.

آن لي يا أبي أن أرفع مرساتي من مياه هذا المرفإ العبق برائحة الطحالب، وأطلق شراعي في وجه الريح.

آن لأطرافي أن تبتل بالماء المالح، لأمضي إلى حيث كل خطوة بقطرة دم تسفح وشعرة تشيب.. إلى الآفاق البكر والفضاءات العذراء التي لا يرتادها إلا من يحر السفن خلفه، وينسف من ورائه الجسور.. هؤلاء هم الذين يستحقون الحياة عن جدارة.. إلى هناك لا بد أن أمضي،.. قد أشتاق إليك، إذا سنحت فرصة كي ألتفت إلى الماضي، قد ينتابني حينها بعض الأسى، وأدعو لك الله أن يفرغ عليك صبرا، تستعين به على عضات الفراغ وقلق الانتظار.

أن لي أن أبسط جناحي في وجه كل الريح، لتأخذني إلى حيث شاء هواها، وتلقيني حيث شاءت لي الأقدار: في بحر حيث أموتا غرقا، أو في صحراء حيث أتفتت ضمأ، أو في أدغال، وثم تنهشني الحيات والأفاعي في غير شفقة..

ليكن أي شيء من ذلك.. حسبي أني أموت متوسدا حريتي محتضنا أناي، ووجهي يتفصد عرقا أو ينضح دما بدون قناع.

آن لي أن أودعك غير آسف على شيء.. سأفتح رئتي لكل النسائم والروائح، وأفتح سمعي لكل الضجيج، وأجعل عيني مضمارا لكل المباهج والمواسم والفصول..

سأنعشها بزرقة السماوات، وامسحها بدهشة الأماسي المستلقية على وجه البحار، وأكحلها بكحل الليالي الرطيبة.. وشيئا فشيئا سينزاح وجهك عن عيوني كما ينزاح الضباب الملوث عن وجه الشمس أو وجه القمر، لتقاعد بين ذكريات الطفولة..

يسكت قليلا، يفتح أزرار قميصه، يتناول كراسة من "تتمة المغازي.."، وأخذ يروح بها على صدره ووجهه، فالحرارة شديدة هذه الليلة. تذكر "الداي حسين" و "سيدي فرج" و"المعتصم بالله" و "مؤيد الدين بن العلقمي" وآخرين، وكم خربت الدين والدنيا ألقاب الملك..

واصل حديثه مع أبيه، الذي كان يبدو كالتلميذ الذكي النبيه في حضرة المعلم الحكيم، وهو يسمع منه آخر الوصايا:

-انتظرتك آلاف المرات أن تفتح لي أفقا، وأن تنشر أمام أحلامي فضاء..، وتبسط قدام خطواتي سبيلا تكون ممتدة وطويلة بقدر رغبتي في الوجود،

انتظرتك آلاف المرات أن تسم لعيوني كونا، أعرف به امتدادات الأبعاد..

انتظرت منك كل هذا لكن شيئا منه لم يحدث.. فدعني إذن أشق في ظلام الليل للنور مسارا، وأنسج بفتات أعصابي وأظافري لأحلامي فضاء، وأدوس على الشوك المسموم، وأنحت بأظافري في جبين الليل الرخامي أفقا لعيوني..

قد أفقد الظل والاسترخاء وهيئة الساق على الساق، لكني أكسب لفح الشمس الذي يكشط عن جلدي اللون النسائي.. قد أخسر برد اليقين السلبي، لكني سوف أربح لذة القلق.. وربما قد تلتهب أطراف أصابعي بوهج السؤال، وقد تتنسخ أثوابي، قد تتمزق وأنا أدافع عن الآخرين، وقد أسقط وأجرح، وقد تكون جراحي بالغة فأموت، كل ذاك محتمل، ومقبول إن وقع، ولكن حسبي أن أموت في ضجيج الحياة، وليس كالعنكب مكفنا، في مكر أنثاه.. تكفنني الشمس، وتحفر قبري مخالب الرياح..

إني ما خلقني ربي لأكون زاهدا أو راهبا، ولو أراد الله ذلك لي، لما أضفى على الحياة كل هذه الزينة والفتنة، وركب –سبحانه- في نفسي خاصية الاستغواء..

اليوم فقط، شعر الأب أن الابن لا يتسلى، وأنه لا يقول كلاما فارغا، لطرد القلق والكآبة عنهما معا.

اليوم فقط شعر الأب أنه يحاكم بتهمة الانحراف بالدين والتاريخ، وارتكاب جرائم غير مبررة.. إنه في مرافعة لا يملك فيها ولو شاهدا واحد معه.. حتى لسانه غاص في حلقه خلف اللهاة، وحتى شفتاه انحسرتا عن فمه كأنهما تخاصمتا، فصار كالحا مخيفا. لديه كلام جدير بالاستماع لو يستطيع الكلام.. إنما لا شفيع امن تخلى عنه لسانه وشفتاه..

-كل الحكمة التي كتبتموها يا أبي بين قرقرة النراجيل وتمايل غصون البان، وفتور ألحاظ السقاة الغلمان.. كلها –يا عزيزي- لم تعد تعني لي أي شيء فلما أكدح وأعرق تنحل عقدة اللسان، وأصير أنا كذلك معلما وحكيما.

فتزحزح قليلا عن طريقي لأشرف على ملكوت الله بعيوني.. تزحزح فإني في غير حاجة غلى ترجمان، فإن الله يعلم حتى صمت الحجر ويسمعه، ولئن أخطئ بعقلي خير من أصيب كبد الحقيقة بعقلك.

تزحزح قليلا فإني أريد أن أسير. !

في وقت صلاة الصبح لاحظ المصلون والمبكرون إلى اعمالهم ما أدهشهم، فقد كان الشارع الرئيسي للقرية مغطى بالمناشير، التي يحركها الهواء، وكان بعض هذه المناشير معلقا على الجدران وأبواب المحلات. ولما كان الفضول قد وفع بعضهم إلى القراءة، فإنهم سرعان ما يردون أيديهم في أفواههم دهشة وخوفا وتعجبا، إلا واحدا منهم فقد تلا قوله تعالى بنبرة متأسفة حزينة: " أفبعذابنا يستعجلون. فإذا نزل بساحتهم، فساء صباح المنذرين".. إنها الفضيحة تنزلت على قلب أفاك مجنون.. ومن عساه يكون؟.. شيء لا يصدق !.. معنى هذا أن أحدا ما بعد الله كان يسمع ويرى.

وهبت ريح بقدر، وأثارت المناشير فوق السقوف والسطوح والشرفات..

هكذا أحسن لتنتشر الفضيحة، وتصعب محاصرتها والتستر عليها..

هكذا تطير اخبارها كشظايا المرايا الصقيلة، فللجميع الحق أن يروا وجوههم، وقد انقشعت عنها الأقنعة.. حتما سوف ينكرونها أول مرة، وسوف يتلفتون يمنة وشأمة بحثا عن القناع في الوقت الذي يكون هو يذوب ويذوب، ويتسرب في مطبات القذارة.

وقد وجدت بعض العائلات في أحواش ديارها نسخا من تلك الكراسة التي عنونها: "تتمة المغازي.."، ولقد قرأوا فيها فضائح يندى لها الجبين، ويجعل العين لا تنظر في العين.. أهذا فلان؟ !.. أو تجرأت فلانة على اقتراف هذه المعصية؟، أين إذن حرمة الجار؟.. أمن أجل هذا يترشحون في كل انتخاب؟.. ولم العمائم واللحى؟..

وما دقت الساعة الثامنة، حتى كانت القرية كلها تهتز تحت وقع الصدمة والفضيحة، والناس يلهثون وراء المناشير ليعرفوا من أساء إليهم أو إلى أهلهم وهم لا يعلمون..

وبأمر من الكبار، كان بعض الصغار يتسلقون شجيرات عليها مناشير..

بعد مدة من الوقت، سمعوا بكاء فهرعوا نحوه، ليجدوا أن صاحبة البيت قد انتحرت لأن اسمها موجود في المناشير. بينما كان زوجها في حالة الهستيريا، يهشم كل ما يقع عليه يده من أثاث وهو يصرخ في أبنائه..

-أبعدوا عني أنتم لستم أبنائي. وظل المسكين يصرخ ويصرخ. وبينما هم في دهشة من امرهم، حتى سمعوا نواحا يأتي من الحي القديم، فهرعوا نحوه ليجدوا أن فتاة ملقاة في حوش الدار تتألم، بعدما شربت مادة سامة، بعدما وجدت اسمها مكتوبا في المناشير.. كانت تجهد نفسها أن تقيء آخر قطرات الحياة من عروقها.

بينما كان أبوها وإخوتها، قد تسلحوا بالخناجر والعصي، وتوجهوا صوب دار الغادر الفاجر ليذبحوه.. لقد خدعهم بالخبز والملح —كما يقولون— والتودد المنافق، والهدايا المسمومة..

أما أمها فكانت تبكي وتضرب صرها قائلة للرجال:

-بالله عليكم أدركوهم.. ردوهم، لا أريد لهم أن يموتوا أو يدخلوا السجن.

ووصل الخبر إلا طلاب الثانوية، فخرجوا يكتظ بهم الشارع الرئيسي للقرية، وكل واحد يريد أن يقرأ هذه المناشير، ليأخذ موقعه على بينة من أمره.

وبدأ بينهم السباب والثأر والانتقام، والبكاء والصياح والكلام الفاحش، وبدأوا يتقاذفون بالحجارة في معاصي ارتكبها الكبار واقترفها الراشدون.

وخوفا على الواجهات الزجاجية، فقد أغلق التجار أبواب محلاتهم، وانخرطوا في هذه الفوضى يثأرون ويثأر منهم، ومنهم آخرون يتفرجون، ويحاولون أن يفصلوا بين طلاب الثأر فما كانوا يستطيعون.

وبعد توصلها بمكالمة هاتفية من مجهول، أقبلت سيارتان لرجال الأمن مسرعتين صوب مركز القرية. وما إن نزلوا منها مظهرين ما استطاعوا من الجدية والحزم، حتى أطلق أحدهم رصاصات في الهواء، لتخويف الناس وتفريقهم، هذا الذي زاد في الفوضى، لشعور الناس أن الدولة لا تضطر إلى الرصاص إلا في حالة الضعف، فتحرك في أعماقهم هوس الغنيمة والنهب.

وشرع بعض رجال الأمن في طلاء المناشير باللون الأسود حتى لا يقرأها الناس، لكن بعد أن صارت معلقة في القلوب والحداق، وعرف الناس أن من سجنوا كانوا مظلومين، وأن المجرمين لم تطلهم يد العدالة.

ورغم محاولات رجال الأمن في أن يضعوا أيديهم على كل المناشير، فإنهم لم يصيبوا في ذلك فلاحا كبيرا، لأن الناس قد أخفوها بين ثيابهم وأبشارهم، وأخفوها حتى بين أفخاذهم، من أجل أن يقرأوها ليعرفوا الحقيقة، حتى ولو اضطرتهم معرفة الحقيقة إلى أن يكونوا قاتلين أو مقتولين.

وأثناء التفكير في هذا الذي يمكنه أن يقوم بهذا الفعل الشنيع، في حق الدولة والسواد، قال أحد رجال الأمن ويداه ممسكتان بالهراوة والزناد، وعيناه على فوضى الناس:

-لن يجرؤ على التفكير في هذا الأمر والقيام به، إلا هو ابن الكلب !

وهنا ضرب أحد رفاقه جبينه براحته، وقال كالذي تذكر بعد فوات الأوان:

-إيه.. ما أغباني !.. فالخط خطه، كما أني لا أراه في هذه الفوضى، وليس من عادته أن يتأخر عن أي فوضى تحدث. !

-من هذا الملعون؟.. أذكروه وسترون ما أفعل فيه.

-"منصور".. منصور المجنون، هل رأيته بين الناس. لن يكون إلا هو..

-صحيح !.. لن يكون إلا هو، يريد ىن ينتقم، ولكن سنلقي عليه القبض حتى لو دخل رحم أمه من جديد !!.. اركبوا.

واندفعت ببعضهم سيارة صوب منزل "منصور" الذي ما إن وصلوه حتى تفرقوا حوله في زوايا الحديقة وخلف أشجارها، وحاصروه مخافة أن يفلت، بينما راح رئيسهم يضرب الباب بجزمته، وأصبعه على زناد "الكلاش"، وهو يقول:

-"منصور".. باسم الدولة والقانون أدعوك لتسليم نفسك.. أنت محاصر، إياك أن تأتي بأقل حركة مريبة، فغن ذلك يكلفك غاليا.. سلم نفسك للقانون باسم القانون.

ومرت دقائق، ولم يسمع أي رد، فأمسك سلاحه جيدا، وهوى بكتفه على الباب فانفتح، وانتشروا في كل الغرف يفتشون ويقلبون المتاع القليل. ثم اجتمعوا في غرفة نومه، وراحوا يقلبون الغطاء والفراش، ويرمون الكتب في كل اتجاه، لكنهم لم يجدوا أي شيء يدل على التخطيط للفضيحة كان من هنا.

-أنظروا –قال أحدهم وهو يشير إلى صورة أبي منصور– لقد شوه حتى وجه أبيه. !

وحاول أن يطالها، لكنها كانت أعلى، فسحب الطاولة، وصعد فوقها ونزع الصورة، وتحلقوا حولها. وفعلا فقد كانت معالم الصورة مشوهة ومطموسة، بعدما كشطت بحقد لا يخفى. فقد وضع علامة استفهام على العين اليسرى، وعلامة تعجب على العين اليمنى، وبينهما على الأنف علامة الجمع (+)، ثم إشارة "تساوي" (=) بين العين اليمنى والأذن، لتلتف النتيجة حول الأذن علامة استفهام كبيرة، أما على الفم فقد رسم بيت عنكبوت.

-هل فهمتم شيئا؟. سألهم رئيسهم، وهو يقلب عيونه في عيونهم محتارا.

-لا شيء –أجابه أحدهم– مجنون يعبر عن جنون.

–دعونا من هذه الأجوبة البلهاء –نهره الرئيس– يجب أن نجيب بجد حين نسأل بجد.

في هذه اللحظة وصل بعض ممثلي التشكيلات السياسية، ووقفوا على الرصيف قدام الدار، وقد علا لغوهم ولغطهم. وقام فيهم أحدهم خطيبا، باعتباره رئيس أكبر حزب في القرية:

–إخواني.. أخواتي، نريد من الدولة أن تخرج إلينا هذا الفتان الكبير.. الفوضوي الحقير، الذي خدعنا، فصدقنا أنه مجنون، بينما هو يحصي علينا كل أخطائنا وهفواتنا التي يغفرها الله بسهولة تامة.

ولم يدعه أحد رجال الأمن يكمل خطابه، إنما خرج إليه وساقه من كتفه إلى السيارة، وقال له، وأصحابه يسمعون:

–حسب ما ورد في المناشير، فأنت الذي سرقت الحديد من مرآب البلدية، ونحن نلقي عليك القبض باسم القانون على ذمة التحقيق.

وأخذ أصحابه الذين ظاهروه يتفرقون وينفضون، وكل واحد يحاول أن يتذكر ما اقترف من معاصي وآثام، وهل رآه من احد أم لا، وهل شريكه في المعصية والإثم وفي أم خبيث حقير..

وتفرقوا وكل واحد يود أن يعثر على منشور ليتأكد بنفسه. وللتذكير فقط فإن رجل الأمن السابق موجود اسمه في المناشير، ويبدو أنه لحد الآن لم يقرأ المناشير.. !

وتحدث الناس أنهم رأوا "عمي سعيد الزبال"، وقد تسلح بمسحاته، وهو يبحث عن ثلاثة مراهقين، ورد اسمهم في المناشير أنهم هم الذين سرقوا دجاجاته كلها.

أما "عليوة الزوالي" فقد تسلح هو وأبناؤه بهراوات، يتبعهم كلب أسود، وهم يبحثون في زحام الناس عن وجه الذي سرق عنازهم، فقد ذكر اسمه في المناشير.

وكان "عليوة الزوالي" لا يدري ان اثنين من أبنائه متهمان؛ فالأول متهم أنه هو الذي قتل الكلب الذي يحرس "الفيلا".. قتله بالسم. والثاني متهم مع أربعة آخرين بنهب مستودع أحد التجار.

فيا ويحهم لو يأتي زوج الفرنسية !.. ويا ويحهم لو يعثر عليهم هذا التاجر وسط الزحام ! فليس مستبعدا أن يكون قد تسلح هو كذلك بخنجر أو هرواة. خاصة وأن الدولة لم تتدخل بالشكل الكافي، بل ها هي تتابع الوضع بشيء من الاهتمام الحذر.

وإن كنت من الذين يقرؤون الروايات، أو من الذي ألموا بشيء من ذلك في فترة المراهقة، فإن مرأى "بلال ابن الهجالة" لا يطبع في خيالك غير صورة "كافروش" في رواية "البؤساء".. فها هو وسط الفوضى مسلحا بهراوة أطول منه، وقد لاث على رأسه كوفية فلسطينية، تدلى طرفها على ظهره، وكان منقبض الوجه غاضبا، لا لشيء سوى لأنه مجد مكتوبا في المناشير أن احد القرويين –يعرفه الآن باسمه– قد مر ليلا قرب دارهم، ورمى نافذة الغرفة التي تنام فيها أمه بحصاتين وانصرف.

بينما محطة المسافرين كانت مكتظة بالنازحين الراحلين، الذين يريدون الفرار بالمعاصي والفرار من المعاصي، إلى المدينة المجاورة، ريثما تزول الزوبعة وتستقر الأمور.

وحتى "عمي صالح" ورد اسمه في أمر هين بسيط، وهو أنه سرق آجر مئذنة المسجد،.. غنه مريض في المستشفى، وقد يكون شيئا جميلا ألا يبلغوه عما يجري، حتى يتماثل إلى الشفاء والعافية، لأن الصدمة قد تقضي عليه.. نسأل الله أن يعجل له بالشفاء.

ولو كان حاضرا في هذه المعمعة لكان أحسن، ولكان المشهد أكمل، ليرى أين الحماريون والضفدعيون والدجاجيون، والديكيون !.. لقد اختلط حابهم بنابلهم.

كان رائعا لو كان هنا، ليرى الحمير تنقنق، والضفادع تنهق، والتيوس تزقزق، والعصافير تنبنب وتهبهب.. شفاك الله يا "عمي صالح".

الأستاذ (حمدان) كان حاضرا يراقب الوضع من وراء جدار، واكن يفكر هل له علاقة عاطفية بإحدى طالباته، كما يفعل الأساتذة الآخرون، أم لا.. لا يذكر أنه له شيئا من هذا، لأنه يعتبر الحب وتوابعه سلوكا بورجوازيا، ولا وقت للثوريين كي يحبوا ويعشقوا.. المهم.. كان يراقب الوضع من وراء جدار اتقاء للطوب والحجارة والهراوات.. وإنه ليتمنى أن يتحول هذا الحقد الطبقي إلى وعي طبقي، الذي يكون بمثابة الصاعق، الذي يفجر المادة الثورية المختزنة في نفوس البروليتاريا الكادحين.. وظل يراقب الوضع من وراء جدار.

أما "سلفية الرية"، فقد آثروا أن يخوضوا المعركة، التي ظنوا أنهم سوف ينتصرون فيها، بحكم ما يحركهم من حماس تقليدي، يجدون له المبررات الكافية في كتب القدامى ورسائلهم. توجهوا صوب "الفيلا" التي اتخذها صاحبها وكرا للدعارة والفاحشة، وكانوا يهللون ويكبرون، ويلوحون بالعصي للجلد، والحجارة للرجم، وكانت رؤوس بعضهم معصوبة بعصابة "أبي دجانة" الحمراء.

ولك أن تشهد أنهم الوحيدون في الناس، من ساروا في نظام وانتظام، وقد حاول رجال الأمن أن يصدوهم، لأن الدولة لا تخيفها الفوضى، إنما يخيفها أن يوجد في الفوضى نظام مضاد وانتظام معاكس، حاولوا أن يصدوهم لكنهم لم يفلحوا، خاصة لما صاح أميرهم الذي يقودهم من ورائهم:

-ارجموا جنود فرعون وهامان.

قد لا يكون الإسقاط صحيحا، بل قد يكون قاسيا، لكنه هكذا قال لهم. فما اكن من رجال الأمن إلا أن تراجعوا قليلا، لأنهم هم كذلك لم يتلقوا الأمر بإطلاق النار، ولو كان لهم ذلك، لكانت نقطة نون "هامان" رصاصة بين شفاه قائلها.

وما إن وصلوا "الفيلا"، حتى أخذ أميرهم يردد وراءهم تهليل الصحابة وهم يدخلون مكة وراء رسول الله (ص) فاتحين. وكانوا هم يرددون ويرشقون الأبواب والنوافذ بالحجارة والحصى، وكان بعضهم يسب، ويجهر بالسوء من القول، رغم أن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، وقد أمر المسلمين أن يقولوا للناس حسنا.

لكن أميرهم، رأى أنه من مصلحة الجماعة أن يسبوا ويجهروا بالسوء من القول، وألا يقولوا للناس حسنا.

وظلوا كذلك يفعلون ويقولون، حتى مر بهم من أنبأهم أن "سي الشريف: قد سافر بكل بناته قبل شروق الشمس.

ولما سقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد خابوا.. صاح فيهم أميرهم الذي كان محاطا بأخلص المقربين:

-سيروا إلى دار الفتان، الذي أيقظ الفتنة، وأشاع الفاحشة في الذين آمنوا.

فساروا نحو منزل "منصور" مهللين مكبرين، والأطفال يتبعونهم، والنساء يتفرجن عليهم من خلف الستائر ومن خلال ثقوب المفاتيح.

وقد كان مشهد هذه المسيرة الصغيرة كافيا ليحرك مشاعر عجوز في السبعين من عمرها، لأنها تذكرت أيام الشباب، وما كان فيها من أحداث في سبيل الدين والوطن والحرية، فأرسلت زغرودة واهنة ضعيفة، ولكنها وصلت إلى أذن الأمير على كل حال، فأسكت أصحابه، وقال دون أن يرفع رأسه نحو مصدر الصوت اتقاء للفتنة:

-أيتها النساء.. استرن عوراتكن و تفتن الرجال، واتقين الله فإنكن أكثر أهل جهنم. ثم أعطى إشارة الاستمرار في التهليل.

فما كان من العجوز إلا أن أطلقت زغرودة ثانية، لأنها لم تفهم مطلقا ما قال صاحبهم.. ولما وصلوا إلى دار "منصورّ أخبرهم السابقون إليها، أنه قد فر، وأن رجال الأمن قد عثروا على شواهد وادلة تثبت أنه الفاعل. حينها استقرت ألسنتهم في أفواههم، وغاض معين حماسهم، ورجعوا إلى أنفسهم مؤثرين الحديث الهامس على الضجيج، فتساءل أحدهم بصوت حائر خائر:

-لماذا نصل دائما متأخرين إلى ما نريد؟.

فما كان من الأمير إلا أن زجره وعنفه، بعدما استطاع أن يحدده بين إخوانه:

-أنت؟.. أعرفك دائما تشكك في قضاء الله وقدره، ولن تكون في النهاية إلا صيد إبليس، فخير لك أن تلزم السمع والطاعة،. أحس الشاب المتسائل بالخوف، وتمنى لو أنه ما سأل ولا تساءل، واحتفظ بشعوره في نفسه، وأظهر لأميره ما يرضي غروره من سمع وطاعة في المنشط والمكره، والمعروف والمنكر. !!

للإشارة فقط، فإن هذا الأمير كان يشتغل إسكافيا في العاصمة من سنين.. ولهذا تغلب على لهجته لكنة العاصميين، أم ذاك المتسائل الحائر، فقد تخرج من الجامعة منذ عامين، وهو بطال يفكر في التقدم من جدد لامتحان الباكالوريا.. هذا كله للإشارة فقط !.

أما أخو الأرملة التي كان لها مع "الشيخ" ما أعتبره شبهة لا فصل لا شرعا، فإنه بمجرد ما قرأ المناشير ووجد اسم أخته حتى جن جنونه، وخطف سكينا، فوق وضم جزار، وراح يسرع الخطى نحو دار "الشيخ" وهو يسب ويلعن بأفحش الكلام.

وما إن وصل الدار، حتى أخبره بعض جيران "الشيخ" أنه رحل مع الصباح، لما وجد اسمه مكتوبا في المناشير، فراح يعدو صوب بيت أخته ليذبحها ثأرا لشرف العائلة. إنه لا يدري أن الذي لا يحسن صون الشرف لا يحسن الثأر له.. وما أدراه، فقد تكون أخته أنبئت بما في المناشير، فاختفت أو فرت صونا لشرف العائلة، وتركت أبناءها للتشرد والضياع.. حسبها أن تستر الفضيحة ما استطاعت حفاظا على شرف العائلة !.

ووجد الناس مكتوبا أن الأستاذ "فضيلا" الذي يشتغل في محكمة المدينة المجاورة قد تلقى رشوة بالعملة الصعبة في شأن قطعة أرض متنازع عليها..

وفي المناشير كذلك اسم مدير الثانوية، واسم مدير الإكمالية، في قضايا رشوة كذلك. وفيها اسم رئيس مكتب حزب يدعو إلى الفضيلة والشفافية، تهمته حيازة المخدرات وترويجها، وتعاطيها مع بعض مناضلي حزبه.. قد يكونون أعضاء المكتب.

والفوضى مستمرة، وكل واحد يريد أن يطلع على المناشير ليكر على أعدائه أو ليفر من وجه أعدائه.. صاروا أعداء لأنهم ما كانوا صادقين في الأخوة والصداقة.

ومن أغرب ما شاهد الناس في هذا اليوم الكئيب الغريب، هو منظر ستة رجال، يعرفونهم بأسمائهم، -وقد وردت أسماؤهم في المناشير- كانوا يلهثون وراء بعضهم في مروج القرية، وفي أيديهم الهراوات والخناجر.

وإن الذي لم يقرأ ما جاء في المناشير يظن أن الخمسة أهل عصبة يريدون إدراك الأول، لأنه ارتكب جريمة في حقهم جميعا.

لكن الذي قرأ ما جاء في المناشير يفهم حالتهم الغريبة حق الفهم، ويتعجب أشد العجب، إذ أن الثاني يريد اللحاق بالأول. فلو أدركه شج رأسه، أما الثالث فيريد إدراك الثاني، -ولا شأن له بالأول، بل إن الأول صديقه الحميم- ولو أدركه بعج بطنه.

أما حقد الرابع فعلى الثالث، أما الثاني فهو أخوه، ولن يهدأ له بال حتى يرتوي بدمه !.. إنه عنيف ودموي !.. وكذلك يفعل الخامس بالرابع، أما السادس وهو أشرسهم وأكثرهم ترددا على المحاكم، فإن لو تمكن من الخامس ليمزقنه إربا إربا، وليولمنه للكلاب.

ولا تظنن أن المهزلة تنتهي عند هذا الحد، بل إنها ستكتمل، وينغلق هذا الخط اللاهث اللاهب من الحقد والرعب، ولو أن الأول يعلم أن السادس خلفه، ذلك السادس هو ذلك الذي سرق السلعة من دكان الأول عبر قرميد السقف !

آه لو يلتفت —مع أني لا أحبذ ذلك، ولا أستسغيه- حينها سوف تضحك الدموع في المآقي، ويرقص النواح فوق الشفاه، ويصير الدم في قدسيته كماء المراحيض، ويكون الإنسان في قيمته أحقر من قلامة ظفر أو قطمير.

وقد يكون هذا المشهد الأخير كفيلا بأن يصور لك ما يحدث في هذه القرية، لكني أقر أني لم أستطع أن ألاحق سرعة الأحداث، أو أجاري حركيتها. وما أشك مطلقا أنك تستطيع أنت أن تتصور قرية غرقت في مستنقع الفضيحة والحقد،..

تستطيع أن تتصور اللهاث، والعرق، والجروح، والشتم والسباب البذيء، تستطيع أن تتصور كيف صارت الأغلبية خائفة، إلا أقلية قليلة ركنت إلى الصمت ولزمت بيوتها تحمد الله أن اسمها لم يكن في المناشير..

وعاشت القرية على إيقاع الفوضى المجنونة ثلاثة أيام، كانت خلالها الدكاكين مغلقة، والمصالح الحكومية معطلة، ولم يرفع آذان صلاة.. والناس يترصدون بعضهم بعضا، ويهجرون القرية كلما أرخى الليل سدوله.

ولا حديث للناس إلا عن "منصور"، وكيف استطاع بذكاء خارق أن ينزع عن البئر غطاءها، ويكشف كما بها من شر ومصائب. هذا إن كان هو الذي فعل كل هذا، إذ أن هناك اتجاها يرى أن هذا كله من فعل الدولة، وما "منصور" إلا كبش فداء.

وخلت الشوارع من الناس أو كادت، إلا من مسلحين بالعصي والخناجر إما خوفا من انتقام أو رغبة فيه، ومن حين لآخر يمرق أحد الطيبين وعلى وجهه حمرة خجل، بعدما اكتشف أنه يعيش وسط مستنقع آسن، بعدما سطعت شمس الحقيقة وبخرت وخم النفاق، وزال اللغو وانفضح الرياء، وعاد كل واحد إلى صورته القديمة التي طالما أخفاها أو تحايل عليها.

وفي صباح اليوم الرابع لم يظهر إلا أطفال بوجوه مشرقات كصباحات الربيع الندية، وعيون صافيات يستحم فيها الطهر والبراءة، وغدا كل واحد إلى دكان أبيه ليفتحه ويدير شؤون تجارته بائعا أو مبتاعا، واكن أغلب زبائنهم من الأطفال كذلك، الذين نابوا عن الكبار في اقتناء لوازم البيوت.

وإنه لمن الأسف الشديد، أن منصورا لم يكن حاضرا ليرى أن حلمه قد تحقق، فقد اختفت من القرية الغيبة والنميمة، والحسد والنفاق، وصفا الجو بالطهر والبراءة، وتبخرت سحب الخداع والغش، لتتنفس من تحت ذلك كله البراءة، ويضيء الطهر أسارير الوجوه، ويمتد الصفا في فضاءات القلوب.

لكن ما يؤسف له بالحق، هو أن هؤلاء الأطفال ظلوا يبيعون ويشترون بتسعيرة آبائهم وإخوانهم الكبار، هؤلاء الذين تحصنوا بظلام الصمت وصمت الظلام، ريثما تنقشع عن وجوههم دهشة الفضيحة، ولينسجوا أقنعة جديدة.

ملاحظة:

في النهاية، هل أعجبتك النهاية؟. هل كانت كما توقعت؟..

ربما لم تتوقع مطلقا أن تكون النهاية كما قرأت..

أنا من جهتي لم أتوقع أن تكون النهاية كما حتم علي مسار الحداث أن أكتبها. ولو كان لي في مسار الحداث دخل لسلكت بها مسلكا آخر، يقضي إلى نهاية –أو نهايات– سعيدة إن شاء الله.

فليس عسيرا علي أن اجعل الدولة تلقي عليه القبض، وهو يوزع المناشير على البيوت ويلصقها في الجدران، ثم تلقمه هذه المناشير منشورا فمنشورا، وورقة فورقة..

هذه النهاية سعيدة مثلا، لأن الدولة قد تدخلت في الوقت المناسب وأتلفت الفضائح وأنقذت الجميع.

ومن اليسير علي أن أجعله في آخر لحظة يلقم النار كل ما متب، وينسلخ من مسوح الجنون الزائفة، ثم يقبل على المسجد، فيصلي الصبح جماعة، ثم يقوم على المصلين –بعد أن يستأذن– ليشهدهم و "الشيخ" أن الشيطان قد استزله شهورا عديدة، وأوحى إليه المنكر من القول والفعل. وها هو اليوم يتبرأ من كل ما سبق، ويتوب إلى الله. فيفرح به المصلون، ويدعو له "الشيخ". وينطلق جديدا كيوم ولدته أمه..

هذه أمثلة فقط، ولي نهايات سعيدة أخرى، لا داعي لاستعراضها، فإنها تزيد الحسرة والألم، أمام هذه النهاية البائسة.

ولكن، ما عساي أن أفعل.. وقد آثر "منصور" أن يسحب البساط من تحت قدمي في آخر لحظة فاختفى، وآثرت أن أقول الحق – وقد كان مرا كما رأيت– وأن أصف الحقيقة، وإنها لمؤلمة موجعة، فربما هذا الذي كان يريده هو حتى يرتدع الناس.

ورغم أن الناس قد اختلفوا في شأنه؛ فمن قائل: إنه فر ليلا، إلى ثان يجزم أن الأمن السري قد ألقى عليه القبض، وأن من يصبر وينتظر فسوف يرى صوره في الجرائد وعلى شاشة التلفزيون. إلى ثالث يؤكد أنه قتل، وأنه سمع طلقات رصاص بعد صلاة الصبح مباشرة. ويقسم رابع بالحرام والثلاث أنه في السجن، لأن الدولة لا وقت لها لتلعب مع الأشقياء الطائشين. وهناك طائفة أخيرة ترى أن منصورا بريء كل البراءة من كل ما حدث، وأنه راح كبش فداء.

لك أن ترجح ما تشاء من كل هذه الاحتمالات والظنون. أما أنا فإني أعدك –إن كان ما يزال عبى قيد الحياة وظهر– لأكملن رصد خطاه، وتتبع حركته وفوضاه.

فقد تكون النهاية كما تتوقع أنت، وقد تكون كما أتوقع أنا، وقد تكون النهاية بشكل آخر، لا فكرت فيه أنا، ولا ظننته أنت.